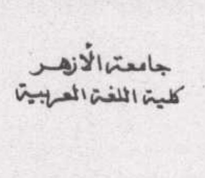


جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية

الحالة الاجتماعية فى العراق وفارس فى القرن الرابع الهجري وأثرها فى أدب اليتيمه للثعالبى

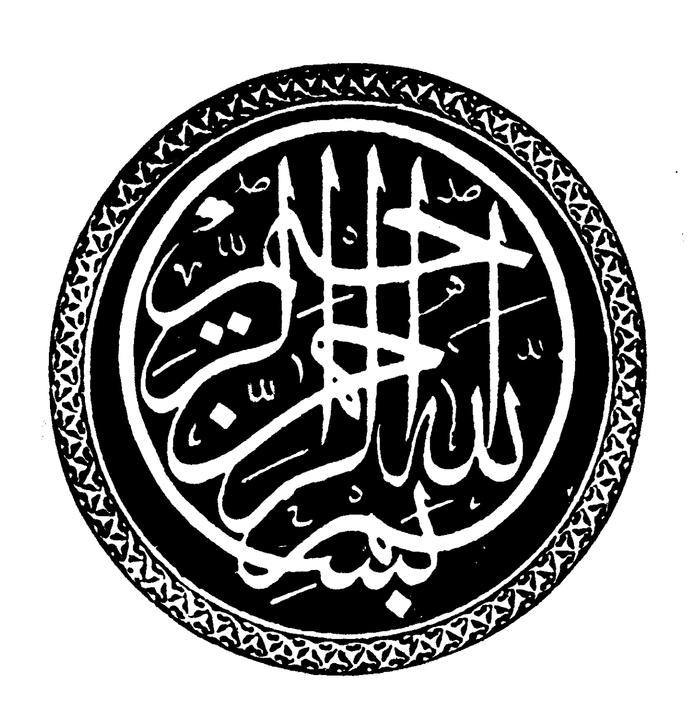
رسالة

مقدمة إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)
لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) فى الأدب والنقد

إعداد
حمدان عبد الرحمن أحمد حمدان

إشراف
الاستاذ الدكتور عبد السلام سرحان

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م



نسخ وطبع وتجليد
الجريسي
ت ٩٠٩٠٥٠ من ٦ الى ٩م

:: المقـــدمـة ::

الحمـد لله على ما أفاض من سوابغ نعمه ، وأغدق من بحور فضله وكرمه ، أحمـده ـ تعالى ـ حمد الشّاكرين ، وأثنى عليه ثناء العارفين ، وأسأله ـ جل شأنه ـ السداد والتوفيق ، والهداية لِأقْوَمِ طَرِيق " رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بعد إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .. " .

وأصلى وأسلم على واسطةِ عِقْدِ الأنبياءِ ، وأشرفِ المرسلين والأصفياءِ سيدنا محمدٍ خيرِ مَنْ أظَلَّتْهُ الخضراء ، وأكرم مَنْ أقَلَّتْهُ الغبراء ، وعلى آله وصحبه الرّاشدين ، الى يوم البعث والدين .

" وبعد " فلقد أتاحت لى دراستى الجامعية فى كلية اللغة العربية ، أن أتعرف الى كتب التراث الأدبى والنقدى خاصة تلك التى ألفت فى عصر النهضة الإسلامية ، تحت ظلال الدولة العباسية .

ولقد لمست أنه تراث فكرىٌّ ضخمٌ ، جامع لكثيرٍ من المختاراتِ الشعرية والنثرية حافل بشتى الموضوعات الأدبية والنقدية ، زاخر بمختلف الاتجاهات الموضوعية والفنية .

ولقد كان من بين هذه الموسوعات الأدبية موسوعة شدت أعصابى وأثارت إعجابى وهى كتاب " يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر " لأبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وهو كتاب أدبى ضخم استطاع الثعالبى أن يجمع فيه نتاج أدباء القرن الرابع الهجرى شعرًا ونثرًا ، وأن يترجم لكثير من الشعراء والكتاب فى الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ـ آنذاك ـ وأن يسلط الضوء على نتاجهم الأدبى بالدراسة الواعية ، والنقد المنهجى ، والتحليل السليم ، فكان كتابه موسوعةً أدبيةً ، نقديةً ، حضاريةً نادرة ، ولقد راعنى أن هذا السفر الخالد ـ على نفاسته ، وعظم قيمته ـ يكاد يكون مجهولا لدى معظم الناشئين ، والمتأدبين ، وأنه أصبح غير معروف

أو مسموع به الا عند قلة من الباحثين الذين اهتموا بالدراسات الأدبية والنقدية ، والتاريخية ٠٠٠

ومما زاد فى دهشتى ـ كذلك ـ أننى وجدت كثيرا من كتب التراث الأدبى والنقدى ـ التى تقل عنه قيمة ومنزلة ـ أكثر منه شهرة ، وأبعد صيتا وأعظم انتشارا ٠

ومن هنا اتجهت الى أن أجعل من أدب " اليتيمة " موضوعا لرسالة " الدكتوراه " إذا ما أتيحت لى تلك الدراسة المنهجية الواسعة ، حتى يتبوأ الكتاب ـ بعد دراسته ـ مكانة لائقة بين كتب التراث ٠٠

ومن هنا جعلت موضوع رسالتى " أدب اليتيمة واتجاهاته " لأتعرف من خلال دراستى لذلك الأدب إلى التيارات الفكرية ، والفنية لأدب القرن الرابع الهجرى فى الدولة الاسلامية ٠

ولكننى بعد أن تقدمت فى البحث ، وقطعت شوطا بعيدا فيه تبينت أن هذا موضوع واسع لايمكن استكناهه فى رسالة واحدة ٠٠

ذلك أن دراسة الأدب العربى فى قرن كامل كالقرن الرابع الهجرى وفى رقعة من الأرض واسعة ، هى الدولة الإسلامية بحدودها من خراسان وما وراء النهر شرقا ، إلى بلاد المغرب والأندلس غربا يحتاج إلى عدة رسائل ، حتى يمكن الإحاطة به ، والوصول إلى غاية مؤملة فيه ٠

ولما كان الأدب العربى ظلا لأحوال المجتمع السائدة فيه ، وصورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات ٠٠ رأيت أن أعدل عنوان البحث وأجعله قاصرًا على دراسة " الحالة الاجتماعية فى العراق وفارس فى القرن الرابع الهجرى وأثرها فى أدب اليتيمة " ٠

وقد تمت الموافقة ـ بحمد الله وتوفيقه ـ على هذا التعديل لأن أدب اليتيمة عن هذين الإقليمين يعد ظلا للحياة الاجتماعية السائدة فيهما

آنذاك .. إذ فيه نعيم المترفين ، وشقاء المحرومين ، كما أن فيه صوّرا من مجون العابثين ، وزهد العابدين ، وهو كما ترى موضوع ذو شقين :ـ

الشق الأول : هو الحالة الاجتماعية فى إقليمى العراق وفارس فى القـــرن الرابع الهجرى .

والشق الثانى : هو أثر هذه الحياة فى أدب اليتيمـة ..

ولما كانت دراسة الحالة الاجتماعية لأية بيئة من البيئات يمكـــن أن تعكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة وتقدمها ، أو خمودهـــا وركودها ـ عمدت الى تسجيل الظواهر الاجتماعية فى هذين الاقليميـــن تسجيلا شاملاً يحيط بكل عناصرها فى دقة وأمانة حتى أتمكن من إعطـــاء صورة حقيقية واضحة عن مركز وحضارة هذين الإقليمين فى القرن الرابع .. ولقد حاولت فى هذه الدراسة أن أستعين بكتب التاريخ التقليدية أمثـــال " مروج الذهب " للمسعودى و " الكامل فى التاريخ " لابن الأثـــير" و " الفخرى فى الآداب السلطانية " لابن طبا طبا ، وغيرها من مراجـــع التاريخ المعروفـة ، ولكننى وجدتها شحيحة فى ذكر الوقائع والظو اهـــر التى تعكس الحالة الاجتماعية السائدة ـ آنذاك ـ لأنها كانت تركز عـــلى الجوانب السياسيـة والعسكريـة ، وتهتم بسير الملوك والحكام ، وما جـــرى لهم من أحداث ، وما وقع بينهم من حروب ، وقلما كانت تشير الى أخبـــار الرعيـة أو تهتم بأحوالهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والحضارية ....

على أن ذلك لم يثننى عن المضى فى البحث ، ومواصلة الدراسة ، فقـد آليت أن أتجه الى مصادر المعرفة المختلفة التى يمكن أن تعيننى عـــلى تحقيق تلك الغاية فاستعنت بكتب الحضارة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والجغرافية والأدب والنقد وغيرها من العلوم الانسانيـة ....

وان نظرة واحدة الى المراجع المسجلة فى ذيل هذا البحـــث لكفيلة بأن تعطى صورة صادقة للجهد الذى بذلته فى هذا السبيل ....

ومن أهم المراجع التى أفادتنى فى هذا الامر ، وأنارت لى طريق البحث وساعدتنى على المضى فى الدراسة ، المؤلفات الاتية :ـ

١ ـ كتاب " الامتاع والمؤانسة " لابى حيان التوحيدى وهو كتاب ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء ، يتعرض فيه مؤلفه لكثير من الشؤون الاجتماعية التى كانت سائدة فى العراق وفارس فى ذلك العصر ، فيصف مجالس الامراء والوزراء ، ويذكر محاسنهم ، ومساوئهم ، ويتحدث عن العلماء والادباء ، ويحلل شخصياتهم ، وما يدور فى مجالسهم من جدال ، ومناظرة ، وخصومة ، وما كانوا يلاقونه أحيانا من مرارة العيش ، وقسوة الحياة ...

٢ ـ كتاب " الديارات " لابى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى وهوـ وان كان يتحدث عن ديارات النصارى ، ويبين مواقعها ، ويصف جمال منظرها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وحسن شرابها ، وما يجرى فيها من لهو ومجون ـ كتاب مفيد ذو جوانب ثقافية متعددة ، فهو كتاب بلدان ، وتاريخ ، وتراجم ، وأدب ، وحضارة ، كما أن فيه تصويرا للجانب العابث من حياة المجتمع فى تلك العصور ...

٣ ـ كتاب " أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم " للمقدسى " وهو كتاب نافع فى دراسة الحالة الاجتماعية حيث يتحدث فيه صاحبه عن معظم البلاد التى زارها ، وطاف بها ، ويصف عادات أهلها وتقاليدهم ، ويتعرض ـ أحيانا ـ لذكر أخلاقهم وعقائدهم ودياناتهم .

ولعل أوجه القصور فى هذه الكتب ـ جميعا ـ أن المادة العلمية فيها ليست مرتبة ولا منظمة ، كما أنها لا تقتصر على دراسة الحالة الاجتماعية وحدها وإنما تتحدث عن مختلف العلوم والفنون ـ كما هو الشأن فى معظم كتب التراث ـ .. ومن ثم كانت معلوماتها الاجتماعية والحضارية تحتاج الى

كثير من الإحاطة والشمول ..

وأما المراجع الحديثة التى أفادتنى كذلك فى تلك الدراسة فأهمها :-

١ - كتاب " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى " للمستشرق الألمانى " آدم متز " الذى تعرض فيه لدراسة كثير من ظواهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ..

٢ - وكتاب " ظهر الاسلام " للأستاذ أحمد أمين وهو يشبه كتاب " الحضارة الاسلامية " السالف الذكر من حيث عنايته بالنهضة الاسلامية وتصوير الحياة الاجتماعية تصويرا شاملا ودقيقا ..

هذا فيما يتعلق بالشطر الأول من الرسالة وهو الحالة الاجتماعية فى القرن الرابع الهجرى ..

أما ما يتعلق بالشطر الثانى من الموضوع وهو أثر الحالة الاجتماعية فى أدب " اليتيمة " فقد كان كتاب " اليتيمة " هو المصدر الوحيد لكل الشواهد الأدبية عنه شعرا ، ونثرا فقد شفى وكفى ، وبالغ فأوفى كما يقول الثعالبى ...

وما أظن أن باحثا آخر قد سبقنى الى دراسة هذا الموضوع بمثل هذا الاتساع والشمول ، وكل ما ألف فى هذا السبيل يتعلق ببحوث جزئية تتناول جانبا من جوانبه ، أو تعالج زاوية من زواياه .. وأذكر منها على سبيل المثال :-

١ - رسالة " ماجستير " للباحث مصطفى محمد الحلو قدمها لكلية دار العلوم وموضوعها " أبو منصور الثعالبى وآثاره الأدبية " وهى تهتم بجمع تراث الثعالبى شعرًا ونثرًا وإلقاء الضوء عليه ..

٢ — رسالة " ماجستير " أخرى للباحث على محمد موسى قدمها لكليـــة اللغة العربية وموضوعها " ثقافة الثعالبى وأثرها فى نقده للمتنــبى " وهى كما ترى بعيدة عن موضوع دراستى التى تهتم بالتيارات الأدبية فى إقليمى العراق وفارس على ضوء الحياة الاجتماعية ٠٠ ٠

٣ — وأخيرا هناك كتاب " الأدب فى ظل بنى بويه " لمحمود غنـــــاوى الزهيرى الذى تعرض لدراسة الأدب فى عهد بنى بويه على ضـــوء الحالة الطبعية والسياسية والاجتماعية فى أقاليم الدولة البويهيـــة بصورة عامة ولم يركز اهتمامه على الحالة الاجتماعية — وحدهـــا — وبيان أثرها فى الأدب كما هو الحال فى معالجتى لهذا الموضوع ولذا كانت دراسته لهذه الناحية تحتاج الى كثير من الاستقصــاء والشمـــول ٠٠٠

وليس فى هذا استهانة بجهود هؤلاء الباحثين أو تقليل مـــــن شأنهم فلهم فضل السبق على كل حال ، ولا أنكر أن بحوثهم كانت علامـــات مضيئة على الطريق ساعدتنى على المضى فى البحث والوصول الى النتـــائج التى رجوتها فيه ٠٠ ٠

ولا أريد فى هذا المقام أن أتحدث عن المتاعب التى واجهتنى والتى قد يحلو لبعض الباحثين أن يضاعفوا الحديث عنها فى مقدمات رسائلهـــم فالله وحده يعلم مدى الجهد الذى بذلته ، والمعاناة التى قاسيتها فـــى هذا السبيـــل ٠

ولا يفوتنى — هنا — من باب العرفان بالجميل ، أن أُنَوِّهَ بالجهـــد الجبار الذى بذله فضيلـــة الاستاذ الدكتور : " عبدالسلام سرحان " المشـــرف على الرسالة فلقد أنار لى الطريق ، ومَهَّدَ لى السبيل ، وذلل لى الصعاب ، وأمدنى بزاد من علمه الواسع ، وفضله السابغ ، وفتح لى صدره وبيتـــــه ،

وأرشدنى بالتوجيه الصائب ، والفكر الثاقب ، والرأى السديد ، فجزاه الله عنى وعن طلابه خير الجزاء ...

* * *

والموضوع يتكون من أربعة أبواب ، ينقسم كل منها الى أربعة فصول فكل فصول هذا البحث تصل الى عشرين فصلا :

أما الباب الأول فعنوانه " المجتمعان العراقى والفارسى فى القرن الرابع الهجرى " وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن الأجناس البشرية فى ذلك المجتمع الذى كان يتكون من العرب ، والفرس، والترك ، والرقيق ، ومدى ما وصلت اليه الحياة على أيديهم من فوضى واضطراب وتناقض فى صورها المختلفة ...

وفى الفصل الثانى تحدثت عن التفاوت الطبقى بين الحكام والمحكومين وأثر ذلك فى ضعف المجتمع ، وتفسخه ، وانحلاله ...

أما الفصل الثالث فقد أفردته للطوائف الدينية التى كانت تعيش فى العراق وفارس. آنذاك - وهى الشيعة ، وأهل السنة ، واليهود والنصارى والصابئة ، وتكلمت عن العلاقات التى تربط بينها ، ودور كل منها فى الناحية العملية ، وأثرها فى الحياة الاجتماعية ...

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن أعياد المسلمين ، والفرس، وأهل الذمة ومواسمهم ، ومواكب الخلفاء الدينية والرسمية ، وأثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية ...

وتحدثت فى الفصل الخامس عن الغناء والموسيقى فى المجتمع ، وذكرت نبذة تاريخية عن أطوارهما عند العرب ، وبينت عوامل ازدهارهما فى

العصر العباسى ، وأثرهما فى الحياة الاجتماعية فى القرن الرابع ...

وأفردت الباب الثانى " لأبى منصور الثعالبى وكتابه اليتيمة " وقمت بتقسيمه الى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى الباب الأول وقد تحدثت فى الفصل الأول عن نشأة الثعالبى وحرفته وأخلاقه ومكانته العلمية والأدبية وآراء النقاد فيه ...

وفى الفصل الثانى تحدثت عن مصادر إلهامه ، وشيوخه ، وثقافته وآثاره ومؤلفاته ..

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " اليتيمة " وقمت بالتعريف بها والدافع إلى تأليفها ومنهج الثعالبى فيها ، وخصائص المنهج ..

وفى الفصل الرابع تحدثت عن مدى تمثيل اليتيمة لأدب القرن الرابع الهجرى ، وتأثرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها فى اللاحقة .

وأفردت الفصل الخامس لليتيمة فى ميزان النقد ، فذكرت آراء النقاد فيها قديما وحديثا ، وقمت بعرض هذه الآراء ومناقشتها ، والرد عليها ..

أما الباب الثالث فعنوانه " آثار الأجناس البشرية ، والطوائف الدينية فى أدب اليتيمة " وقسمته كذلك الى خمسة فصول على نحو ما فعلت فى البابين الأول والثانى وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن " الروح الفارسية وأثرها فى أدب اليتيمة " وسلطت الضوء على تأثر المجتمع فى ذلك الحين بالعادات الفارسية القديمة التى عادت الى الظهور من جديد بعد سيطرة بنى بويه على إقليمى فارس والعراق ، وبينت باسهاب أثر ذلك كله فى أدب اليتيمة ..

وتحدثت فى الفصل الثانى عن " أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة فشرحت موقف العرب فى فارس والعراق من العادات الفارسية وثورتهم عليها ، وتشبثهم بالتقاليد العربية الأصيلة ، وذكرت صدى ذلك فى أدب اليتيمة ..

وفى الفصل الثالث تحدثت عن " الرقيق وآثاره فى أدب اليتيمة " وتناولت قضية الغزل بالمذكر بالدراسة والتحليل وخرجت منها بنتائج جديدة .

أما الفصل الرابع فقد أفردته للحديث عن " التشيع " وآثاره فى الأدب " فتناولت هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل ، وتحدثت عن أقطاب أدباء الشيعة فى فارس والعراق وبينت الخصائص الموضوعية واللفظية لأدب الشيعة فى القرن الرابع .

وأفردت الفصل الخامس للحديث عن " آثار أهل الذمة فى أدب اليتيمة " فتكلمت عن النصارى وأعيادهم وأديرتهم وما كان فيها من خمر معتقة وحوار حسان ، وغلمان ذوى صباحة وملاحة ، وصدى ذلك فى أدب اليتيمة .

والباب الرابع والاخير عنوانه " التفاوت الطبقى وآثاره فى أدب اليتيمة وقسمته الى خمسة فصول كما فعلت فى الابواب الثلاثة الماضية ، وقد تحدثت فى الفصل الاول عن " موقف الحكام من الادب " ، وذكرت أن الحكام فى العراق وفارس قاموا بدور كبير فى تشجيع الشعراء والكتاب بالمال والصلات وتنافسوا فى ذلك تنافسا عجيبا مما كان له أكبر الاثر فى رقى الادب ، وازدهاره فى تلك الحقبة ..

وفى الفصل الثانى تحدثت عن " ترف الحكام وآثاره فى أدب اليتيمة " وقد تجلى ذلك الاثر فى وصف ألوان الطعام والفاكهة ومظاهر الحضارة كما تجلى فى التأنق فى الاسلوب ، والزخرفة اللفظية ، وكثرة المحسنات البديعية ..

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " أثر الغناء والموسيقى فى الادب " فذكرت أن الغناء والموسيقى كان لهما أثر كبير فى وصف الشعراء للمغنيين والمغنيات وفى وصف مجالس الطرب وأدوات الموسيقى ، وفى نمو مقطوعات الشعر الغنائى ، كما كان لهما أثر فى موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء ...

وأما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن المجون وآثاره فى " اليتيمة" فتكلمت عن المجون وأسباب انتشاره فى المجتمع وآثاره فى أدب (اليتيمة) وتحدثت بالتفصيل عن أكبر شاعرين من شعراء المجون فى ذلك العصر وهما ابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمى .

وفى الفصل الخامس والأخير تحدثت عن " مظاهر الفقر والحرمان فى أدب اليتيمة " فذكرت أن انتشار الفقر فى المجتمع كان سببا مباشرا فى ظهور لونين من الأدب فى ذلك العصر أحدهما أدب الكدية والاستجداء أو " الأدب الساسانى " والآخر أدب الثورة والحرمان .. وقد تكلمت عن هذين اللونين بالتفصيل فى موضعهما من الرسالة ..

وبعد ذلك وضعت خاتمة للبحث أتبعتها بذكر المصادر والمراجع وخرجت من هذه الدراسة الواسعة بنتائج هامة مسجلة فى ثنايا البحث كما أشرت اليها فى الخاتمة ..

" وبعد " فهذا بحث أتقدم به الى كلية اللغة العربية العريقة لنيل درجة " الدكتوراه " فى الأدب والنقد ، فان كنت قد أصبت وأهتديت الى وجه الحقيقة فيه فلله تعالى الفضل والمن — وان كنت قد قصرت أو جانبنى الصواب ، فالكمال المطلق لله وحده ، وحسبى أننى مجتهد .. والمجتهد اذا أخطأ فله أجر ، واذا أصاب فله أجران ..

" وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب " .

حمدان عبدالرحمن أحمد

:: الباب الاوّل ::

المجتمعان العراقى والفارسى
فى
القـــرن الرابـــع الهجـــرى

١ ـ الفصل الأوّل :

" سكان فارس والعـــراق "

٢ ـ الفصل الثانى :

" طبقـــات المجتمـــع "

٣ ـ الفصل الثالث :

" الطو ائـــف الدينيـة "

٤ ـ الفصل الرابع :

" الاعيـاد والمواســـم "

٥ ـ الفصل الخامس:

" الغنـــاء والموسيقـــى "

* * *

:: الفصـل الاوّل ::

" سكــان فــارس والعــراق "

كان المجتمع الإسلامي في العراق وفارس يتكون في ذلك العصر من عناصر مختلفة وألوان متعددة من البشر ، وكان منها العرب والفرس والترك والروم والزنج وغيرهم .

وكان لكل منها عاداته وتقاليده وتراثه وتاريخه ، وخصائصه ومميزاته وعلاقاته الاجتماعية ودوره في الدولة الاسلامية .

وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يعتصمون - إسلاميا - بحبل الله ، ويرتبطون برباط الدين الاسلامي ويخضعون لسلطان الخليفة ، كان الصراع بينهم على أشده حول النفوذ والجاه والسعي الى السلطة ، ومحاولة السيطرة على الطوائف الأخرى .

وسأحاول في هذا الفصل أن أسلط الضوء على هذه العناصر ، حسب أهميتها السياسية ، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية .

وسأبدأ بالعنصر العربي لأنه الذي حمل لواء الدين ، ودعا إليه ، وفتح البلدان وأزال الممالك من أجل نشره وإعلاء شأنه .

وهو الذي أقام هذه الدولة الواسعة ، وأرسى بنيانها ، ورفع أعمدتها وجعلها مرهوبة الجانب ، مخشية البأس ، نافذة الكلمة ، قوية الشكيمة .

وأخيرا : لأن الخلفاء منذ وفاة الرسول عليه السلام وحتى ذلك الحين كانوا جميعا من العرب .

أولا : العنصر العربي

عاش العرب قبل الإسلام زمنا طويلا ، محصورين في شبه الجزيرة ... قبائل متفرقة ، متناحرة ، لا تردعهم أحكام سماوية ، ولا تزجرهم قوانين دينية ، ولا تربطهم جامعة خلقية ، فغلبت عليهم الوثنية ، وسيطر عليهم الجهل ، وألجأهم الفقر الى العراك الدائم ، والحروب المستمرة ..

وكان شعراؤهم ينشدون أهازيجهم على ألحان العصبية ، فيشعلون نيران العداوة ، ويلهبون جذوة الشحناء والبغضاء ٠

وكانت لهم الى جانب ذلك صفات حميدة ، أفادوها من حياتهم الفطرية الطليقة كالشجاعة والجود والمروءة ونجدة المستغيث ٠

ولقد كان ظهور الإسلام حدثا تاريخيا هاما فى حياة هؤلاء العرب فبدّل رجسهم بطهر ، وفسادهم بصلاح ، وأقام بهم ولهم دولةً عربيةً إسلاميةً قوية ٠٠ وتحول العرب بفضل الإسلام الى خلفاء وأمراء وقادة ورادة على درجة كبيرة من الكفاءة والمقدرة ٠٠ وأتيح لهم فى حقبة قصيرة ، أن يستولوا على ممالك كسرى وقيصر ، وبلاد المغرب والاندلس ٠٠ وعاش الجميع تحت راية الإسلام أخوة متحابين ، وصحبة بنور الحق مهتدين ، على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية ٠

وعلى الرغم من تعدد النعرات البيئية ، فى الدولة الاسلامية ، استأثر العرب وحدهم بحكم البلاد ، وإدارة شؤونها ، وكان منهم الخلفاء والوزراء والقادة والسادة ، وظلوا كذلك طوَال العصرين الراشدى والأموى ٠٠ وكان بنو أمية على وجه الخصوص يتعصبون لبنى جلدتهم ، ويفضلونهم على غيرهم وينظرون الى الموالى من فرس وترك ، وروم نظرة ملؤها التعالى والكبرياء ثم لا يشركونهم فى تدبير الأمور حتى ولو كانوا مسلمين ٠

فلما دالت دولتهم ، وحلت محلها الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس ، وتحت ظلال سيوفهم ٠ تراجع العنصر العربى الى الوراء وفقد الكثير من امتيازاته السابقة ، وأقصى أبناؤه عن بعض مناصب الدولة والجيش وحل الفرس محلهم خاصة بعد أن اتخذ بنو العباس بغداد حاضرة للخلافة وجعلوها عاصمة للدولة الاسلامية كلها ٠

وكان أبو جعفر المنصور ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس يثقون فى بعض الفرس ، ومن ثم ضعف نفوذ العرب وتضعضع سلطانهم ولكنهم على

الرغم من ذلك كله كانوا متماسكين فلم يلتزموا جانب الصمت أمام خلفاء بنى العباس كما أنهم ظلوا يحقدون على العنصر الفارسى الجديد .

وفى مستهل القرن الثالث الهجرى أحس العنصر العربى أنه يفقد مكانته تدريجيا حيث ظهر العنصر التركى لأول مرة فى عهد المعتصم ، وما لبث أن زاد نفوذه ، وعظمت سطوته وأصبح عنصرا فعالا فى المجتمع فثار العرب واشتد سخطهم على المعتصم وكان على رأس الثائرين القائد العربى عجيف بن عنبسة (1) الذى أبعده المعتصم مع عدد من قواد العرب عن الجيش ، وأحل الأتراك محلهم فاشتدت نقمة العرب على الدولة وتمردت بعض قبائلهم فى أطراف الجزيرة العربية (2) وفى عهد المعتضد تمرد الأعراب فى شمال العراق (3) .

وفى القرن الرابع هاجرت عدة قبائل عربية الى العراق وكانت تشكل خطرا كبيرا على الحكم المركزى (4) .

وقد ظل العرب فى العراق وفارس محافظين على عاداتهم وتقاليدهم على الرغم من اختلاطهم بالفرس وغيرهم ، كاعتزازهم بالبداوة ، واحتقارهم لأهل الحضر ، حتى إن قِرْوَاشًا العُقَيْلِيّ صاحب الموصل فى الدولة العُقَيْلِيَّة قال مرة :

" ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من البادية وأما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم " (5) .

---

(1) تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٧ : ٢٢٥) .
(2) المصدر السابق (٧ : ٣٢٤) .
(3) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ص ٢٦١ .
(4) الأوراق للصولى ص ٢١٥ .
(5) ظهر الاسلام (١ : ٥٨) .

وأهم الدويلات العربية التى تجلت فيها العصبية العربية ، دويلتا بنى حمدان فى الموصل وحلب ، فقد عظم نفوذهما ، وحاولتا الاستيلاء على بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، وطرد النفوذ التركى والفارسى ، وجرت فى ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقى بالله احتمى بناصر الدولة بن حمدان وقلده امرة الامراء وخلع عليه ، وعلى أخيه سيف الدولة ودخل ناصر الدولة بغداد فى احتفال عظيم ، ولكن ثورة الاتراك وعلى رأسهم " توزون " تغلبت على ابن حمدان وولى الخليفة امرة الامراء لتوزون .

واستمر العداء بين العرب — وعلى رأسهم ابن حمدان — والترك وعلى رأسهم " توزون " .

فلما استولى البويهيون — وهم من الفرس — على بغداد لم ينقطع الخلاف والقتال بين الحمدانيين وبينهم .

ولما رأى ناصر الدولة الحمدانى أن معز الدولة البويهى استولى على بغداد وسلب جميع حقوق الخليفة جهز جيشًا لقتاله وتقدم الحمدانيون إلى بغداد واحتلوا جانبها الشرقى ولكنهم انهزموا فى النهاية وعاد ناصر الدولة إلى مقره ، وكذلك اشتبك الحمدانيون فى قتال مع البويهيين أيام عضد الدولة فهزم الحمدانيون أيضا (1) .

وقد قام العنصر العربى فى العراق وفارس بدور كبير فى تلوين الحياة الاجتماعية وكانوا نوعين :

النوع الأول :

البدو الذين نزحوا إلى هذه البلاد من الجزيرة العربية ، وهؤلاء

---

(1) ظهر الاسلام (١ : ٥٩) .

كانوا يحملون روح البداوة ، ويتعصبون لقبائلهم وينتقلون من مكان إلى آخر حسب أهوائهم . ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم .

ومن أشهرهم قبائل شيبان والمنفتك في جنوب العراق وقبائل بنى عقيل وفزارة وغيرهم من البدو الرحل (١) .

وكان أثر هؤلاء في الحياة الاجتماعية سيئا جدا .. حيث كانوا ينشرون الرعب والفزع في قلوب السكان عن طريق الاغارات على المدن وتخريبها وإلحاق أفدح الخسائر بها (٢) .

أما النوع الثانى :

فهم العرب المتحضرون الذين كانوا يسكنون المدن وهؤلاء كانوا يشكلون شق الدولة الحمدانية التى كانت في الموصل .. وكان لهم الفضل في بقاء العنصر العربى في المجتمع العباسى الذى كاد يصطبغ بالصبغة الفارسية الخالصة .

وعلى الرغم من ضعف نفوذ العنصر العربى في القرن الرابع ظل محافظا على التقاليد العربية الأصيلة وكون أفراده سدا حائلا أمام تفشى الفساد في المجتمع كما ظلت المرأة العربية محافظة على شرفها وعفتها ومكانتها السابقة ولم تنحدر الى مستوى الجوارى الأجنبيات .

كما أن علماء الإسلام من العرب وقفوا موقفا معاديا للفساد، وكان عجيبا أن تندفع بعض المتصوفات العربيات — في حماس وقوة — للدعوة الى التمسك بمبادىء الدين الحنيف (٣) .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ٩٩) .
(٢) الرحلة لابن جبير ص ٢١١ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٣١٥ .

وفضلا عن ذلك وقف العنصر العربى فى وجه الزندقة والإلحاد ، والشعوبية التى كانت تشكل خطرا داهما على العرب وعلى الإسلام .

وكان لطبقة الأشراف دور كبير فى المجتمع العراقى والفارسى ، وهؤلاء كانوا من العباسيين والطالبيين ، وإليهم يرجع الفضل فى بقاء العصبية العربية فى المجتمع العباسى خلال القرن الرابع الهجرى وذلك على الرغم من طغيان العنصرين الفارسى والتركى .

ولعل الشاعر العربى الكبير الشريف الرضى نقيب الأشراف العلويين فى القرن الرابع هو خير صورة لذلك ، فقد كان مثالا طيبا للعربى الشهم الغيور على دينه وعروبته ، وعاداته الأصيلة المتوارثة ولم يتحدر فى شعره أو فى سلوكه تحدر شعراء العراق الآخرين أمثال : ابن حجاج وابن سكرة وابن لنكك وغيرهم ...

ثانيا : العنصر الفارسى

قامت الدولة العباسية أول ماقامت على أكتاف الفرس ، وانتصرت على الأمويين بحد سيوفهم ، فكافأهم العباسيون على هذا العون واتخذوا منهم الوزراء والأعوان والقادة وفتحوا أمامهم الطريق الى أعلى المناصب ، فأنطلقت أيديهم فى تدبير هذا الملك العريض وتصريف شؤونه وشعروا لأول مرة - منذ استولى العرب على بلادهم - بكيانهم ، وأحسوا بوجودهم ، وصاروا قوة يخشى بأسها ، وأخذوا يتطاولون أحيانا على العرب - ولكن قوة الخلفاء الأوائل فى صدر الدولة العباسية كانت لهم بالمرصاد ، فاذا ما أحس الخليفة بخطرهم سارع الى القضاء عليهم والفتك بهم مهما كانت مكانتهم فى نفسه ، أو منزلتهم فى قلبه .

صنع ذلك السفاح بأبى سلمة الخلال وهو الذى أوصله الى الخلافة

بسيوف قومه ٠٠ وصنع ذلك المنصور ٠٠ بأبى مسلم الخراسانى ٠٠ وهو الذى وطد له الملك وثبت له أركانه وحدث مثل ذلك من الرشيد بالبرامكة ومن المأمون بالفضل من سهل حفاظا على هيبة الخلافة وجلال المنصب ٠

وعلى الرغم من ذلك ظلوا يحلمون بإعادة مجدهم القديم ، وعزهم التليد ، ولم ينسوا أبدا أن العرب هزموهم فى ميدان القتال ، واستولوا على بلادهم ، وأزالوا ملك أجدادهم ٠٠ فأخذوا يتحينون الفرص للاستيلاء على الحكم وإسقاط دولة العرب ، والسيطرة على الخلفاء ٠٠ فلما أوجس المعتصم منهم خيفة ، واعتمد على العنصر التركى فى الجيش والدولة ـ أخذ النفوذ الفارسى يتراجع ، وحل الأتراك محلهم فى المناصب العليا ، وسيطروا على جهاز الدولة طوال القرن الثالث وصدر القرن الرابع ٠٠ ولكن الفرس لم يهدأ لهم بال ، ولم يستقر لهم حال ، وأخذ الصراع يشتد بينهم وبين العنصرين العربى والتركى ولعبت العصبية الفارسية برءوسهم فأخذوا يدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس ، ويحصنون أنفسهم بالمال والسلاح ، ويرمون الى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها ٠٠ خاصة بلادهم الفارسية البعيدة ٠٠ فاذا ما سنحت لهم الفرصة للاستيلاء على بغداد نفسها فليفعلوا ٠٠

وأخيرا تحقق لهم هذا الحلم بقيام الدولة البويهية (٣٢٠ : ٤٤٧ هـ) التى سيطرت على فارس ثم على العراق ٠

ففى سنة ٣٣٤ هـ سار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد فى خلافة المستكفى فاستولى عليها فلقبه المستكفى معز الدولة ٠٠ ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الثانى عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدنانير والدراهم [١] ٠

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ٥١) ٠

وما إن استتب الأمر لمعز الدولة ببغداد وقوى شأنه حتى ضيق الخناق على الخليفة المستكفى ، وحجر عليه وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته [١] .

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفى فدخل عليه ، فوقف والناس وقوف على مراتبهم وقبل الأرض بين يديه ، ثم قبل يده ، ووقف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسى فتقدم اثنان من الديلم ومدّا أيديهما الى المستكفى وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها إليهما فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ووضعا عمامته فى عنقه وجرّاه فنهض معز الدولة واضطرب الناس وارتفعت الأصوات ، وافتتنت دار السلطان ، وضربت الأبواق وساق الديلميان المستكفى ماشيا إلى دار معز الدولة ، حيث خلع وسملت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة [٢] .

ولما مات معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ أقيم ابنه بختيار الملقب عز الدولة مكانه فكان مع المطيع كأبيه وزاد عنه أن صادر أموال المطيع وشدد عليه حتى باع قماشه وأخذ منه أربعمائة ألف درهم .. وأخيرا خلع المطيع نفسه وولى ابنه الطائع (٣٦٣ : ٣٨١ هـ) ثم خلع فى عهد بهاء الدولة ونهبت داره وتنازل للبويهيين عن كل شىء [٣] .

ثم اشتدت شوكة البويهيين ، وعظم نفوذهم حتى تمكنوا من إقامة إمارة وراثية لهم فى حاضرة الخلافة العباسية وأصبحت الأمور بأيديهم حتى صاروا يعينون كاتبا للخليفة يشرف على ضياعه وأملاكه .

* * *

أما أثر الفرس فى الحياة الاجتماعية فقد كان واسعا وعميقا وقد تجلى

---

(١) تجارب الامم لابن مسكويه (٦ : ٨٦) .
(٢) تجارب الامم (٦ : ٨٦) والفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٥٨ .
(٣) ظهر الاسلام (١ : ٥٣) .

فى عدة أمور منها : بناء القصور ، وابتكار الأزياء وتعدد ألوان الطعام وإدخال جميع وسائل البذخ والترف فى المجتمع الاسلامى ٠٠

وعلى الرغم من سيطرة الأتراك على جهاز الدولة فى القرن الثالث وصدر القرن الرابع وتراجع النفوذ الفارسى آنذاك ٠ كانت آثارهم على الحياة الاجتماعية واضحة ومستمرة ٠ فمعظم الخلفاء كانوا يعيشون فى بذخ وترف على الطريقة الفارسية خاصة فى بناء القصور وزخرفتها وتأثيثها بأفخر الاثاث ٠٠ كما تجلى التأثير الفارسى فى إحياء مجالس الغناء والطرب واللهو ٠٠ وفى تنوع أدوات الطعام التى كانت فى الغالب — مصنوعة من الذهب والفضة والبلور ٠٠ وفى ملابس الرجال كالقلانس والاقبية والسراويل والجوارب وغيرها من الألبسة الفارسية التى انتقلت الى العراق فى القرن الثانى منذ عهد المنصور (١) ٠

وكان التأثير الفارسى ظاهرا أيضا فى ملابس النساء وتحليهن بألوان الحلى والمجوهرات والاحزمة والنقش على الأردية والعصائب (٢) ، وكان للجوارى الفارسيات — كذلك — تأثير كبير فى المجتمع العباسى فنشرن أنواعا من الحركات والأغنيات وصنوفا من ألوان الزينة التى لم تكن معروفة من قبل ٠

وكان للعنصر الفارسى أثر كبير — أيضا — فى اهتمام خلفاء بنى العباس ورجال دولتهم بالاحتفال بعيدى " النيروز ، والمهرجان " وهما من الأعياد الفارسية القديمة (٣) ٠

وكان لبنى بويه — وهم فرس — تأثير كبير فى المجتمع الاسلامى خاصة فيما يتعلق بالاحتفالات ببعض الذكريات ، ذلك أنهم كانوا من الشيعة الزيدية ، فحرصوا

---

(١) احياء علوم الدين (٢ : ١٦) للغزالى ٠

(٢) العقد الفريد لابن عبدربه (٨ : ٢٣٥) ٠

(٣) صبح الأعشى (٢ : ٤٢) ٠

على إظهار تشيعهم في بعض المناسبات كمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في العاشر من المحرم ، فكانوا يَعُدُّون ذلك اليوم يوم حزن عام تعطل فيه الأسواق بينما كانوا يقيمون الافراح في عيد " غَدِيرُ خُمٍّ " الذي يوافق الثامن عشر من ذي الحجة [1] ، وبسبب تلك الاحتفالات كانت بعض الفتن والاضطرابات تحدث في المجتمع خاصة تلك التي مصدرها الخلاف بين الشيعة وأهل السنة هذا وقد جنى كل من العرب والفرس ثمرات عديدة من جراء اختلاطهم وامتزاجهم ببعض ، فأخذ العرب عن الفرس النظم الادارية والسياسية ، وبعض العلوم والفنون ، وتأثروا ببعض عاداتهم وتقاليدهم ..

أما الفرس فقد أقبلوا على تعلم العربية ، ونبغوا فيها ، وتفوقوا أحيانا على العرب في قرض الشعر وفنون القول .

وكان لبني بويه أعظم الفضل في نشر العلوم ، وازدهار الآداب فشجعوا العلماء والأدباء وأغدقوا عليهم الأموال والصِّلَات ، كما عرف غير واحد من بني بويه بحبه للأدب وقرضه للشعر كعضد الدولة وعز الدولة وتاج الدولة وغيرهم . كما اشتهر وزراؤهم بحب الأدب وقرض الشعر كابن العميد والصاحب والمهلبي وعبدالعزيز بن يوسف وغيرهم ..

ثالثا: العنصر التركستني

ظهر الاتراك لأول مرة في المجتمع العباسي في أوائل القرن الثالث الهجري .. ذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة العباسية سنة ٢١٨ هـ استقدم سنة ٢٢٠ هـ قوما من بخارى وَسَمَرْقَنْد وفرغانة وأُشْرُوسْنَة وغيرها من البلاد التي نسميها تركستان وما وراء النهر [2] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٧) .
(٢) ظهر الاسلام (١ : ٤) .

وقد أمعن المعتصم فى شراء غلمانهم وبذل فيهم الأموال الطائلة وألبسهم أنواع الديباج ، ومناطق الذهب حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقيل ثمانية عشر ألفا [1] .

ومنذ ذلك الحين أخذ نفوذهم يزداد ، وأخذت قوتهم فى النماء حتى سيطروا على أجهزة الدولة ، وبرز منهم قواد عظماء .. اشتهروا بالشجاعة وقوة الشكيمة أمثال : الافشين وأشناس وبُغا وَوَصيف وايتاخ وسواهم [2] .

وهناك أسباب دفعت المعتصم الى استخدام الترك والاعتماد عليهم منها : عدم ثقته فى الفرس ، وتخوفه منهم منذ بداية عهده .

فقد حدث أن تمردوا ضده فى البداية وشَغِبُوا عليه لانهم كانوا يريدون مبايعة العباس بن المأمون خليفة بدلا منه .. لولا أن بعث المعتصم فى طلبه وأخذ البيعة منه فسكتوا .

ولذلك لم يكد الامر يستتب له حتى فكر فى الاعتماد على عنصر جديد — يستعين به على الفرس ، فهداه تفكيره الى الترك ، والاستكثار منهم ، حيث كون جيشا قويا كسر به شوكة الفرس ، وأضعف نفوذهم .

وهناك عامل آخر جعل المعتصم يثق فى الترك ويعتمد عليهم — هو أن أمه كانت تركية من بلاد الصُّغْد ، وتسمى مارِدَة [3] ، وفضلا عن ذلك كان فى طباعه كثير من طباع الترك من الخشونة والشجاعة ، والاعتداد بالقوة البدنية فقد كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره [4] .

وقد وصف الجاحظ الترك بأنهم بدو العجم [5] .

---

(١) النجوم الزاهرة (٢ : ٢٣٢) .
(٢) البلدان لليعقوبى ص٢٣ .
(٣)(٤) ظهر الاسلام (١ : ٤) .
(٥) رسائل الجاحظ ص ٦٢ .

ولم يكن العنصر التركى على وفاق مع العناصر الاخرى فى المجتمع بل كان النزاع قائما بينه وبين الفرس والعرب مما أدى إلى حدوث بعض الاضطرابات فى الدولة ، وأظهر أهالى بغداد استيائهم من الترك لأنهم كانوا كما وصفهم الطبرى " عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبى فشكا الناس ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة [1] ، فاضطر المعتصم الى إنشاء " سامراء " أو " سر من رأى " ، واتخذها حاضرة لخلافته ، وجعل الاتراك يقيمون فيها ، وحرم عليهم الاختلاط بالناس واشترى لهم جوارى من بنى جنسهم ، وزوجهم بهن حفاظا على دمائهم التركية وأجرى لهم رواتب خاصة [2] .

وقد مكن المعتصم لهم فى الارض فأصبحوا قوة يخشى بأسها ، وبسببهم كان انتصار المعتصم على الروم فى وقعة "عمورية" الشهيرة سنة ٢٢٣ هـ فكانت القيادة العليا لهم وعلى رأسهم القائد التركى أشناس [3] ، ولكنهم لم يلبثوا أن طغوا وبغوا وعاثوا فى الارض الفساد وثاروا على الدولة حتى اضطر الخليفة المتوكل الى الرحيل بهم من حاضرة خلافته سامراء الى دمشق [4] .

وقد فكر المتوكل فى حيلة للقضاء عليهم ، والفتك بهم ، والخلاص من شرورهم ولكنهم فطنوا إلى تدبيره ، وشعروا بما يحاك لهم ، فهجموا عليه — بقيادة ابنه المنتصر — وقتلوه/وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان .

ولقد شهد البحترى مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه فشق عليه ذلك وأدركه الجزع ، وتملكه الحزن والفزع ، ووصف مقتله فى قصيدته الرائية المشهورة التى يقول فيها ..

---

(١) تاريخ الامم والملوك (٧: ٢٣٢)
(٢) البلدان لليعقوبى ص ٢٣
(٣) ظهر الاسلام (١: ٥)
(٤) تاريخ الامم والملوك للطبرى (٧: ٣٨١)

ولم أنس وحشَ القصرِ إذْ ريعَ سِرْبُهُ
وإذْ ذعرتْ أطلاؤه وجـآذره

وإذْ صيحَ فيه بالرَّحيلِ فهُتِكَتْ
على عجلٍ أستـاره وستائـره

الى أن يقول :

ولو كان سيفـي ساعةَ الفتكِ في يدى
درى الفاتكُ العجلانُ كيف أُساوره

حرام علىّ الراحُ بَعدَك أو أرى
دماً بدم يجرى على الأرض مائره (١)

ولقد كان قتل المتوكل بأيدى الاتراك أول حادث اعتداء على الخلفاء العباسيين منذ قامت دولتهم وكان هذا الحادث الاثم نقطة تحول فى حيـاة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الاتراك يخلعونهم ويقتلونهم ويسومونهـم سوء العذاب عندما يريدون ..

وبهذا الحادث البشع صار للاتراك الحكم المطلق فعاثوا فى الأرض فسادا . واستبد بهم النزق والطيش فكثرت شرورهم وآثامهم ، وكان لذلك العنصر تأثير بالغ فى أحوال الدولة الداخلية .. فمصادرة أموال الناس ازدادت فـى عهدهم ، ومن صور ذلك فى عهد المتوكل مصادرة أموال الوزير" محمد بن عبد الملك الزيات" وغيره من كبار رجال الدولة ، ومنذ ذلك الحين صارت المصادرات مصـدرا يعول عليه وقت الحاجة (٢) .

وكان جند الاتراك يحاولون جمع المال عن طريق آخر غير المصادرات ، وهو مطالبتهم الخلفاء بزيادة أرزاقهم وقد أدت تلك الحالة الى حدوث كثير مـن الاضطرابات فى الدولة (٣) .

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٢) .
(٢) الكامل فى التاريخ لابن الاثير (٧ : ٧) .
(٣) الاوراق للصولى ص ١٢٠ .

وكثيرا ما كان الاتراك يثيرون النزاع الطائفى بين الشيعة وأهل السنة فقد تعصبوا لأهل السنة بينما كان الديالمة يتعصبون للشيعة مما أدى إلى حدوث مصادمات بين الطرفين (١) .

وقد كان للجوارى التركيات تأثير بالغ فى الحياة الاجتماعية بما عرف عنهن من جمال وظرف ونظافة فامتلأت بهن قصور الخلفاء ، والامراء حتى صرن أمهات لبعض الخلفاء فى ذلك العصر كالمعتصم والمتوكل والمكتفى والمقتدر ... وكان لهؤلاء الجوارى التركيات الفضل فى نشر فن التجميل ، وابتكار الازياء فى المجتمع فضلا عن اهتمامهن بالتأنق فى الملبس والطعام والشراب والاعتناء بالنظام واللياقة (٢) .

وقد نبغ بعض الاتراك فى بعض العلوم والآداب وإن كانوا دون الفرس فى ذلك لأنهم كانوا بَدْوًا ليست لهم حضارة الْفُرْس ولا عراقتهم . ومن أدبائهم وعلمائهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل .. وكان كما - وصفه ابن النديم - فى نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب (٣) . ومنهم اسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب كتاب الصحاح الذى يعد من أهم كتب اللغة وأصولها ، والجوهرى أول من فكر فى اختراع الطائرة ورمى لذلك بالجنون، ومن فلاسفتهم المعدودين أبو نصر الفارابى الفيلسوف الاسلامى الكبير وهو من فاراب احدى مدن الترك وكان نبوغه فيهم مفخرة كبيرة لهم ..

والى جانب هذه العناصر البشرية السابقة - من العرب والفرس والترك - وجد عنصران آخران كان لهما بعض الاثر فى الحياة الاجتماعية وهما : الروم والزنج ولما كان معظم هذين العنصرين من الرقيق . فسوف أتحدث عنهما ضمن حديثى عن العنصر الأخير وهو عنصر الرقيق .

---

(١) تاريخ بغداد (١ : ١٩) .
(٢) الموشى ص ١٦٢ .
(٣) ظهر الاسلام (١ : ٤٦) .

رابعا : عنصر الرقيـق

من العناصر التى كان لها تأثير كبير فى الحياة الاجتماعية عنصر الرقيق فقد نشطت تجارته ، وراجت رواجا عظيما فى هذا العصر ٠٠ وكان بعض الرقيـق يفد إلى العراق وفارس عن طريق الحروب ، فمنذ الفتح الاسلامى لمصر والشـام والحروب قائمة بين العرب والروم ٠٠ وفى عهد المعتصم حدثت وقعة " عَمُّورِيَّـةَ " وفيها تم أسر عدد كبير من الروم واسترقاقهم ٠٠

يقول ابن الاثير : أقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف وقتل من سواهم وأمر ببيع المغانم فى عدة مواضـع ، وكان لا ينادى على شىء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلبا للسرعة ٠

وكان الرقيق ينادى عليهم خمسة خمسة ـ أو عشرة عشرة ـ طلبا للسرعة[1] وأخذت الحروب تتوالى بين المسلمين والروم ففى سنة ٣٥٣ هـ تقدم المسلمون إلـى " رعطة " وفتحوها عنوة وسبوا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئا كثـيرا عظيمـا[2] .

وفى سنة ٣٤٣ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم وقبض على صهر الدمستق " وابن ابنته وكثير من بطارقته[3] ، ومن ثم كثر الرقيق الرومى من جوار وغلمان ، وانتشر فى الدولة الاسلامية انتشارا عظيما ، خاصة فى مدن العراق وفارس ، واكتظت بهم قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ٠٠

وقد وصف ابن بطلان الجوارى الروميات فقال " الروميات بيض شقـر سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة ، وموافقة ، وخدمة ، ومناصحة ، ووفاء ،

---

(١) الكامل فى التاريخ (٦ : ١٨) ٠
(٢) المصدر السابق (٨ : ٢٠٠) ٠
(٣) المرجع السابق (٨ : ١٨٣) ٠

وأمانة ، ومحافظة ، يصلحن للخزن ، لضبطهن وقلة سماحتهن لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة [١] . وكما كثر الرقيق الأبيض من ترك ، وروم ، وفـــرس ، كثر كذلك الرقيق الأسود من الزنوج ، وكانوا يجلبون الى العراق عن طريق مصر وشمال افريقية اللتين كانتا مركزين هامين لتجارة الرقيق الأسود فى ذلك العصر .

وقد عرف العرب الزنوج منذ الجاهلية فأعشى سليم كانت له زوجة زنجيـة هى دنانير بنت كعوب الزنجى ، وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية ، وتـــرك من عنده من النساء من أجلها .

وفى القرن الرابع كثر الرقيق الأسود كثرة هائلة ، وكان لهم تأثير كبيـــر فى المجتمع حتى إن بعضهم قد وصل إلى مقاعد الحكم مثل ، كافور الإخشيـدى الذى ملك مصر والشام ، وكان عبدًا أسود أتى به الإخشيد من السودان واشتراه بثمانية عشر دينارا [٢] .

وقد وصف ابن بطلان الجوارى السود فقال " الزنجيات مساوئهن كثيرة . وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن ، وكان الغالب فيهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس فى خلقهن الفم وكان يقال : لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالايقاع ، وهم أنقى الناس ثغورا لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضـــوم ، وفيهن جلد على الكد ، فالزنجى — إذا شبع وصب العذاب عليه صبا لا يتألم له ، وليس فيهن متعة لصنانهن ، وخشونة أجسامهن [٣] .

وعلى الرغم من مساوىء الزنجيات اللاتى تحدث عنهن ابن بطلان هـام بعض الشعراء وَجْدًا بهن ، حتى إن ابن سكَّرة الهاشمى الشاعر الماجن كـــان

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ٦٦) .
(٢) ظهر الاسلام (١ : ٧٣) .
(٣) المصدر السابق (١ : ٧٤) .

يعشق قينة سوداء تسمى" خَمْرة" قال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر (١) .

وكان هناك أنواع أخرى من الرقيق من صقالبة وترك وهنود وبلغار وأرمن وغير هؤلاء وأولئك ، وكان لكل نوع منها ميزة يعرفها أهل العصر فكانت الصقلبيات مثلا : أغلى الجوارى ثمنا لفرط جمالهن ، وشدة ذكائهن (٢) .

كذلك اشتهر رقيق ماوراء النهر بالجمال والذكاء (٣) . وكان الرقيق يجلب الى بغداد من ثلاثة طرق هى : الطريق الأوربى الغربى، والطريق الآسيوى الشرقى، وطريق افريقية (٤) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبرى فى مدن العراق يشرف عليها تجار كبار يُعْرَفُونَ بالنخاسين ، وكان فى بغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق" (٥) .

كما كان هناك باب فى بغداد أطلق عليه باب النخاسين (٦) . وكان " بسامراء" سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة ، وبه عدة حجرات للبيع فيها (٧) .

وأحيانا كان الرقيق يباع فى البيوت الخاصة أو بوساطة التجار (٨) .

وقد تحدث ابن بطلان فى رسالته " شِرَى الرقيق " عن ألاعيب النخاسين

---

(١) اليتيمة (٣ : ٣) .
(٢) بديع الزمان الهمذانى للشكعة ص١٧ .
(٣) صورة الأرض لابن حوقل ص٤٠٧ .
(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لميتز (١ : ٢٨٣) .
(٥) الأغانى (١ : ٩٥) .
(٦) البلدان لليعقوبى ص١٣ .
(٧) الأغانى (١ : ٩٥) .
(٨) التمدن الاسلامى (٥ : ٢٣) .

فى تغيير الوجه والجسم فقال : إنهم كانوا يستخدمون الأصباغ والدهون، والروائح فى تغيير ملامح الوجه وجعله جميلا ومن هنا كان ينصح المشترى بالحذر من ألاعيب النخاسين ، كما حذر الكتاب والشعراء من التقرب لأمثالهن ومنحهن الثقة (١) .

أما الأعمال التى كان الرقيق يقوم بها فى المجتمع فهى كثيرة ومتنوعة فمنها : الخدمة فى البيوت والقصور ، ومنها العمل فى المزارع والحقول، ومنها الانخراط فى صفوف الجيش والجندية .

أما الخصيان من الرقيق فكانوا يقومون بحراسة النساء وخدمتهن ، ومنهم من كان يقوم بحراسة القصور ويطلق عليهم لفظ " الفراشون " وكانوا يتخذون من بينهم رئيسا عليهم (٢) .

وكان بعض الجوارى يشتغلن بالغناء ، ويعرفن باجادة الألحان . وقد لمعت أسماء لجوارٍ اشتهرن برخامة الصوت وبراعة التوقيع ، وجودة العزف، مثل : قَنْوَة البصرية ودُرَّة " ، وَعَلْوَة ، وَرَوْعَة ، ونهاية ، وقلم ، وسندس ، وغيرهن — وأخذ الناس يفاضلون بينهن ، فهذه أحسنهن اذا تدللت ، وتلك أجملهن اذا تثنت ، والأخرى أملح اذا رَجَّعَتْ ، وهكذا (٣) .

وقد علا شأن بعض الجوارى بعد أن تزوج بهن الخلفاء ، وقمن بدور خطير فى الحياة السياسية والاجتماعية " كالخَيْزُران " والسيدة أم المقتدر ، وقبيحة زوج المتوكل وغيرهن .

وكانت الجوارى اللواتى يعشن فى قصور الخلفاء ، والأمراء ، أحسن حالا من غيرهن ، اذ كن يلبسن الحرير المزركش ، والثياب الفاخرة والسراويل الموشاة (٤).

---

(١) شرى الرقيق وتقليب العبيد ص٣٧٩ .
(٢) رسوم دار الخلافة ص٩ لهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى ت ٤٤٨هـ.
(٣) ظهر الاسلام (١ : ١٢٩) .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (٤ : ٣٢) .

أما أثر الرقيق في الحياة الاجتماعية فقد كان خطيرا وسيئا للغاية ذلك أن التوسع في اقتناء الجواري أدى إلى فساد الأخلاق العامة ، وساعد على الانحلال ، وشيوع المجون ، وضعف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض الجواري بالخلاعة والتميع وعدم الاكتراث بالقيم والمبادئ الإسلامية ، كما أن بعضهن اتخذن في بغداد بيوتا للتسرية ، والترفيه ، يأوى اليها ذوو الخلاعة والمجانة وأصحاب العفن والافن .

يقول أبو حيان التوحيدي " وقد أحصينا — ونحن جماعة — في الكرخ أربعمائة وستين جارية من الجانبين ، ومائة وعشرين حرة وخمسا وتسعين من الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرصه ورقبائه [1] ، مما كان له أبلغ الاثر في انتشار الفساد وتفسخ الأخلاق ، وكما اهتم القوم بالقيان ، اهتموا كذلك بالغلمان ، وأفردوا لهم المجالس الطوال ، وأخذوا يَفْتَنُّونَ في اختيار الأسماء الملائمة لهم مثل فاتن ، ونسيم ، ورائق ، ووصيف ، وبشرى ، وغيرها [2] ، وكان من آفة ذلك العصر حب الغلمان ، والميل اليهم ، والتغزل فيهم ، واظهار محاسنهم في الشعر بأقبح الألفاظ وأوقح الكلمات ، وأصرح العبارات .

وإذا كان أبونواس وصحبه من الماجنين في صدر العصر العباسي قد طرقوا هذا الباب في خوف وتستر ، فان شعراء هذا العصر ، قد خاضوا فيه بلا تحشم ولا خجل ولا حياء ، مما كان له أسوأ الاثر في الحياة الاجتماعية ، والنزول بها الى درك جَدّ سحيق .

***

---

(١) الامتاع والمؤانسة (٢ : ١٨٣) . * الصواب : ستيهن واربعمائه وعشرين ومائه د / سرحان .

(٢) ظهر الاسلام (١ : ٣٢) .

:: الفصل الثانى ::

" طبقات المجتمع "

كان المجتمع العراقى الفارسى فى القرن الرابع ينقسم إلى طبقتين متباينتين نتيجة للظلم الاجتماعى وفساد الأحوال الاقتصادية ..

أما الطبقة الأولى فهى طبقة الحكام وكانت تتكون من الخلفاء والأمراء والوزراء ، وهؤلاء كانوا يعيشون فى ترف وبذخ ورفاهية ، وينعمون بما لذ وطاب من ثمرات الدنيا وخضرائها ، ويحيون حياة عابثة لاهية غير مكترثة بمصير الرعية ، ومقدرات الشعب الكثير العدد الى حد بعيد ..

وكانت الطبقة الثانية تتكون من معظم أفراد الشعب من صناع وتجار وعلماء وعوام وكانت — على النقيض من الطبقة الأولى — تحيا حياة بائسة تعسة لاتكاد تجد معها القوت الضرورى الذى يحفظ الرمق ويخفف آلام الحياة ، حيث أثقلت كواهلها بالضرائب ، وأنهكتها الكوارث والحروب .

وكان معظم الخلفاء يتشبهون بالأكاسرة ويوهمون الشعب أنهم ظل الله فى الأرض ، ويعيشون فى قصور مشيدة ، ويحيطون أنفسهم بالخدم والحشم والعبيد ومظاهر العظمة والأبهة ..

ويروى الأستاذ أحمد أمين * أن رسولا من ملك الروم زار الخليفة المقتدر فوجد عنده أحد عشر ألف عبد خصى ، ورأى شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر من تلقاء نفسها بطريقة خاصة ، وشاهد ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهب ، ثم أدخل الرسول دار الخيل ، فرأى فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب من ذهب وفضة ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الديباج بالبراقع الطوال ..

ثم يمضى رسول الروم الى قصور الخلافة المختلفة فيشاهد فيها من ألوان الترف ، وصنوف النعيم ، ما يذهب باللب ، ويحير العقل حتى وصل الى حضرة الخليفة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج ، وقد لبس ملابس الحرير المطرزة

بالذهب ، وعلى يمينه تسعة عقود مثل السبح معلقة ، وعلى يساره مثلها من أفخر الجواهر ، وأعظمها قيمة [(١)] .

هذه صورة كاملة لأحد قصور الخلفاء ـ آنذاك ـ وهى ـ وان كان فيها كثير من المبالغة والتهويل ـ بل والخيال ـ تكاد تعطى صورة عن حياة الخلفاء المترفة فى ذلك العصر [(*)] .

ومن القصور المشهورة التى تدل على البذخ قصر " الثريا " الذى بناه الخليفة المعتضد ، والذى كان تحفة فنية رائعة حتى قال فيه ابن المعتز :ـ

حَلَلْتُ " الثُّرَيَّا " خَيْرَ دَارٍ وَمَنْزِلٍ
فلَا زَالَ مَعْمُوراً وُبورِكَ مِنْ قَصْرِ

فَلَيْسَ لَهُ فِيما بَنَى النَّاسُ مُشْبِهٌ
ولا ما بناه الْجِنُّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

جِنَانٌ وأشجارٌ تَلَاقَتْ غُصُونُهَا
فأَوْرَقْنَ بِالاثْمار والْوَرَقِ والْخُضْرِ

ترى الطيَر فى أغصانِهِنَّ هَواتِفًا * تَنَقَّلُ مِنْ وكرٍ لهن الى وكرِ [(٢)]

وعُرِف الخليفة الراضى كذلك بحبه للبناء ، وأسرافه فيه ويروى التنوخى " أن أبا بكر الصولى حكى عن أبيه حكاية تدل على بذخ الراضى وإسرافه فيه قال :

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٠٠) .

(*) واضح أن الخيال افتن فى صنع هذا الخبر الذى يشبه أحاديث ألف ليلة وليلة ، والا فكيف يتاح لرسول دولة أجنبيه أن يحصى من الخصيان ١١ ألفا أو يزن شجرة من الفضة وزنها ٥٠٠ ألف درهم ، أو يعد ٣٨ ألف ستارة ؟ ؟ اننا نشم من هذه الأخبار روائح الخرافات والترهات والخزعبلات التى امتلأت بها كتب تمج بالاباطيل والاكاذيب . د / عبدالسلام سرحان

(٢) ظهر الاسلام (١ : ٧٨) .

" دخلت يوما على الراضى مع جماعة من الندماء ، وكان مشغولا بالبناء جالسا على آجرة حيال الصُنّاع فطلب منا الجلوس ، فجلس كل واحد منا على آجرة ، واتفق أن جلست على آجرتين ملتزقتين ، فلما قمنا أمر بأن توزن آجرة كل واحد ويدفع اليه وزنها دراهم ، أو دنانير (١) .

ومن مظاهر الترف والبذخ عند الطبقة الحاكمة حرص الخلفاء على اقتناء الجواهر الثمينة ، بأنواعها المختلفة .. وقد عرف الخليفة المقتدر بالله أنه كان يملك كمية كبيرة منها كالدرة الثمينة التى كان وزنها يزيد على ثلاثة مثاقيل ، — وكالمسبحة التى أهداها لزيدان القهرمانة (٢) .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الثراء والبذخ — آنذاك — لدى الخلفاء وهو الملابس الغالية ، فقد أخذوا عن الفرس أنواعا مختلفة منها وتفننوا فى حياكتها وتطريزها وتزيينها بالذهب والجواهر .. وكان للملابس أصول وقواعد من حيث أنواعها وألوانها ، وأوقات لبسها .

ومن الألبسة التى أخذوها عن الفرس القلانس ، فوضعوا العمائم فوقها وزينوها بجوهرة غالية (٣) .

وكان الخلفاء — وحدهم — دون سائر أفراد المجتمع يلبسون الخفاف الحمر فى القرن الرابع الهجرى (٤) .

أما فى المواكب والاحتفالات فقد كان للخلفاء زى خاص يشتمل على العمامة السوداء أو الرصافية وبرده الرسول عليه السلام (٥) .

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٢٤٥) ، وواضح أن هذا أيضا حديث خرافة . د/ سرحان .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٤ .
(٣) الحضارة الاسلامية لسيد أمير على ص ٣٨٧ .
(٤) أخبار الظراف لابن الجوزى ص ٤٨ .
(٥) رسوم دار الخلافة للصابى ص ٩٠ .

وكانت المرأة فى قصور الخلفاء تتفنن فى اختيار ألوان ثيابها وتفصيلها وضعن فيها الزنانير وخيوط الإبريسم [1] كما كانت تتفنن فى ألبسة الرأس، ووضع الجواهر الغالية ، والأحجار الكريمة على العصائب السود ، وعلى السبرانس [1] .

أما لباس الاقدام فكان يشتمل على النعال والخفاف والجوارب ، وقد اتخذت السيدة زبيدة النعال المرصعة بالجواهر ، ولبست السيدة أم المقتدر النعال المصنوعة من ثياب دبيقية [2] .

أما أدوات الزينة فقد اهتمت بها نساء القصور اهتماما كبيرا وكانت عبارة عن قلائد وأكاليل ، وتيجان ترضع فوق الرءوس ، ومناطق من الذهب المرصع بالجواهر ، وخلاخل تلبس فى الأرجل ، الى غير ذلك من أدوات الزينة [4] .

واذا ما تركنا حياة الخلفاء بما فيها من ترف وبذخ ونعيم ، وانتقلنا الى حياة الأمراء والوزراء ، وجدناهم يعيشون عيشة فارسية خالصة ويغرقون أنفسهم فى الكماليات التى تدل على الترف القاتل ، والاسراف المفرط والبذخ المشين ، فلقد كانت قصورهم لا تقل روعة ولا فخامة عن قصور الخلفاء خاصة فى عهد بنى بويه .

فمعز الدولة البويهى مثلا : كان يقيم فى قصر فخم يمتد أساسه فى الأرض تسعة وثلاثين ذراعا [5] وقد ألحق بهذا القصر اسطبلات وميدان واسع

---

(١) الاغانى (٧ : ٣٠٢) .
(٢) الحضارة الاسلامية (سيد أمير على) ص٣٩٨ .
(٣) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ١٤٢) .
(٤) مقامات الهمذانى ص٩٧ .
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦ .

يطل على دجلة ، ويصل مابين القصر والبستان ، وقد بنى فى محلة الشماسية [(١)] وقد أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم [(٢)] .

أما عضد الدولة فقد بنى بشيراز قصرا منيفا يفوق قصر معز الدولة حيث كان مكوناً من ستين وثلاثمائة حجرة ليجلس كل يوم فى واحدة الى تمام الحول [(٣)] .

وقد شاهد المقدسى الرحالة المشهور فى القرن الرابع هذه الدار، ووصفها بقوله " وبنى - يعنى عضد الدولة - بشيراز دارًا لم أر فى شرق الأرض ولا غربها مثلها ، ما دخلها عامى الا افتتن بها ، ولا عارف الا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ، أجرى فيها الأنهار، ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد ، وسمعت رئيس الفراشين يقول " فيها ثلاثمائة وستون حجرة [(*)] كان مجلسه كل يوم فى واحدة الى تمام الحول ، وهى سفل وعلو ، وطفت فيها فرأيت الأنهار تطرد فى البيوت والأروقة وأنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة " [(٤)] .

وعرف فخر الدولة البويهى بحبه لجمع الأموال والجواهر ، وكان ذلك يتم عن طريق مصادراته لأموال وزرائه وأصحابهم حتى بلغت تركته بعد وفاته أربعة وثمانين ومائتى دينار وخمسة وسبعين وثمانمائة وألف ألف دينار (١٫٨٧٥٫٢٨٤) .

فضلا عن مقادير هائلة من الذهب والفضة والجواهر والحلى بأنواعها

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٧٠) .
(٢) البداية والنهاية لعماد الدين الدمشقى (١١ : ٢٧٣) .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر لشوقى ضيف ص١٩٨ .
(*) أسلوب خطأ والصواب : ستون وثلاثمائة حجرة : د/ سرحان .
(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٤٩

المختلفـــة (١) .

ولقد بلغ من ترف الوزير أبى محمد المهلبى أنه كان إذا أراد أكـــل شىء يملعقة كالارز واللبن وقف عن جانبه الايمن غلام معه نحو ثلاثيـــــن ملعقة من الزجاج المجرود فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمـــة ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها ما فعل بالاولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية (٢) .

أما ابن طاهر وزير عز الدولة البويهى فقد كان له راتب من الثلج يقـدر بألف رطل كل يوم (٣) .

وهناك لون آخر من مظاهر الترف عند الامراء وهو كثرة النفقات فـــى حفلات الزواج والختان والاعياد ، فلقد روى : أن أمير الامراء محمد بن رائـــق الخزرى أنفق فى حفل زواجه خمسة عشـر ألف دينار كما عرف بجكم" التركـــى ـ الذى تقلد امرة الامراء فى عهد الخليفة الراضى ـ بميله الى الاسراف وكثـــرة الانفاق فى حفلات الاعياد حتى ان احتفاله بعيد " المهرجان " كان أعظـــم وأفخم من حفلات الخليفة الراضى (٤) .

* * *

تلك كانت حالة الخلفاء والامراء والوزراء فى المجتمع .. ترف جاوز ـ الحد وإسراف لا نظير له ، وحياة فارغة لاهية ، وانعزال كامل عن الرعيـــة التى كانت ترزح تحت نير الظلم والاستبداد والحكم المطلق .

***

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الاثير (٧ : ١٨٥) .
(٢) معجم الادباء (٥ : ١٥٣) .
(٣) ظهر الاسلام (١ : ١٠٤) .
(٤) مروج الذهب للمسعودى (٤ : ٢٦٢) .

وكان بنو بويه حكام العراق وفارس في ذلك العصر ، يظلمون الرعية ولا يهتمون بمصالح المجتمع ، وقد غلبت عليهم الانانية والأثرة ، وسيطر عليهم الطمع ، وحب المال ، وبدلا من أن يتفرغوا للاصلاح الداخلي في البلاد ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ، انغمسوا في الحروب الخارجية والداخلية مع جيرانهم الحمدانيين ، والسامانيين ، والزياريين ، فضلا عن حروبهم الداخلية من أجل النفوذ ، والتسلط ، فصرفتهم هذه الحروب عن مصالح الرعية وحملتهم على الانقياد لرغبات الجند فبالغوا في مداراتهم تارة ، وإرضائهم بالمال تارة أخرى ، حتى نفذ المال ، وخربت البلاد فاضطروا آخر الامر الى استخراج الاموال من غير وجوهها ، والى مصادرة أموال العامة أو الاقتراض من الخاصة أو الاحتيال على من يتهم بيسار كائنًا من كان [1] .

وكان معز الدولة أميرُ العراق لا يأبه بحقوق الرعية ، فلما شغب عليه الديلم شغبا عنيفا وطالبوه بالاموال اضطر الى ظلم الناس ، واستخراج الاموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء والاقطاعيين ويقبل منهم الرشوة ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند اقطاعاتهم ، ويعتاضوا عنها بما يختارون وبذلك يتوصلون الى الحصول على الفضل ، والفوز بالربح ، حتى فسدت المشارب وأهملت المصالح فمن مظلوم لا يُنْصف ، ومُسَلِّم ضيعته الى المقطع ليأمن شره فتوقفت العمارة ، وانحلت الدواوين ، وامحىّ أثر الكتابة والعمالة [2] ، وكان عز الدولة بختيار بن معز الدولة يحب أن يقضى وقته في الصيد ، والاكل والشرب والسماع ، واللهو ، واللعب ، بالنرد وتحريش الكلاب والديكة فاذا توقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به سواه [3] .

---

(1) تجارب الامم (١ : ٢٨) .
(2) المصدر السابق (٦ : ٩٦) .
(3) المصدر السابق (٦ : ٢٢٢) .

وهذا الظلم من جانب " بختيار " جعل أبا اسحاق الصابى يصفه فى بعض رسائله بقوله " فما زال بختيار يسىء الاختيار، ويتنكب الصواب، ويتجنب الاصلاح ، ويبدد الأموال ، ويعرض الدولة للزوال ، ويُهيّجُ الأولياء أشد الإهْرَاج ، ويحملهم على أعوج المنهاج ، ويُخَرِّبُ الأوطان ، ويشتت الأقران ويقتل الكفاة ، ويستكفى الْفُوَاةَ ، الى أن بلغ من فاسد سيرته ، وضلال طريقته أن استكتب محمد بن بقية المحيط بكل خلة دنية [1] .

***

وقد عرف الحكام من بنى بويه كذلك بالغدر بالوزراء والعمال متى استطاعوا الى ذلك سبيلا ... حتى صارت المصادرات عندهم سنة متبعة ، وطريقة معروفة ، وكانوا لا يرعون للميت حرمةً ولا ذمةً مهما بالغ فى خدمتهم وقت حياته ..

فمعز الدولة مثلا استولى على أموال الوزير المهلبى بعد وفاته وقبض على أهله وحاشيته وأصحابه وحبسهم فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه ، وفعل مثل ذلك فخر الدولة بأهل الصاحب بن عباد بعد وفاته فقد أقام حراسة على ماله وداره ونقل جميع ما فيها إلى قصره . قال ابن الأثير بعد أن روى هذه الحوادث "فَقَبَّحَ الله خدمةَ الملوك !!! هذا فعلهم مع من نصح لهم فكيف مع غيرهم ؟ [2] .

وكانت الطبقة العاملة وأغلبها من صغار الصناع والتجار والفلاحين ترزح تحت نير الظلم والاستبداد ، وتعيش فى فقر مدقع ، وبؤس شديد حيث أثقلت كواهلها الضرائب ، وأنهكتها الحروب ، ونغص عليها حياتها أهل العبث والفساد من لصوص وقطاع طرق وَعَيَّارِينَ وَشُطَّارٍ مما أدى الى تعطيل الأعمال وخراب البلاد ، ونضوب الموارد .

(١) ظهر الاسلام (٢ : ٢٩٧) .
(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٧: ١٦٩) .

فكثرت الشكوى من الحكام ، واشتد اليأس من عدلهم وصلاح حالهم يقول أبو بكر الخُوَارَزْمِىُّ فى وصف سيرة حاكم مستبد " فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ، ويحتلب فينا ضرع الدنانير والدراهم ، ويسير فى بلادنا سيرة لا يسيرها السِّنَّوْرُ مع الفأرِ ولا يستجيزها المسلمون مع الكفار حتى افتقر الأغنياء وانكشف الفقراء و حتى نشف الزرع والضرع ، وهلك الحرث والنسل " .

ثم يقول " والله !! ما الذئب فى الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ولا السوس فى الخز فى الصيف عنده الا من المحسنين [1] .

ويصف بديع الزمان أحد القضاة فيقول " يا للرجال . وأين الرجال ؟ — ولى القضاءَ مَنْ لا يملك من آلاته غير التَّبالِ ، ولا يعرف من أدواته غير الاختزال ، وما رأيك فى سوسٍ لا يقع الا فى صوف الأيتام وجرادٍ لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا يَنْقُبُ إلا خزانة الأوقاف وكُرْدِىّ لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود [2] .

* * *

ونتيجة لهذا الظلم الواقع على الرعية من جانب الحكام ساءت الحالة الإقتصادية ، وكثرت الفتن وعمت الفوضى ، وانتشرت اللصوصية وفى بغداد ظهر لص خطير يدعى " ابن حمدى " وقد أعيى السلطان أمره فكان يغير على منازل المدينة بموافقة ابن " شيرازد" كاتب القائد التركى المسمى " توزون " فكان أمر الحكومة فى يديه ، ومضى على الناس فى أيام ابن حمدى وقت تحارسوا فيه بالبوقات فى الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كبسات ابن حمدى وأصحابه ، وخلت منازل بغداد من أهلها ، وصار الناس يطلبون من يسكن الدار بأجرة يتقاضاها ليحفظها ، وأغلقت عدة حمامات

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٦٦ .
(٢) رسائل الهمذانى ص ١٦١ .

وتعطلت أسواق ومساجد (١) .

واذا ما انتقلنا الى الأدباء والعلماء فى إقليمى العراق وفارس وجدنا أنهم — آنذاك — فريقان :

فريق أسعده الحظ فاستطاع أن يتصل بالخلفاء ، والأمراء والوزراء ويمدحهم أو يخدم فى بلاطهم ومن هؤلاء :

" ابن العميد ، والصاحب ، والمهلبى ، والصابى ، والخوارزمى ، والهمذانى ، والمتنبى ، والثعالبى ، وغيرهم ، وهؤلاء عاشوا فى بحبوحة من العيش ، وسعة من الرزق ، ونعموا بالحياة الهانئة فى ظل الحكام وأصبحوا سيفا مسلطا فى يد السلطان يمدحونه ويبالغون فى وصفه ، وقلما يدافعون عن الطبقة الكادحة .

وفريق آخر من الأدباء لم يوفق فى اصطناع أمير ، أو مداهنة وزير ، أو التقرب الى حاكم .. فعاش عيشة تعسة ، وذاق مرارة العيش ، وتجرع ألم الحرمان ، وكان هؤلاء كثيرين ، وكان منهم الأديب والعالم ، والفيلسوف فهذا أبو حيان التوحيدى صاحب الافكار العميقة ، والآراء الصائبة ، والفلسفة الواسعة ، والأدب الجم والعلم الغزير ، يذكر أنه اضطر الى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة .. والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم (٢) .

وهذا أبو سليمان المنطقى الفيلسوف العالم كان فى حاجة ماسة الى رغيف ، وقد عجز بحوله وقوته عن توفير أجر مسكنه ، وعن تدبير وجبتى غذائه وعشائه ..

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى (١ : ١٣) لآدم ميتز .
(٢) المرجع السابق (١ : ٤٤٨) .

وهذا أبو على القالى صاحب " الأمالى " المشهور ضاقت به الحال قبل أن يرحل الى الأندلس حتى اضطر الى بيع كتبه ، وهى أعز ما يملك ..

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلى كان من كبار النحويين والأدباء .. وقال فى مقدمة كتابه " الفريدة فى شرح القصيدة " : " من علم حقيقة حالى عذرنى إذا قصرت فان عندى من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه ..

وغير هؤلاء كثيرون عددهم صاحب " ظهر الاسلام " رحمه الله[1] ، ولقد كان للتفاوت الطبقى وسوء الأوضاع الاقتصادية واختفاء العدالة الاجتماعية أثره فى ظهور بعض المفاسد والخرافات فى المجتمع ، فقد انتشر الدجل والشعوذة ، والتعلق بالأسباب الموهومة فى الحصول على الغنى ، والاعتقاد فى الطوالع التى تسعد الناس ، والانصراف الى الكيمياء التى تقلب النحاس والقصدير ذهبا ، والالتجاء الى قبور الأولياء ، والاعتقاد فى السحر والبحث عن الكنوز المخبوءة وغير ذلك[2] .

وكان للتفاوت الطبقى — كذلك — أثره الواضح فى فساد الأخلاق والجرى وراء المال بالوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، فاتخذت طائفة من الماجنين بيوتا للدعارة تعرض فيها وسائل اللذة !!! كما تعرض السلع فى الأسواق .

يقول أبو حيان : وقد أحصينا ونحن جماعة فى الكرخ ستين وأربعمائة[*] جارية من الجانبين وعشرين ومائة حرة وخمسا وتسعين من الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة .. وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه[3]

---

(١) انظر ظهر الاسلام (١ : ١١٧) وما بعدها ط . بيروت .
(٢) المصدر السابق (١ : ١٢٢) .
(*) فى الاصل : أربعمائة وستين و " مائة وعشرين " والصواب ما أثبتناه . د / سرحان
(٣) الامتاع والمؤانسة (٢ : ١٨٣) .

وكان للتفاوت الطبقى — أثره فى ظهور طائفة من الناس أراقت ماء وجهها واتخذت من التسول والتكدى وسيلة للارتزاق وهم الذين أطلق عليهم فى ذلك العصر " بنوساسان " وكان منهم الشعراء ، والكتاب ، والخطباء ، والاشراف ..

وكانوا يطوفون فى البلاد ،ويحتالون على الناس من أجل الحصول على القوت وابتزاز الأموال .

وكان للتفاوت الطبقى والظلم الاجتماعى — كذلك — أثره فى ظهور طائفة من أفراد المجتمع انعزلت عن الدنيا ، وعاشت على هامش الحياة ، وأشاعت فيها نغمة حزينة قاتمة ، لأنهم يئسوا من مباهج الحياة ، وكان شعارهم " صم عن الدنيا تفطر بالآخرة " (١) .

وأخيرا كان للتفاوت الطبقى أثره الواضح فى انتشار الخلاعة والمجون ، والانكباب على الملذات ، والتهالك على الشهوات عند أصحاب الثروة والجاه فى المجتمع ، حيث كان هؤلاء مهددين فى كل لحظة بالعزل أو المصادرة أو زوال النعمة مما جعلهم فريسة سهلة للقلق النفسى ، والخوف من المستقبل ، فانكبوا على اللذات وانغمسوا فى الشهوات ، وكأنهم كانوا مع زوال النعمة ، وحلول النقمة على ميعاد ..

ولقد نتج عن هذه الظاهرة — ظاهرة الخلاعة والمجون — ظهور شاعرين من شعراء " اليتيمة " يمثلانها أصدق تمثيل وهما ابن حجاج وابن سكرة الهاشمى .

" ومما يؤسف له أن العلماء فى ذلك العصر قد انطووا على أنفسهم وتركوا الظالمين يستبدون من غير أن يقفوا فى سبيلهم .. والأدباء الذين ارتفع صوتهم لم يرتفع الا بمدح الظالم لا بردعه ، وبتحريضه لا بقمعه ولم يكن لديهم

---

(١) الاعجاز والايجاز للثعالبى ص ١٢٩ .

شعور بالمسئولية .. بل كانوا يمدحون إذا أُعطوا ويهجون إذا حُرِمُوا، وقَلَّ أن يمدحوا أميرًا بالعدل أو يهجونه بالظلم ..

والصوفية الذين كانوا مظنة الجهر بالحق، انطووا على أنفسهم كذلك، وغسلوا أيديهم من هذا العالم ، وعاشوا فى عزلة كاملة ..

والوعاظ الذين كانوا يعظون الناس.. كانوا يعظونهم بالصبر على الظلم، ولا يعظون الحاكم بالارتداع عن الظلم (1) . وعلى الرغم من أن بذخ الحكام واسرافهم ترك كل هذه الآثار السلبية الخطيرة .. كان له بعض النتائج الحضارية الايجابية التى نذكر منها على سبيل المثال مايلى :ـ

أولا : بناء القصور المَشِيَدة والمساجد الفخمة ـ وان كان قد كلف الدولة أموالا طائلة ـ إلا أنّ ذلك يُعَدّ مظهرا من مظاهر تقدم العمران والهندسة .. فالقصور التى بناها الرشيد والمعتضد والمتوكل وقصور الوزراء والأمراء تُعَدّ دليلا ماديا على مدى تقدم فن العمارة فى ذلك العصر ..

ثانيا : كان لبذخ الخلفاء والأمراء وميلهم الى حب الظهور والفخفخة أثره فى تقدم صناعة الخز والوشى والسجاد، والأوانى الزجاجية والخزفية والنقش على الذهب والفضة، وغير ذلك من أنواع الملابس وأدوات الزينة .

وأخيرا : كان لذلك الترف ـ أيضا ـ أثره فى رقى الأدب وتقدم فنى الغناء والموسيقى ، ذلك أن أنظار الأدباء والمغنيين كانت موجهة الى قصور

---

(1) ظهر الاسلام (١ : ٢٦١) وما بعدها .

الخلفاء والامــراء ليعرضـوا عليهم نتاجهم الادبى والفنى طمعا فـــى المال والنوال ، وحرصـا على الخلع والهدايا - وكان الحكام - بدورهـم - يشجمون الادب والفناء ، ويغدقون على الادباء والمغنين ، الاموال الطائلة ويقدمون لهم الهدايا والصّلات مما كان له أكبر الاثر فى رقى الآداب والفنون فى المجتمع العراقى الفارسى فى ذلك العصر ..

* * *

:: الفصل الثالث ::

" الطـــوائف الدينيـــــة "

كان المجتمع العباسي في تلك الأيام يتكون من : المسلمين ، وأهل الذمة ، والصابئة ، وكان المسلمون بدورهم يتكونون من الشيعة وأهل السنة ... وأهل الذمة كانوا يتكونون من اليهود والنصارى ... أما الصابئة فكانوا ينقسمون الى : صابئة العراق ، وصابئة حران ... .

ولست — الآن — بصدد دراسة هذه الطوائف من حيث صحة الدين وسلامة العقيدة فذلك مرجعه علم " الملل والنحل " ولكنى أريد أن أتحدث عن كل طائفة منها من حيث كيانها السياسي ، ووضعها الاجتماعي وعلاقاتها بالآخرين .. ومدى تأثيرها في الحياة الاجتماعية ..

وسأبدأ بالحديث عن الشيعة وأهل السنة لأنهم كانوا مسلمين يمثلون معظم السكان ، ولأن الخلفاء والأمراء والوزراء ، وقادة الجيوش كانوا منهم . ولأن تأثيرهم في الحياة الاجتماعية كان أعظم وأخطر من تأثير الآخرين .. ثم أثنى بالحديث عن أهل الذمة من حيث هم أكبر الطوائف الدينية في المجتمع العباسي بعد المسلمين .. ولأن تأثيرهم في المجتمع كان عظيما ثم أختم الكلام عن هذه الطوائف بالصابئة لأن عددهم كان قليلا ، ولأن أثرهم في الحياة الاجتماعية كان جدَّ ضعيف ..

أولا : الشيعة وأهل السنة

الشيعة — في الأصل — هم أولياء الرجل وأنصاره يقال : شايعه ، كما يقال والاه ، وكل قوم اجتمعوا على أمرهم شيعة .. ثم غلب هذا الاسم على من يتولى عليا وأهل بيته — رضوان الله عليهم — حتى صار ذلك اللفظ علما عليهم وخاصا بهم ، فإذا قيل فلان من الشيعة عُرِفَ أنه منهم .. فهم الذين قالوا بإمامته وخلافته ، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده .

ولا أريد — هنا — أن أتعرض لدراسة التاريخ السياسي لحزب الشيعة فذلك مكانه علم السير والتاريخ ، ولا أريد كذلك أن أتعرض لدراسة الناحية

العقدية والمذهبية لفرق الشيعة فذلك مرجعه علم العقائد والكلام ـ ولكنى أريد الحديث عن التشيع بوصفه إحدى الظواهر الاجتماعية فى القرن الرابع، ولأنه كان ذا أثر عميق فى حياة المجتمعين العراقى والفارسى .. " وكانت الكوفة وبها قبر الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ أكبر مركز للشيعة فى القرن الرابع وكان يقال : من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل رحم الله عثمان بن عفان " (١) .

وكانت بغداد هى العاصمة بمعنى الكلمة ، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية فى الدولة الاسلامية كانت أمواجها تتلاطم على شواطئها وكان بها أنصار لجميع المذاهب ، ولكن أكبر الأحزاب بها فى القرن الرابع كان حزبى الحنابلة والشيعة ، وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق " الكرخ " وكان باب الشعير ـ غربى شاطىء دجلة ـ من أكبر مراكز أهل السنة ، وفى فارس كان الشيعة كثيرين على السواحل التى تتصل اتصالا وثيقا بالعراق (٢) .

أما فى المشرق فقد كانت الغلبة فيه لأهل السنة إلا أهل " قم " فإنهم كانوا شيعة غالية ، وكان غلوهم موضع كثير من النوادر .. ومن ظريف ما يحكى أنه ولى عليهم وال سنى متعصب فبلغه عنهم أنهم ـ لبغضهم الصحابة رضوان الله عليهم ـ لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر ولا عمر ، فجمعهم يوما وقال لرؤسائهم : بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندى أنه اسمه لأفعلن بكم وَلأَصْنَعَنَّ ، فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا مدينتهم ، واجتهدوا فلم يجدوا إلا رجلا صعلوكا حافيا عاريا أحول ، ومن أقبح خلق الله منظرا واسمه أبوبكر

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز (١ : ١٠٢) .
(٢) بديع الزمان للشكعة ص١٩ .

لأن أباه كان غريبا استوطن هذه البلاد فسماه بذلك ، فجاؤا به فشتمهم وقال : جئتمـــونى بأقبح خلق الله تتنادرون به على ، وأمر بصفعهم ... فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير : اصنع ما شئت فان هواء " قم " لايجئ فيه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ، فغلبه الضحك وعفا عنهم (١) .

وكان فى " قُمّ " فرقة من غلاة الشيعة هم الغُرَابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت ، فلما حكم بينهم أحد القضاة بأن للبنت النصف هـددوه بالقتل ، وهم قوم من شرار الروافض يذهبون الى هذه المقالة من أجـــل فاطمـة رضى الله تعالى عنها (٢) .

وكان الصراع المذهبى على أشده بين الشيعة وأهل السنة ، ويذكر المؤرخون أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون فى مسجد " براثا " سنـة ٣١٣ هـ فعلم الخليفة أن قوما منهم يجتمعون فيه لسب الصحابة فأمـــــر بكبسه فى يوم جمعة فوجد به ثلاثون إنسانا يصلون فقبض عليهم ، وفتشـــوا فوجدت معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الامام ، كما كان يفعل دعـــاة الفاطميين مع من ينتسب اليهم ، فاستصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سوى بالأرض ، وعفا رسمه ووصل بالمقبرة التى تليه (٣) .

وكما كان الخلفاء يشتدون على الشيعة كانوا يفعلون الشئ نفسه مـع الحنابلة ، ففى سنة ٣٢٣ هـ نودى فى جانبى بغداد بألا يجتمع من الحنابلـة نفسان فى موضع واحد ، وذلك لتطرفهم ، وغلوهم واحداثهم الفتن ، وقد وَقّعَ الخليفة الراضى على كتاب بين فيه أخطاء الحنابلة وتوعدهم بالعقاب ، واتهمهم بالطعن على خيار الأمة ، وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الى الكفر وارصادهم بالمكاره فى الطرقات والمحال ، وانكار زيارة قبـــور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشنيع على زوارها بالابتداع ، وفى آخر الكتـاب

---

(١) معجم البلدان لياقوت الرومى ص ١٧٦ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكى . (٢ : ١٩٤)
(٣) الحضارة الاسلامية لميتز (١ : ١٦٦) .

يقسم أمير المؤمنين بالله : لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعنهم ضربا وتشريدا ، وليستعملن السيف فى رقابهم ، والنار فى محالهم ومنازلهم [(١)] .

وقد ظل الصراع قائما بين الشيعة وأهل السنة ، واشتعلت نار الفتنة بين الفريقين .. ففى سنة ٣٤٩ هـ قامت ببغداد فتنة عظيمة ، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة [(٢)] .

وكان بنو بويه يميلون إلى الشيعة ويعتنقون مذهبهم ، ويتعصبون لهم .. وفى سنة ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لعن الصحابة فجاء الناس أثناء الليل ، وفى العام التالى أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء وهو أكبر عيد للشيعة [(٣)] .

وقد حاول أهل السنة من جانبهم أن يظهروا فضل يوم عاشوراء ، فأقاموا فيه الزينات والأفراح ، وزعموا أن الاكتحال فيه مانع من الرمد فى تلك السنة وذكروا الناس بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من الحض على فعل الخير فيه [(٤)] ، وذلك على خلاف الشيعة الذين كانوا يعدونه يوم حداد عام على مقتل سيد الشهداء الحسين بن على رضى الله عنهما ..

واستمر النزاع قائما بين الفريقين حتى بلغ من تعصبهم أنهم كانوا يلقون النار بعضهم على بعض .. وفى سنة ٣٦١ هـ قامت بالكرخ فتنة عظيمة فأرسل الوزير (المهلبى) حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد العصبية لأهل السنة ، فاضطر إلى اشعال النار فى أماكن كثيرة ليقضى على الفتنة فاحترق الكرخ حريقا عظيما .. وكان عدة من احترقوا فيه سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجدا ، ومن الأموال مالا يحصى [(٥)] .

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ١١٧) .
(٢) المصدر السابق (١ : ١١٨) .
(٣) كتاب الوزراء للصابى ص ٣٧١ .
(٤) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ١٢٠) .
(٥) المصدر السابق (١ : ١٣) .

وكان لذلك كله أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية ، فاضطرب الأمن واهتز النظام ، وعم الرعب والفزع ربوع البلاد ، وكثرت الأحقاد والضغائن بين أفراد المجتمع ، وساءت الأحوال الاقتصادية والسياسية ، وكان لذلك الصراع بعض النتائج الايجابية ، فقد انتعش الأدب شعرا ونثرا بفضل كبار أدباء الشيعة ، الذين تعصبوا لمذهبهم ودافعوا عنه في نتاجهم الأدبي أمثال : أبي بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، والشريف الرضي وغيرهم .

ومن جهة أخرى كان هناك بعض أدباء السنة يتصدون لهؤلاء ويردون عليهم أمثال : بديع الزمان الهمذاني وغيره .. مما كان له أكبر الأثر في ثراء الحياة الفكرية والأدبية آنذاك .

* * *

ثانيا : أهل الذمة

أما أهل الذمة فقد كانوا من طائفتي اليهود والنصارى .. وهؤلاء كانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، وكانوا يقيمون شعائرهم في أمن ودعة واطمئنان ولم تتدخل الحكومة الاسلامية في شعائرهم وبلغ من تسامح بعض الخلفاء أنهم كانوا يحضرون مواكبهم وأعيادهم [1] .

ولم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق دونهم أي باب من أبواب العمل والكسب ، وكانت قدمهم راسخة في الصناعات التي تدر الأرباح الوافرة — كما هو شأنهم اليوم — فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع ... بل إنهم نظموا أنفسهم بحيث كان معظم نوابغ الصيارفة والصناع يهودا ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى [2] ، ولم يتدخل خلفاء بني العباس

---

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي (٤ : ١٧٦) .
(٢) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٦٨) .

بصورة عامة فى شؤونهم الدينية أو فى حياتهم الخاصة إلا فى بعض الظروف ، حيث وضعت القيود على الألبسة ، وأبنية البيع والكنائس .. الا أن هذه القيود لم تطبق تطبيقا تاما ، ومن ثم قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ، واشتركوا جميعا فى تحريك الحياة العملية والأدبية ، وأصبح أهل الذمة يمارسون جميع الأعمال فى الدولة الاسلامية .. فكان منهم الطبيب والمهندس والتاجر والصراف والبزاز (١) .

ولم ينفصلوا عن بعض الا فى ممارسة الطقوس الدينية ، ومناطق السكن فأقام النصارى فى بغداد كنيسة عرفت باسم " دار الروم " وسكنوا مدينة " تكريت " بين " الموصل " و" بغداد " كما سكن جماعة منهم مدينة "الرها" (٢) ، أما اليهود فوجدوا فى بغداد بكثرة .. وكانت لهم فى عهد الخليفة المعتضد مراكز مهمة ظلت مزدهرة حتى القرن السادس الهجرى حيث زارها الرحالة " بنيامين " فوجد فى بغداد وحدها عشر مدارس وثمانية وعشرين معبدا منها واحد مزين بالذهب والفضة (٣) ، أما عدد أهل الذمة فى العراق فقد بلغ أكثر من ستين ألفا فى القرن الرابع (٤) .

ويؤكد آدم متز أن عدد النصارى وحدهم ببغداد كان مابين أربعين وخمسين ألفا (٥) .

أما فى فارس فقد كثر عدد المجوس والصابئة (٦) .

وكان لكل من اليهود والنصارى رئيس دينى يعين بعهد من الخليفة وكان رئيس النصارى يلقب " بالجاثليق " أما رئيس اليهود فكان يلقب " بالملك"

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص١٢٣ .
(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص١٢٢ .
(٣) الرحلة .. ص١٣٥ .
(٤) المسالك والممالك لابن خردادبة ص١٢٠ .
(٥) الحضارة الاسلامية (١ : ٦٥) .
(٦) الرحلة .. ص١٣٧ .

وتكون رياسته بالوراثة ، ويستمد سلطانه ، من كتاب عهد يوجه اليه من الخليفة وتجرى لكل منهما مراسم خاصة عند توليتهما (١) .

أما عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فكانت حسنة فى معظم الأوقات ، غير أنه فى بعض الظروف كان التوتر فى العلاقات يسود بينهما ، وذلك حين كان بعض الخلفاء يتشدد فى معاملتهم ، أو حين يسند الى أحد أفراد أهل الذمة ، منصب كبير فى الدولة .

وقد ظهرت الحالة الأولى فى عهود الرشيد والمتوكل والمقتدر ، فقد أمر الرشيد بهدم الكنائس فى الثغور ، وأوصى بأخذ أهل الذمة فى بغداد بأن تخالف هيئتهم الاجتماعية هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (٢) . وفى عهد المتوكل أمر أهل الذمة بوضع صور شياطين مصنوعة من الخشب على أبواب منازلهم ، وتسوية قبورهم بالأرض ، كما حَتَّم عليهم لبس زى خاص بهم (٣) .

أما المقتدر فقد أمر ألا يستعان بأحد منهم فى وظائف الدولة وألزمهم لبس الْعَسَلى ، والرقاع من خلف ومن قدام (٤) .

وأما الحالة الثانية : وهى اسناد بعض المناصب الكبرى إلى أحد أفراد أهل الذمة — فقد حدثت حين اتخذ الوزير ابن الفرات ، رئيس ديوان الجيش من النصارى فاحتج عليه على بن عيسى بقوله : " أما اتقيت الله فى تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا ؟ وجعلت أنصار الدين ، وحماة البيضة يقبلون يده ، ويمتثلون أمره ؟ ، فزعم ابن الفرات أنه ليس أول من اتخذ رجلا نصرانيا لمثل هذا المنصب (٥) .

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٥ : ١٢٧) .
(٢) المصدر السابق (١ : ٤١) .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ (١ : ٤١) .
(٤) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٦٥) .
(٥) ظهر الاسلام لأحمد أمين (١ : ٨٣) ط النهضة بمصر .

وإلى جانب ذلك كانت بعض المعارك المحدودة بين الطرفين تحدث في بعض المناسبات ففي سنة ٣٨١ هـ هاج المسلمون لأنهم وجدوا رأس خنزير في أحد المساجد فظنوا أن النصارى رموه ، وفي سنة ٣٩٢ هـ قُتِلَ أَحَدُ المسلمين فظن العامة أن النصارى هم الذين قتلوه فثاروا عليهم ، ونهبوا بيعة لهم ، وأحرقوها وكان الأمر عظيما (١) .

وفيما عدا تلك الحوادث المحدودة كان الوئام يسود بين الطرفين حتى إن الخلفاء العباسيين كانوا يستعينون أحيانا بالنصارى في وظائف الدولة ، فاتخذ الخليفة الطائع لله العباسي كاتبا نصرانيا (٢) .

واتخذ عضد الدولة البويهي نصر بن هارون وزيرا له ، وقد أذن له في عمارة البيع والأديرة ، واطلاق سلطته في إعطاء الأموال لفقراء النصارى (٣) .

" وقد حدد الإسلام العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فسمح بزواج المسلم من الذِّمِّيَّة ، دون أن تُجْبَرَ على ترك دينها والدخول في الإسلام ، أما زواج المسلمة من الذمي فكان مستحيلا " (٤) [لأنه محرم] ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا العكس ، كما لم يكن النصراني أو اليهودي يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا (٥) .

وقد فرضت الجزية على أهل الذمة وأعفى منها النساء والصبيان والشيوخ العاجزون والرهبان ، وكان المسلمون يراعون الرفق بأهل الذمة في جباية الجزية (٦) .

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٩٢) .
(٢) المصدر السابق (١ : ٥٩) .
(٣) الكامل لابن الاثير (٨ : ٢٥٥) وظهر الاسلام (١ : ٨٤)
(٤) الحضارة الاسلامية (١ : ٥٩) .
(٥) الخراج لابي يوسف ص ١١٢ .
(٦) نفس المصدر السابق .

وكان لأهل الذمة خلال القرن الرابع ملابس خاصة يتميزون بها عن المسلمين فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة[*] على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ثم لبسوا القلانس الطويلة [1] .

* * *

والحديث عن النصارى يدفعنا الى الحديث عن الديارات التى احتلت مكانة بارزة فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر .. فكان الشعراء والمجان يلجأون إليها ، ويقضون بها أوقاتا سعيدة لطرافة ما فيها وجمال موقعها ، وحسن منظرها ، وكثرة خمائلها ، وكثافة أشجارها وروعة زهورها ورياحينها ، ولِمَا كانت تشتهر به من الخمور المعتقة ..

وكان بعض الخلفاء يغدون الى هذه الديارات ويقضون بها أوقاتا طيبة ، فقد نزل المأمون مرة بدير الموصل الأعلى ، وهو فى طريقه إلى دمشق ووافق نزوله عيد الشعانين عند النصارى ، حيث كانت تقام الاحتفالات العظيمة فجلس المأمون فى موضع حسن ، وزين الدير بأحسن زينة ، ورأى الخليفة القساوسة ، والغلمان يحملون الصلبان ويتوجهون نحو المذبح كما شاهد الجوارى .. وقد لبسن الديباج وفى أعناقهن صلبان الذهب ، فسر بهذه المناظر سرورا عظيما ، وقضى فيها وقتا طيبا ، ثم قال لأحد جلسائه : وهو اليزيدى ـ أرأيت أحسن مما نحن فيه ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، أن تشكر مَنْ خَوَّلَكَ هذا! فيزيدك منه ، ويحفظه عليك قال : بارك الله عليك ، فلقد ذكرت فى موضع الذكرى ، ثم أمر بثلاثين ألف درهم فتصدق بها للوقت [2] .

وكانت الديارات تستهوى الناس على اختلاف طبقاتهم ، خاصة الشعراء الذين قالوا فيها شعرا كثيرا يعد من أرق ما أثر من الشعر العربى ، فمن الديارات ذوات الشأن فى ذلك الوقت دير " الشياطين " الذى كان غربى دجلة ، وقد

(*) البراطيل : جمع برطيل وهو القلنسوة : غطاء الرأس .
(1) الحضارة الاسلامية (١ : ٨٤) .
(2) الديارات ص١٧٧ وما بعدها .

وصفه الشابشتى بأنه كان " حسن المنظر جميل الموقع ، رقيق الهواء ، وأن قلاليه كانت عامرة ، كثيرة الأشجار وأرضه كثيرة الرياحين ، وكان له سور يحيط به ، والناس يطرقونه للشرب فيه ، وهو من مطارح أهل البطالة ، ومواطن ذوى الخلاعة (١) .

ولعبادة المخنث قصة غريبة فى هذا الدير ، فقد هام حبا بغلام نصرانى بالدير ، وجن به ، وعندما فطن رهبان الدير لأمره فر من الدير بعد أن أقام به مدة طويلة (٢) .

ومن الديارات الشهيرة فى ذلك العصر " دَيْرزَكّى " على شاطئ نهر " البَلِيخ " وكان يمتاز بجمال موقعه ، ونزاهة موضعه ، وكثرة الغزلان والأرانب حوله ، مما يشجع على الصيد ، ويغرى بالقنص ، وكان الملوك إذا مروا به نزلوه ، وأقاموا فيه ، ولعل ديرا من أديار النصارى لم يشتهر كما اشتهر ذلك الدير لكثرة الأشعار التى قيلت فيه (٣) ، ولقد كان لهذه الديارات فى بلاد المسلمين أسوأ الأثر فى الحياة الاجتماعية وكان وجودها يمثل خطرا على الاخلاق العامة ، ويشكل تحديا لمشاعر المؤمنين ، بما كان يوجد فيها من خمور معتقة وجوار حسان !! وغلمان ملاح .. فأصبحت أمكنة للفسق ، وملاجئ للمنحرفين ، ومراجع لأهل الخلاعة والمجون ، وأندية لأهل الاختلال ، والاعتلال .

وكان لها الى جانب ذلك كله بعض الآثار الطيبة على الأدب لكثرة الأشعار الرقيقة التى قالها الشعراء فى وصف جمالها ، وحسن منظرها .

* * *

---

(١) الديارات ص ١٨٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٨٥ .
(٣) نفسه ص ١١٨ وما بعدها .

ثالثا : الصابئـــة

اختلف المؤرخون فى عقيدتهم الدينية ، فذهب المسعودى : إلى أن أصل عبادتهم هى عبادة النجوم ، ثم تحولت إلى عبادة الأصنام ، فبنوا لكـــل صنم بيتا أو هيكلا منفردا ، وسموا تلك الهياكل بأسماء الكواكب (١) ، وجـــاء فى لسان العرب : أن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه الســـلام وهم كاذبون ، ويشبه دينهم دين النصارى (٢) ، وفى المصباح المنير أنهـم على دين صابئ بن شيث بن آدم عليه السلام وكانوا يعبدون الكواكـــب فى الباطن ، وينسبون الى النصرانية فى الظاهر (٣) .

وذكر الامام الرازى فى مختار الصحاح " أن الصابئين جنس مـــن أهل الكتاب (٤) .

أما ابن العبرى فيقول عن دينهم " انه دعوة الكلدانيين ، وأقوالهـــم قريبة من أقوال الحكماء (٥) .

وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـــوا والَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ، وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَعَمِـــلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦) .

وفى القرن الرابع الهجرى كانت هناك فرقتان من الصابئة هما : صابئـــة حَرَّان ، وصابئة العراق ، وكانت صابئة حَرَّان تعبدُ الكواكب يجرون بذلـــك مجرى عبدة الأوثان ، أما صابئة العراق فهم فرقة موحدة نشأت فـــى فلسطين قبل ظهور النصرانية وهم من اتباع يوحنا المعمدان المشهور فـــى

---

(١) مروج الذهب (٢ : ١٣٥) .
(٢) ابن منظور (١ : ١٠٢) .
(٣) المصباح المنير ص٥٠٩ .
(٤) مختار الصحاح ص٣٥٤ .
(٥) مختصر تاريخ الدول ص١٥٣ .
(٦) سورة المائدة آية ٦٨ .

المراجع العربية والإسلامية باسم يحيى بن زكريا ، ويطلق عليهم العرب اسم المغتسلة لأنهم يسكنون على ضفاف الأنهار لتسهيل التعميد في الماء الجاري (1) .

ويذكر ابن النديم أن تسمية أهل حَرّان بالصابئة ترجع إلى زمن المأمون عندما كان ذاهبًا لغزو الروم سنة ٢١٥ هـ فمر على ديار مضر فقابله الناس يدعون له وفيهم جماعة من الحرانيين (*) الصابئة ، وكان لبسهم إذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن الحرانية (**) فقال : أنَصَارَى أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهودٌ أنتم ؟ قالوا : لا ، فقال : أمجوس أنتم ؟ قالوا : لا ، فقال : أَلَكُمْ كتاب أم نبي ؟ فترددوا في القول ، فقال لهم : فأنتم إذن : الزنادقة .. عبدة الأوثان فأنتم دماؤكم حلال لا ذمة لكم ولا عهد ، فاختاروا الآن أحد أمرين إما أن تدخلوا في الإسلام ، أو تختاروا لكم دينا آخر من الأديان التي ذكرها الله في كتابه ، وإلا قتلناكم عن آخركم ، وأعطى لهم مهلة قصيرة لتحديد موقفهم ، فاقترح عليهم شيخ من أهل حَرّان أن يقولوا للمأمون أنهم صابئة فهذا اسم ذكره الله في كتابه ، وهكذا أطلق عليهم اسم الصابئة (2) (*) .

وقد كتب للصابئين في منتصف القرن الرابع الهجري كتاب عن أمير المؤمنين المطيع أمر فيه بصيانتهم ، وحراستهم ، والذّبّ عن حريمهم ، ورفع الظلم عنهم ، والتخلية بينهم وبين مواريثهم وترك مداخلتهم ، ومشاركتهم فيها لأن أمير المؤمنين يرى في مواريث الصابئين وغيرهم من المخالفين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول " لا يتوارث أهل ملتين " (3) .

---

(1) رسوم دار الخلافة للصابي ص٧ .

(*) كذا وهو خطأ ، والصواب الحرنانيون ، كما ذكر صاحب القاموس . دكتور سرحان .

(**) كذا : والصواب الحرنانية راجع القاموس . د/ سرحان .

(2) الفهرست ص٤٥٩ لابن النديم .

(*) وفي هذا التخريج شيء في النفس . د/ سرحان .

(3) الوزراء للصابي ص٢٧٠ .

وكانت العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين حسنة ، فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ولم يحدث بينهما نزاع ولا قتال ، وذلك راجع الى قلة عددهم وميلهم للسلم ، ومجاراة المسلمين .

ولم يحدث أن تعرض لهم حكام المسلمين بأذى ، أو بيتوا لهم سوءاً أو دَبَّروا لهم غدرا إلا في بعض الحالات الشاذة ..

ففي عهد الخليفة القاهر سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة أبا سعيد الإِصْطَخْرِيّ في أمرهم فأفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ، ويعبدون الكواكب ، فعزم الخليفة على تنفيذ ذلك فيهم حتى افتدوا منه بأموال كثيرة جمعوها فكف (*) عنهم (1) ، وفيما عدا ذلك كانت العلاقات بينهم وبين المسلمين جد طيبة ..

ولقد كان للصابئة عيدان يحتفلون بهما ، ويقيمون شعائرهم الدينية فيهما :—

أحدهما : عيد الملاد ، ويقع في الثالث والعشرين من ديسمبر " كانون الأول " وأما الثاني : فيقع في السابع والعشرين من يوليه " تَمّوز " ويسمى عيد " البوتات " (**) وكان لهم إلى جانب ذلك أعياد أخرى كثيرة تقام في جميع أشهر السنة لكل منها رسوم وتقاليد خاصة (2) .

أما صلواتهم فهي ثلاث مرات في اليوم قبل طلوع الشمس ، وفي منتصف النهار ، ومع الغروب ، وهم يتوضأون قبل الصلاة كالمسلمين ، ويصومون ثلاثين يوما أيضا ، ولكنها تختلف عن طريقة المسلمين ، في كونها غير متتالية ، بل

---

(1) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٦٨) .
(*) وفي النفس أشياء من هذه الروايات . د/ سرحان .
(**) البوتات : جمع بوتة : شجر نباته كالزعرور بضم الراء . في القاموس . وهو ثمر شجر معروف . د/ سرحان .
(2) الفهرست ص ٤٦١ .

متقطعة إلى ثلاثة مراحل ، فى كل مرحلة عشرة أيام [١] .

أما تأثيرهم فى المجتمع فلم يكن فعّالاً ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود ،والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية وإلى سرية تعاليمهم من ناحية أخرى ..

وكانوا كثيرا ما يحاولون التّستّر بالاسلام خوفًا من القتل ، كصابئة " حران " أما صابئة العراق فكانوا حريصين على مجاراة المسلمين فى عاداتهم وتقاليدهم والرغبة فى مودتهم ومسالمتهم ..

واحتل بعض أدباء الصابئة مكانة مرموقة فى المجتمع كأبى إسحاق الصابى ، الذى كان ـ كما يقول الثعالبى ـ يعاشر المسلمين أحسن عشرة ويخدم الاكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه [٢] .

كما نبغ منهم بعض الأطباء أمثال : ثابت بن سنان وابن قرة . وهذا فضلا عن نبوغهم فى النقش على الذهب والفضة وبعض الصناعات التقليدية .

* * *

---

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ص١٥٣ .
(٢) اليتيمة (٢ : ٢١٩) .

:: الفصـــل الرابـــع ::

" الأعيـــاد والمواسـم والمواكب "

اهتم العباسيون فى القرن الرابع بالاحتفالات الدينية فى الأعياد والمواسم ، وأولوها عناية بالغة ، وأنفقوا عليها أموالا طائلة ، ولم يقتصروا فى ذلك على الأعياد الإسلامية ، بل تجاوزوها إلى أعياد أخرى غير إسلامية ، انتقلت اليهم من الفرس ، أو من أهل الذمة .

ومن الأعياد الإسلامية عيدا الفطر والأضحى ، وعيد رأس السنة الهجرية وعيد المولد النبوى الشريف ، وعيد " غدير[*] خم " عند الشيعة وعيد الغار عند أهل السنة [1] .

ومن الأعياد الفارسية التى احتفل بها المسلمون أعياد : النيروز ، والمهرجان والسذق .

أما أعياد النصارى فكانت كثيرة ، ومتعددة ، وكان لكل دير تقريبا عيد يخرج فيه الناس إليه للهو ، والعبث ، والمجون ..

أما أعيادهم العامة فكان أهمها أعياد " الميلاد " والفصح والشعانين ..

وكانت مظاهر الاحتفال بالأعياد الإسلامية تتجلى بصورة خاصة فى عيدى الفطر والأضحى فى جميع البلاد الإسلامية .. خاصة فى مدينة " طرسوس " التى كان غزاة المسلمين يتوافدون إليها من جميع أنحاء الدولة الاسلامية الواسعة وترد إليهم تبرعات الذين يتعذر عليهم الخروج للغزو [2] .

ولما ضاعت من المسلمين حلت محلها " صقلية " التى كانت مشهورة كذلك بحسن عيديها [3] .

(*) غدير خم : موضع على ثلاثة أميال من الجحفة بين الحرمين ، أو هو غيضة هناك . د/ سرحان .

(1) العبر فى خبر من غبر (٣ : ٤٣) .

(2) الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٨ : ٢٢٢) .

(3) الحضارة الاسلامية لمتز (٢ : ٢٩٢) .

وكان العباسيون يحتفلون بعيد الفطر فى كثير من الأُبَّهَةِ والعظمة فكانت الأنوار تسطع فى بغداد وغيرها من المدن العراقية والفارسية فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير ، والتهليل ، والتعظيم وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتتلألأ الأنوار البَرَّاقَةُ فى قصور الخلافة [1] ويستمر الاحتفال بالعيد ثلاثة أيام كاملة [2] .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين

ويحكى عن الوزير الصاحب بن عباد أن داره كانت لا تخلو من ألف نفس يفطرون فيها فى كل ليلة من ليالى رمضان ، وأن صدقاته ، وقرباته فى هذا الشهر كانت تبلغ مقدار ما ينفق منها فى جميع شهور السنة [3] .

وقد جرت العادة فى بغداد وغيرها من المدن العراقية والفارسية أن تشعل مصابيح المساجد طوال ليالى شهر رمضان ، وتخرج الإنعامات من دار الخلافة إلى الخاصة والعامة طيلة الأيام الأربعة من أواخر هذا الشهر المبارك ، ويتهيأ المسلمون لاستقبال اليوم الأول من أيام العيد فيخرجون إلى المساجد لأداء الصلاة ..

وكان من عادة الخليفة أن يخرج من قصره مبكرا فى أول أيام العيد ، ويسير مع كبار رجال دولته فى موكب فخم مهيب ، وهم يلبسون الأقبية السود ، والناس يقفون على جانبى الطريق ، وهم فى أبهى منظر ، وأجمل زينة ، ينتظرون موكب الخليفة ويستقبلونه بالتهليل والتكبير ، والدعاء له بالنصر ويحيونه قائلين : " السلام على أمير المؤمنين ونور الاسلام ، فيرد الخليفة عليهم بلثم بردته ، والتلويح بها ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، وإلقاء خطبة العيد ، يعود الخليفة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى (٣ : ٤٥٥) د . حسن ابراهيم حسن .
(٢) صبح الأعشى (٢ : ٤١٦) .
(٣) اليتيمية (٣ : ١٧٤) .

بموكبه إلى القصر لاستعراض الجند وهم ينتظرونه على ظهور الخيل بملابسهم الجميلة ، وإلى جانبه القواد والقضاة [1] .

وبعد ذلك يجلس الخليفة على سرير مرتفع ويقف حوله الغلمان والخدم متقلدين السيوف ، وتمد فى مواجهة الخليفة ستارة من الديباج فاذا دخل الناس رفعت ، وإذا أراد صرفهم أرخيت [2] .

وهناك مواكب أخرى فى عيد الفطر كانت لا تقل روعة ولا بهاء عن موكب بعض الخلفاء ، وهى مواكب الأمراء والوزراء والقواد . وقد وصف هلال ابن المُحَسِّن الصابى موكب القائد " نازوك " فى يوم العيد فقال :

" إنه كان يسير وبين يديه أكثر من خمسمائة فارس يحملون الشموع الموكبية سوى أصحاب النفط ، وعددهم كثير ، وبلغ من شدة الزحام أن الرجل كان لا يستطيع اجتياز الموكب ، وكان القواد والأمراء يلبسون فى ذلك اليوم قباء أسود وينتطقون بالمناطق ، ويتقلدون السيوف ، أما القضاة فكانوا يلبسون الطيلسان والعمائم السود المصقولة [3] .

وكانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بعيد الأضحى ، وتبدو فى أبهى صورها حيث كان المسلمون يذهبون فى صبيحة أول يوم فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، كما كانوا يحرصون — مع اختلاف طبقاتهم — على نحر الأضاحى ، وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين ، بل إن بعض الخلفاء كانوا يشتركون بأنفسهم فى نبح الأضاحى ، فالخليفة المقتدر — حين بويع بالخلافة سنة ٢٩٥ هـ — وزع فى يوم التروية — الثامن من ذى الحجة — ويوم عرفة — التاسع من ذى الحجة — لحوم ثلاثين ألف رأس من البقر والغنم وألفى رأس من الابل [4] (*) .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى (٤ : ٣٥) .
(٢) رسوم دار الخلافة للصابى ص ٩١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠ .
(٤) المنتظم لابن الجوزى (٦ : ٢٧٦)
(*) والمبالغة واضحة فى إسناد التوزيع . د/ سرحان .

وكانت الحكومة الإسلامية تشرف على تنظيم موكب حجاج بيت الله الحرام كل عام تعيين أميرا تختاره من الأشراف الطالبيين يقوم برعاية شؤون الحجاج منذ خروجهم من بغداد حتى يصلوا مكة وتنتهى مهمته عند عودتهم إلى بغداد (١) .

وكان اختيار أمير الحج يتم فى دار الخلافة فى احتفال عظيم ، يحضره الخليفة والأشراف والقضاة والفقهاء ويخلع فى حضورهم عليه (٢) . وكان حجاج شمالى وشرقى الدولة الاسلامية الواسعة يتجمعون فى بغداد حيث تهيىء لهم الحكومة المركزية كل وسائل الراحة — التى تهون عليهم مشقة السفر ، ووعورة الطريق ، الى الأماكن المقدسة ، كما كانت تزودهم بالماء والطعام الذى كان يقتصر على الأقراص المعجونة باللبن ، والسكر والفواكه (٣) .

وكان موكب الحجاج عند خروجه من بغداد يتقدمه حامل العلم وجند السفر والقواد والدعاة والحجاب (٤) .

وعند وصول الموكب المبارك إلى بيت الله الحرام يقوم أمير الحاج بإلقاء خطبة نيابة عن الخليفة (٥) ، وتعلق القناديل التى أحضرت من بغداد على الكعبة وهى مصنوعة من الذهب والفضة ، وتنصب الأعلام التى نقش عليها اسم الخليفة .. كما فعل أمير الحج أحمد بن الحسين الموسوى نقيب الاشراف الطالبيين سنة ٣٦٠ هـ (٦) .

وبعد الانتهاء من مراسم الحج يعود الموكب الى بغداد حيث يقام احتفال عظيم يحضره الخليفة أحيانا ، ويقوم فيه بتقديم الهدايا والخلع

---

(١) مروج الذهب (٤ : ٣٢٠) .
(٢) مقامة فى قواعد بغداد للكازرونى ص٧٤ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى (٧ : ٢٧٦) .
(٤) مقامة فى قواعد بغداد ص٨٤ .
(٥) الكامل فى التاريخ لابن الاثير (٦ : ٧٤) .
(٦) المنتظم لابن الجوزى (٧ : ٨٤) .

لافراد الحاشية وغيرهم من كبار رجال الدولة [١] .

* * *

وكان يوم الجمعة يُعَدُّ عيدًا صغيرا للمسلمين يحتفلون به كل أسبوع حيث يتوافدون فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، وكان خطباء المساجد يرتدون الزى الرسمى عند القاء خطبة الجمعة وهو القباء الاسود ، وكان هذا زيا رسميا للفقهاء والقضاة حتى سنة ٤٠٠ هـ ثم أصبح بعد ذلك مقصورا على الخطباء والمؤرخين ، واهتم العباسيون كذلك بعيد رأس السنة الهجرية ولما كان هذا العيد متنقلا دائما ليس له موضع ثابت لم يصر عيدا من الاعياد الشعبية بل ظل عيدا فى قصر الخلافة ، لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه [٢] .

وكان العباسيون يحتفلون — كذلك — بالمولد النبوى الشريف منذ بداية القرن الرابع ، أما الاحتفال بمولد أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ومولد ولديه الحسن والحسين رضى الله عنهما فكان قاصرا على الشيعة فى فارس والعراق .

وكان عيد الغدير المعروف بغدير (خُمٍّ) من الاعياد الهامة لدى الشيعة ، وهو يوافق اليوم الثامن عشر من ذى الحجة [٣] . وسبب احتفال الشيعة به ما يرويه المؤرخون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بغدير " خُمٍّ " وهو فى طريق عودته من مكة إلى المدينة وأخذ بيد على كرم الله وجهه وقال له : " أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى " ثم التفت الى أصحابه وقال " من كنت مولاه فَعَلِىٌّ مولاه .. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه " [٤] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى (٧ : ٧٥) .
(٢) الحضارة الاسلامية لمتز (٢ : ٢٩٠) .
(٣) صبح الأعشى (٢ : ٤١٧) .
(٤) المنتظم لابن الجوزى (٨ : ١٦) .

وكان معز الدولة البويهى أول من احتفل بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ فضربت الدبادب (*) والبوقات ، وأسرع الناس إلى زيارة قبور الائمة والأوليـــاء فى الكوفة وبغداد (١) واستمر الاحتفال به طيلة العهد البويهى .

أما أهل السنة فكانوا يحتفلون بإحياء ذكرى يوم الغار مضاهاة لعيـــد غدير " خم " عند الشيعة ، وقيل إنه كان يوافق الثالث والعشرين من ذى الحجة (٢) وهو اليوم الذى دخل فيه الرسول عليه السلام غار " ثور " هو وصديقه أبو بكـــر أثناء الهجرة إلى المدينة ، وكان أهل السنة يبالغون فى الاحتفال بهـــذا اليوم ، حيث يقيمون الزينات ، ويوقدون النيران ، وينصبون الأعلام ، ويظهرون الفرح والسرور ، وقد ظل الاحتفال به حتى نهاية القرن الخامس الهجرى .

أما أعياد الفرس فكان أهمها " النيروز " و المهرجان " والسذق "

ويُعَدُّ النيروز من أهم أعياد الفرس القديمة ، وهو أول أيام السنـــة عندهم ، ويقع عند الاعتدال الربيعى ، وكانت الاحتفالات تقام بهذا العيـــد مدة ستة أيام كاملة (٣) .

وقد احتفل به الناس على اختلاف طبقاتهم منذ أوائل العصر العباسى وكانوا يتبادلون فيه الهدايا ، ويقيمون الأفراح كما كان الفرس يفعلون من قبل (٤) وفضلا عن ذلك اقتدى بعض الخلفاء بالفرس فى جباية الضرائب أيام النيروز (٥) .

وكان الخليفة المتوكل من أكثر الخلفاء اهتماما بتوزيع الهدايا فـــى هذا العيد ، ويروى أنه منح الشاعر الخليع مائة دينار عن كل بيت مـــن

(*) الدبادب : جمع دبداب ، وهو الطبل . د/ سرحان .
(١) المنتظم لابن الجوزى (٨ : ١٦) .
(٢) نهاية الأرب للنويرى (١ : ١٧٧) .
(٣) المرجع السابق (٤ : ١٧٨) وصبح الأعشى (٢ : ٤١٨) .
(٤) صبح الأعشى (٢ : ٤١٩) .
(٥) مروج الذهب (٤ : ٧٢) .

الشعر فى هذه المناسبة [١] .

وكان بعض الخلفاء يتقبلون الهدايا فى هذا اليوم من الرعية ، فالخليفة المأمون أُهْدِىَ إليه سَفَطٌ من الذهب فيه قطعة عود هندى [٢] .

وكان بعض الأمراء ـ أيضا ـ يتقبلون الهدايا فى هذا اليوم أسوة بالخلفاء ، كما فعل عضد الدولة البويهى ـ إذ قبل من أبى اسحاق الصابى رسالة هندسية من استخراجه مصحوبة بأبيات رقيقة من الشعر [٣] .

وكان من مظاهر الاحتفال بيوم النيروز ـ كذلك ـ أن يُرَشّ الماء على المارة ، وقد أكثروا من ذلك مرة فأصاب الجند والشرطة منهم ماء كثير فنودى فى الأرباع ، والأسواق ببغداد سنة ٢٨٤ هـ بالنهى عن رش الماء [٤] .

ويذكر البِيرُونِىّ " أن عادة رش الماء قد استمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى [٥] .

أما عيد " المِهْرَجان " فكان يقع فى السادس والعشرين من أكتوبر ـ أى ـ فى وسط الخريف ، ومدة الاحتفال به ستة أيام ، وكان أفراد طبقات المجتمع يشتركون فى الاحتفال به ، وهو شبيه بالنيروز من حيث تقديم الهدايا والمنح وملابس الشتاء إلى القواد ، ورجال دار الخلافة [٦] .

وكان الخلفاء يجلسون فى هذا اليوم للعامة ، ولا يحتجبون عن أحد صغيرا كان ، أو كبيرا ، شريفا كان أو وضيعا [٧] .

---

(١) مروج الذهب (٤ : ٧٢) .
(٢) نهاية الأرب (١ : ١٧٧) .
(٣) اليتيمة (٢ : ٢٥٥) .
(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٨ : ١٨١) .
(٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٥ .
(٦) اليتيمة (٢ : ٢٥٦) .
(٧) التاج للجاحظ ص ٥٩ .

ومن الأعياد الفارسية التى انتقلت للمسلمين منهم عيد " السَّذق " وكان يعرف بعيد الوَقُودِ ، وقد جرت العادة فى القرن الرابع ، بالتبخير ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار من مراسم الملوك فى تلك الليلة إيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الوحوش فيها وتطيير الطيور فى لهبها والشرب والتَّلَهِّى حولها .

وكانت أشهر ليلة وَقُود فى القرن الرابع عام ٣٢٣ هـ .. ففى هذا العام أمر القائد الفارسى " مرداويج " أمير بلاد الجبل فى غرب إيران قبل ليلة الوقود بمدة طويلة أن تجمع الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة وأن تنقل من واد قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفظ والنفاطين والزرازيق(*) ومن يحسن معالجتها ، واللعب بها ، وتقوم بإعداد الشموع المظالم ، ولم يبق جبل عال ، ولا تل ظاهر إلا وضعت عليه الأحطاب والشوك ، وصيدت له الغربان والحِدَأُ وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع ، وأساطين عظام لم يُر مثلها ليكون الوقود فى ساعة واحدة على الجبال ورؤوس اليفاعات (*) والصحراء ثم عُمِل له سماطٌ عظيم فى الصحراء التى يبرز إليها من داره وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزين بما لم تجر العادةُ بمثله فلما فرغ من ذلك وحضر الوقت الذى ينبغى أن يجلس فيه مع الناس للطعام والشراب ،خرج من منزله ثم طاف على كل ذلك ، فاستحقره ، واستصغر شأنه لأجل سعة الصحراء ، واغتاظ ودخل إلى خيمته ، واضطجع محولا وجهه الى خلاف الباب لئلا يكلمه أحد (1) .

* * *

أما أعياد النصارى ، فكانت كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكانوا يحتفلون بها فى الأديرة التى كانت تنتشر فى العراق ، وغيرها من بلاد المسلمين .

(*) جمع : زرق — بوزن سكر — طائر صياد . د/ سرحان .
(*) جمع يفاع بوزن سحاب وهو التل ، واليافعات : الجبال الشم . د/ سرحان .
(1) الحضارة الاسلامية لآدم متز (٢ : ٢٨٢) .

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة وخمورها المعتقة ، مقصدا لأهل البطالات ، وطلاب اللذة .. وكثيرا ما كان ذكر الأديرة يُقرَن بذكر الخمر والشراب ..

ومن أهم الأعياد النصرانية فى ذلك الحين .. عيد الميلاد ، وكانوا يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران (1) .

وعيد الشَّعَانين ، وكان فى مصر يسمى عيد الزيتون ، وهو يقع فى يوم الأحد الذى يسبق عيد الفصح من كل عام ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ، ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ، ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون ، وكان الدير الأعلى بالموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيرا (2) .

ومن أعيادهم المشهورة " عيد الفصح " وعندهم أن عيسى عليه السلام قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به فى دير " سَمَالُو " شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا حضره ، للقصف والمجون وهناك يدور الشراب فى جو مفعم بالفرح والسرور وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمى :

وَلَرُبَّ يومٍ فى سَمَالُو تَمَّ لى * فيه السرورُ وغيبت أحزانه
وأخٍ يشوب حديثه بحلاوةٍ * يلتذ رجعَ حديثه ندمانه
جمل الرحيق من المدام شرابه
والمحسنات من الأوانس شأنه
فأمرتُ ساقينا وقلتُ له اسقنا
قد حانَ وقتُ شرابنا وأوانه
فتلاعبت بعقولنا نشواته * وتوقدت بخدودنا نيرانه

---

(1) الكامل فى التاريخ (٨ : ٢٢٢) .
(2) الحضارة الاسلامية لآدم متز (٢ : ٢٧٨) .

حتى حسبتُ لنا البساط سفينـــةً
والدّيْر ترقصُ حولنا حيطانُـــه[1]

وكان عيد " دَيْرَ الشمالب " يقع فى آخر سبت من يونيو وكان هذا الدير يقع فى الجانب الغربى من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد وكان أهــل بغداد يقصدونه ويتروضون فيه ، ولا يتخلف عن عيده أحد من النصارى أو غيرهم لانه أعمر موضع ببغداد لما فيه من البساتين ، والنخيل والرياض ، ولموقعــه الفريد وسط البلد [2] .

وإلى جانب ذلك كانت هناك احتفالات تقام فى دار الخلافة تجــرى على نطاق محدود لمنح الخُلَع والألقاب للأمراء والوزراء والقواد والولاة عنــد توليتهم ، وهى تُعَدُّ مظهرًا من مظاهر تكريم الخلفاء لكبار رجال الدولة [3] .

كما كانت هناك احتفالات محدودة ذوات طوابع أسرية كحفــلات الختان ، وكان الرجل يكره أن يختن ابنه منفردا ..

ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه ختن خمسة من أولاده ، وختن معهم جماعة من الأيتام ، ونثر فى هذا الختان خمسة آلاف دينار عينا — أى ذهبا — ومائة ألف درهم وَرِقًا — أى فضة — وفرضت فيه دراهم وكُسًا ويقــال إن النفقة فى هذا الاحتفال بلغت ستمائة ألف دينار [4] .

وعلاوة على ذلك كانت هناك احتفالات أخرى تجرى على نطــاق ضيق كحفلات ختم القرآن الكريم التى كان الأحداث يشتركون فيها بأحســن الأزياء ، ويجوبون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وتقام المآدب ، وتـــوزع الخلع على القارئين [5] .

---

(1) الديارات ص ١٤ للشابشتى .
(2) المصدر السابق ص ٢٤ (3) المنتظم لابن الجوزى (٧ : ١٥) .
(4) الحضارة الاسلامية لمتز (٢ : ٢٩٣)
(5) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص ٣٨٢ .

ولقد كان لهذه الاحتفالات آثار اجتماعية ضارة تذكر منها على سبيل المثال ما يأتى :—

أولا : كان لأعياد النصارى بصفة خاصة آثار سيئة على الأخلاق العامة حيث كانت الاحتفالات تقام بهذه الأعياد على مدار السنة فى الأديرة التى كانت تمتاز بمواقعها الفريدة ، وبساتينها الفسيحة ، وخمورها المعتقة ، وجواريها الحسان ، وغلمانها الملاح ، وكانت ملاجىء لأهل المجون والخلاعة ، وطلاب اللذة والعبث ، والشهوة المحرمة ، حيث كانوا يتوافدون عليها من مختلف الجهات ، يلعبون ويعبثون ، ويرتكبون الفواحش ماظهر منها وما بطن مما كان له أسوأ الأثر على الأخلاق العامة فى المجتمع الاسلامى .

ثانيا : كما كان للأموال الباهظة التى تنفق فى هذه الحفلات فى شتى المناسبات آثار اقتصادية سيئة مما أدى إلى انتشار الفقر بين الطبقات الدنيا التى كانت وحدها تتحمل عبء هذه المصروفات بما يفرض عليها من ضرائب وإتاوات فساءت الأحوال وتعطلت المصالح ، وعمّ الفساد .

وإلى جانب هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لهذه الاحتفالات جوانب حضارية نافعة ، ذلك أن التقاء المسلمين فى مثل هذه الاحتفالات فى شتى المناسبات ، كان من شأنه أن يولد بينهم التعارف والتآلف ويؤدى إلى وحدتهم ، واندماجهم ، خاصة أن المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين كان يتكون من جنسيات مختلفة ، ويتألف من عناصر بشرية متباينة ، وأديان متنوعة .

كما كان للصدقات التى يوزعها الأغنياء على فقراء المسلمين فى شهر رمضان ، ونصب الموائد العامة طوال هذا الشهر الكريم ، وكثرة لحوم

الأضاحى التى كانت توزع على المساكين فى عيد الأضحى كان لذلك كله أثره الواضح فى تخفيف حدة الفقر بين الطبقات الكادحة ، وإحلال روح الجماعة لديهم ، والتغلب على الأحقاد التى تتولد فى القلوب نتيجة للظلم الاجتماعى وسوء التوزيع وفقدان العدالة الاجتماعية .

وبالاضافة إلى ذلك كان تنظيم مسيرة الحجاج إلى بيت الله الحرام والإشراف التام على موكب الحج من طرف الحكومة المركزية فى بغداد مؤديا إلى تأمين طريق الحجاج وانتشار الأمن بينهم ، كما كان له أثره البالغ فى تعظيم حرمات الله ، والمحافظة على فرائضه ، وأداء واجباته ، وإقامة شعائر الاسلام الحنيف كما أدى هذا العمل العظيم إلى الحفاظ على هيبة المسلمين بين الأمم ورفع راية الاسلام عالية خفاقة بين الشعوب .

* * *

:: الفصل الخامس ::

" الغناء والموسيقى "

١ ـ الغناء وأطواره عند العرب :

أ ـ في العصر الجاهلي :

عرف العرب الغناء منذ الجاهلية ، والدارس للشعر الجاهلي يجده مرتبطا منذ نشأته بالغناء والموسيقى ، وفي شعر امرئ القيس ، ما يدل على أنه كان يغني أشعاره في جمع من النسوة .. فكن يعجبن بانشاده ويشتقن الى سماعه حيث يقول :

يَرُعْنَ إلىَ صَوْتي إذا مَا سَمِعْنَهُ
كما تَرْعَوى عِيطٌ إلى صَوْتِ أَعْيَس(١)

وفي أواخر العصر الجاهلي ظهر شاعر جاهلي مشهور هو الأعشى كان يغني أشعاره على آلة موسيقية معروفة باسم الصَّنج ، ولذلك أطلق عليه لقب " صَنَّاجَةُ العرب " .

وكثر في الشعر الجاهلي ذكر الغناء والمغنين ، والموسيقى ، وآلاتها مثل قول الأعشى في معلقته :

وُمسْتَجِيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ يُسْمِعُه
إِذَا تَراجَعَ فِيهِ ٱلقَيْنَةُ ٱلفُضُلُ(٢)

وكقول طرفه في معلقته :

نداماى بيضٌ كالنجومِ وقينةٌ
تروح علينا بين برد وَمُجْسَد

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦ .

(٢) مستجيب : عود يستجيب الى الصج وهو دوائر رقاق من نحاس ، يصفق باحداهما على الأخرى .
والفضل : التي تلبس ثوبا واحدا رقيقا .

رحيبٌ قِطَابُ الجيبِ منها رفيقــة
بجـس الندامـى بَضّـة المتجرد

إذا نحن قلنا : أَسْمِعِينَا انبرت لنا
على رسلها مطروفة لم تسـدد
إذا رَجّعَتْ فى صوتها خلتَ صوْتَها
تجاوبَ أظآرَ على ربـع ردى[1]

ثم أخذ الغناء يرقى ويتعقد فى أواخر العصر الجاهلى ــ روى الطبرى أن هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان .. وجماعة من نسـاء قريش كُنّ يضربن على الدفوف فى غزوة أحد ، وكانت هند تغنى فى أثنـاء هذا العزف مقطوعات شعرية غنائية منها قولها :

إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِـقْ * وَنَفْـرُشُ النَّمَـارِقْ
أو تُدْبِـرُوا نُفَـارِقْ * فِرَاقَ غَـيْرِ وَامِـقْ[2]

وفى الاغانى " أن أبا سفيان لما نصح لقريش أن ترجع فى غزوة بـدر بعد أن رجعت القافلة سالمة إلى مكة قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بَدْرًا فنقيم عليه ثلاثا ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمـور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب[3] .

وذكر ابن رشيق " أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعـر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر[4].

---

* المجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران .
بضة المتجرد : ناعمة الجزء المتعرى من جسدها .
مطروفة : كأن عينيها طرفت .
ربع : ولد الناقة .
ردى : هالك .

(١) شرح المعلقات السبع ص ٧٥ للزوزنى
(٢) الطبرى (مجلد أول ــ ١٤٠٠) .
(٣) الاغانى (٨ : ٣٢٧) ط دار الكتب
(٤) العمدة (٣ : ٣٧) .

وفى أخبار امرئ القيس .. أنه لما طرده أبوه كان يسير مع جماعة من صعاليك العرب وشذاذهم ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فيصيد ثم يعود فيأكل ويأكلون معه ، ويشرب الخمر ويسقيهم وتغنيه قيانه [1] .

كل هذه النصوص والشواهد تؤكد لنا بوضوح أن العرب فى الجاهلية قد عرفوا الغناء وأحبوه ، واستمتعوا به ، كما عرفوا الموسيقى ، وآلاتها ، وكانوا يستخدمونها فى الغناء وينشدون عليها الأشعار مما يدل على ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء والموسيقى منذ نشأته .

ب ـ الغناء فى العصر الأموى :

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الإسلامى وجدنا موجة الغناء تتراجع الى الوراء ، وتأخذ فى التلاشى والانحسار ، أمام تعاليم الاسلام وحصافة أحكامه ، ومشغولية المسلمين بالغزو ، والجهاد فى سبيل الله ، وانصرافهم عن الشعر والغناء .. إلى قراءة القرآن الكريم ، وتدبر آياته ، والعكوف على السنة النبوية ، ودراسة أحكامها .

فلما وصل بنو أمية إلى الخلافة وحولوها إلى ملك وراثى عضوض ظهرت الأحزاب السياسية ، وعادت النعرة الجاهلية ، وأقبل العرب على سماع الشعر وروايته ، خاصة الشعر الجاهلى ، أو ما يحاكيه فى ألفاظه ومعانيه ، كما أقبلوا بشغف على الغناء والموسيقى خاصة فى الحجاز الذى عرف بكثرة المغنيات والمغنين ، وكان أكثرهم من الموالى من فرس وروم وغيرهما ، واشتهر منهم فى مكة : طويس وسائب وابن سريج وابن مسجح ، وابن محرز وغيرهم .. كما ظهر معبد ومالك بالمدينة .

---

(1) الأغانى : دار الكتب (٩ : ٨٧) .

أما المغنيات فكن كثيرات بالمدينة واشتهرت منهن جميلة وسلامة وعزة ، وحَبَابَةُ ، وبُلْبُلةُ ولَذَّةُ العيش وسعيدةُ والزرقاء وعقيلة وخُلَيْدَةُ وغيرهن[1].

وازدهر الغناء في العصر الأموي وتنوعت ألوانه فعرف الغناء العادي كما عرف الغناء المصحوب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية بينما يغـــنى المغنـــون ..

وقد روى أبو الفرج " أن الناس اجتمعوا عند جميلة ، فضربت ستـارا ، وأجلست الجواري كلهن فضربت وضربن على خمسين وترا فتزلزلت الدار ، ثم غنت على عودها ، وهن يضربن على ضربها [2].

واشتهر بعض خلفاء بني أمية بحبهم للغناء ، وميلهم للطرب .. أمثال: يزيد بن عبدالملك الذي قال عنه أبو حمزة الشاري في خطبته : إنه كان يشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، وحَبَابَةُ عن يمينه ، وسَلَّامَةُ عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ ، قَدَّ ثوبه ، ثم التفت إلـــى إحداهما وقال : ألا أطير ؟ [3].

واذا كنت أشك في صحة كلام أبي حمزة الشاري عن الخليفة اليزيد بن عبدالملك — نظرا للخصومة السياسية التي كانت قائمة بين جماعة الخـــوارج وبين بني أمية ، ورغبة كل منهما في النيل من خصمه ، والغض من شأنـــه ، والتشهير به أمام المسلمين — فمن الثابت تاريخيا أن ابنه الوليد بن يزيد بن عبدالملك كان شاعرا خليعا يحب الغناء ، ويؤلف فيه ، ويضرب بالعود ويوقـــع بالطبل ، ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز [4].

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ص٥٣ د. شوقي ضيف .
(٢) أغاني ط دار الكتب (٨ : ٣١٨) .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٢ : ١٢٣) .
(٤) أغاني دار الكتب (٩ : ٢٧٤) .

ج ـ الغناء فى العصر العباسى :

أما فى العصر العباسى فقد ارتقى فن الغناء ، وازدهرت الموسيقى وتقدمت الفنون والآداب ، " ومن يقرأ كتاب الاغانى الذى ألف فى القرن الرابع الهجرى يخيل اليه أنه لم يكن فى العصر العباسى الا الغناء والموسيقى ، ولعل مما يدل على قيمة الغناء فى ذلك العصر أن الجارية اذا كانت مغنية قومت تقويما ممتازا "(١) .

ومن أشهر المغنين الذين علا شأنهم وبعد صيتهم ، وطار ذكرهم فى ذلك العصر إبراهيم الموصلى وإسحاق ومُخَارق وعَرِيب وغيرهم (٢) .

ويرجع السبب فى رقى الغناء فى ذلك العصر إلى عدة عوامل نذكر منها ما يلى :ـ

أولا : اختلاط العباسيين ، والعرب الفاتحين بالفرس والروم وغيرهم من الموالى بعد حركة الفتوحات الكبرى ، وتأثرهم بهم ، وكان كثير من هؤلاء مثقفين ثقافة ، واسعة فى الغناء والموسيقى فغنوا بالعيدان والمزامير ، والمعازف ، وسمع العرب تلحينهم فأعجبوا بهم ولحنوا عليهم الأشعار (٣) .

ثانيا : انتشار الجوارى فى المجتمع العباسى بعد الفتوحات ، وكان أغلبهن من الروميات والفارسيات المثقفات بثقافة أجنبية راقية ، وقد اهتم النخاسون بتعليمهن الأدب والشعر والغناء والموسيقى ليبعن فى الأسواق بأسعار عالية (٤) .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦١ د . شوقى ضيف .
(٢) نهاية الأدب للنويرى (٥ : ٩٦) .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٠ .
(٤) مروج الذهب (٤ : ١٦) .

وكانت الجارية الحاذقة منهن تروى أربعة آلاف صوت [1] ، وقد قامت الجوارى يدور كبير فى ترقية الفنون وعلى رأسهن الجارية عريب التى اشتهرت بنظم الشعر كما نبغت فى الغناء والضرب على الآلات الموسيقية كالعود [2] .

ويصفها صاحب الاغانى بقوله : " كانت عريب مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة ، وكانت وافرة الحظ والمذهب فى الكلام ، ونهاية فى الحسن والجمال ، والظرف ، وحسن الصوت ، وجودة الطرب ، واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم ، والاوتار ، والرواية ، والشعر [3] ،(*)

ومن الجوارى اللائى اشتهرن بالضرب على الآلات الموسيقية بجانب الغناء شاجية جارية عبدالله بن طاهر التى اعترف بفنها الخليفة المعتضد .

ومنهن عبيرة الطنبورية التى اشتهرت بالضرب على الآلات الموسيقية خاصة الطنبور ، وكانت إلى جانب ذلك تميل إلى دراسة الأدب والشعر [4] .

ثالثا : كان لطبقة المغنين تأثير كبير فى رقى الغناء والموسيقى فى المجتمع وعلى رأس هذه الطبقة : إبراهيم الموصلى الفارسى الأصل الذى اشتهر بالغناء وبلغ من إجادته له أنه استطاع أن يحدد الخطأ من ثلاثين صوتا لثلاثين جارية يضربن ويغنين جميعا على طريقة واحدة ، وبنغم واحد على الاوتار ، وكان يقوم بتدريس الغناء ، ويجرى امتحانا للمتقدمين منهم بأمر الخليفة [5] .

---

(١) البيان والتبيين (٤ : ٩٢) .
(٢) مروج الذهب (٤ : ١٦) .
(*) هذا هو المشهور وفى القاموس: أن عريب اسم رجل واسم فرس . دكتور / سرحان .
(٣)(٤) الاغانى (١٩ : ٣٤ ؟) .
(٥) الاغانى (١ : ٢٨١) .

ومن المغنين من جمع بين صناعة الغناء وتأليف الكتب كما فعل جحظة المغنى الذى ألف سبعة كتب فى الغناء والمنادمة والطعام وأخبار الخلفاء (١) .

رابعا : اهتمام الخلفاء بالغناء ، والموسيقى ، وتشجيع المغنين بالمنح والهدايا وقد بلغ من تقدير بعض الخلفاء للمغنين أنهم كانوا يدعونهم لحضور مجالسهم ، كما فعل الخليفة الواثق الذى سمح للمغنى إسحاق بحضور مجلسه ، وكان للواثق العلم بالألحان والأصوات حتى إن مجموع أصواته بلغت حوالى المائة (٢) .

" ولعل مما يدل على مبلغ ما وصلت إليه هذه الصناعة من قيمة فى هذه العصور أننا نجد طائفة من الخلفاء تترك فيها أصواتا مثل الواثق والمنتصر والمعتز ، وابن المعتز ، وقد فتح أبو الفرج فى كتابه فصلا يدرس فيه ماتركه أولاد الخلفاء من صنعة الغناء وصنيع ابراهيم بن المهدى وأخته عُلَيّة مشهور فى هذا الباب " (٣) .

" ولعل ذلك الرقى فى فن الغناء يفسر لنا انفعال الناس ازاء هذا الفن الذى أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون مجالس المغنين ، كانوا ينطحون العمد من حسن ما يستمعون بل كانوا يرمون بأنفسهم فى الفرات من شدة الطرب لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم ويعلقون نعالهم فى آذانهم لا يعرفون ما يصنعون"(*) (٤) .

---

(١) الديارات ص ١٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣٦ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦١ .

(*) وواضح أن هذا الكلام مبالغ فيه جدا . د/سرحان .

(٤) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦٢ .

وقد ظل المغنون ، والمغنيات موضع رعاية وتشجيع كثير من خلفاء بنى العباس، ولم ينصرف عنهم سوى الخليفة المهتدى الذى حرم الغناء[1] وكذلك القاهر الذى قبض على المغنين وأمر ببيع المغنيات من الجوارى .

وعلى الرغم من تحركات الحنابلة وهجماتهم المتكررة على منازل المغنين والمغنيات ، لم يتأثر فن الغناء بذلك ، وظل الاهتمام به وعقد مجالس الطرب سائدا فى العراق وفارس طيلة القرن الرابع الهجرى ..

٢ — مجالس الطرب والغناء :

كانت مجالس الطرب تعقد فى قصور الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وكان المغنون والمغنيات والندماء يحضرونها ، وكانت هذه المجالس تقام فى شتى المناسبات كالاحتفال بتولية خليفة جديد ، فيغنى المغنون فى هذه المناسبة بأغانٍ تتضمن تمجيد الخليفة وتهنئته بالمنصب الجديد كما كانت هذه المجالس تقام فى الأعياد والمواسم كالنيروز والمهرجان .

ويذكر المسعودى " أن الخليفة الراضى أمر فى ليلة " المِهْرَجَان " بإحضار الجلساء فى مجلسه ، بقصر التاج المطل على دجلة ، ونفح فى ذلك اليوم جميع الندماء والمغنين والملهين بكثير من الدراهم والدنانير والخلع وأنواع الطيب [2] .

وكانت مجالس الغناء تقام أيضا فى حفلات الزواج والختان ، كما فعل الخليفة المتوكل عند الاحتفال بختان ابنه أبى عبدالله المعتز إذ حضر المغنون والموسيقيون أمثال : عمرو بن بانة وابن المكى ، وأحمد بن أبى العلاء ، وسليمان الطبال ، وصالح الدقاق ، وزملم الزامر، ومن المغنيات

---

(١) فوات الوفيات للكتبى (٢ : ٥٣٥) .
(٢) مروج الذهب (٤ : ٧٨) .

عريب وبدعة جاريتها وسراب وعدد كبير غيرهن (١) .

وكانت المجالس الغنائية أحيانا تقام للتسلية والترفيه عن النفس كما حدث من الخليفة المنتصر اذ أقام مجلسا للترفيه عن نفسه يوما ودعا اليه المغنى بناناً فغناه :

لقد طال عهدى بالامام محمد
وما كنت أخشى أن يطول به عهدى (٢)

وفى هذه المجالس كان المغنون والموسيقيون والندماء والشعراء يجتمعون فى مجلس الخليفة عادة كما يجتمعون فى مجالس كبار رجال الدولة فيغنى المغنون والقيان من خلف الستارة (*) ويطرب الجميع ويمرحون وكان الخليفة الواثق من أكثر الخلفاء العباسيين ميلا إلى إقامة الحفلات الغنائية ، فقد روى أنه أقام مجلسين للغناء فى ليلة واحدة (٣) .

وكان كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء والقواد يقيمون أيضا مجالس للغناء كما كان الخلفاء يفعلون فيروى : أن أبا الحسن على بن الفرات وزير المقتدر كثيرا ما كان يقيم حفلات غنائية يدعو إليها جماعة من خواصه وكان يحضرها من المغنين والمغنيات عدد كبير (٤) .

وكان قاسم بن عبيد الله وزير المعتضد يقيم المجالس الغنائية ويحضرها الأدباء والشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث فى هذه المجالس أن تثار أحاديث

---

(١) الديارات ص ١٥٤ .
(٢) مروج الذهب للمسعودى (٤ : ٧٨) .
(*) هذا كله يدل على أن هذه المجالس — لو صح الحديث عنها — كانت متحفظة فى تصرفاتها وكانت فى حدود ماوراء الستارة .دكتور سرحان .
(٣) الاغانى (١٩ : ١١٨) .
(٤) تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء للصابى ص ١٣٠ .

حول موضوع الشعر وقائله (١) .

كذلك اتخذ بعض الأمراء والأثرياء فى مساكنهم أماكن واسعة ليقيموا فيها حفلات الغناء ، فالأمير بجكم التركى أقام فى ليلة " المهرجان" مجلسا غنائيا فاق به مجلس الخليفة الراضى (٢) .

وكانت حفلات الغناء تقام — أيضا — فى بيوت الجوارى اللواتى كن يحترفن الغناء ، وكان عدد كبير من ذوى المكانة فى المجتمع يحضرونها ، وعرفت الجارية المغنية عريب بذلك (٣) .

ولم يكن هناك فارق كبير بين مجالس الغناء ومجالس الشراب لأن العادة جرت على أن يحضر الندماء مجالس الغناء التى كان الشراب يقدم فيها أحيانا ومثل هذه المجالس كان يحضرها مختلف طبقات الشعب (٤) .

وكان مما يراعى فى مجالس الغناء والشراب أن يجلس الندماء والمغنون ، والموسيقيون حسب مراتبهم ، ومراكزهم الاجتماعية ، ويذكر الجاحظ " أن الفرس هم الذين رتبوا الندماء والملهين والمغنين وجعلوهم طبقات ، واقتبس العباسيون منهم هذه الطريقة (٥) .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد قدر للغناء أن يزدهر فى هذا العصر وأن يهتم به كثير من الخلفاء والحكام وأن يشغل بسماعه مختلف طبقات المجتمع مما كان له أبلغ الأثر فى الحياة الاجتماعية ، وأسوأ المواقب على

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى (٤ : ٥٥) .
(٢) مروج الذهب (٢ : ٥٣) .
(٣) نهاية الأرب (٥ : ٦٦) .
(٤) اليتيمة (٢ : ٣٠٩) .
(٥) التاج للجاحظ ص ٣٣ .

الأخلاق العامة ، فقد كانت الجوارى المغنيات يظهرن أمام الرجال ويغنين — غالبا — بشعر ماجن خليع ، وفى بعض الأحيان كانت حفلات الغناء تقام بين مجالس الشراب ، كما كانت تقام فى الأديرة والبساتين ، خاصة فى الأعياد والمواسم " كالنيروز والمهرجان " وفى عيد رأس السنة الميلادية حيث يجتمع فيها الرجال لسماع صوت النساء مما أشاع الانحلال والمجون فى المجتمع وأدى إلى ضعفه وتفسخه ، كما كان لهذه المجالس التى كان الخلفاء يقيمونها فى قصورهم آثار سيئة على الخلفاء أنفسهم حيث كانوا ينصرفون إلى هذا العبث تاركين — وراءهم — أمور الدولة ، وأحوال الرعية ، يرعى فيها الفساد مما أدى الى ضعفهم وخنوعهم ، وضياع هيبتهم ومكانتهم وسيطرة الموالى من الفرس والأتراك عليهم .

وعلاوة على ذلك كان للأموال الطائلة التى كانوا ينفقونها فى شراء الجوارى المغنيات وعلى مجالس الغناء والطرب آثار اقتصادية مدمرة أدت إلى انتشار الفقر والجهل فى المجتمع ..

وإلى جانب هذه الآثار الضارة كان لهذه الموجة من الغناء والموسيقى آثار نافعة فقد ارتقت الأذواق ، ونمت المواهب ورق الشعور ، وانتشر السرور والتفاؤل لدى طبقات المجتمع ، كما كان لهذه الموجة آثار إيجابية أخرى فقد تقدمت الفنون وارتقت الآداب ، ورق الشعر ، وعذب أسلوبه وتنوعت أوزانه ، وتعددت مقطوعاته على نحو ما سنذكره فى موضعه — إن شاء الله تعالى — عند حديثنا عن أثر الغناء والموسيقى فى أدب اليتيمة .

* * *

:: الباب الثانى ::

" أبو منصور الثعالبى وكتابه اليتيمة "

١ ـ الفصل الأول :

حياة الثعالبى

٢ ـ الفصل الثانى :

ثقافته ومؤلفاته

٣ ـ الفصل الثالث :

اليتيمة

أ ـ التعريف بها

ب ـ الدافع الى تأليفها

ج ـ منهج الثعالبى وخصائصه فيها

٤ ـ الفصل الرابع :

أ ـ مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجرى

ب ـ تأثرها بالمؤلفات السابقة

ج ـ أثرها فى الكتب اللاحقة

٥ ـ الفصل الخامس:

اليتيمة فى ميزان النقد

* * *

:: الفصــــل الأول ::

" حيـاة الثعالـــبى "

أ — مولـــده ونشـــأتـــه

ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي بِنَيْسَابُورَ وهـــي يومئذ قلعة من قلاع العلم ، وحصن من حصون المعرفة ، وقد وصفها ياقـــوت الرومي بقوله :

" نَيْسَابُورَ " بفتح أوله والعامة يسمونه " نشاوور " وهي يومئذ مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم أرَ فيمـــا طوفت من البلاد مدينة مثلها ، وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى" (١) .

في هذه المدينة العريقة ، ذات الحضارة المجيدة .. ولد الثعالبي وكانت ولادته سنة ٣٥٠ هـ وقد أجمع على ذلك كل من أرخ له أو ذكـــر اسمه ، ولم يكن مولده في بيت رفيع العماد ، عظيم الجاه ، واسع الثـــراء ، وانما وُلِدَ في بيت متواضع من أسرة فقيرة ، يعمل أفرادها في خياطـــة جلود الثعالب وعملها ، ذكر ذلك ابن خلكان حيث قال :

" الثعالبي " — بفتح الثاء المثلثة ، والعين المهملة ، وبعد الألف لام مكسورة ، وبعدها باء موحدة ، نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها ، قيل له ذلك لأنه كان فَرَّاء " (٢) .

وقد أخذ الثعالبي يعمل فيما يعمل فيه أهله من هذه الحرفـــــة المتواضعة ولكنه لم يلبث أن تبرم بها فتركها واشتغل معلما للصبيـــان (٣) على هذه الوظيفة الجديدة تدر عليه ربحا وافرا ، وتكفل له حياة طيبـــة ، ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت أسوأ من سابقتها ، فظل مُقَتَّرًا عليه فـــي الرزق ، وبقي يشعر ببؤس شديد ، وحرمان عظيم يتمثل في قوله :

---

(١) معجم البلدان (٨ : ٣٥٦) .
(٢) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
(٣) طبقاة النحاه واللغويين (٢ : ١٠٨) .

ثلاثٌ قد بُليتُ بهن أضحتْ
لِنارِ القلبِ مني كالأثافي
ديونٌ أنقضتْ ظهري وجَوْرٌ
من الأيامِ شابَ له غُدافي
وفقدانُ الكفافِ وأيُّ عيشٍ
لمن يُمنى بفقدانِ الكفافِ ؟!! (1)

ولم يذكر التاريخ لنا شيئا عن طفولته المبكرة ، أو نشأته الأولى شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من علمائنا القدامى ، ولو قدر لنا أن نعرف شيئا عن تفاصيل حياته فى الصغر لأمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على ميوله واتجاهاته ، ولكن المؤرخين أغفلوا الكثير من أخبار حياته المبكرة ، ولم يذكروا شيئا ذا بال عن نشأته إلا ما كان من عمل أسرته فى خياطة جلود الثعالب ، وإلا ما كان من عمله بعد ذلك معلما للصبيان .

ولم يذكر التاريخ كذلك شيئا عن أسرته ، هل كانت عربية الأصل ؟ أم فارسية معربة ؟ ، فأبوه محمد بن إسماعيل لا يعرف عنه إلا اسمه ، وسكوت المؤرخين عنه ، وتجاهلهم له يدل على أنه لم يكن له شأن يذكر ، ولم يذكر التاريخ من سلسلة نسبه إلا أباه محمدا وجده إسماعيل . وذلك يدل على أن أسرته لم تكن عربية ، إذ كان شأن العرب قديما الاهتمام بمعرفة أنسابهم ، كما أنهم كانوا يترفعون — غالبا — عن الحرف المتواضعة ، والصناعات المهينة — كخياطة جلود الثعالب ، ويتركونها للموالى والأعاجم .

وأغلب الظن أن أبا منصور — هذا — كان فارسى الأصل ، وأنه ولد لأبوين متعربين ، وأنه كان يتكلم العربية ، ويؤلف بها لأنها كانت للشعب الاسلامى لغة قومية ، لكونها لغة القرآن الكريم ، ولغة نبى المسلمين ، محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، خاصة أن الثعالبى أحبه ، وأخلص لتعاليمه وهذا هو سرحب

---

(1) خاص الخاص ص ١٨٩ .

الثعالبى للعربية ، واقباله عليها ، وقد صرح الثعالبى نفسه بسبب عشقه العربية ، والتعلق بها فى مقدمة كتابه " فقه اللغة ، وسر العربية " ، حيث قال :

" من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب ، أحب العربية ، التى نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب ، والعجم ، ومن أحب العربية عنى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة .. إذ هى أداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد " (١) .

ولذلك نجد الثعالبى ــ وهو الذى عاش فى بلاد فارسية ، يؤلف كتبه ، باللغة العربية ، التى أحبها وأخلص لها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ولغة النبى العربى عليه السلام .

فمصدر حبه للعربية هو الدين ، وليس التعصب للعرب والعروبة وهذا يؤكد ماذهبت إليه من أن الثعالبى لم يكن عربيا ، وإنما كان فارسيا متعربا شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من الموالى الذين كانوا يحبون العربية لأنها لغة نبى الإسلام ، ولغة القرآن الكريم ، الذى يؤمنون به ، ويخضعون لتعاليمه وأحكامه ..

وقد نشأ الثعالبى محبا للعلم متطلعا إلى المعرفة ، فأقبل على القراءة ، وعكف على الدراسة ، واختلف فى أوقات فراغه إلى الشيوخ ، وما هى إلا سنوات حتى صار علما من أعلام الفكر ، وشيخا من شيوخ الأدب ، وإماما

---

(١) مقدمة فقه الله وسر العربية للثعالبى ص٢ طبع بيروت .

من أئمة اللغة ، ومؤلفا كبيرا فى كل فرع من فروع المعرفة ،فودع حياة البؤس والتعاسة وأقبلت عليه الدنيا بزخرفها ونعيمها ، واستطاع بعلمه الغزير وأدبه الرفيع ، وعلو قدمه فى التأليف ، أن يسير فى سمت الملوك ويتفيأ ظلال السلاطين ، وينعم بخلعهم وعطاياهم ، فقد اتصل بالصاحب ابن عباد ، وزير فخر الدولة البويهى ، وأهداه كتابه " لطائف المعارف " كما اتصل بالأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير وأهداه كتابيه " المبهج " و " التمثيل والمحاضرة " ، وأهدى " سحر البلاغة " ، و " فقه اللغة " إلى الأمير أبى الفضل الميكالى ، وأهدى كتبه " النهاية فى الكناية " و " نثر النظم " و " اللطائف والظرائف " إلى مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، كما أهدى كتابه " غرر ملوك الفرس " إلى شقيق السلطان محمود المعروف بأبى المظفر نصر (١) .

وفضلا عن ذلك كله كان الثعالبى صديقا حميما للأمير أبى الفضل عبيدالله الميكالى ، وكانت بينهما رسائل ومكاتبات فى الأخويات رواها أبو إسحاق الحُصْرىُ فى كتابه " زهر الآداب " (٢) ، كما كان صديقا حميما لوالد البَاخَرْزىّ صاحب كتاب " الدُّمية " وكانت الدار تلاصق الدار ، ويجمع بينهما الجوار ، ويدور بينهما فى الأدب حوار ، وتجرى لهما فى المعارضة أشعارا (٣) .

" وقد نشأ الباخرزى أبو الحسن على بن الحسن صاحب " الدمية " فى حجر الثعالبى بعد وفاة أبيه ، يأخذ من أدبه ، ويفيد من كتبه ، ويربط سببه بسببه ، وأبو منصور يرعاه بعطفه ، ويلحظه بطَرْفه ، وكأنى بهذا الصديق والد الباخرزى قد فارق الدنيا ، وترك ابنه لأبى منصور ثقة بأنه

---

(١) تاريخ الأدب فى ايران من الفردوس الى السعدى للمستشرق براون ص١١٦ .
(٢) زهر الآداب (٢ : ١١٤) .
(٣) دمية القصر للباخرزى ص ٤٣٦ .

سيحسن كفالته ويجيد تربيته ، .. ولم ينس الباخرزى هذا الفضل لأبى منصور عندما كبر وصار من المؤلفين ، فكان واحدا ممن ترجموا لحياة الثعالبى ولقد كنا نود أن تكون ترجمته لشيخه ترجمة طويلة مفصلة يبسط فيها الكثير عن حياة الثعالبى ومؤلفاته خاصة أنه تربى فى حجره ، ونشأ فى بيته ، ويعرف الكثير عن دقائق حياته ..

ولكن على الرغم من ذلك كله لم يكن ماذكره الباخرزى من أمره سوى حديث معروف ، وخبر مألوف ، ونبأ مكشوف ولم يتكلم عن تفاصيل حياته وكتبه ، ولو قد فعل لأسدى لأستاذه وإلى عشاق الأدب والعربية خيرا كثيرا .

وربما كان أمرا عاديا أن الباخرزى لما سكت عن تفصيل حياة شيخه ، سكت غيره من المؤلفين فلم يذكروا من حياة الثعالبى أكثر من هذا الخبر المعروف حتى الْحُصْرِى المزامن للثعالبى لم يذكر عنه أكثر مما ذكر الباخرزى وربما كان الحصرى معذورا فى ذلك ، لأنه لا يجمعه بأبى منصور إلا أنه زامنه ، أما الباخرزى فتجمعه بأستاذه صلات كثيرة فقد كان له جارا وابنا وتلميذا ومع ذلك لم يذكر عنه الا القليل " [1] .

وأغلب الظن أن الذى جعل الباخرزى وغيره لا يذكرون .. عن أبى منصور إلا هذا الخبر المعروف : هو أن الرجل كان فى عصره ذا شهرة واسعة وصيت بعيد ، وأن شهرته ، ومؤلفاته ، قد جعلت المؤرخين يتوهمون أن حديثهم عنه لا فائدة منه ، ولا قيمة له ، بعد أن عرف الناس من أمره الكثير ..

وقد صرح أَلْبَاخَرْزِىُّ فى حديثه عنه بما يفيد ذلك اذ يقول :

" هو جاحظ نَيْسَابُورَ ، وزبدة الأحقاب والدهور ، لم ترَ العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو الْمُزْنُ يُحْمَدُ بكل لسان ؟ أو كيف

---

(١) تقديم " التمثيل والمحاضرة " للأستاذ عبدالفتاح محمد الحلو .. بتصرف .

يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان " [(١)] .

فهو يشبهه فى شهرته بالجاحظ ، وفى فضله بالمزن ، وفى بعد صيته وظهور أمره بالشمس التى لا تخفى بكل مكان .

ورجل له هذه الشهرة الواسعة ، وتلك المنزلة العالية لا يحتاج إلى تعريف .. خاصة لأهل عصره وزمانه .

وربما كان هذا — فى رأيى — هو ما حدا بالباخرزى والحصرى وأضرابهما من المؤلفين إلى الإحجام عن ذكر تفاصيل حياته ، إيمانا منهم بأن الرجل معروف للخاصة والعامة ، والكلام عنه يعد تحصيل حاصل .. ومازلنا فى عصرنا هذا . نقول عن الرجل المشهور ذى الصيت البعيد الغور ، إنه لا يحتاج إلى تعريف .. نعنى بذلك أنه معروف للجميع ..

ولم يكن فى حياة أبى منصور — على مايبدو — شىء غريب ، وإنما كانت حياته مستقرة ، هادئة ، ومقسمة بين القراءة والتأليف وإفادة الكثيرين من تلاميذه .

وتمضى حياته على هذا النحو حتى يلقى ربه راضيا عنه بعد أن ترك تراثا أدبيا ضخما ، وبعد أن وصل فى الشهرة والصيت إلى شأو جد بعيد ، وبعد أن احتل مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة بين أدباء عصره .

وكانت وفاته سنة ٤٢٩ هـ ذكر ذلك الباخرزى فى " الدمية " [(٢)] والحصرى فى " زهر الآداب " [(٣)] ، والعباسى فى " معاهد التنصيص " [(٤)] .

---

(١) دمية القصر للباخرزى ص ٤٣٦ .
(٢) دمية القصر وعصرة أهل العصر ص ٤٣٧ .
(٣) زهر الآداب (١ : ١٦٨) .
(٤) معاهد التنصيص (٣ : ٢٦٦) .

وابن الأنباري في " نزهة الألباء " (١) ، وابن خلكان في " الوفيات " (٢)

ولكن هناك من المؤرخين من ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٠ هـ ومن هؤلاء اليافعي في " مرآة الجنان " (٣) وحاجي خليفة (كاتب حلبي) في " كشف الظنون " (٤) وابن العماد في " شذرات الذهب " (٥)

وأغلب الظن أن وفاته كانت سنة ٤٢٩ هـ لأن الذين ذكروا ذلك كانوا أسبق الى عصر الثعالبي من غيرهم ..

ولعل الذي أوجد هذا اللبس ، أنه أشيع أن الثعالبي قد عاش ثمانين عاما مما حدا بالفريق الثاني أن يذكر وفاته ضمن أحداث سنة ٤٣٠ هـ .

وربما كانت وفاته في أواخر سنة ٤٢٩ هـ فكان هذا الوهم من المؤرخين ، ولو أن وفاته كانت في أولها لما اختلط عليهم هذا الأمر .

ب ــ أخلاقه

كان أبو منصور الثعالبي من أعظم أدباء القرن الرابع خلقا وأكثرهم نبلا وفضلا ، وأشدهم تمسكا بمبادئ الدين ، وخضوعا لتعاليمه ، وامتثالا لأوامره ، واجتنابا لنواهيه ..

وعلى الرغم من كثرة الفساد في عصره ، وانتشار المجون والفسق ، لم يُعرف عنه أنه مشى إلى ريبة ، أو أتى فعلا يثلم دينه ، أو يشين شرفه ، ولم يسمع عنه أنه تصر في إقامة الشعائر الدينية ..

---

(١) نزهة الألبا في طبقات الأدبا ص ٣٦٥ ط دار المعارف .
(٢) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
(٣) مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان (٣ : ٥٣) .
(٤) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (٢ : ٦٥٨) .
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤ : ٢٤٧) .

والدارس لكتبه الكثيرة التى خلفها لنا: يشعر بأن الرجل كـــان سليم الديـن ، صحيح العقيدة ، كامل المروءة ، محبا للاسلام ، متعلقـــا بالعربية ، مشغوفا بها ٠٠

وكان الى جانب ذلك عظيم الوفاء ، شديد التواضع لين العريكة ، حسن الشمائل ، كثير المجاملة للآخرين ٠٠ ولعل هذا هو ما جعل النقـاد المحدثين [1] يتهمونه بضعف الشخصية لأنه يكيل المدح لمن يترجم لهـــم بدون حساب ٠٠

وعندى أن ذلك لايدل على ضعف الشخصية بقدر ما يدل عـــلى التواضع والحلم والمجاملة ٠٠

والدارس لكتبه — على كثرتها — لايرى فيها أثرا للزهو ولا للكبريـــاء — شأن غيره من أدباء ذلك العصر ونقاده، أمثال : المتنبى ، والصاحب ، والحاتمى ، وغيرهم — وإنما نلمس فيها اليسارة والسهولة والتواضع الجم ٠

والدارس لكتبه يلمس فيها كذلك أمانته العلمية ، حيث ينســـب المنقول إلى قائله ، ويلقى بالمسئولية على الراوى ، فيقول مثلا " حدثنى فلان" و" سمعت من فلان " ويذكر أحيانا أنه وجده بخط أبى بكر الخوارزمى ، ويقول " قرأت فى كتاب " التحف والظرف " لابن لبيب غلام أبى الفرج الببغاء" ، وغير ذلك كثير فى كتبه ، خاصة كتاب " اليتيمة " ٠٠

وعلى الرغم من كثرة الخصومات الأدبية التى بلغت أوج قوتها فـــى هذا العصر بين الشعراء والكتاب — كتلك التى حدثت بين أبى بكـــر الخوارزمى ، وبديع الزمان بسبب الصراع المذهبى ، والتنافس على المال والجاه وتلك التى كانت بين الصاحب والمتنبى ، وبين الحاتمى والمتنبى ، وبيـــن

---

(1) الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ص ٣٠٥ ، والدكتور طه حسين فى تقديمه : لذخيرة ابن بسام ٠

الصاحب وأبى حيان ، وبين ابن لنكك البصرى ، وشعراء عصره ، وبين السرى الرفاء والخالديين إلى غير ذلك من الخصومات الأدبية التى كثرت فى هذا العصر .

أقول : على الرغم من هذه المعارك الطاحنة بين أدباء ذلك العصر نجد أبا منصور طراز فريدا بينهم ..

فلم يعرف عنه أنه خاصم شاعرا ، أو عاداه كاتبا ، أو تنكر لولى نعمة ، وإنما كان معروفا بالتسامح ، والتواضع ، والحب الشديد لأدباء عصره ..

وانك لتلمس ذلك فى مجاملاته الكثيرة لهم فى كتاب " اليتيمة " وعلى الرغم من كثرة الهجاء فى عصره ، وشدة فحشه واقذاعه ، لا نكاد نجد شاعرا ، ولا كاتبا ، قد هجا أبا منصور أو تهكم به ، ولكننا نجد الكثيرين يمدحونه ويثنون عليه ، كأبى الفتح البستى الذى قال عنه :

قلبى رهينٌ بنَيْسَابُورَ عند أخ
ما مِثْلُهُ - حين تستقرى البلاد - أخ

له صحائف أخلاقٍ مهذبةٍ
من الحجى والعلا والظَّرْفِ تنتسخ (١)

حتى الأمراء أمثال : الأمير أبى الفضل الميكالى ، والأمير أبى نصر سهل بن المَرْزُبَان وغيرهما عرفوا له هذه المنزلة العالية ، وقدروه حق قدره فى شعرهم ونثرهم مما يدل على أن الرجل كانت له مكانة سامية ، ومنزلة رفيعة بين أدباء عصره .. وهذا - من غير شك - يدل على كرم أخلاقه وحميد صفاته .

* * *

---

(١) اليتيمة (٤ : ٢٩٩) .

ج — منزلته بين الأدباء

إذا كان الناس — عادة — يتقربون للأغنياء طمعاً فى المال — والنوال ويتملقون الحكام خوفا من البطش والنكال ، فان أبا منصور كان خلوا من كل ذلك ، فلم يشتهر بالغنى ووفور المال ، ولم يكن صاحب منصب ولا جاه ولا حسب يتطاول به ..

ولكنه على الرغم من ذلك دفع الناس إلى حبه وتقديره ، بعلمه الذى كان يزينه ، وأدبه الذى كان يتحلى به ، وتواضعه الذى كان غرة فى جبينه وتاجا فوق رأسه .. وما من ناقد ، أو أديب ، أو لغوى أو مؤرخ منذ عصره إلى وقتنا هذا إلا استفاد من علمه واغترف من بحره ، واعترف له بالفضل والسبق ..

ولا غرابة فى ذلك فقد كان الرجل يمثل ثقافة عصره — أصدق تمثيل — فكان كاتبا مبدعا ، وشاعرا عظيما ، ولغويا متبحرا ، ومؤرخا كبيرا حتى أطلق عليه أهل عصره جاحظ نيسابور .

وقد ذكرت فيما سبق كلمة تلميذه الباخرزى عنه " هو جاحظ نيسابور وزبدة الأحقاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو المزن يحمد بكل لسان ، وكيف يستتر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان " (١) .

وإذا كان هذا القول من الباخرزى فيه شىء من المبالغة والمجاملة — لأنه صادر من تلميذ عن أستاذه الذى تربى فى حجره — فان غيره من أهل عصره قد أثنوا على أبى منصور ثناء عطرا .

---

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزى ص ٤٣٦ .

يقول أبو اسحاق الحصرى فى زهر الآداب : " وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا وهو فريد دهره وقريع عصره ونسيج وحده ، وله مصنفات فى العلم والأدب تشهد له بعلو الرتب " (١) .

وهذا القول من أبى اسحاق الذى لا يجمعه بأبى منصور الا العيش فى عصره . يدل على ماكان للرجل من مكانة عالية فى نفوس أهل زمانه .

أما ابن الانبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ فيصفه فى كتابه " نزهة الألبا فى طبقات الأدبا " بأنه : " كان أديبا ، فاضلا ، فصيحا ، بليغا (٢) .

وينقل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ رأى ابن بسام صاحب الذخيرة فى الثعالبى فيقول : " قال ابن بسام صاحب الذخيرة فى حقه " كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين فى زمانه وأمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع الشمس فى الغياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع ، وأكثر من أن يستوفيها حد أو وصف أو يوفى حقها نظم أو رصف " (٣) .

ويقول ابن كثير فى كتابه " البداية والنهاية " : كان إماما فى اللغة والأخبار وأيام الناس ، بارعا مفيدا له التصانيف الكثيرة فى النظم ، والنثر ، والبلاغة ، والفصاحة " (٤) .

هذه هى آراء المصنفين والنقاد القدامى فى الثعالبى وهى تدل على أن الرجل كان أهلا لكل مدح وثناء بما بذله من جهد وعرق فى سبيل تحصيل

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب (١ : ٤٥٣) .
(٢) نزهة الألبا فى طبقا الأدبا (ص ٣٦٥) ط دار نهضة مصر .
(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٢ : ٤٤) ط كردستان بمصر .

العلم ، والسعى الى المعرفة ، وبما خلفه لنا من مؤلفات تشهد له بعلو القدر وارتفاع المنزلة ..

أما المحدثون : فيرى الأستاذ جورجى زيدان أن أبا منصور " يُعَدُّ خاتمة مترسلى هذا العصر ، وأهم أدبائه ، ونعم الخاتمة ، لأنه كان أكثرهم آثارا وأوسعهم مادة ، وأغزرهم علما ، وهو الذى ترجم لهم ، وذكر أخبارهم وأقوالهم [1] .

ويرى الدكتور زكى مبارك ، أن الثعالبى فوق كل مدح ، وفضله على العربية أعظم من أن يقدر ، ويرى أن مؤلفاته لو ضاعت لفقدت العربية جزءا من تراثها ويتساءل قائلا : " من الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب العربى لو ضاعت يتيمة الدهر ، أو ثمار القلوب ؟ [2] ! "

أما الدكتور مندور فينقل ما قاله ابن خلكان عن الثعالبى [3] ، ولكنه يتحامل على الرجل بعد ذلك فيتهمه بضعف الشخصية ، وعدم الدقة فى القاء الأحكام ، ويقول عنه " وفى الحق ان الثعالبى حتى فى كتبه " فراء " يخيط آراء غيره بعضها إلى بعض فهو جامع أكثر منه ناقدا ، أو مؤلفا " [4] .

وفى رأيى — أن الثعالبى — وإن كان جامعا لأشعار أهل عصره وآرائهم — كما قال الدكتور مندور — ليس مجرد جامع لا رأى له ، ولا شخصية لأن الدارس لكتبه يرى أن له شخصية متميزة واضحة ، وآراء نقدية صائبة ، وملاحظات دقيقة لَمَّاحة تدل على التذوق الرفيع كما تدل على غزارة العلم والمعرفة .. تلك الملاحظات التى لم يستطع الدكتور — نفسه — أن يتجاهلها على الرغم من تحامله على الثعالبى فهو يعترف مثلا : بأن الثعالبى قد

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (٢ : ٢٧٦) .
(٢) مجلة البلاغ الأسبوعية السنة الرابعة .
(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
(٤) النقد المنهجى عند العرب ص٣٠٧ ط دار نهضة مصر بالفجالة .

لاحظ أن المتنبى كان يخاطب الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة الحبيب .. وأنه يستعمل الغزل والنسيب فى أوصاف الحرب والجد ويقول : " والـــذى لا أشك فيه أن له فضل ملاحظة الظاهرة ثم فضل تعليلها " (١) .

ولعل هذا التراجع من جانب الدكتور مندور يدل على أن الرجـــل لم يكن مجرد جامع لآراء غيره من غير وعى ولا إدراك كما قال .

والدارس لكتاب " اليتيمة " يجد للثعالبى " لفتات نقدية صائبـــــة بصرف النظر عن نقده للمتنبى الذى كان متأثرا فيه بآراء القاضى الجرجانى ، والصاحب ، والحاتمى ، وغيرهم من نقاد عصره .

ولعل هذا هو باحدا بالدكتور مندور أن يقول عنه : انه كان ناقلا جامعا ، وليس مؤلفا ، ولا ناقدا ،

وقد فارق الثعالبى الدنيا بعد أن ترك تراثا أدبيا ونقديا ولغويـــا وعلميا ضخما ، وبعد أن وصل فى عالم الشهرة والصيت إلى شأوٍ جِدِّ بعيد .

* * *

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص٣١٤ .

:: الفصل الثاني ::

" ثقافته ومؤلفاته "

أ ـ مصادر إلهامه وثقافته

نشأ الثعالبي في نيسابور ،وهي يومئذ من أعظم مدن خراسان عمرانا ، وأكثرها حضارة ، وأعرقها ثقافة ، وقد عاش فيها الشاعر ، والكاتب ، واللغوى ، والمحدث ، والفقيه ، واشتهرت بمدارسها الراقية ، ومعاهدها العامرة .

في هذه البيئة الخصبة بالعلم والمعرفة شب الثعالبي وترعرع وعلى الرغم من اشتغاله بخياطة جلود الثعالب في مطلع حياته ومستقبل أيامه ، كان يتردد على مجالس العلماء ، ويختلف إلى شيوخ الأدب واللغة ، ويستفيد من الفقهاء والمحدثين في خراسان .

فإذا ما جاوزنا بيئته الخاصة ـ وهي نيسابور وما جاورها ـ من مدن خراسان ـ إلى بيئته الإسلامية العامة ، وجدناها زاخرة بمختلف المؤلفات في العلوم والفنون والآداب .. ولم يحدثنا التاريخ عن بيئة .
خصبة بعلمائها مثل ما حدثنا عن البيئة الإسلامية العامة الذى نشأ فيها ذلك الرجل العظيم .

وقد كان لدى الثعالبي استعداد فطرى لتلقى العلم ، وتقبل المعرفة ، كما كان مشغوفا بالأدب ، محبا للعلم ، راغبا في الدراسة فاستفاد من بيئتيه الخاصة والعامة فائدة عظمى .. وكان لهما أكبر الأثر في تكوينه العلمى والأدبى واللغوى ..

والتاريخ لم يذكر لنا شيئا عن شيوخه الذين أخذ عنهم وأساتذته الذين اختلف إليهم ، وتأثر بأفكارهم وآدابهم ولهذا لا نكاد نعرف شيئا عنهم إلا من خلال ما صرح به الثعالبي نفسه في مقدمة كتابه " فقه اللغة " إذ يقول :

" وأنتجع من الائمة مثل الخليل والاصمعى وأبى عمرو الشيباني والكسائى والفرّاء وأبى زيد وأبى عبيدة وابن الاعرابى والنضر بن شميل وأبى العباس وابن دريد ونفطويه وابن خالويه والخازنجى والازهرى ومن سواهم من ظرفاء الادباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، إلى إتقان العلماء ووعورة اللغة ، إلى سهولة البلاغة كالصاحب أبى القاسم ، وحمزة ابن الحسن الاصبهانى ، وأبى فتح المراغى ، وأبى بكر الخوارزمى ، والقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى (١) .

هؤلاء هم شيوخ الثعالبى الذين كان لهم أكبر الاثر فى ثقافته وفى تكوينه العلمى والادبى ، ... ولا غرابة فى ذلك فقد كان منهم الاديب ، والناقد ، واللغوى ، فأقبل الثعالبى على آثارهم ، وأقوالهم وأخذ ينهل من حياضهم ، ويغترف من بحورهم ، ويقتطف من ثمارهم على نحو ما صرح به فى قوله " وأجتلى من أنوارهم ، وأجتنى من ثمارهم وأقتفى آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع ، وأجمع فى التأليف ، بين أبكار الابواب والاوضاع ، وعيون اللغات والالفاظ " (٢) .

ولا يعقل أن يكون الثعالبى قد أخذ عن كل هؤلاء الثقات بطريق الاختلاف إلى حلقاتهم ، والتردد على مجالسهم ، والاستماع إلى أقوالهم وآرائهم ، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا فى عصره ، كأبى عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٧ هـ ، والخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٤ هـ ، وأبى عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والاصمعى المتوفى سنة ٢١٦ هـ .

ولا أشك فى أن مؤلفات هؤلاء الاعلام وآثارهم كانت المنبع الذى استقى منه — أبو منصور — ثقافته ..

---

(١) مقدمة فقه اللغة للثعالبى ص١٠ ط بيروت .
(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

أما الذين عاشوا فى عصره فليس ببعيد أن يكون قد تردد على دروسهم ، وأخذ منهم مشافهة أمثال : القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هجرية ، وقد تأثر به الثعالبى كثيرا خاصة فى نقده للمتنبى ، وابن خالويه المتوفى فى سنة ٣٧٠ هـ ، والأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ أيضا .. ، وأبى بكر ألْخَوَارَزْمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ والصاحب المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، والجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

ويبدو أن أبا بكر الخوارزمى كان من أكثر أساتذته تأثيرا فيه فلقد كان يخصه بعطفه ، ويغمره بموَدته ، وينشده من بنات أفكاره ما كان يضن به على غيره ..

يقول الثعالبى : " وكان أكثر ما ينشدنى ، ويكتبنى ما يضن به على غيرى .. من تلك ألْغُرَرْ التى تجرى مجرى السحر ، والملح التى يقطر منها الظرف " (1) .

ولقد كان بين الرجلين الكثير من وجوه الشبه فى الاخلاق والصفات وطريقة التفكير ..

فأبو بكر الخوارزمى كان من الشخصيات التى أدت أدوارا كبيرة فى عالَمىْ الأدب واللغة فى القرن الرابع ، وكذلك كان الثعالبى فقد حفظ تراث ذلك القرن من الضياع إذ جمعه فى كتابه " يتيمة الدهر " .

وقد اشتهر الخوارزمى بكثرة الحفظ ، والتبحر فى رواية الشعر، وكان الثعالبى كذلك معروفا بكثرة حفظه وجمعه للأشعار ، ولعل " كتاب اليتيمة " هو أكبر شاهد على ذلك .

---

(1) اليتيمة (١ : ١٠) .

وسر البلاغة عند الخوارزمى يرجع إلى الصدق فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول إلى سحر البلاغة ، وسر البيان إلا إذا صدق ، وفى الصدق وحده سر العبقرية والنبوغ [1] .

وكذلك كان تلميذه الثعالبى الذى يرى أن لكل شىء حلية وحلية الأدب الصدق [2] .

وإذ قد عرفنا مصادر الهامه ، ومنابع ثقافته ، وهى استعداده الفطرى ، وحبه للعلم والمعرفة ، وتأثره بالبيئة العلمية الخاصة فى خراسان والبيئة العلمية العامة فى الدولة الاسلامية الواسعة ، وعرفنا كذلك شيوخه الذين أثروا فيه وكان لهم أكبر الأثر فى تكوينه علميا وأدبيا ..

أقول : بعد أن عرفنا ذلك كله ، لابد أن نتعرف على نوع ثقافته ، وهل هى ثقافة أدبية خالصة ؟ أم هى ثقافة علمية شاملة ؟ وهل كانت ثقافة عربية فقط ؟ أم كانت ثقافة عربية وفارسية ؟؟!! .

والدارس لكتب الثعالبى ، ومؤلفاته يستطيع أن يجيب بكل وضوح ويسر على هذه التساؤلات الحائرة .

فلقد كان الرجل أديبا ، وناقدا ، ومؤرخا ، وعالما من علماء اللغة والدين ، كما كان حافظا للقرآن الكريم متأثرا به فى مؤلفاته وأقواله ويتضح ذلك فى كتبه " الفرائد والقلائد " ، و" الإعجاز والإيجاز " وخاص الخاص وغيرها ..

والقارئ لكتابه " التمثيل والمحاضرة " يعرف مدى اطلاعه على الأحاديث النبوية ، وحفظها ، وكثرة روايتها والاستشهاد بها .. كما أن

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى (٢ : ٢٦٧) .
(٢) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص٦٥٩ .

اطلاعه على كتب اللغة ومجالسته للفحول ممن عاشوا عصره قد أتاحا له ثقافة لغوية هائلة مكنته من تأليف كتاب فى " فقه اللغة " يُعَدُّ رائداً فى هذا الفن ، وقدوة لكثير من المؤلفين الذين نسجوا على منواله مثل ابن سيده فى كتابه " المخصص" الذى سار فيه على طريقة الثعالبى .

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين يرى أن فكرة الكتابين ظهرت للرجلين فى وقت واحد (١) فانى أرجح أن يكون ابن سيده قد حاكى الثعالبى فى تأليفه - كما قلت - خاصة أن أهل الأندلس وغيرهم من بلاد المغرب كانوا يقلدون المشارقة فى كل شئ ، حتى لقد عاب عليهم ابن بسام صاحب الذخيرة هذه الظاهرة عندما قال :

" انه لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ، ذباب ، لجثوا على ذلك صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما " (٢) .

والقارئ لكتاب " التمثيل والمحاضرة" يدرك أن الثعالبى كان مثقفا ثقافة دينية عالية حتى إنه لايكتفى بالاستشهاد بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وإنما يستدل كذلك بآيات ومواعظ من التوراة .. والانجيل .

ولم تكن ثقافة الثعالبى عربية خالصة ، وإنما كان ملما - بالاضافة إلى تبحره فى العربية - باللغة الفارسية قراءة وكتابة ، وفهما ، ونحن نلمس ذلك بوضوح فى كتابه " غرر ملوك الفرس" حيث يورد كلمات فارسية كثيرة ، ويقوم بشرحها ، وتحليلها .

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ٢٧٢) ط بيروت .
(٢) تاريخ النقد الأدبى د. محمد زغلول سلام (٢ : ٦١) ط دار المعارف بمصر .

وهكذا كان الثعالبى إماماً فى كل فن ، وأستاذا فى كل علم ، حتى ليمكن القول : بأنه كان يمثل عصره ، وثقافة عصره ، أصدق تمثيل ، وقد أطلق عليه رجال عصره جاحظ نيسابور ..

ولعل كتبه الكثيرة التى خلفها لنا ، والتى سلم بعضها من غوائل الدهر خير شاهد على ما نقول .

* * * *

ب — آثــاره ومؤلفاتــه

لقد قدر للثعالبى أن يعيش طويلا ، وكان عمره المديد حافلا بجلائل الأعمال فى خدمة الأدب ، واللغة والدين ، وفارق الثعالبى الحياة الدنيا — مرضيا عنه — بعد أن ترك تراثا ضخما فى مختلف العلوم ، والفنون ، والآداب .

ولقد استطعت بعد جهد ومشقة أن أجمع أسماء مؤلفاته وكتبه المطبوع منها والمخطوط ، والموجود ، والمفقود ، من بطون الكتب وأمهات المراجع ، خاصة كتب التراجم والتاريخ .

ولقد استعنت فى ذلك بجهود الأخوة الذين قاموا بتحقيق كتب الثعالبى ، أو بدراسة آثاره ، أمثال : الأستاذ عبدالفتاح الحلو الذى جمع الكثير من مؤلفاته ، فى رسالته الجامعية " أبو منصور الثعالبى وآثاره الأدبية " والأستاذ على موسى الذى أشار إلى معظم هذه المؤلفات فى رسالة التخصص التى كتبها عن ثقافة الثعالبى وأثرها فى نقده للمتنبى ، وأمثال الأستاذين إبراهيم الأبيارى ، وحسن كامل الصيرفى فى تقديمهما لكتاب الثعالبى المشهور " لطائف المعارف " وغير هؤلاء أمثال : الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " .

وبعد ذلك كله أستطيع أن أقول : إننى جمعت معظم مؤلفات الثعالبى التى وردت أسماؤها فى مختلف المراجع ، منذ عصر الثعالبى — حتى الآن — وهى كثيرة ، ومتنوعة ، وعظيمة .

ومما يؤلم الباحثين ، ويحز فى نفوس الدارسين ، أن معظم هذه المؤلفات الثمينة قد ضاع كما ضاع غيرها من كتب التراث .

ولكن مما يثلج الصدر ، ويبهج النفس أن معظم كتبه الضخمة قد سلمت

من غوائل الدهر ، وعوادى الزمن ، أمثال : لطائف المعارف " و" ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب " و " فقه اللغة " ، و " يتيمة الدهر " .

ولو قدر لهذه الكتب الضخمة النافعة أن تضيع كما ضاع غيرها من كتب الثعالبى لخسرت العربية جزءا كبيرا من تراثها ويكفى أن أشيرالى ان كتابه " يتيمة الدهر " وحده قد حفظ أدب القرن الرابع كله من الضياع .

أما معظم كتبه الباقية فقد كانت صغيرة الحجم ، كما أن بعضها قد ذكر بأسماء مختلفة ، وسأسجل هنا أسماء كتبه العديدة التى أحصيتها من المراجع المختلفة حسب الترتيب الأبجدى .. على أن أخص كتابه " اليتيمة " ـ بدراسة مستقلة بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ لأنها وحدها : هى التى تهمنا فى هذه الدراسة . وهذه الكتب هى :ـ

١ ـ " أبو الطيب المتنبى .. ماله وما عليه " وهو الباب الخامس من كتابه (يتيمة الدهر) نشره الأستاذ محمد على عطيه وطبعه بمفرده فى مصر .

٢ ـ " أجناس التجنيس " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٠ بلاغة)

٣ ـ " أجناس المحاسن " .

٤ ـ " الأحاسن فى بدائع البلغاء " .

٥ ـ " أحاسن كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وملوك الجاهلية والاسلام " وهو مختصر " إعجاز الإيجاز " للثعالبى اختصره العلامة الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وطبع فى رومة .

٦ ـ " أحسن ما سمعت " وله اسمان آخران هما : " اللآلىء والدرر " ، و" أحاسن المحاسن " الذى تقدم ذكره برقم (٣) وقد طبع بمطبعة الجمهور .

٧ – أخبار أبى فِرَاس " وهو الباب الثالث من كتاب " اليتيمة " طبع فـــى ليـــدن .

٨ – " الأدب مما للناس فيه أرب " .

٩ – " الأصول فى الفصـــول " .

١٠– " الإعجاز والإيجاز " طبع بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧م وفى الآستانة ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية برقم (٥٥٤ أدب)

١١– " الأعداد " ويعرف بـ " برد الأكباد فى الأعداد " وقد طبـــع فى الآستانة سنة ١٣٠١ هـ ومنه نسخة خطية بدار الكتب برقـــــم (٤٩٢ أدب) .

١٢– " أفراد المعانى " .

١٣– " الاقتباس " وقد طبع حديثا فى بغداد وشاهدت منه نسخة بالجزائر

١٤– " الأمثال والتشبيهات " ويسمى " الفرائد والقلائد " ويسمى أيضـــا " بالعقد النفيس " وقد طبع فى مصر بعنوان " الأمثال " .

١٥– " أنس الشعراء " ويسمى " أنس المسافر " .

١٦– " الأنيس فى غزل التجنيـــس " .

١٧– " الأنوار البهية فى تعريف مقامات مضمار البرية " .

١٨– " بهجـــة المشتـــاق " .

١٩– " التجنيس " وهو كتاب " أجناس التجنيس " الذى سبق ذكره برقم (٢)

٢٠– التحسيـــن والتقبيـــح " .

٢١– " تحفة الأرواح " ، وموائد السرور والأفراح " .

٢٢ ـ " تحفة الوزراء " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥ نحو) .

٢٣ ـ " ترجمة الكاتب فى أدب الصاحب " .

٢٤ ـ " التفاحـــة " .

٢٥ ـ " تفضل المقتدرين ، وتنصل المعتذرين " .

٢٦ ـ " التمثيل والمحاضرة ، فى الحكم والمناظرة " وقد حققه الأستـــاذ عبدالفتاح محمد الحلو وطبع بدار الكتب سنة ١٩٦١ .

٢٧ ـ " التوفيـق للتلفيـق " .

٢٨ ـ " ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب " وهو كتاب قيم حققه الأستـــاذ محمد أبو الفضل وطبع بدار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٦٥ .

٢٩ ـ " جـوامع الكلم " .

٣٠ ـ " الجواهر الحسان فى تفسير القرآن " ذكره الأستاذ جورجى زيدان

٣١ ـ " جواهر الحـكم " .

٣٢ ـ " حجـة العقـل " .

٣٣ ـ " حشو اللَّوْزِيَنج " أشار إليه الثعالبى فى " ثمار القلوب "

٣٤ ـ " حـل العقد " .

٣٥ ـ " خاص الخاص " طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

٣٦ ـ " خصائص الفصـل " .

٣٧ ـ " الخوارزميـات " .

٣٨ ـ "الخولة وشاهيـات " .

٣٩ ـ " درر الحكم " مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥١١٣ أدب) .

٤٠ ـ " ديوان أشعاره " جمعه عبدالفتاح محمد الحلو فى رسالته الجامعية " أبو منصور الثعالبى وآثاره الأدبية " .

٤١ ـ " سجع المنثور " .

٤٢ ـ " سحر البلاغة ، وسر البراعة " مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥ نحو) .

٤٣ ـ " سحر البيان " .

٤٤ ـ " سر الأدب فى مجارى كلام العرب " طبع مع فقه اللغة للثعالبى بالقاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٥ ـ " سر البيان " ولعله " سحر البيان المتقدم ذكره برقم (٤٣) .

٤٦ ـ " سر الوزارة " ولعله " تحفة الوزراء " السابق ذكره برقم (٢٢) .

٤٧ ـ " السياسة " .

٤٨ ـ " سيرة الملوك " .

٤٩ ـ " الشجر والصور فى الحكم والمواعظ " مخطوط بدار الكتب برقم (٤٤٠ أدب) .

٥٠ ـ " الشكوى والعتاب " وما وقع للخلان والأصحاب " مخطوط بدار الكتب برقم (١٦٧٣ أدب) .

٥١ ـ " الشمس " ولعله كتاب " شمس الأدب فى استعمال العرب " ومنه نسخة خطية فى برلين ، وأخرى فى لندن " .

٥٢ ـ " الشوق " .

٥٣ ـ " صيغة الشعر والنثر " .

٥٤ - " طبقات الملوك " .

٥٥ - " الطارف من شعر البستى " .

٥٦ - " الظرائف واللطائف " مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٦٤ ش) .

٥٧ - " عنوان المعارف " .

٥٨ - " عيون المعارف " ، ولعله الكتاب السابق نفسه .

٥٩ - " عيون النوادر " .

٦٠ - " غرر أخبار ملوك الفرس " وهو موجود بدار الكتب المصرية .

٦١ - " غرر البلاغة " ومنه نسخة فى برلين بعنوان " غرر البلاغة ، وطرف البراعة " .

٦٢ - " غرر الضاحك " .

٦٣ - " الغلمان " ومنه نسخة خطية فى برلين .

٦٤ - " الفرائد والقلائد " وهو مطبوع على هامش " النثر والنظم " للثعالبى بعنوان " الفوائد والقلائد " طبع المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣١٧هـ ويقال : إنه هو " العقد النفيس ، ونزهة الجليس " . و " الأمثال والتشبيهات " وقد طبع فى مصر بعنوان " الأمثال " .

٦٥ - " الفصول الفارسية " .

٦٦ - " الفصول فى الفضول " .

٦٧ - " فقه اللغة ، وسر العربية " وهو مطبوع ومشهور .

٦٨ - " الكشف والبيان " ذكره البغدادى فى هداية العارفين .

٦٩ - " الكناية والتعريض " مخطوط بدار الكتب برقم (٤٢٩ أدب) ومنه نسخة مطبوعة .

٧٠ - "كنز الكتاب" مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٨٠٧ أدب) ، ووجد باسم "المنتحل على النسخة المطبوعة بالمطبعة التجارية بالاسكندرية سنة ١٩٠١ .

٧١ - "لباب الالحاسن" .

٧٢ - "لطائف الظرفاء" ولعله "الظرائف واللطائف" الذى تقدم ذكره برقم (٥٦) .

٧٣ - "لطائف المعارف" وهو كتاب عظيم حققه الأستاذان : إبراهيم الابيارى ، وحسن كامل الصيرفى .

٧٤ - "اللطف واللطائف" .

٧٥ - "اللطيف الطيب" .

٧٦ - "اللمع الفضية" .

٧٧ - "ماجرى بين المتنبى وسيف الدولة" وقد طبع فى ليزج سنة ١٨٧٤م

٧٨ - "المبهج" مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥٠٦ أدب) وطبع بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

٧٩ - "المتشابه لفظا وخطا" ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .

٨٠ - "مدح الشيء وذمة" .

٨١ - "المديح" .

٨٢ - "مرآة المروءات" وهو مخطوط بدار الكتب برقم (٥٠٦ أدب) .

٨٣ - "المشوق" .

٨٤ - "المضاف والمنسوب" ولعله هو "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" المتقدم ذكره برقم "٢٨" .

٨٥ ـ " مفتاح الفصاحة " .

٨٦ ـ " المقصور والممدود " .

٨٧ ـ " مكارم الأخلاق " وقد طبع فى بيروت سنة ١٩٠٠ .

٨٨ ـ " ملح البراعة " .

٨٩ ـ " الملح والطرف " .

٩٠ ـ " الملوكى " ذكره الثعالبى فى مقدمة كتابه " تحفة الوزراء " .

٩١ ـ " منادمة الملوك " .

٩٢ ـ " المنتحل " وهو " كنز الكتاب " الذى تقدم ذكره ـ برقم ٧٠ ـ وقد صححه الأستاذ أحمد أبو على أمين مكتبة المجلس البلدى بالإسكندرية وطبع سنة ١٣١٩ هـ وهو موجود بدار الكتب المصرية .

٩٣ ـ " من غاب عنه المطرب " وهو كتيب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢ أدب) وقد طبع فى بيروت بالمطبعة الأدبية سنة ١٣٠٩ هـ . تصحيح الأستاذ محمد سليم اللبابيدى .

٩٤ ـ " من غاب عنه المؤنس " ويبدو أن هذا هو الكتاب السابق نفسه .

٩٥ ـ " المهذب فى اختيار ديوان المتنبى " ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية ـ وهو ـ فيما يبدو ـ كتاب " أبو الطيب المتنبى ، ماله وما عليه الذى مر ذكره برقم (١) .

٩٦ ـ " مؤنس الوحيد فى المحاضرات " وقد طبعت منه مختصرات سنة ١٨٣٩م بعنوان " مؤنس الوحيد ونزهة المستفيد " .

٩٧ ـ " نثر النظم وحل العقد " وقد طبع فى دمشق سنة ١٣٠٠ هـ وفى مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٩٨ ـ " نسيم الأندلس " .

٩٩ - " السحر " .

١٠٠ - " النهاية فى الكناية " .

١٠١- " النهاية والتعريض " وهو الكتاب السابق نفسه .

١٠٢- " النوادر والبوادر " .

١٠٣- " الورد " .

١٠٤- " يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر " وقد طبع فى دمشق سنة ١٣٠٢ هـ . وطبع فى مصر سنة ١٩٣٤ بتحقيق الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى ، وأعيد طبعه - بمصر أيضا - بتحقيق المرحوم الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد وهو من أجل كتب الثعالبى وأكبرها وأكثرها فائدة .

١٠٥- " يتيمة اليتيمة " وقد ذكر فى فهرس دار الكتب المصرية بعنوان " تتمة اليتيمة " ومنه نسخة مطبوعة فى طهران بتحقيق الاستاذ عباس اقبال .

١٠٦- " اليواقيت فى بعض المواقيت " وقد جمعه الشيخ أحمد عبد الرازق المقدسى مع كتاب الثعالبى " الظرائف واللطائف " المتقدم ذكره برقم (٥٦) وطبعهما فى كتاب واحد قال فى مقدمته " أما بعد " ، " فهذا الكتاب كان فى نسختين متناسيتى الجمع ، متناسختى الوضع ، سمى الشيخ أبو منصور الثعالبى - رحمه الله تعالى - أحدهما " الظرائف واللطائف " والآخر كتاب " اليواقيت فى بعض المواقيت " ، وأفرد لكل منهما صدرا ، أورد فيه لمن عمله باسمه ذكرا ، فجمعت بينهما فى قرن وعطفت عنانيهما الى سنن ، اختصارا للطريق الى فوائدهما وضما لشمل فرائدهما " (١) .

---

(١) المقدمة : ص ٢ .

تعليق وتحليل :

هذه هى كتب الثعالبى ومؤلفاته ، التى أشارت إليها مراجع المؤرخين ، والمصنفين ، والأدباء ، الذين عاشوا بعده ، حتى عصرنا هذا .

ومن المؤكد أن معظم هذه الآثار القيمة قد ضاع ، وأصبح أثرا بعد عين .

ومن المؤكد ـ كذلك ـ أن بعض هذه الكتب التى نشرت مستقلة هى فى حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة .

وقد ذكرت من قبل أن له كتابا برقم (١) بعنوان " أبو الطيب المتنبى ماله وما عليه " ، وآخر برقم (٩٥) بعنوان " المهذب فى اختيار ديوان المتنبى " وثالث برقم (٧) بعنوان " أخبار أبى فراس " والحقيقة أن هذه الكتب الثلاثة أجزاء من كتابه المشهور " يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر " .

كما أن بعض كتبه قد ذكر مكررا بأسماء مختلفة لمسمى واحد فمثلا يطلق على كتاب الأمثال المتقدم برقم (١٤) هذه الأسماء :ـ

١ ـ " الأمثال والتشبيهات " .
٢ ـ " الفرائد والقلائد " .
٣ ـ " العقد النفيس " .(١)

كما أنه يوجد أكثر من اسم لكتاب " أجناس التجنيس " المتقدم برقم (٢) ـ وكذلك ـ لكتاب " أحاسن المحاسن " المتقدم برقم (٣) وكتاب " المنتحل "

(١) انظر رقم ١٤ .

المتقدم برقم (٩٢) وغيرها .

وقد حمّل الأستاذان إبراهيم الأبيارى وحسن كامل الصيرفى محققا كتاب " لطائف المعارف " للثعالبى تبعة هذا الخلط " على تلميذه الباخرزى صاحب " الدمية " _ وأنا معهما فى ذلك _ فلقد جره تقصيره الأول فى عرض ما يتصل بحياة أستاذه إلى تقصير ثان وهو أنه لم يذكر كتب شيخه ، ولو أنه فعل لكفانا مئونة التقصى والتحرى _ وما كان عسيرا عليه أن يفعل ، ولو فعل لقدم لنا ، ولأستاذه خيرا كثيرا ، ولأراح الباحثين بعده ، والمهتمين بتراث الثعالبى من هذا العناء (1) .

وقد أشار الأستاذ على محمد موسى فى رسالته " ثقافة الثعالبى وأثرها فى نقده للمتنبى " إلى أن هناك خطأ وقع فيه الأستاذ "جورجى زيدان" حين نسب كتاب " الجواهر الحسان فى تفسير القرآن " لأبى منصور الثعالبى وهو وهم مرجعه أن لعالم آخر هو الشيخ عبدالرحمن الثعالبى كتابا فى تفسير القرآن بهذا الاسم وهو غير أبى منصور الذى نحن بصدد دراسته ، وهناك خلط آخر وقع فيه البغدادى صاحب كتاب "هداية العارفين " حين ذكر أن للثعالبى كتابا بعنوان " الكشف والظنون " على حين ذكر حاجى خليفة صاحب كشف الظنون " أن هذا الكتاب لأبى منصور عبدالملك بن أحمد بن ابراهيم الثعالبى _ وهو غير أبى منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى الذى نتحدث عنه .

وهناك خلط ثالث وقع فيه حاجى خليفة صاحب " كشف الظنون " حين نسب كتاب " اليواقيت فى بعض المواقيت " لنجم الدين عمر النسفى ، وقد وجدت هذا الكتاب منسوبا للثعالبى ، وقد جمعه المقدسى وطبعه مع كتاب آخر للثعالبى بعنوان " اللطائف والظرائف " كما مر ذكره .

---

(1) أنظر تقديم " لطائف المعارف " للمحققين " .

وهناك أمر آخر جدير بالتسجيل — فى هذا المقام — وهو ما أشار إليه الأستاذ على محمد موسى (١) ، كما أشار اليه الأستاذ أحمد أبو على أمين مكتبة المجلس البلدى بالاسكندرية .. وهو أن ابن خلكان وابن شاكر الكتبى قد نسبا كتاب " المنتحل " الذى ورد ذكره ضمن كتب الثعالبى برقم (٩٢) إلى الأمير أبى الفضل الميكالى وقد أثبت الأستاذ أحمد أبو على صحة نسبة هذا الكتاب لأبى منصور الثعالبى وقدم الدليل على ذلك وهو أن الأمير الميكالى كان ممدوحا للثعالبى ، الذى مدحه بقصائد سيارة ، نال عليها جوائزه السنية وقد كانت الصلة بينهما قوية مكينة ، فلا بأس أن يؤلف الثعالبى مثل هذا الكتاب وينسبه إلى الأمير الميكالى ، وقد يجوز أن يكون الأمير هو الذى انتحل هذا الكتاب لنفسه ، وسكت عن ذلك الثعالبى تقربا وتأدبا مع الأمير (*) .

وربما كانت تسمية الكتاب " بالمنتحل " مقصودة من جانب الثعالبى ولم يلحظها الأمير الميكالى ويدل على ذلك قوله فى مقدمته : " إنه أودعه فيما ينخرط فى سلك الرسائل والمخاطبات ، ويتدرج فى أثناء الاخوانيات (**) والسلطانيات والله أعلم بالصواب وإليه المآب " .

وكأن غرض الثعالبى بقوله " والله أعلم بالصواب " التنبيه على ما سيقع فيه المؤرخون من الخطأ فى نسبة هذا الكتاب إلى الأمير الميكالى .

---

(١) صاحب رسالة " ثقافة الثعالبى وأثرها فى نقده للمتنبى " .

(*) هذا استنتاج واه لايرتقى إلى درجة الدليل الذى يؤكد هذا الأمر فهو احتمال لا أكثر ولا أقل بل هو الى الزعم أقرب . د/ سرحان .

(**) هذه النسبة خطأ وقع فيه القدماء من مؤلفى العصور المتأخرة ووقع فيه الكاتبون ، واستمرأه رجال العصور الحديثة ونقل الجميع عن أن النسب لايجوز للجمع الا اذا كان علما . كالجزائر ، والمدائن ، وأن اللبس بين النسب الى المفرد والجمع مغتفر فى هذا الباب . د/ سرحان .

ويبدو أن بعض ذوى الجاه والسلطان كانوا ينتحلون كتب غيرهم وينسبونها إلى أنفسهم على سبيل السطو والاغتصاب خاصة إذا كانوا من طبقة الامراء أو الوزراء وذوى البأس .

ويبدو كذلك أن بعض جهال الوراقين كانوا ينسبون بعض الكتب إلى مشهورى العلماء والمصنفين ، لينفق سوقها وتربح تجارتها ، وهو عبث قد يوقع الباحثين فى اللبس والارتباك .

* * *

:: الفصل الثالث ::

" كتاب اليتيمة "

أ - التعريف بها ..
ب - الدافع الى تأليفها
ج - منهج الثعالبي وخصائصه فيها

أ ـ التعريف بها :

تُعَدُّ " اليتيمة " من أجل كتب الثعالبى ، وأعظمها قدرا ، وأعلاها منزلة ، وأكثرها شهرة ، وذيوعا ..

ولعل أول ما يسترعى النظر ، ويلفت الفكر ، ويثير الانتباه إلى هذا الكتاب هو عنوانه " يتيمة الدهر " والثعالبى نفسه لم يذكر سببا لهذه التسمية ويبدو أن الناس قديما ـ كما يقول الأستاذ الصاوى محقق الكتاب ـ لم يكونوا يعرفون أصل هذه التسمية ،ولا يدركون سرها حتى شرع لهم ابن قلاقس الشاعر السكندرى المشهور تعليلا معقولا لهذه التسمية ضمنه بيتين مشهورين هما :

أَبْيَاتُ أشعارِ اليتيمهْ * أبكار أفكار قديمهْ
ماتوا وعاشتْ بعدَهم * فلذاك سُمِّيَت اليتيمهْ (١)

فابن قلاقس يرى : أن أشعار " اليتيمة " كالأطفال لمن نظموها وقد مات أولئك الناظمون تاركين بنات أفكارهم يتامى .. فلذاك أطلق الثعالبى على كتابه اسم " اليتيمة " .

ويبدو ـ كذلك ـ أن جمهور الأدباء الذين ظهروا بعد ابن قلاقس قد ارتضوا هذا التعليل وقبلوه ، واطمأنت نفوسهم إليه .. دون مراجعة ولا نقاش لأننا لم نجد فى كتب التراجم ، من حاول تفسير هذه التسمية ، أو تعليلها ، ومعظمهم كان يكتفى بنقل بيتى ابن قلاقس..

ونحن إذا رجعنا إلى المعاجم اللغوية نجد أن كلمة " اليتيمة" تطلق على الرملة المنفردة ، وعلى الشيء المفرد وعلى كل شيء يعز نظيره ، وعلى الدرة الثمينة التى ليس لها نظير (٢) .

---

(١) اليتيمة : تقديم الأستاذ الصاوى ص (ج) .
(٢) راجع الصحاح والقاموس واللسان وغيرها .

ومن اليقين الواضح أن الثعالبي يقصد بهذه التسمية ، أن كتابه فريد في بابه ، ليس له نظير في كتب التراجم ، أو الطبقات . فهو كالدرة اليتيمة التي تميزت عن غيرها بكثير من الصفات ..

وأياً ما كان سبب التسمية فقد اشتهر الكتاب بهذا الاسم ، وأصبح علما بين كتب التراث .

وربما كان من حقنا — بعد ذلك كله — أن نتساءل عن نوع هذا الكتاب ، أهو من كتب التراجم والطبقات ؟ أم من كتب الأدب والنقد ؟ أم هو من كتب التاريخ والحضارة ؟؟!! .

والدارس لكتاب " اليتيمة " يجده شبيها بكتب التراجم والطبقات من حيث تقسيمه الشعراء حسب أقاليمهم ومدنهم ، وعلى مقدار منزلتهم الأدبية ، ومكانتهم الفنية ، فهو يماثل كتاب " طبقات الشعراء " لابن سلام الجمحي وإن كان يخالفه في التقيد بعصر واحد .. كما أنه يضاهي إلى حد كبير كتاب " طبقات الشعراء المحدثين " لابن المعتز كما أشار إلى ذلك غير واحد من الباحثين ..

وهو كتاب أدب من غير شك لأن المؤلف — رحمه الله — جمع فيه مختارات شعرية ونثرية لأدباء القرن الرابع ، ولا يستطيع دارس للشعر والنثر في ذلك العصر أن يستغني عنه .. ويكفي أن نعلم جميعا أن الأدباء والمؤلفين منذ عصر الثعالبي وحتى اليوم ، قد تأثروه ، واقتبسوا منه ، واستفادوا به أعظم فائدة ..

والكتاب كذلك يُعَدُّ من كتب النقد الهامة ، فالثعالبي فيه لم يكن مجرد جامع للشعر والنثر لأدباء عصره ، ولم يكن قراءة في كتبه كما كان قراء في صناعته ، كما وصفه بعض المحدثين [1] وإنما كانت له آراء نقدية صائبة

(١) الدكتور : محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٣ .

تشهد له بالذوق ، والفوق ،نلمسها من خلال ترجمته للشعراء ، خاصة أولئك الذين أوتوا حظا من الشهرة كأبى الطيب المتنبى الذى اهتم به المؤلف اهتماما خاصا ، ودرس شعره ، دراسة وافية ، وربط بين أدبه ومراحل عمره المختلفة .. مما يدل على إعجابه به وتقديره له . وقد فعل مثل ذلك مع أبى فراس الحمدانى ،وابن الحجاج وابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى ، وبديع الزمان ، والصابى وغيرهم من كبار الشعراء والكتاب ، فكان يتعقب معانيهم ويرجعها إلى أصلها ، ويبدى اعجابه بالجيد منها ، ويعيب ما يستحق الذّأم[1] والقدح .. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ..

وفضلا عن جميع ماذكرنا يُعَدُّ هذا الكتاب من كتب الحضارة والتاريخ ، والدارس لتاريخ العالم الإسلامى فى تلك الحقبة لا يستطيع الاستغناء عنه كما فعل المستشرق " آدم متز " فى كتابه عن : " الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع " وكما فعل الأستاذ أحمد أمين فى كتابه المشهور " ظهر الاسلام " وكذلك الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه " تاريخ الإسلام السياسى " وغيرهم .. لأن كتب التاريخ التقليدية لا تكفى للحكم على هذه المرحلة ، ولا تستطيع أن تعطى صورة صادقة متكاملة عن هذا العصر ،فهى تهتم بأخبار الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقادة السياسيين ، والعسكريين ، مسرودة سردا مرتبا على سِنِي الزمان .. " بعكس اليتيمة " التى تهتم - علاوة على ذلك كله - بالحالة الاجتماعية للدولة الإسلامية الواسعة ، وتعطى صورة صادقة لكل جوانب الحياة فى تلك الحقبة .

ب - الدافع الى تأليفها

يُعَدُّ الثعالبى من الأدباء الذين يميلون للحديث الطريف ، ويعشقون الأدب العصرى ، ويتعصبون له ، وينفرون من القديم ، ويعرضون عنه ، لأن

(١) الذ ام - بألف متوسطة - كالذأم - بهمزة متوسطة وهو الذم والعيب .
د / سرحان

النفوس فى أيامه قد سئمته ، والأذواق فى زمانه قد مجته وملته .

ولعل الثعالبى فى ذلك ، كان متأثرا بأستاذه أبى الحسن بن فارس الذى يرى فى إحدى رسائله : أن لكل عصر نتاجا أدبيا خاصا ، يلائم روحه ، ويوائم حالته ، ويتطابق مع صور الحياة عند أهله ، وانه لمن العبث أن تقتصر الآداب على زمان معلوم ، وأن توقف على أناس دون آخرين .

وهو يرى أن الأدب القديم أصبح رثا باليا ، قد أخلقت جدته الأيام والليالى ، فمجه السمع ، ولفظه القلب ، وسئمته النفس[1] .

وسواء أكان الثعالبى مقلدا لابن فارس فى هذا الرأى ، أو مبتدعا له ، فانه كان يفضل الأدب المصرى ، ويرى أنه وصل إلى أبعد غايات الجودة ، وبلغ أقصى نهايات الحسن والظرف ، وأنه لحلاوته وجماله يكاد يخرج من باب الإعجاب إلى باب الإعجاز ، ومن حدّ الشعر إلى باب السحر .

ولقد نظر الثعالبى فيما حوله من الكتب ، فوجد أن المؤلفين قد اهتموا بالمتقدمين من الشعراء ، وذكر طبقاتهم ، ودرجاتهم وتدوين كلماتهم والانتخاب من قصائدهم ، ومقطوعاتهم ، كما نظر إلى أشعار أهل عصره وإلى محاسنهم النثرية ، فوجدها — على حلاوتها ، وجودتها ، وقرب عهدها — غير محصورة فى كتاب يضم نشرها ، وينظم شذرها ، ولا مجموعة فى مصنف يقيد شواردها ، ويخلد فوائدها .

---

(١) اليتيمة (٣ : ٣٦٥) بتصرف .

ولما كان مغرما بالشعر العصرى ، ومفتونا به ، ومفضلا إياه على كل شعر سبقه جاهليا كان ، أم إسلاميا ، فقد تصدى هو لذلك العمل الجليل ، وقام بهذه المهمة الشاقة ، فجمع نتاج الشعراء والكتاب المحدثين فى مصنف واحد هو " اليتيمة " واستطاع بهذا الجهد العظيم أن يخلد آثارهم ، ويحفظ تراثهم من الضياع ،

ويبدو من مقدمة "اليتيمة" أنه ألفها سنة أربع وثمانين وثلاثمائة هجرية وهو فى مطلع شبابه واقبال أيامه ، ويظهر أنه انتهى منها فى مدة وجيزة لا تفى بالغرض ، ولا تحقق الهدف ، ولا ترضى الطموح ٠

وعلى الرغم من ذلك ، ذاع صيتها ، وطار ذكرها ، وطبقت شهرتها الآفاق ، فأقبل عليها المستعيرون يتعاورونها ، والمنتسخون يتداولونها ، حتى صارت من أنفس ما تشح به أنفس الأدباء عن الاخوان ، ومن أغلى ما تسير به الركبان ، إلى أقاصى البلدان ، فتواترت الأخبار ، وشهدت الآثار ، بحرص أهل الفضل على غدره وعدهم اياها من فرص العمر وغرره (١) ٠

ويبدو أن هذا الرواج الذى صادف كتاب " اليتيمة " جعل الثعالبى يعيد النظر فيها ، ويرى أنه لابد من مراجعة تأليفها من جديد لكى يجيد تنسيقها ، وتبويبها ، ويضيف إليها ، ويحذف منها ، ويحكم نسجها ، حتى تصير على الصورة التى يطمح اليها ٠٠

وقد ظل سنوات طوالا فى هذا العمل الجبار يبنى وينقض ويزيد

---

(١) مقدمة اليتيمة ص٤ ٠

وينقص ، ويمحو ويثبت ، ويضيف إليها ما حصل عليه من أفواه الرواه ، وربما انتحها ولم يتمها ، وانتصفها ولم يستتمها إلى أن أدرك أيلم تعلم الدربة والحنكة ، وشارف أوان الثبات والمُسْكة (*) .

وأخيرا ابتسم له الحظ فاختلس فرصة من غفوة الدهر ، وانتهز رقدة من عين الزمن ، وأخذ فى تحريرها مرة أخرى — على النمط الذى بين أيدينا اليوم — بعد أن غير ترتيبها ، وأعاد رصفها ، وأحكم نسجها ، قبل أن تصل إلى أيدى القراء والمنتسخين ، وصار مثله فيها ، كمثل من يتأنق فى بناء داره ... التى هى عشه ، وفيها عيشة ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويبدعها حسناء تخجل منها البدور ، وتتقاصر عنها القصور ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة الدنيا إلى جنة المأوى (1) .

وهكذا أتم النسخة الثانية من " اليتيمة " بعد أن أحكم نسجها ، وأتقن صنعها ، وجعلها قرة للعين ، ومتعة للقلب ، ولذة للروح وكان ذلك فى المدة من سنة ٤٠٢ هـ الى سنة ٤٠٧ هـ ، كما قرر ذلك الأستاذ عباس إقبال ناشر كتاب تتمة اليتيمة ...

وقد أهدى هذه النسخة الأخيرة إلى أبى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه سنة ٤٠٧ هـ ويفهم من نسخة أخرى أنه أهداه إياها سنة ٤٠٢ هـ فى شهر المحرم لأن الأمير المذكور توفى سنة ٤٠٧ هـ .

(*) المسكة : بضم فسكون : العقل الوافر .

(1) مقدمة اليتيمة ص ٥ .

وبذلك يكون الدافع إلى التأليف هو الحرص على جمع تـــــراث المصريين (*) فى كتاب واحد يحفظه من الضياع ، وأما الهدف فهـــــو اهداؤها إلى الأمير المذكور لينال خلعه وهداياه .

جـ - منهجه وخصائصه فيهـا

تحدث الثعالبى فى يتيمته عن شعراء وكتاب العالم الإسلامى فـى عصره وأواخر العصر الذى قبله ، على اختلاف ألوانهم وأوطانهم ، من خراسان وما وراء النهر شرقا ، حتى بلاد المغرب والأندلس غربا ..

وقد ذكر فيها الدول الثلاث : دولة بنى حمدان فى الشام والموصل ، ودولة بنى بويه فى فارس والعراق ، ودولة بنى سامان فى خراسان وما وراء النهـــــر .

كذلك قسمها إلى أربعة أقسام رئيسة ..وتحدث فى القسم الأول منها عن شعراء وكتاب الدولة الحمدانية فى الشام والموصل ، وألحق بهـــم بعض شعراء من مصر والمغرب والأندلس، ويعد هذا القسم ، من أهم أقسام " اليتيمة " ، وأضخمها حجما ، فقد اشتمل على حوالى ستمائة صفحـــة مـــن الحجم المتوسط شملت عشرة أبواب :

(*) هذه عبارة الثعالبى فى مقدمة اليتيمة ص ٤ ، ٥ حيث قال " كانـــت أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثيـــن ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعـــــار المحدثين ، موكانت أشعار المصريين أجمع لنوادر المحاسن " . أما رجال العصر الحديث فيقولون : " أشعار المعاصرين " ولم تـــرد هذه الكلمة فى كتب اللغة . د/ سرحان .

وقد تحدث فى الباب الأول منها : عن شعراء الشام ، وتعصب لهم ففضلهم على شعراء سائر البلدان ، وذكر أسباب تفوقهم وأقام الأدلة على فضلهم ، وهو قربهم من عرب الحجاز ، وبعدهم عن الأعاجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض ، ولأنهم جاوروا ملوكا أفذاذا من آل حمدان كانوا يفهمون الشعر ، ويتذوقونه ويشجعون الشعراء على الإجادة والاتقان بخلاف أهل العراق الذين فسدت ألسنتهم لمجاورتهم الأعاجم ، واختلاطهم بهم ..

* * *

وأغلب الظن أن تعصب الثعالبى لأهل الشام راجع إلى حبه الشديد لسيف الدولة . ذلك الأمير العربى الشجاع الذى حمى الثغور الإسلامية وتصدى وحده لهجمات الروم ، وأخضعهم ، وحمى الدولة الإسلامية كلها ، من خطر داهم كان يهدد أركانها ، ويزلزل بنيانها ، قرابة نصف قرن من الزمان ..

وقد أفرد الباب الثانى للحديث عن سيف الدولة ، وأكثر من الثناء عليه ، مما يدل على اعجابه به ، وتقديره لبطولته ..

أما الباب الثالث : فقد جعله لأبى فراس الحمدانى ، وقد عنى به عناية خاصة فجمع معظم أشعاره ، وقسمها أقساما بحسب مناحيها ومعانيها ..

وفى الباب الرابع تحدث عن بنى حمدان ، واستعرض أشعارهم ، كما ذكر معهم طائفة من شعراء الشام معظمهم من المغمورين ، وجعل تراجمه فى هذا الباب قصيرة ، لا تحقق الغرض ولا تفى بالمطلوب ، ولا تشبع نهم الباحثين .

وقد خصص الباب الخامس لأبى الطيب المتنبى ، وتوسع فى دراسته وأكثر من الحديث عنه ، واهتم به اهتماما بالغا وتعرض لشعره بالنقـــد والتحليل ، والدراسة المنهجية الواسعة .

وفى الباب السادس تحدث عن ثلاثة من كبار شعراء سيف الدولــة وهم : النامى ، والناشئ ، والزاهى .

وفى الباب السابع تحدث حديثا خاصا عن أبى الفرج الببغـــاء ، وغرر شعره ، ودرر نثره .

وفى الباب الثامن تحدث عن ثلاثة من شعراء سيف الدولة وهـــم الخليع الشامى ، والوأواء الدمشقى ، وأبو طالب الرقى .

وفى الباب التاسع ذكر طائفة ضخمة من شعراء الشام ومصر ، والمغرب والأندلس ، عددهم ستة وتسعون ومائتان ، وقد ترجم فيه لحوالى خمســة وستـــين منهم ..

ويؤخذ عليه فى هذا الباب الخلط ، وعدم الدقة والتحـــديد ، فقد ذكر هذا العدد الهائل من شعراء العالم الاسلامى فى الشـــام ومصر والمغرب والأندلس حتى ليصعب على القارئ أن يميز شعراء كل اقليم على حدة ، اللهم إلا بعض المشهورين منهم كتميم بن المعز فى مصـــر ، وابن دَرّاج القَسْطِلّى ، وابن شُهَيْد ، وابن عبدربه فى الأندلس .

أما الباب العاشر والأخير من هذا القسم ، فقد تعرض فيه لدراســة

شعراء الموصل ، وهى الشق الثانى للدولة الحمدانية ، وقد تحدث فيه بصورة مفصلة عن السرى الرفاء ودرس شعره دراسة وافية ، وتعرض لخصوماته الأدبية وسرقاته الشعرية ، واهتم به اهتماما كبيرا ثم ذكر بعده الخالديين أبا بكر محمدا ، وأبا عثمان سعيدا ، وأتبعهما بأبى بكر بن الخباز ، وعبيد الله البلدى ، وبذلك ينتهى القسم الأول من " اليتيمة " .

القسم الثانى :

أما القسم الثانى من أقسام اليتيمة فقد تحدث فيه عن بنى بويه وعن أشعار ملوكهم ، ووزرائهم ، وكتابهم ، وقد قسمه إلى عشرة أبواب كذلك على نحو ما فعل فى القسم الأول ..

وقد جعل الباب الأول لملوك بنى بويه ، خاصة الشعراء منهم ، كعضد الدولة ، وعز الدولة ، وتاج الدولة ، وأبى العباس خسرو بن فيروز ابن ركن الدولة ..

وأفرد الباب الثانى للوزير المهلبى وذكر أخباره ، وفصوله وأشعاره

وجعل الباب الثالث : لأبى اسحاق الصابى ، ومحاسن كلامه ..

وفى الباب الرابع تحدث عن ثلاثة من كتاب بنى بويه لهم مقامات الوزراء .. وهم : أبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وأبو أحمد عبدالرحمن بن الفضل الشيرازى ، وأبو القاسم على بن القاسم القاشانى .

أما الباب الخامس : فقد خصصه لشعراء مدينة البصرة بالعراق

ومحاسن كلامهم .

والباب السادس جعله لشعراء العراق سوى بغداد .

وجعل الباب السابع للمكثرين من شعراء مدينة بغداد .

وأفرد الباب الثامن للشعراء المقلين .. من أهل بغداد .

ورجع فى الباب التاسع للحديث عن شعراء العراق .

وأفرد الباب العاشر للشاعر العربى الملهم الشريف الرضى ، واهتم به اهتماما خاصا ، وعاش معه فى دراسة مستكنهة تمتاز بكثير من الخصائص الفنية والعرفية .

ويلاحظ على الثعالبى أن منهجه فى هذا القسم مضطرب وغير دقيق ، فقد جعل للبغداديين بابين ، أحدهما للمكثرين ، والآخر للمقلين .. وكان يكفيه باب واحد لكل شعراء بغداد ..

كذلك جعل لشعراء العراق - سوى بغداد - بابين هما : السادس والتاسع .. من غير تعليل لذلك . وكان يكفى جمعهم فى باب واحد بما فى ذلك شعراء البصرة وبغداد حتى لايقع الدارس فى هذا الخلط .

القسم الثالث :

يواصل المؤلف فى هذا القسم حديثه عن شعراء ، وكتاب الدولة البويهية وقد جعله كذلك فى عشرة أبواب - شأن القسمين السابقين :

وقد خص الباب الأول بأبى الفضل بن العميد وتوسع فى الحديث

عنـــــه .

وأفرد الباب الثانى لابنه أبى الفتح بن العميد . وذكر أخبــاره

وجعل الباب الثالث للصاحب بن عباد وأسهب فى ذكر أخبــاره ومجالسه وأشعاره ، ورسائله ومدائح الشعراء له ...

وفى الباب الخامس تحدث عن شعراء مدينة أصبهان .

وفى الباب السادس تحدث عن شعراء فارس وذكر عشرة مـــــن الشعراء أشهرهم أبو دلف الخزرجى ..

أما الباب السابع فقد جعله لسبعة عشر شاعرا معظمهم عـــــاش مغمـــورا ..

وفى الباب الثامن تحدث عن شعراء فارس والأهواز ..

وخصص الباب التاسع لشعراء جرجان وطبرستان ..

أما الباب العاشر من هذا القسم فقد أفرده لشمس المعـــــالى قابوس بن وشمكير ..

وبذلك ينتهى القسم الثالث من اليتيمـــة ..

* * *

القسم الرابع :

أما القسم الرابع والأخير فقد تحدث فيه عن شعراء وكتاب الدولة السامانية فى خراسان وما وراء النهر وعاصمتها "بُخَارَى" وقد جعله عشرة أبواب كذلك :

وتحدث فى الباب الأول عن عشرين شاعرا من خراسان ومعظمهم غير مشهور ..

وفى الباب الثانى تحدث عن شعراء العاصمة "بُخَارَى" وعدد منهم أربعة وعشرين شاعرا .

أما الباب الثالث فقد جعله للمأمونى والواثقى وهما من أولاد ـ الخلفاء العباسيين ـ نسبة إلى المأمون والواثق بالله ..

وفى الباب الرابع تحدث عن أبى بكر الْخُوَارَزْمِى ، وتوسع فى الحديث عن أخباره وآثاره .

كذلك أفرد الباب الخامس لأخبار بديع الزمان الهمذانى ، ودراسته دراسة مفصلة شاملة ..

وجعل الباب السادس عن أبى الفتح البستى وثمانية من الشعراء المغمورين ..

وخص الباب السابع لشعراء خراسان ، ما عدا "نيسابور" .

وأفرد الباب الثامن للأمير أبى الفضل عبدالله بن أحمد الميكالى وبالغ فى مدحه ، وأفرط فى الثناء عليه ، وأكثر من الحديث عن أشعاره وأخباره .

وجعل الباب التاسع للشعراء الطارئين على نيسابور من بلاد شتى وذكر منهم ستة عشر شاعرا .

أما الباب العاشر والأخير فقد خصصه لشعراء نيسابور .

وبذلك ينتهى القسم الأخير من كتابه الكبير " يتيمة الدهر" ويلاحظ أن منهجه فى هذا القسم مستقيم فى جملته ، فقد قسمه على أساس الأقاليم ، بل على أساس المدن أحيانا ، إيمانا منه بأثر البيئة فى النتاج الأدبى ، وبذلك كان هو : أول من طبق نظرية " الإقليمية فى الأدب " .. تطبيقا عليا .. وإن كان الصواب قد جانبه فى بعض الأحيان عندما وضع شعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس فى باب واحد مع اختلاف البيئات وتباعد الأقاليم ..

وقد أشرت الى ذلك الخلط فى حينه .

* * *

:: الفصل الرابع ::

" اليتيمة "

أ ـ مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجري
ب ـ تأثرها بالمؤلفات السابقة
جـ ـ أثرها في الكتب اللاحقة

أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجرى

يعد كتاب " اليتيمة " من أعظم كتب الثعالبى ، وأجلها قدرا ، وأكبرها حجما ، وهو الذى أتاح لصاحبه هذه الشهرة الواسعة فى عالم الأدب ، وجعله حديث الأدباء على مر العصور .

وقد استطاع أبو منصور ، بما رزقه الله من ذاكرة قوية ، وما وهبه من قدرة عجيبة على الحفظ والاستقصاء - أن يجمع نتاج الشعراء ، والكتاب فى القرن الرابع فى مؤلف واحد ، وقد أدى بعمله هذا فائدة جُلّى للأدب العربى ولتاريخ الأدب وللحضارة العربية والإسلامية ، ولولاه لضاع الجزء الأكبر من هذا التراث الثمين .

فقد استطاع أن يسجل فى " يتيمته " معالم النهضة الأدبية فى عصره ، تسجيلا يحتفل بالظواهر الأدبية أكثرمما يهتم بإيراد الأحداث التاريخية ، أو السير الشخصية فهو فى الغالب لا يهتم بالجانب التاريخى لحياة من يترجم لهم ، ويعرف بهم ، قدر اهتمامه بنتاجهم الأدبى . وإن كان فى ظروف خاصة يتعرض لحياة بعض الأفراد بالتفصيل كما فعل مع أبى فراس الحمدانى ، وأبى الطيب المتنبى ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وأبى اسحاق الصابى ، والشريف الرضى ، وأبى بكر الْخُوَارَزْمِىّ ، وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم ولكنه فى الغالب لم يكن يلتزم بهذه الخطة ..

وقبل أن أسترسل فى الحديث عن اليتيمة - من حيث أنها من أعظم كتب التراث - ينبغى أن أطرح السؤال التالى :

هل مثلت اليتيمة أدب القرن الرابع الهجرى ؟؟ .

وهل يستطيع الدارس لكتاب اليتيمة وحده أن يحصل على صـــورة صادقة لأدب القرن الرابع الهجرى ؟؟ ٠

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغى أن أشير إلى أن الثعالبى قــد ترجم فى كتابه لخمسة وثلاثين وأربعمائة شاعر ، وكاتب من أنحاء العالـــم الإسلامى ، المختلفة ـ آنذاك ـ وجمع معظم نتاجهم ، وبنات أفكارهم فى كتابه الذى لولاه لما وصل إلينا من ذلك التراث الضخم إلا القليل الذى لايمكن أن يرسم صورة صادقة عن التيارات الأدبية والحيوات الفكرية فى ذلك العصـــر الذهبى من عصورنا التاريخيــة ٠

ويكفى أن أشير إلى أن دواوين الشعراء التى وصلت إلينا من ذلــك العصر ـ محدودة جدا ـ ومعظم الشعراء الذين ذكرهم الثعالبى فى يتيمتــه لم تصلنا دواوينهم ، ولولا " اليتيمــة " لما عرفنا شيئا عنهم ، ولما سمعنــا حتى عن أسمائهــم ٠٠

وبناء على ذلك أستطيع أن أقول : إن أدب اليتيمــة يمثل أدب القرن الرابع الهجرى ، وإنه يُعَدُّ صورة صادقة للحياة الأدبية والاجتماعيـــة فى ذلك العصر ، ولا يستطيع باحث أو أديب ، أو مؤرخ لهذه الحقبـــة من تاريخنــا الأدبى أن يستغنى عن كتاب " اليتيمــة " ٠

ولكن : قبل أن أطمئن إلى هذه النتيجة ينبغى أن أتوقف قليـــلا عند بعض الظواهر التى لاحظتها أثناء دراستى " لليتيمــة " حتى يكون حكمــى على الأشياء حكما دقيقا ، أو قريبا من ذلك ٠

ومن أهم الأمور التى لاحظتها أن هناك شعراء عاشوا فى عصـــر الثعالبى أو قبله بقليل ولم يرد ذكرهم فى اليتيمــة ٠

ومنهم أبو حيان التوحيدى ، الكاتب الكبير ، والمفكر العظيم والفيلسوف المدقق ، صاحب التآليف المشهورة ، والآراء الصائبة ..

ومنهم الصَّنَوْبَرِيُّ شاعر الطبيعة العظيم ، وصديقه وتلميذه أبو الفتح كشاجم ، ومهيار الديلمى ، الشاعر الفارسى المشهور ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف ..

فما السر فى ذلك الإهمال أو النسيان ؟ وما أسبابه ودوافعه ؟ .

هناك احتمال قائم : وهو أن تكون ترجمة هؤلاء الأعلام قد سقطت من نسخة الكتاب الخطية ، ولم يعثر عليها وقت الطبع وكثيرا ما يحدث هذا فى كتب التراث ، فالثعالبى نفسه قد سقطت ترجمته من " معجم الأدباء " وضاعت فيما ضاع .. فلا يستبعد أن تكون ترجمة هؤلاء الأدباء قد ضاعت من كتاب اليتيمة ، خاصة أن الثعالبى قد ترجم لمن هم دونهم من الأدباء شهرة ونبوغا !! .

وهناك احتمال آخر قد يكون أقرب إلى الواقع والمنطق .. وهو أن الثعالبى قد تعمد تجاهل أبى حيان التوحيدى لأسباب سياسية ، واجتماعية لاتخفى على الباحث المدقق .. ومن أهمها : أن أبا حيان – على علمه وفضله – كان هَجَّاءً سليط اللسان ، كما كان ناقدا لاذعا ، ساخطا على حكام عصره ، وكتابه ، وقد صوّب سهام نقده لأشهر وزيرين ، وكما تبين فى عصر الثعالبى وهما : أبو الفضل ابن العميد ، والصاحب بن عباد حيث ألف فيهما كتابه المشهور " مثالب الوزيرين " وهجاهما فيه هجاء مقذعا قبيحا جعل منهما صورة هزلية مضحكة ، وذلك لأسباب شخصية بحتة حيث كانا ينفران منه لفقره وقبح منظره ، ويكرهانه لجرأته وسلاطة لسانه ، ويحقدان عليه لنبوغه وتفوقه ..

وأغلب الظن أن ذلك كان السبب فى تجاهل الثعالبى له ، وعدم ذكره فى كتابه حرصا على رضا الوزيرين ،ومجاملة لهما ، وطمعا فى نوالهما ، وربما خوفا من بطشهما ونقمتهما عليه .

وربما كان فقر أبى حيان وهوان شأنه قد حالا دون اهتمام المؤلفين بـه ...

أما بالنسبة للصَّنَوْبَرِىّ ، وصديقه كشاجم فقد كان عصرهما سابقا على عصر الثعالبى ، وهو لم يسجل إلا أبناء عصره ..

وأما مهيار الديلمى فأغلب الظن أنه لم يكن مشهورا وقت تأليف " اليتيمة " وكذلك الحال بالنسبة لأبى العلاء ،وإن كان الثعالبى قد ذكره فى صفحة واحدة من كتابه "يتيمة اليتيمة " أو " تتمة اليتيمة " مما يدل على عدم شهرته ، وبعد صيته ، وقت تأليف " اليتيمة " .

وهناك فى اليتيمة ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل وهى اختفاء روح التشيع فيها ..

فعلى الرغم من انتشار التشيع الفكرى والأدبى فى عصر الثعالبى ، وتعدد رجاله ،وكثرة أشياعه وأتباعه ، نلاحظ أن أثره ، أو طابعه كان ضئيلا فى " أدب اليتيمة " فلم نشاهد إلا مقطوعات صغيرة متفرقة – لبعض كتاب الشيعة – لا تمثل هذه الظاهرة ، ولا تعبر عنها التعبير الصادق . فالمعروف أن معظم الدويلات الإسلامية فى ذلك العصر كانت تعتنق مذهب الشيعة ..

فالدولة الفاطمية فى مصر وشمال افريقية كانت رائدة لهذا المذهب وداعية من دعاته ..

والدولة البُوَيْهِيَة فى فارس والعراق كان أمراؤها شيعة زيدية ..

والدولة الحمدانية فى الشام والموصل كان أمراؤها يتشيعون ... وأكثر من ذلك كان عديد من شعراء ذلك العصر وكتابه من غلاة الشيعة ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

أبا فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ، وتميم بن المعز ، والصاحب ابن عباد ، وأبا بكر الخوارزمى وغيرهم ..

وعلى الرغم من ذلك كله لا نجد صَدًى كافيا لتشيعهم فى أدب اليتيمة حيث كان ينبغى أن تكون حافلة بأشعارهم فى هذا المجال !!! .

فما السر فى ذلك ؟ وما أسبابه ؟؟ .

أغلب الظن أن أبا منصور قد تعمد ترك هذه الأشعار وتجاهلها ، وأغفل ذكرها فى كتابه لأسباب تتصل بالعقيدة المذهبية ، والروح السياسية .

وأوضح الأسباب والعلل فى ذلك أنه كان سنيا ، لا يتشيع فآثر أن يصون كتابه عن هذه الألوان المذهبية التى تثير الجدل ، وتبعث العداوة والبغضاء بين المسلمين وتصرف أدباء غير الشيعة عن كتابه ، وقد كان جِدُّ — حريص على رضا الناس ومجاملتهم ، كما يفهم من سيرته وكتبه ...

وهناك سبب سياسى آخر بعيد عن الدائرة الفكرية ، والمذهبية وهو أن الثعالبى كان يعيش فى نَيْسَابُور التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لبنى سامان — حكام خراسان وما وراء النهر — وكانوا غير شيعيين .

ولهذا نؤكد أن تجاهله للشعر الشيعى كان متعمدا منه لكيلا يثير سخط السامانيين عليه ، ونقمتهم منه ..

ومهما يكن من شىء فقد سجل الثعالبى بعض المقطوعات الشعرية لأدباء الشيعة الذين ترجم لهم وهى كافية فى التدليل على مذهبهم ، وتصوير الصراع القائم بين الشيعة وأهل السنة .. آنذاك .

وهى على قلتها كفيلة بأن تعطى صورة واضحة لهذا التيار ، وإن كانت لا تمثل الظاهرة أصدق تمثيل ..

وبعد هذه التحفظات أستطيع أن أقرر بكل ثقة ، واطمئنان أن أدب اليتيمة يمثل أدب القرن الرابع الهجرى تمثيلا صادقا ، على تعدد صوره ، واختلاف رسومه ..

ب — تأثر اليتيمة بالمؤلفات السابقة

لم يكن الثعالبى فى اليتيمة مبتكرا لهذه الطريقة فى التأليف ، وهى الطريقة التى تعنى بأدباء عصر من العصور ، وتدوين آثارهم ، فقد عنى المصنفون قبله ، بوضع الكتب التى تؤرخ لشعراء كل عصر ، وذكر طبقاتهم ، والانتخاب من مقطوعاتهم مثل كتاب " التاجى " لأبى اسحاق الصابى ، وكتاب " حاطب ليل " لأبى الحسن على بن أحمد ، وكتاب " التحف والطرف " لابن لبيب غلام أبى الفرج الببغاء ، وكتاب " أخبار الشعراء " لأبى هفان ، وكتاب " أشعار الندماء " للشمشاطى " وكتاب " حماسة الشعراء المحدثين " ، للخالديين ، وكتاب " الاسجاع " للحسن بن عبد الرحيم الزلالى .. وغير هذه من الكتب التى ورد ذكرها فى اليتيمة ، والتى تُعَدُّ مصادر هامة لها (1) . أما كتب النقد الهامة التى ورد ذكرها فى اليتيمة والتى تأثر بها أبو منصور فى آرائه النقدية فأهمها : كتاب " الموازنة " بين الطائيين للآمدى وكتاب " الوساطة "

اليتيمة : تقديم الأستاذ الصاوى ص (ك) .

بين المتنبى ، وخصومه ، للجرجانى ، وقد تأثر الثعالبى بهذا الأخير فى آرائه النقدية .. خاصة فى نقده للمتنبى ، فقد عقد فى اليتيمة فصلا درس فيـــــه أبا الطيب ، وديوانه ، وكانت هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل ، الذى كان القاضى الجرجانى من زعمائه ، وممثليه ، فقد وازن الثعالبى بين مزايـــا الديوان ونقائصه كما فعل القاضى الجرجانى من قبل .

يقول الثعالبى : " فأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحـــه ، وما يرتضى ، وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر — وطرائقه والتنبيه إلى عيـــونه وعيوبـــه (١) .

فهو بذلك ينهج منهج القاضى الجرجانى الذى يرى للمتنبى محاسنه وعيوبه ، وينقل عن صاحب " الوساطة " رأيه فى أن أبا الطيب عندما قال :

أَقِلْ أَنِلْ أَقِطْعْ أَحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِـدْ
زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِـــلِ(*)

قد نسج على منوال ديك الجن عندما قال :

أُحْلُ وأَمْرِرْ ، وضُرَّ ، وانْفَعْ وَلِنْ وَاخْشُـ
ـــنْ وَرِشْ وابْرِ وانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

فلما جاء إلى سرقات المتنبى رأى أن يورد منها مالم يورده الجرجانى فى كتابـه وقد رأى الثعالبى أن القاضى فى هذا الباب — شفى وكفى وبالغ فأوفى (٢) .

---

(١) اليتيمة (١ : ٩١) .

(*) راجع التبيان (٣ : ٨٥) ، ولما سمع أن الناس تحاول عد ألفـــاظ هذا البيت ذكره ثانيا برواية : " زدهش بش هب اغفر أدن سر صل " وذلك كما فى التبيان (٣ : ٨٩) . د/ سرحان .

(٢) اليتيمة : (١ : ١١٠) .

أما الأبواب الأخرى التى عقدها لبيان معايب شعر المتنبى فإنه كان أحيانا ينقل عن القاضى رأيه فى هذا المعيب ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحيانا أخرى كان ينقل ولا يذكر الإسم (1) فهذا دليل على أن الثعالبى قد تأثر بالقاضى الجرجانى وبكتابه " الوساطة " فى الآراء النقدية ، وليس فى المنهج والطريقة ..

أما فى فكرة الكتاب ، وهى تدوين آثار أدباء القرن الرابع الهجرى ، فقد كان متأثرا بكتاب " البارع " لهارون بن على المنجم ، فقد ذكر ياقوت أنه كان لهارون . وهذا كتاب اسمه " أخبار الشعراء المولدين وقد أورد فيه ما اختاره من شعرهم وسماه " البارع " وقال فى مقدمته " عملت كتابى هذا فى " أخبار الشعراء المولدين " وذكرت فيه ما اخترته من أشعارهم ، وتحريت فى ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتى ، وانتهى إليه علمى ، ثم ذكر أنه اختصره من كتاب مطول ألفه قبله ، وقد ذكر فى هذا الكتاب نيفا ومائة وستين شاعرا ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بذكر محمد بن عبدالملك بن صالح (2) .

وقد ذكر حاجى خليفة فى " كشف الظنون " أن " اليتيمة " ذيل لكتاب " البارع فى أخبار الشعراء " لهارون بن على المنجم (3) كما ذكر ابن خلكان أن كتاب " البارع " هذا هو الأصل الذى نسج عليه كل من جاء بعده ، ومنهم الثعالبى فى يتيمته (4) على أن لعبدالله بن المعتز الذى عاش فى عصر هارون المنجم كتاب فى " طبقات الشعراء المحدثين " قلد فيه كتاب

---

(1) القاضى الجرجانى ص٨٧ د/ أحمد بدوى . نوابغ الفكر العربى .
(2) معجم الأدباء (٦ : ١٩) .
(3) كشف الظنون (٢ : ٢٥٨) .
(4) وفيات الأعيان (٢ : ١٩٤) .

" البارع " ونسج على منواله ، وذكر فى مقدمته أنه تابع فيه ابن المنجم .

ولما كان هارون المنجم ، وابن المعتز العباسى قد أرخا لشعراء عصرهما — وهو القرن الثالث الهجرى — فقد تابع الثعالبى هذه السلسلة بتأليفه كتاب " اليتيمة " وأرخ فيه لشعراء وكتاب عصره ، وهو القرن الرابع الهجرى اقتداء بما فعله ابن المنجم ، وابن المعتز .

وقد أشار الثعالبى إلى هذا التقليد فى مقدمة " اليتيمة " وإن كان لم يذكر ابن المنجم ، وابن المعتز صراحة وانما اكتفى بقوله " وقد سبق مؤلفوا الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، فكم من كتاب فاخر عملوه ، وعقد باهر نظموه ، وبقيت محاسن أهل العصر غير محصورة فى كتاب يضم نشرها ، ولا مجموعة فى مصنف يقيد شواردها [1] .

فهو يذكر صراحة أنه مقلد لغيره من مؤلفى التراجم والطبقات ، — وان كان لم يذكر واحدا بعينه — ولعله كان يقصد كل الكتب التى سبقته فى هذا الفن مثل " طبقات الشعراء " لابن سلام ، و" الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، و " البارع " لابن المنجم ، و" طبقات الشعراء المحدثين" لابن المعتز .

ولا أستبعد أن يكون الثعالبى متأثرا — كذلك — بكتاب " الاغانى " لابى الفرج الاصفهانى ، فكثيرا ما كان يختار مقطوعاته الجيدة من الشعر الرقيق ، ويسجلها فى " اليتيمة " ويذكر أنها مما يتغنى به ، مما يدل على أنه متأثر فى هذه الناحية بكتاب الاغانى .

---

(١) مقدمة اليتيمة ص ٤ .

جـ ـ أثر اليتيمة في الكتب اللاحقة

لم يكد الثعالبي يفرغ من كتابه " اليتيمة " ويخرجه على النحو الذي يروقه ويرضيه ، حتى طار ذكره ، وشاع خبره ، وعظمت شهرته ، فأقبل عليه القراء يقتنونه ، والناسخون ينقلونه ، والوراقون يتداولونه ، وحرص عليه الأدباء حرصا شديدا وتنافسوا على شرائه والاستفادة منه .

ولعل هذا هو الذي : شجع الثعالبي على أن يجعل له ذيلا ويسمية " تتمة اليتيمة " وان كان حاجي خليفة يذكر ان اسمه " يتيمة اليتيمة " .

وقد ذكر فيه الشعراء الذين نسيهم في " اليتيمة " أو الذين لم يظفر لهم بشيء من أشعارهم ، وأخبارهم حين تأليف " اليتيمة " أو الذين عظم شأنهم ، ونبهوا بعد ذلك .

وتعد " اليتيمة " ناقصة بدون هذه " التتمة " كما ذكر ذلك الثعالبي نفسه لأن " التتمة " تحتوى أسماء كثير من الشعراء الذين أغفلتهم " اليتيمة " أو ظهر أمرهم بعد انتشارها فضلا على أنها تعين على اكمال تراجم عدد من الشعراء ـ الفضلاء الذين ذكروا في اليتيمة " .

وقد ذكر الأستاذ عباس إقبال ناشر " تتمة اليتيمة " أنها ألفت في أيام السلطان مسعود الغزنوى في المدة التى بين سنتى ٤٢٤ و ٤٢٩ هـ ، وقد أخرجها أبو منصور على غرار " اليتيمة " وقسمها أيضا الى أربعة أقسام :

القسم الأول :

في محاسن أهل الشام والجزيرة .

القسم الثانى :

فى أشعار أهل العراق ومحاسنهم .

القسم الثالث :

فى محاسن أشعار أهل الرى وهمذان ، وأصفهان وسائر بـــلاد الجبل ، وما يجاورها من جرجان وطبرستان .

القسم الرابـع :

فى محاسن أهل خراسان ، وما يتصل بها من سائر البلدان .

ثم ذيّل على " اليتيمة " كذلك أبو الحسن الباخرزى المتوفى سنـــة ٤٦٧ هـ بكتابه " دمية القصر وعصرة أهل العصر " ووضع عليه أبو الحسن عـلى ابن زيد البَيْهَقِيّ المتوفى سنة ٥٦٨ هـ كتابه " وشاح الدمية " .

ثم ذيل عليه أبو المعالى سعد بن على بن القاسم الأنصارى الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بكتابه " زينة الدهر فى لطائف شعراء العصر " ووضـع أيضا أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد العماد الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابه " خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر " ذيل به عـــلى " زينة الدهر " ، وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ هـ الى سنة ٥٧٢ هـ .

ثم صنع بعده كتاب " السيل على الذيل " وجعله ذيلا للخريـدة .. كما وضع معه فى القرن نفسه السمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ كتـــــاب " الأنســـاب " .

* * *

وفى القرن السابع الهجرى ألفت من السلسلة نفسها الكتب الآتية :

١ ـ " معجم الشعراء ، ومعجم الأدباء " لياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ " .

٢ ـ " عقود الجمان ، فى شعراء هذا الزمان " لأبى البركات مبارك بن أبى بكر الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

٣ ـ " الْمُغْرِبْ فِي حُلَى الْمَغْرِبْ " لأبى سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٤٠ هـ .

٤ ـ " أنباء الرواة على أنباء النحاة " للقفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . وله أيضا فى هذا الباب كتاب " المحمدون من الشعراء " .

٥ ـ " الغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة " لأبى الحسن على بن موسى ..

٦ ـ " وفيات الأعيان " لابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ .

* * *

أما فى القرن الثامن فقد ألفت الكتب الآتية فى هذا الفن :

١ ـ " فوات الوفيات " لابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٤٦ هـ .

٢ ـ " الوافى بالوفيات " للصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

٣ ـ " تلخيص مجمع الآداب ، فى معجم الألقاب " لابن القوطى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

٤ – " طبقات الشافعية " للأسنوى المتوفى سنة ٧٧٢ هـ .

٥ – " طبقات الحنابلة " لابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

* * *

وفى القرن التاسع ألف السبكى كتابه المشهور " طبقات الشافعية"

* * *

وفى القرن العاشر ألفت الكتب الآتية :–

١ – " المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب أحمد " للعليمى المتوفى سنة ٩٢٨ هـ .

٢ – " معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" لعبدالرحيم بن أحمد العباسى ت سنة ٩٦٣ هـ .

* * *

وقد ظلت هذه السلسلة متصلة الحلقات فألف منها فى القرن الحادى عشر ما يلى :–

١ – " ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا " لشهاب الدين أحمدبن محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .

٢ – " شذرات الذهب " للعماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ .

٣ ـ " خزانة الأدب " للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ٠

* * *

وفى القرن الثانى عشر الهجرى ألفت من هذه المجموعة الكتب الآتيــــة :

١ ـ نفحة الريحانة ، ورشحه طلاء الحانة " لمحمد أمين بن فضل اللــه المحبى المتوفى سنة ١١١١ هـ وقد جمله ذيلا على " ريحانـــــة الألبا " للخفاجى ٠

٢ ـ " أمل الآمل " للعاملى المتوفى سنة ١١٠٤ هـ ٠

٣ ـ " الدرجات الرفيعة ، فى أخبار الشيعة " للشيرازى ٠

٤ ـ " سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر " للمرادى ٠

* * *

وفى القرن الثالث عشر : ألف الكتونى كتابه " التاج المكلل " ٠

* * *

أما فى القرن الرابع عشر ـ وهو القرن الذى نحن فيه ، والــــذى أوشك على الانتهاء ـ فأهم الكتب التى ألفت فى هذا المجال كتاب " الأعلام " لخير الدين الزركلى ، وان كان لم يقتصر فيه على أعلام عصره بل تحـــدث

فيه عن الأعلام فى مختلف العصور ، ولا يعرف فى القرن الرابع عشر كتاب ألف فى تراجم الأدباء على غرار السلسلة السابقة ، وغاية ما ألف فى هـذا السبيل مجاميع اقتصرت على شعراء قطر واحد قلما تتعداه إلى قطر آخر .

* * *

:: الفصـل الخامس ::

" اليتيمـة فـي ميزان النقـد "

أجمع النقاد القدامى الذين تحدثوا عن الثعالبى ، أو تعرضوا لذكر كتبه ، كالباخرزى فى " الدمية " و الحُصْرِىّ فى " زهر الآداب " وابن الانبارى فى " نزهة الألبا " ، وابن خلكان " فى الوفيات " ، وحاجى خليفة فى " كشف الظنون " ، وأبى الفدا فى " البداية والنهاية " وغيرهم من المؤلفين والمصنفين السابقين .

أجمعوا على أن كتاب " اليتيمة " أكبر كتب الثعالبى ، وأجلها قدرا ، وأعظمها نفعا ، وأشادوا بها اشادة بالغة ، فهى التى أتاحت لصاحبها هذه الشهرة الواسعة ، وجعلت حديثه سمر الأدباء على مر العصور .

ولا شك أن هذا الإطراء من جانب المؤلفين القدامى لكتاب " اليتيمة " يدل على أهمية هذا الكتاب ، وقيمته الأدبية ، والتاريخية .

وإن كنت أعتقد أن نقدهم هذا نقد شخصى ذوقى يقوم على أساس الذوق الخاص ، والنظرة الجزئية الضيقة ، التى تشتمل على شيء من المبالغة والتهويل ، وتلك كانت عادة المصنفين القدامى فى تقريظهم لأصحاب الكتب والمصنفات .

* * *

أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب " اليتيمة " بالدراسة والنقد فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين ، فأظهروا آراءهم بكل وضوح ، تارة بمدحه والثناء عليه ، وتارة أخرى بذمه والقدح فيه .

ومن أشهرهم : الدكتور زكى مبارك فى كتابه " النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى " .

والدكتور : محمد مندور فى كتابه " النقد المنهجى عند العرب " .

والدكتور : طه حسين فى تقديمه لكتاب " الذخيرة لابن بسام "
والأستاذ أحمد أمين فى كتابه " ظاهر الاسلام " .

والأستاذين : محمد إسماعيل الصاوى ، ومحمد محى الدين عبد الحميد
فى تقديم كل منهما لكتاب " اليتيمة " .

وسأحاول فى هذا المجال أن أقوم بعرض آرائهم ، وتوضيحها ، ثم
مناقشتها والرد عليها ـ إذا احتاجت إلى رد أو مناقشة .

أولا : رأى الدكتور : زكى مبارك :

يرى الدكتور زكى مبارك أن " اليتيمة " كتاب عظيم أودعه الثعالبى
أخبار من عاش فى عصره من الشعراء ـ ولكنه بعد هذا الإطراء لليتيمة يعيب
على الثعالبى فيها أمرين :

أولهما :

أن الثعالبى فى " اليتيمة " مفتون بالإسراف فى إطراء من يتحدث عنهم
من الشعراء ، والكتاب ، وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور
حولها هنا ، وهناك (١) ، ثم استشهد على ذلك ببعض الأمثلة
من " اليتيمة " .

وثانيهما :

اغفال الثعالبى فى يتيمته لتواريخ الوفيات ويذكر أن هذا العيب من
أقتل عيوب " اليتيمة " .

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى (٢ : ١٩٠) ط دار الكتب .

ولا شك أن الدكتور زكى مبارك قد ظلم الثعالبى فى هذا الحكم ظلمـــا بينا .

ولا شك أن الذى دفعه إلى ذلك هو النظرة السريعة الخاطفـــة لكتاب " اليتيمة " .

ولو أنه أمعن النظر فى دراستها ، وأعمل فكره فيها .. لما عـــاب على الثعالبى شيئا من ذلك .

وأغلب الظن أن سبب إطراء الثعالبى لشعراء وكتاب عصره يعـــود إلى أسباب شخصية تتعلق بتكوينه ، وأخلاقه فلقد كان كما عرفنا من سيرته ، شديد التواضع عظيم الحياء ، كثير المجاملة لغيره من الشعراء والكتاب .

وعلى الرغم من ذلك كان حريصا على إيضاح خصائص من يترجم لهم فى أدبهم ، والإلماح إلى وقائع حياتهم التى كان لها تأثير فى هذا الأدب ، أو تفسير ظاهرة من ظواهره ، أو كشف عن جانب من جوانبه .

نجد هذا واضحا فى ترجمته لأبى فراس الحمدانى مثلا .. عندما عقد مـــــوازنـــة بين أبى فراس ، وابن المعتز ، وأوضح الخصائص التى أثرت فى شعر كل منهما ، من الإمارة ، وعراقة الأصل وحسن المنبت ، واستقامة اللسان .

كما نجده فى ترجمته لابن لنكك البصرى [2] حين قدم موازنة بيـــن شعره ، وشعر أبى الحسن بن فارس فى الملاحة ، وقلة مجاوزة كل منهما البيتين والثلاثة ، وحين شبه ابن لنكك فى قلة شعره ، وقصر نفسه بمنصور الفقيه الـذى كان إذا رمى بزوجيه قتل ، وكذلك كان ابن لنكك .. إذا قال البيـــــت ،

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى (٢ : ١٩٠) ط دار الكتب .
(٢) اليتيمة : (٢ : ٣٢٠) .

والبيتين ، والثلاثة أغرب فيما جلب ، وأبدع فيما صنع [1] .

وكان الثعالبى إلى جانب ذلك كله يلقى بأحكامه على شعر من يترجم لهم ، من خلال تقريظه لهم ويحدد معالمه ، ويظهر خصائصه ، ومميزاته .

فشعر ابن لنكك البصرى خفيف الروح .

وشعر ابن نباتة السعدى مع قرب لفظه - بعيد المرام .

وشعر ابن حجاج لا يستتر من العقل بسجف [2] مجون ، وسخف ولكنه مع ذلك من سحرة الشعر .

وأبو الفتح البستى صاحب الطريقة البديعة فى التجنيس التى يسميها المتشابه .

فأنت تراه يحدد الخصائص العامة لشعر من يترجم لهم ويبين معالمه وحدوده على الرغم من ثنائه عليهم .

وهو لايفعل ذلك من قبيل المصادفة والاعتباط . كما اتهمه الدكتور زكى - وانما يفعله عن فهم دقيق ، ووعى عميق ، لشعر وحياة المترجم له .

" ولم يكن الثعالبى مقلدا فى طريقته هذه فى الحديث عن الشعراء وإنما كان " مبتدعا ، ولو تأملنا عمل ابن المعتز فى كتابه " طبقات الشعراء " وعمل ابن قتيبة فى " الشعرا والشعراء " وهما أبرز من كتب فى هذا الفن قبل الثعالبى لادّركنا البون الشاسع بين الطريقتين .

---

(١) اليتيمة (٢ : ٣٢١) .
(٢) السجف : الستر .

فابن المعتز وابن قتيبة يعمدان إلى أخبار الشعراء فيسردانها ، وإلى أقوال النقاد فيمحصانها ، دون أن يجملا ذلك معرضا لبيان قدرتهما فـــى الكتابة كالثعالبى "[1] .

وأما العيب الثانى :

الذى أشار اليه الدكتور زكى مبارك فى نقده " لليتيمة " وهو اغفـــال تاريخ الوفيات ، فالحق أن الثعالبى كان معذورا فى ذلك ، فلقد جهـــد أن يترجم لكبار شعراء عصره ، وعمل مخلصا على تقصى الاخبار ، التى تخـدم النصوص التى أوردها ، وصرف النظر عن تسجيل ما يحيط بحياتهم الشخصيـــة من أحداث ، لأن هذا جهد المـــؤرخ ، لا جهد الأديب ..

هذا فضلا عن أن أبا منصور لم يلتق بكل من ترجم لهم وإنما سمـــع أخبارهم .. من قادم نحوه من بلادهم ، أو من صديق طاف البلاد ، وانتقـى الاخبار ، أو مما سار لهؤلاء الشعراء على ألسنة الناس ، ولا يعقل أن يجـــرى أبو منصور وراء هؤلاء الشعراء فى شتى بلاد الدولة الأسلامية الواسعــــة ، ليتعرف إلى أخبار الوفيات ، غير أن هذا النقص فى الكتاب يُعَدُّ عيبـــا خاصة فى عصرنا الحديث ولو أن الثعالبى أتمه لافاء على التاريخ الأدبى أوفـر الظـــلال .

ثانيا : رأى الدكتور : محمد مندور :

يرى الدكتور مندور ــ عندما تعرض لدراسة " اليتيمة " فى كتابه .. "النقد المنهجى عند العرب " ــ أن الثعالبى كان مجرد جامع لآراء غيره .. وذكر أنـه كان قرّاءً فى كتبه يخيط آراء غيره ، ويجمعها من غير فهم ، ولا إدراك ، كمـــا

(١) أبومنصور الثعالبى وآثاره الأدبية ص١٢٤ عبدالفتاح الحلو .

كان فرّاء في حرفته يخيط جلود الثعالب ويضم أجزاءها بعضها إلى بعض[١] .

ويزعم — كذلك — أنه لم يكن له رأي مستقل في حكمه على الشعراء والكتاب وإنما كان يعتمد على آراء الآخرين حيث يجمعها ويلفقها ، ويضم أجزاءها إلى بعض ، حتى يجعل منها كتابا .. فهو جامع أكثر منه مؤلفا أو ناقدا .

والحق أن الدكتور مندورا كان متسرعا في حكمه هذا على الثعالبي ، ظالما له في هذا الحكم الذي أطلقه على عواهنه دون تبصر ، أو دليل .

ولا شك أن الذي حمله على ذلك هو نظرته الجزئية .." لليتيمة" عندما تعرض لدراستها حيث لم يدرس منها في كتابه إلا جزءا صغيرا .. هو موقف الثعالبي من المتنبي ، في دراسته له ، وقد كان الثعالبي فعلا في نقده للمتنبي متأثرا بآراء غيره من الناقدين كالصاحب ، والحاتمي ، والجرجاني ..

ولعل هذا هو: ماحدا بالدكتور مندور إلى أن يسارع بالحكم على كتب الثعالبي كلها من خلال دراسته لهذا الجزء الصغير من " اليتيمة " فحكم على الكل من خلال دراسته للجزء .. وهو حكم مبتور ، لا يجد مجالا للوقوف في ميدان النقد النزيه ..

والدارس الواعي لكتاب " اليتيمة " يجد أن الثعالبي كان ناقدا من طراز فريد ، فقد كان يسجل أشعار الأدباء دون اكتفاء — في الأكثر — بنقلها من غير تعليق عليها ، أو وقوف لديها — ولكنه — غالبا — كان يعلن رأيه فيها .. ويسجل نقده عليها ، أو وجهته فيها ، أو تعليقه عليها .

ومن ذلك مثلا نقده لأبي بكر الخوارزمي عندما كتب قصيدة للصاحب — وقد اعتلت صحته — وكان من ضمنها هذا البيت :

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ص٣٠٢ .

نَحَوا لِيَ نَفْسَ المَجدِ ساعَةَ أَخْبَرُوا
بِمَا يَشْتَكِي مِنْ سُقْمِهِ وَيُمَارِسُهْ

فعلق الثعالبى على هذا البيت بقوله " إن لفظة النحى فيها مافيها من الطِّيَرَةِ .. إذ هى مما يقع فى المرثية لافى العيادة " (١) .

ثم يقول بعد ذلك : ومن سقطات الْخُوَارَزْمِى المنكرة قوله فى المدح :

وَمَهِيبٍ كَأَنَّمَا أَذْنَبَ النَّا
سُ إِلَيْهِ فَهُمْ مُخْشَوْنَ ذُلَّا
وَظَرِيفٍ كَأَنَّ فِي كُلِّ فَصْلٍ
مِنْ أَفَاعِيلِهِ عَرَائِسَ تُجْلَى

ثم يعلق على ذلك بقوله " إن الكبراء ، والمحتشمين لا يوصفون بالظرف إذ هو من أوصاف الأحداث ، والقيان ، والشبان ،ولم يرض بالفرطة فى هذه اللفظة حتى شبه أفاعيله بعرائس تُجْلَى ، فلو مدح مخنثا لما زاد على ذلك" (٢).

* * *

ولم يكن الثعالبى ممن يكتفى بالبحث عن العيوب ، وتعقبها وإبرازها للقارىء كما فعل مع الْخُوَارَزْمِىّ ، ولكنه كان — أيضا — يعجب بالشعر الجيد ، ويطرب له ، ويثنى عليه ، ويعلن رأيه فيه ..

ومثال ذلك أنه عندما انتصر سيف الدولة على المبرقع أحد زعماء القرامطة ، ورجع برأسه على رمح إلى حلب مدحه أبو فراس بقصيدة يهنئه فيها

---

(١) اليتيمة (٤ : ٢٠٨) .
(٢) المصدر السابق (٤ : ٢٠٨) .

بهذا النصر المبين ، وكان من أبياتها قوله :

وَآبَ وَرَأْسُ القَرْمَطِيِّ أَمَامَهُ * لَهُ جَسَدٌ مِنْ أَكْعُبِ الرُّمْحِ ضَامِرُ (١)

فأعجب الثعالبى بهذا البيت إعجابا شديدا وعلق عليه بقوله :

" هذا من أحسن ما قيل فى الرأس المصلوب على الرمح "

وهذا التعليق من جانب الثعالبى على بيت أبى فراس يدل على رقى ذوقه ، ونضج وعيه ، وحسن معرفته بالشعر ، وجودة فهمه له ..

* * *

وكثيرا ما كان يتعقب آراء النقاد ، ويرد عليهم ، ويناقشهم ، فيما يذهبون إليه ، ولا يأخذ كلامهم قضية مسلمة ، أو حجة لا تقبل المناقشة ، وكان فى ذلك ذا رأى صائب مستقل .

ومثال ذلك أنه عندما عرض قول المتنبى فى المدح :

قَدْ شَرَّفَ اللهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا
وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانَا

ذكر أديبنا الكبير رأى ابن جنى عندما شرح هذا البيت فقال :

" قال ابن جنى : لا يعجبنى قوله " سَوَّاك إنسانا " ولو قال : " أنشاك " ونحو ذلك لكان أليق بالحال " .

ثم عقب على كلام ابن جنى بقوله : " قلت أنا : ولو قال المتنبى

---

(١) نفسه (١ : ١٩) .

غير ما قال ، لم يكن فصيحا شريفا .. لأن فى القرآن " ثم سَوّاكَ رَجُلاً " [١] ، وليس أشرف ولا أفصح مما ينطق به كلام الله عز ذكره [٢] .

* * *

أفبعد هذه الدقة فى فهم آراء الآخرين ، وبعد هذا الذوق فى إدراك مواطن الجمال ، يتهمه الدكتور مندور بأنه جامع لأشعار غيره وآرائهم من غير فهم ولا تمحيص؟ !! .

والدارس المدقق " لليتيمة " يرى قوة فى شخصية الثعالبى ، ويلمس سعة فى اطلاعه ، ويحس لديه حسن فهم للشعر والنثر ويتضح هذا فى أمور منها :

١ — عندما كان شعر من يترجم لهم يتفق مع شعر قديم نراه يشير الى ذلك الاتفاق ، ويورد الشعر القديم .

والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة فى المواطن التى تعرض فيها لسرقات المتنبى ، والصاحب ، والسرى الرفاء ، وابن حجاج وغيرهم .

٢ — ولما كان المؤلف شاعرا ، وكاتبا فانه كان يحاول دائما أن يقيس ما يورده من معان وتراكيب ، وألفاظ على ما يمر به فى أثناء مطالعاته الكثيرة ، ويفاضل بينها ..

٣ — وعندما كان يحس ضرورة لتفسير كلمة مبهمة أو توضيح معنى غامض ، كان لا يتردد فى إيراد هذا التفسير ، أو التوضيح ، وكان بعمله هذا يقدم لقرائه فائدة عظمى لا يجدونها فى غير كتابه .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الكهف .
(٢) اليتيمة : (١ : ١٨٧) .

ومثال ذلك أنه عندما تعرض للقصيدة الساسانية التى قالها أَبُو دُلَفَ الْخَزْرَجِىُّ فى الكدية ـ وهى قصيدة طويلة جدا وجل ألفاظها غامض ولا يفهمها إلا طائفة الصعاليك .. لأنها لغة سرية خاصة ـ تولى الثعالبى شرحها ، وتوضيحها ، لأن كلماتها الغامضة ، وعباراتها الخفية كانت تحول دون فهمها ..

ومن هنا أطلق الثعالبى عليها " مناكاة بنى ساسان " ولولا شرحه لكلماتها ، وتوضيحه لعباراتها لما عرفنا عنها شيئا فى العصور التالية لعصره .

٤ ـ وللثعالبى لفتات بلاغية أشار اليها حين كان يلمحها فى أشعار من يترجم لهم ، وهذه اللفتات تنم عن ذوق بلاغى رفيع ، وقدرة فائقة على فقه أسلوب البيان ، وإدراك خفايا الكلام .

٥ ـ وقد زودنا الثعالبى بمجموعة قيمة من آرائه النقدية التى نجدها مبثوثة فى ثنايا تراجم الشعراء ، خاصة عند دراسته لشعر المتنبى ، وأبى فراس ، والصاحب والْخُوَارَزْمِى والهمذانى ، وغيرهم من كبار الأدباء ..

ولا شك أن هذه الدقة من جانب الثعالبى فى إجراء أحكامه على الأدباء لا يفطن إليها إلا أديب ذَوَّاقة يمعن النظر فى قراءة " اليتيمة " ويدقق فى دراستها ، أما أولئك الذين ينظرون إليها نظرة عابرة ، أو يدرسون بعض أجزائها فانهم لا يلحظون فيها إلا الطنطنة الفارغة ، والاطراء الكاذب ، والمبالغات الممقوتة .

ولذلك يسارعون إلى اتهام صاحبها بالضعف ، وعدم القدرة على الفهم ، والعجز عن الدراسة والتمييز ، وقديما قيل " رمتنى بدائها ، وانسلت " .

ثالثا : رأى الدكتور : طه حسين :

قام الدكتور طه حسين أثناء تقديمه لكتاب " الذخيرة " بعقد موازنة بين ابن بسام صاحب " الذخيرة " والثعالبى مؤلف " اليتيمة " واعترف صراحة بأن صاحب " الذخيرة " قد تأثر بالثعالبى فى المنهج والطريقة، والأسلوب ، ولكنه بعد ذلك تحامل على الثعالبى كثيرا وفضل عليه ابن بسام وسأقوم هنا بعرض رأى الدكتور طه بكل دقة وأمانة ثم أحاول من جانبى مناقشته ، والرد عليه ...

يقول الدكتور عن ابن بسام : " وهو حريص كل الحرص على أن يسير سيرة الثعالبى فى تأليف كتابه ، فهو يُقَسِّمُ كتابه أربعة أقسام .. كما قَسَّم الثعالبى كتابه أربعة أقسام ..

وهو يقسمه باعتبار الأقاليم .. كما قسم الثعالبى كتابه باعتبار الأقاليم (*) ، وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبى من السجع والتأنق فى تقديم الكتاب والشعراء والتعريف بهم والثناء عليهم ، والنقد لهم [1] .

ولكنه ـ بعد أن يعترف بفضل الثعالبى على ابن بسام ـ سرعان ما يأخذ فى التحامل على صاحب " اليتيمة " والنيل منه ، والطعن فيه فيقول : " ولكنه ـ أى : ابن بسام ـ بعد هذا كله يخالف الثعالبى فى أمر ذى خطر ، فهو أبعد منه نظرا ، وأنفذ منه بصيرة ، وأعمق منه تفكيرا

(*) كلمة " اعتبار " معناها الاتعاظ والاستدلال بالشىء على الشىء ، واستعمالها فى غير هذا المعنى خطأ شائع ـ كما هنا ـ وإذا جاز وقوعه فى أسلوب صغار الكتاب ، فذلك غير سائغ فى أساليب الكبار. د/ سرحان .

(1) تقديم كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة للدكتور طه حسين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ .

وهو على تكلفة فى اللفظ ، لا يخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى ، أو رداءته ، ومن صواب التفكير ، أو خطئه ، ولعله يكون أفقه من الثعالبى بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم ، وما ينتج فيه من أدب . فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين فى الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر [1] .

وقد نسى الدكتور طه أن الثعالبى ـ من قبل ـ قد ربط بين طبيعة كل إقليم وما ينتج فيه من أدب ..

والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء العراق لأسباب تتعلق بالموقع الجغرافى لكل من " الاقليمين " وذلك لقرب أهل الشام من خطط العرب ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق .. لمجاورة الفرس ، والنبط ، ومداخلتهم إياهم ، فهو قد فطن إلى ما كان من اختلاط أهل العراق بالعجم ، وأثر ذلك فى نتاجهم الأدبى .

وما كان ابن بسام الا مقلدا له فى تلك الناحية ..

* * *

ثم يواصل الدكتور هجومه على الثعالبى فيقول : " وابن بسام لا يكتفى برواية مقتطفات من الآثار الأدبية للملوك ، والوزراء والأمراء ـ كما فعل الثعالبى ـ ولكنه يعرض تاريخهم عرضا دقيقا مفصلا ، ويرد آثارهم الأدبية إلى مصادرها ، وقد عمد فى ذلك إلى مذهب مستقيم حقا . ظاهره السهولة وإيثار العافية ، والإعتماد على غيره ، ولكنه فى حقيقة الأمر دقيق كل الدقة ..

---

(١) تقديم الذخيرة لطه حسين ص (ب) .

رأى أنه ليس مؤرخا ، وأنه لا يحسن البحث التاريخى فلم يتكلف مالا يحسن ، ولم يحاول ما لا يجيد ، وإنما اعتمد على مؤلف معروف بالصدق والدقة وحسن الاستقصاء وحسن العرض أيضا .. وهو أبو حيان التوحيدى ، فأخذ من كتابه بالنص ، وبالتلخيص ، ما احتاج إليه من التاريخ السياسى وأنبأنا بذلك فى تواضع وصراحة خليقين بالاعجاب " (١) .

* * *

ولا شك أن هذا الكلام فيه كثير من المحاباة والتعصب لابن بسام ، وكثير من الغبن والتحامل على الثعالبى .. ولا يصح أن نعقد نوعا من الموازنة بين على الرجلين لان البون جد شاسع ، والفرق جد بعيد .

فالثعالبى قد ترجم لشعراء الدولة الإسلامية كلهم بما فى ذلك شعراء الأندلس .

وابن بسام قد ترجم لشعراء الأندلس فقط ، وأضاف فى القسم الرابع بعض التراجم للمشرقيين .. اقتداء بما فعله الثعالبى فى ذكر شعراء الأندلس ..

وعلى الرغم من ذلك نجد أن ابن بسام لم يعن بالكتابة التاريخية وإنما نقل ما جاء فى كتاب أبى حيان .

ولم يفعل ذلك فى طول الكتاب وعرضه ، وإنما فعله مع الأمراء والحكام ثم ترك بقية التراجم دون ذكر أية إشارة تاريخية اليهم .

على أن هذا الصنيع من ابن بسام جعله يحتفل بالأمراء والحكام

---

(١) انظر تقديم الذخيرة لطه حسين ص (ج) .

أكثر مما فعل الثعالبى ، وجعل نصيب الآخرين من كتابه ضحلا وقليلا بينما امتلأ كتاب الثعالبى بأدب أمثال هؤلاء مما جعله يرسم صورة أدبية واضحة لعصره ..

* * *

رابعا : رأى الأستاذ أحمد أمين فى " ظهر الاسلام " :

أما الأستاذ أحمد أمين فيعيب على الثعالبى احتفاله بالبديع اللفظى أكثر من عنايته بالتحليل النفسى (١) .

وليت شعرى كيف يطالب الأستاذ أحمد أمين الثعالبى فى القرن الرابع الهجرى بأن يتبع منهج التحليل النفسى ، فى دراسته للشخصيات الأدبية مع أن هذا المنهج لم يستعمل إلا فى العصر الحديث على يد طائفة من الأدباء والفلاسفة الذين يخضعون الشخصيات الأدبية والتاريخية أثناء دراستها لمنهج التحليل النفسى كالأستاذ العقاد فى عبقرياته المشهورة وإن كان بعض أدباء العصر ونقاده يعيبون عليه هذا الاتجاه ..

خامسا : رأى الأستاذ محمد اسماعيل الصاوى :

يرى الأستاذ الصاوى فى تقديمه لكتاب " اليتيمة " أن الثعالبى فى مختاراته الشعرية والنثرية قد أفرط كثيرا فى الفحش ، والمجون ، واستباح لنفسه فى هذه الناحية ما يثير عليه حملات علماء الأخلاق لأنه أورد أبياتا غاية فى الإفحاش لفظا ومعنى ..

وأنا ـ وان كنت أعتقد أن الثعالبى قد أفرط حقيقة فى هذه

---

(١) ظهر الاسلام (٢ : ١٢٢) .

الناحية - كما يقول الأستاذ الصاوى - أرى أنه كان ناقلا أمينا لأحـداث عصره ، ومسجلا صادقا لكل ظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل المجـون فـى مختاراته - كما فعل مزامنه - أبو اسحاق الحصرى فى " زهر الآداب " - لكان كتابه ناقصا مبتورا .. ولما استطعنا أن نحكم على العصر من خلال "اليتيمة" حكما ، صادقا ، دقيقا ، أمينا ..

سادسا : رأى الأستاذ : محمد محيى الدين عبدالحميد :

أما أستاذنـا المرحوم الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد فيعيـب على الثعالبى فى " اليتيمة " أمرين :

أحدهما : العصبية لشعراء الشام ، وتفضيلهم على شعراء سائر البلدان ..

وثانيهما : العصبية للشعراء من الملوك والحكام ، والثناء عليهم أوفر الثناء ..

أما بالنسبة للأمر الأول :

وهو العصبية لشعراء الشام - فأرى أن أبا منصور كان محقا فـى ثنائه عليهم ، وتعصبه لهم ، لأنهم حافظوا على طريقة العرب فى أقراض الشعر ، والتزموا بعمود الشعر العربى المعروف عند النقاد ، كالجزالة فى الألفاظ ، والفخامة فى التراكيب ، والبداوة فى التعبير ، والقوة فى المعانى و والعمق فى الافكار ، والبعد بقدر الإمكان عن الفحش والمجون ، وركاكة الأساليب ، وضعف التراكيب .. كما راج - عندهم شعر الحماسة ، وتمجيد البطولة ، ووصف المعارك ، والاشادة بمواقف سيف الدولة البطولية ضد الروم ، والدفاع عن الإسلام .

هذا فضلا عن المحافظة على الأوزان العروضيــة المتوارثــة .

وأما بالنسبة للأمر الثانى :

وهو تعصب الثعالبى للملوك والحكام والاشادة بالشعراء منهم — فأنا مع شيخنا محيى الدين فى ذلك ، لأن الثعالبى قد أراق ماء وجهه فى الثناء عليهم ومدحهم حتى إنه اشترط على نفسه فى مقدمة " اليتيمة " أن يورد فى مختاراته لب اللب ، وحبة القلب ، وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد .

فان وقع خلال ما يكتب البيت والبيتان مما ليس من أبيات القصائد ووسائط القلائد ، فذلك راجع عنده لسببين :

١ — إما لأن الكلام معقود به والمعنى لايتم بدونه .

٢ — واما لأنه شعر ملك ، أو وزير ،أو رئيس خطير واستشهد بهذا البيت :

وَخَيْرُ الشعرِ أَكْرَمُهُ رِجَالًا
وشَرُّ الشّعْرِ ما قَالَ الْعَبِيدُ

ولا شك أن هذه نظرة قاصرة من جانب الثعالبى فى فهم الشعر..

ذلك أن الشعر لا يعلى قدره أن يكون قائله ملكا أو وزيرا أو رئيسا خطيرا — كما قال — ولا يشينه ، أن يصدر عن وضيع أو حقير ..

فليس هذا فى الحقيقة مقياسا جيدا لجودة الشعر أو رداءته ، وانما المقياس السليم هو المعايير النقدية السليمة التى تعتمد على النظرة المجردة فى فهم الشعر ، والحكم عليه ..

ولو كان الشعر يرقى برقى قائله ، ويهبط بهبوطه لكان شعر ابن المعتز ، وسيف الدولة — وأبى فراس وعضد الدولة ، وتميم بن المعز وأضرابهم

من الأمراء والحكام فى المنزلة العليا من الشعر .. ولأسقطنا من تراثنـــا الأدبى أشعار الحطيئة ، وجرير ، وبشار ، وأبى العتاهية والمتنبى وغيرهم.. لوضاعة أصولهم ، وهوان أمورهم .. وهذا مالم يقل به أحد فى القديـــم ، أو فى الحديث..

وهذه النظرة من جانب أبى منصور تدل على ضعفه ، وحرصه على إرضاء الملوك ، والرؤساء فى عصره ، ولو على حساب المقاييس النقدية السليمة لينال عطاياهم ، وينعم بصلاتهم ، ويأمن مكرهم ، فأكثر من الثناء عليهـــم ، والإشـادة ، بذكرهم ، وإعلاء شأنهم ، وأفرد لهم فى " يتيمته " أبـــوابـا مطـــولة .(*)

والكتاب بعد هذا كله يُعَدُّ من أفضل المصادر لدراسة الشعر والنثر فى القرن الرابع الهجرى ، فى أوسع رقعة من الأرض تشمل العالم الإسلامى كله آنذاك ..

فقد حشد فيه مؤلفه عددا ضخما من الشعراء ، والكتاب يربو عـــلى أربعمائة أديب فى شتى أنحاء الدولة الإسلامية الواسعة الانتشار ..

وهو عن طريق ترجمته لهؤلاء الأدباء يضع أيدينا على حركة أدبية شاملة ، ازدهرت فى ذلك العصر ، وقد تعاون فيها الخلفاء ، والأمـــراء، والوزراء ، وأعيان البلاد ، فلم تشغلهم مناصبهم السياسية ، ولا مسئولياتهـــم الادارية ، عند تشجيع الأدب وتعاطى فنون القول .

(*) لعل هذه النظرة من الثعالبى ترجع الى المقياس الخلقى ، والرقـــى الاجتماعى حيث لا اسفاف ، ولا سفه ،ولا بذاء ، ولا تنزل من العلياء فى أشعار الملوك والرؤساء ، وعلى هذا الأساس، يكون مقياس الثعالبى خير مقياس، لأن الشعر فن جميل ، يجب أن يربأ به الشعـــراء عما ليس بجميل . د/ سرحان .

كما أن هذه التراجم تهىء مادة غزيرة لتأريخ الأدب فى ذلك الوقت ، فقد انفرد هذا الكتاب بكثير من التراجم لشخصيات لازالت مجهولة حتى اليوم .

والكتاب بعد هذا كله يقدم معلومات متنوعة عن البيئات والبلدان الإسلامية ، ومن عاش فيها من علماء ، وحكام وأدباء .. ومما كانت تموج به منتدياتهم ، ومحافلهم ، من نشاط ، وحركة ..

وعلاوة على ذلك ، يُعَدُّ الكتاب مصدرا ، هاما لدراسة الحالة ، الاجتماعية للدولة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .. ولا يقاربه فى ذلك أثر أدبى آخر ، كما يُعَدُّ مرجعا هاما لدارسى الأدب وعشاق العربية ، على مر العصور ..

* * *

:: البـاب الثالـث ::

آثار الأجناس البشرية والطوائف الدينية
فى أدب " اليتيمـة "

١ ـ الفصل الأول :

الروح الفارسية فى أدب اليتيمة •

٢ ـ الفصل الثانـى :

أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة •

٣ ـ الفصل الثالـث :

الرقيـــق وآثـــاره فيهـــا •

٤ ـ الفصل الـــرابع :

صدى التشيع فى اليتيمـة •

٥ ـ الفصل الخـامس:

آثار أهل الذمة فى اليتيمـة •

***

:: الفصــل الأول ::

" الروح الفارسية في أدب اليتيمة "

منذ أن اعتمد بنو العباس على الموالي ، من فرس ، وترك ، في إدارة شؤون البلاد ، وتدبير أمورها ، وتصريف أحوالها ، وحين اتخذوا منهم الوزراء ، والجند ، والعمال ، وأقصوا العرب أبناء أرومتهم وعمومتهم عن وظائف الحكم .. بدأ المجد العربي الشامخ يتهاوى وأخذت تلك الأعمدة الراسخة تتهدم ، وشرع ذلك العقد الثمين في تساقط درره وتناثر جواهره .

ولم يكد القرن الثالث يشارف نهايته ، حتى صارت هذه الدولة الموحدة العظيمة ـ التي تربعت من قبل على قنن المجد ، واستقرت فوق قمم العزة والفخار ـ دويلات سياسية صغيرة مستقلة استقلالا ذوويا خالصا ، ولا تربطها بالحكومة المركزية في بغداد إلا أوهن الأمشاج والصلات وأوهى الروابط والعلاقات .

ومن بين تلك الدويلات التي تمزقت إليها الدولة العباسية الكبيرة دولة بني بويه التي استولت على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة هجرية .

وقد كان بنو بويه من الفرس فتعصبوا لبني جنسهم تعصبا شديدا وشجعوهم على إحياء عاداتهم ، وتقاليدهم القديمة والاحتفال بأعيادهم الفارسية ومواسمهم الدينية البائدة .. وأصبح للبويهيين النفوذ الأعلى ، وعلى العباسيين الطاعة والخضوع ، فطغت الروح الفارسية على كل شيء ، وضعفت النعرة العربية في نفوس العرب ، وهجر شعراؤهم الفخر بالمآثر العربية من أحساب وأنساب ، وتحول الأدب العربي في تلك الحقبة إلى انحلال ، وضعف وتسيب ، وظهرت المدائح التي فيها كثير من الملق ، والمبالغة ، وافتخر شعراء الفرس بقوميتهم وتحاملوا كثيرا على العرب .

ولما كان بنو العباس يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي .. كان طبيعيا أن تسيطر الآراء الفارسية على الخلفاء أنفسهم ، فأصبحوا يتشبهون

بالأكاسرة ، ويديرون أمور الدولة بالطريقة التى كانت تدار بها امبراطورية آل ساسان من قبل ..

فاستبد الخلفاء بالرعية كملوك الفرس ، واتخذوا السيوف أداة لإرهاب المجتمع ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من الإجلال والتقديس..

وظهرت الأزياء الفارسية فى بلاطهم ، وأصبحوا يعيشون فى أبراج عاجية بعيدا عن الرعية ، وإذا دخل عليهم داخل وجب أن ينحنى أمامهم ، ويظهر علامات التقدير والاكبار و..

وكان الوضع الرسمى ألا ينال هذا الشرف العظيم إلا البارزون من كبار رجال الدولة ..

ويقول بعض الكاتبين فى هذا الصدد :

" ولا شك أن هذه الافكار التى نشأت فى بيئات غير عربية إنما كانت بقية باقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التى كانت مشهورة عند قدماء الفرس ، والتى لا يبعد أن تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة فكان من أثر ذلك أن عد الخلفاء العباسيون أنفسهم ظل الله فى الأرض كما جعلوا إرادتهم كأنها متممة لإرادة الله[*] " [1] .

أما ملوك الفرس من بنى بويه فقد تلقبوا بأضخم الألقاب التى تشعر بالغلو والجرأة فى التسميات [2] وأحاطوا أنفسهم كالخلفاء بمظاهر العظمة ، والإجلال ، والتقديس ، وسار على نهجهم كبار رجال الدولة فى فارس والعراق

(*) واضح أن هناك مبالغة ظاهرة فى تصوير الوضع الى درجة غير مقبولة . د/ سرحان .

(١) الأدب فى ظل بنى بويه ص٣٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية لآدم متز (١ : ٤٢) .

فعشقوا الرتب ، وأحبوا الألقاب ، وتنافسوا عليها تنافسا شديدا ـ جعل أبا بكر الخوارزمي يتندر عليهم ، ويسخر من الخلفاء ، ويهجوهم من أجل ذلك حيث يقول :

مالي رأيتُ بني العباس قد فتحوا
من الكُنى ومن الألقاب أبوابا
ولقّبوا رجلا لو عاش أولهم
ما كان يرضى به للحَشّ (١) بوابا
قلّ الدراهمُ في كفّيْ خليفتنا
هذا فأنفق في الأقوام ألقابا (٢)

وظهرت الروح الفارسية علاوة على ذلك في اتخاذ أعياد الفرس القديمة كالنيروز ، والمهرجان أعيادًا رسمية للحكومة والشعب معا .. كما ظهرت بصورة خاصة في إحياء ليلة الوقود التي كانت تعرف عند الفرس باسم " السَّذَقْ " فقد أصبح من رسوم ملوكهم في تلك الليلة أن يوقدوا النيران فوق قمم الجبال ، ويرسلوا الوحوش فيها ، ويرسلوا الطيور في لهيبها ويشربوا حولها .

وتتجلى الروح الفارسية كذلك في هذا الترف المبالغ فيه وفي هذا الغلو في الزينة وحب الظهور ، فامتلك الحكام القصور الجميلة ، والمنازل الفخمة ، كما امتلكوا فاخر الأثاث والرياش ، والموائد المطعمة برقائق الذهب والفضة ، والأرائك المغطاة بأبهى الأغطية ، وأجمل البسط ، وقد فرشوا السجاجيد ذوات الألوان الزاهية ، وأكلوا في أوان من الفضة ، وشربوا في كئوس من الذهب .. " كما كانوا مغالين في رعاية آداب السلوك ، فإذا

---

(١) الحشى : بفتح الحاء وضمها : البستان .
(٢) اليتيمة : (٤ : ٢١٦) .

تقابل نظيران احتضن الواحد منهما صاحبه وقبله ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدرا فعليه أن ينحني له انحناءة كبيرة كلها خشوع واحترام ، فاذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها ، فاذا تقابل مع فرد من عامة الناس حنى له رأسه قليلا في دعة وهدوء »[١] .

ولقد كان لهذا التيار الجارف من العادات ، والتقاليد الفارسية أثره الواضح في أدب تلك الحقبة فقد تأثر به الشعراء والكتاب ، وظهر صداه ، واضحا في أشعارهم ، ورسائلهم ، وعبروا عنه أصدق تعبير ..

والدارس لأدب " اليتيمة " التي ألفت في ذلك العصر ، يلمس أثر الروح الفارسية فيها بكل الوضوح ، وخاصة في أبوابها التي تتحدث عن أدباء فارس والعراق .

يلمسه في هذا الملق المبالغ فيه في شعر المديح والرثاء .. ويلمسه في هذا الغلو الفاحش في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام ، .... وفي الاكثار من شعر التهاني وبالأعياد الفارسية ، كالنيروز ، والمهرجان ، والسذق .

ويلمسه ـ كذلك ـ في هذه الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التي انتشرت في شعر اليتيمة .

ويلمسه أخيرا في هذه الأمثال الفارسية الْمُعَرَّبة ، والتي تعبر عن أفكار الفرس وتصور نفسياتهم وأخلاقهم ، أصدق تصوير ..

* * *

---

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ٣٠٢ .

وكأنى بالحضارة الفارسية القديمة قد بعثت فى ذلك العهد من جديد ، وطغت على كل شئ فى المجتمع ، فتأثر بها الشعراء ، وترجموها فى أشعارهم وآدابهم ، ونسوا الحياة العربية فى الجزيرة ، وما فيها من خشونة ، ووعورة، وهجروا شعر الحماسة الذى يمجد البطولة والشهامة ويشيد بالشجاعة والمروءة ، ويحث على الاستبسال فى القتال ، ونجدة المستغيث ، واستمروا هذا التردّى ، حتى تحول الأدب العربى إلى أدب ماجن خليع يقوم على المبالغات ، والنفاق ، وتصوير الحياة الفارسية ، فى ظل الحياة الجديدة التى أقبل عليها الشعراء ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، واندمجوا فيها ، وفضلوها على الحياة العربية القديمة .. وأعلنوا ذلك صراحة فى أشعارهم ..

فهذا أبو القاسم الزعفرانى أحد شعراء الصاحب يعلن بصراحة تأثره بالروح الفارسية ، ويرحب بالحياة الجديدة الوارفة الظلال ، ويرفض فى إصرار حياة الأعراب فى جزيرتهم القاسية ، وبلادهم الوعرة ، ويفضل عليها حياة اللهو والعبث فى حى الكرخ ببغداد ، حيث الحياة الناعمة والعيشة الرغدة فيقول :

لا أَتْبَعَ الأعرابَ إنْ هُمْ قَوَّضُوا
من مَجْهَلٍ حتى أَحُطَّ بِمَجْهَلِ

وصريرُ أَرْجَاءِ السَّرِيرِ بِمِسْمَعِى
أَحْلَى بِقَلْبِى من صرير المَحْمِلِ

فالكَرْخُ دارُ اللَّهْوِ أَعْذَبُ مَشْرَعًا
من مَشْرَعٍ يَخْتَصُّ دارةَ جُلْجُلِ

لا دَرَّ دَرُّ العيشِ فى مُتَرَبِّعٍ
بِمُخَيَّمٍ بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ (١)

---

(١) اليتيمة : (٣ : ٣١٤) .

لقد كان الشعراء في هذا العصر يبالغون في شعر المديح ، ويسرفون في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام ، ويسبغون عليهم ألوانا من الألقاب ، والصفات التي تجعل منهم أشخاصا فوق مستوى البشر .

وكان الملوك بدورهم يقبلون منهم هذه النعوت في رضا واغتباط ويشجعونهم عليها لأنها كانت ترضى نزعة الغرور عندهم ، وتشبع فيهم رغبة التسلط والجبروت .

فابن الحجاج الشاعر الخليع - عندما يمدح بختيار معز الدولة البويهي - يتشكك في أن يكون ممدوحه من سلالة البشر ، ويزعم أنه يفوق يوسف عليه السلام في الحسن والجمال ، ويدعى أن زليخا امرأة العزيز ، لو أبصرته لفضلته على يوسف ، فنجم السها ، لا يقاس بالقمر ، وذلك حيث يقول :

فَدَيْتُ وَجْهَ الأَمِيرِ من قمرِ
يَجْلُو الْقَذَى نُورُهُ عن البصرِ
فَدَيْتُ مَنْ وَجْهُهُ يُشَكِّكُنِي
في أنَّه من سُلالَةِ الْبَشَرِ
إِنَّ زُلَيْخَا لو أبصرتك لَمَا
مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ
ولم تَقِسْ يُوسُفًا إِلَيْكَ كَمَا
نَجْمُ السُّهَا لا يُقَاسُ بِالْقَمَرِ (١)

وإذا كان ابن حجاج قد تشكك في نسبة ممدوحه إلى البشر ، وادعى أن منزلته تفوق منزلة الأنبياء .. فإن هناك شاعرا آخر من شعراء

---

(١) اليتيمة (٣ : ٤٠) .

فارس هو إسماعيل الشاش قد جعل ممدوحه فخر الدولة البويهي في منزلة الاله وجعل غيره من الملوك كالأصنام التي كان أهل الجاهلية يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وإنه ليتقرب من هؤلاء الأصنام ليقربوه إلى سيده ومعبوده فخر الدولة زلفى وفي ذلك يقول :

آوِي إِلَى ظِلِّ شَاهِنْشَاهِ مِنْ زَمَنِي
كما أَوَى الصيدُ مَذْعُورًا إلى الْحَرَمِ
زرت الملوك لتدنيني اليه كما
يدني الى الله زلفى عابد الصنم
أَعْطَى فَأَحْيَا مَوَاتَ الْجودِ نَائِلُهُ
فالخِصْبُ من فِعْلِهِ والإِسْمُ للدِّيَمِ (١)

* * *

أما أبو القاسم الزعفراني أحد شعراء الصاحب ،فقد ادعى لممدوحه الربوبية ، وخصه بالسجود ، وأحله من قلبه مكانا لا يشاركه فيه أحد وذلك حيث يقول :

يَا سَامِعَ الزُّورِ فِيَّ لِي نِعَمُ
مِنْهَا الضَّنَى في هواكَ والسَّقَمُ
أنت الذي دِنْتُ بالسجودِ له
حتى لقد قِيلَ رَبُّهُ صَنَمُ
وَلِي فُؤَادٌ غَدَوْتَ مَالِكَهُ
بلا شَرِيكٍ فليسَ يَنْقَسِمُ (٢)

---

(١) اليتيمة (٣ : ٣٥٥) .
(٢) نفسه (٣ : ٣١٨) .

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه المبالغات الممقوتة في شعر المديح صدى للروح الفارسية التي سادت المجتمع العراقي الفارسي آنذاك

***

إن هذه المبالغات هي التي أفسدت الشعر العربي ألفاظه ومعانيه وجعلته متكلفا هزيلا ..

ولعل الأبيات الآتية للصابي في مدح عضد الدولة البويهي خير دليل على ذلك .. وفيها يقول :

صَلِّ يَاذَا ٱلْعُلَا لِرَبِّكَ وَانْحَرْ
كل ضِدٍّ وشانِىءٍ لك أبْتَر
أَنْتَ أَعْلَى مِن أن تكونَ أضَـا
حيكَ قُرُوصًا من الجِمالِ تُعفَّر
بل قُرُوصًا من الملوكِ ذَوى التِّيـ
ـجِ تِجَاهُها أمامكَ تُنْثَر
كلما خَرَّ ساجِدًا لـك رأسٌ
مِنْهُم قال سَيْفُكَ : اللهُ أكْبَر[1]

إنه لشعر ركيك تبدو عليه سمات التكلف والصنعة ، وبرود العاطفة وضعف الخيال ، وهو دون شعر الصابي في غير هذا الفن ..

ولعل ذلك راجع إلى حرص الصابي على إرضاء ممدوحه بشتى السبل فضاقت عليه اللغة بما رحبت ، ولم يجد أمامه إلا ألفاظ القرآن الكريم يغير عليها ، وينظمها مديحا لمولاه ليرضى عنده نزعة الغرور والتسلط ،

---

(١) اليتيمة (٢ : ٢٥٤) .

والحب للجبروت .. والطغيان .. فجاء شعره ركيكا سقيما .

ولقد كان هذا الشعر ـ على الرغم مما فيه من برود ومبالغة ـ يسعد عضد الدولة ، ويرضى كبرياءه وغروره ، فلقد كان كما عرفنا من سيرته جبارا طاغية ، يرى نفسه فوق مستوى البشر ، وقد وصف نفسه فى بعض قصائده بأنه فاق البشر ، وأنه ملك الأملاك ، وأنه أيضا غلاب القدر ، والعياذ بالله تعالى .

قال الثعالبى : " واخترت من قصيدته التى فيها البيت الذى لم يفلح بعده أبدا قوله :

لَيسَ شُرْبُ ٱلكَأْسِ إِلَّا فِى ٱلْمَطَرْ
وَغِنَاءٍ مِنْ جَوَارٍ فِى السَّحَرْ
غَانِيَاتٍ سَالِبَاتٍ لِلنُّهَى
نَاغِمَاتٍ فِى تَضَاعِيفِ ٱلْوَتَرْ
مُبْرِزَاتِ الكَأْسِ مِن مَطْلَعِهَا
سَاقِيَاتِ الرَّاحِ مَن فَاقَ ٱلْبَشَرْ
عَضُدَ الدَّوْلَةِ وابنَ رُكْنِهَا
مَلِكَ الأَمْلَاكِ غَلَّابَ ٱلْقَدَرْ (١)

***

على أن الصاحب بن عباد وزير بنى بويه كان من أكثر زعماء عصره تكلفا ، وحبا للمبالغة ، والغلو ، وطريقته فى الكتابة ، تدل على ذلك .

وكانت مدرسته الشعرية من أكثر المدارس الأدبية ميلا الى الغلو .

(١) اليتيمة (٢ : ١٩٧) .

وكان الشعراء فى بلاطه يتحينون الفرص لمدحه ، ونعته بأرفع الصفات ، وتحويله إلى شخصية أسطورية .

وكان يتقبل ذلك منهم راضيا سعيدا ، شأنه فى ذلك شأن ملوك عصره ورؤسائه .

فهذا أبو سعيد الرستمى أحد شعراء بلاطه ينتهز فرصة بناء سيده دار جديدة بأصبهان فيسبغ عليه من صفات المديح ما يرفعه فوق البشر فيقول :

وَلوْ أَصْبَحَتْ دَارًا لكَ الأرْضُ كلُّها
لضَاقَتْ بِمَنْ يَنْتَابُ دارَك آهِلا
ولو كنتَ تبنيها على قدرِ هِمَّةٍ
سَمَتْ بِكَ واشْتَطّت إليك المراسلا
عَقَدْتَ على الدنيا جِدَارًا فَحُزْتَهَا
جميعا ولم تَتْرُكْ لغيرِك طائلا

ثم يقسم — بعد ذلك بأربعة أبيات — فيقول :

وَوالله ما أرْضَى لك الدهرَ خادِمًا
ولا ٱلبَدْرَ مُنْتَابًا ولا النَّجْمَ نائِلاَ
ولا ٱلفَلَكَ الدَّوَّارَ دَارًا ولا ٱلْورَى
عبيدًا ولا زُهْرَ النجُومِ قبائلا (١)

وأما أبو الحسن صاحب البريد وهو من مدرسة الصاحب أيضا فيتمنى أن يتطوع الشعراء بأعينهم للصاحب ليتخذها مكان البسط على أرض دار ،

(١) اليتيمة (٣ : ١٨٧) .

الجديدة فيقول :

لمّا بنى النّاس فى دنياك دُورهُمُ
بَنيْتَ فى دَارِكَ الْغرّاءِ دُنْيانَا
فلوْ رضيتَ مكانَ الْبُسْطِ أَعْيُننَا
لم تبْقَ عيْنٌ لنا إلاّ فَرَشْناهَا
وهذِهِ وُزراءُ الملكِ قاطبةً
بَيَادِقٌ لم تزلْ ما بيْننا شَاهَا
فأنتَ أرفعُهَا مجْدًا وأسْعدُهَا
جدًا ، وأجْودُهَا كفًا ، وأكْفاهَا
وأنت آدبُهَا بل أنت أكتبُهَا
وأنت سيدُها بل أنَ موْلاهَا (١)

* * *

على أن صدى الروح الفارسية لم يظهر فقط فى هذا الغلو المقوت فى شعر المديح ، وانما تجلى كذلك فى أمر آخر أكثر دلالة من سابقه ..

وهو التهنئة بالأعياد الفارسية القديمة التى عادت فى هذا العصر إلى الوجود من جديد ، واحتفل بها الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم .

وكان " النيروز " من أهم الأعياد الفارسية ، وهو أول أيام السنة عند الفرس ، ويقع عند الاعتدال الربيعى .

وكان الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء يحتفلون بهذا العيد حيث

---

(١) اليتيمة (٣ : ١٨٤) .

يتلقون التهانى ، ويتقبلون الهدايا ، كما كان ملوك الفرس القدماء يفعلون .

وكان الشعراء يتسابقون فى هذا اليوم لتهنئة الملوك ، والحكام ، ويتنافسون فى تقديم الهدايا لهم كل حسب طاقته ، وإمكاناته المادية حتى يفوزوا برضاهم ، وخلعهم .

وكان أبو اسحاق الصابى من أكثر أدباء عصره حرصا على ذلك ، وقد أورد له الثعالبى طائفة ضخمة من شعر التهانى بهذه المناسبة .

وكان يحرص فى كل مرة على إهداء ممدوحه ما يقدر عليه حسب العادات الفارسية السائدة آنذاك ..

فقد كتب مرة إلى عضد الدولة يهنئه بيوم " النيروز " ويقدم إليه رسالة هندسية من استخراجه .. وأخذ يتعلقه ، ويبالغ فى مديحه شأن غيره من شعراء العراق وفارس ، آنذاك ... وذلك حيث يقول :

أيَا مالِكَ الأرضِ الذى ليس بَيْنَهُ
وبين مليكِ العَرْشِ مِثْلٌ يقاربه
رأيتُ ذوى الآمالِ أهْدَوْا لكَ الذى
تروقُ العُيُونَ النَّاظِراتِ محاسِنُه
وحَوْلَكَ خُزَّانٌ يَحُوزونَه وَمَا
له مِنْكَ إلاّ لَحْظُ طَرْفٍ يُعايِنُه
ولكنّنى أهْدَيْتُ عِلْماً مُهَذَّبًا
يروقُ العقولَ الباحثاتِ بَواطِنُه (1)

---

(1) اليتيمه (٢ : ٢٥٦) .

وعندما سجنه عضد الدولة لأسباب شخصية ، وسياسية لم تمنعه محنته أن يهنئ «جلاده» بيوم « النيروز » وأن يقدم إليه فى هذه المناسبة درهمين، وكتاب « المسالك والممالك » ـ عله يصفح عنه ويطلق سراحه ـ وكتب إليه يقول :

أَهْدِى إِلَيْكَ بِحَسْبِ حَا
لِى فِى الْخَصَاصَةِ دِرْهَمَيْن
وَبِحَسْبِ قَدْرِكَ دَفْتَرَيْـ
ـنِ هُمَا جَمِيعُ الْخَافِقَيْن
فَإِذَا فَتَحْتَهُمَا رَأَيْـ
ـتَ بَيَانَ ذَاكَ بِلَحْظِ عَيْن (١)

وكان عندما يعجز عن اهدائه شيئا محسوسا يكتفى بتقديم أبيات من الشعر كقوله :

تَعَذَّرَ دِينَارِى عَلَىَّ وَدِرْهَمِى
فَلَا طَقْتُ مولانا بِبَيْتَيْنِ مِنْ شِعْرِى
وكم بيتِ شِعْرٍ زَادَ بِالشُّكْرِ قَدْرُهُ
على بيتِ مالٍ من لُجَيْنٍ ومن تِبْرِ (٢)

وليت شعرى كيف كان عضد الدولة ـ وقد كان ملكا غنيا خطيرا ـ يقبل الدرهم ، والدرهمين ، من شاعر فقير سجين مثل الصابى ؟ ، ولكنها العادات الفارسية التى سيطرت على عقول القوم ، وملكت عليهم أمرهم ، فأصبحوا لا يستطيعون من قيدها فكاكا ..

---

(١) اليتيمة (٢ : ٢٣٦) .
(٢) نفسه (٢ : ٢٥٧) .

وكثيرا ما كان يُجْعَلُ وصفُ الربيع ، والتهنئة بالنيروز وسيلة للممدوح ، ومقدمة للمدح .

ومن ذلك قول عبدالصمد بن بابك :

لقد نَشَرَ النَّيْرُوزُ وَشْيًا على الرُّبَا
مِنَ النَّوْرِ لَمْ تَخْفِرْهُ بِكَفِّ رَاقِمِ

كَأَنَّ ابنَ عَبَّادٍ سَقَى المُزْنَ نَشْرَهُ
فَجَادَ بِرَشَّاشٍ من الوَبْلِ سَاجِمِ (١)

وذلك خلافا لما كان عليه الشعر العربي في الماضي ، حيث كان الشعراء ، يبدأون قصائد المديح ، بالوقوف على الديار ، ووصف الآثار ، وبكاء الأحبة ، ووصف الراحلة .. غير أن شعراءنا هنا كانوا متأثرين بالبيئة الجديدة ، التي اصطبغت بالصبغة الفارسية ، فلم يسعهم إلا أن يعبروا عن هذه البيئة أصدق تعبير ..

* * *

أما عيد " المهرجان " فلم يكن أقل قيمة من سابقه ، وكان يقع في فصل الخريف ، وكان الملوك يحتفلون به " كالنيروز " حيث يجلسون لتلقى التهاني ، وتقبل الهدايا ، كما كانوا يفعلون يوم " النيروز " وكان أبو اسحاق الصابي - كذلك - سباقا إلى تهنئة الحكام ومجاملتهم بهذه المناسبة .. وكان حريصا على تقديم الهدايا لهم كما كان يفعل في " النيروز " .

فقد أهدى عضد الدولة مرة " اصطرلابا " وكتب إليه معه هذه الأبيات :

---

(١) المصدر السابق (٣ : ٣٤٦) .

أَهْدى إِلَيْكَ بَنُو الآمالِ واْحتفلُوا
في مِهْرَجانٍ جديدٍ أنت مُبليه
لَكِنَّ مَجْدَكَ إبراهيم حينَ رأى
عُلُوَّ قَدْرِكَ عن شيءٍ يدانيه
لم يَرْضَ بالأرضِ مُهْداةً إليك فقدْ
أهدى لَكَ الْفَلَكَ الأعْلَى بما فيه (١)

وكان الشعراء يحتفلون " بالمهرجان " ويستقبلونه كما يستقبلون الربيع ، لأنه يأتى بعد انتهاء الصيف ، بحره اللافح ، وعجاجه المؤذى وكانوا يتخذون من وصفه مقدمة للمديح ، كما كانوا يفعلون فى " النيروز "

يقول أبو بكر بن شَوْذَبَةُ فى مدح عبدالله بن إسماعيل الميكالى وتهنئته بالمهرجان :

أَنْعِمْ بِيَوْمِ الْمِهْرَجانِ فَإِنَّهُ
يومٌ أتاكَ به الزَّمانُ جديدُ
ومضى الصيفُ وحرُّه وعجاجُه
وأتى الخريفُ ووقتُه المحمودُ
إن كانَ هذا اليومُ عيدًا لِلْوَرَى
فبقاءُ عُمْرِكَ كُلَّ يَوْمٍ عيدُ (٢)

ومهما يكن من شىء فقد كانت ظاهرة التهنئة " بالنيروز " ، و " المهرجان " وتقديم الهدايا فيهما ـ أثرا من آثار الفرس فى الحياة العربية تلك الحياة التى اصطبغت بالروح الفارسية صبغة خالصة ..

---

(١) المصدر السابق (٢ : ٢٥٥) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣٨٤) .

وقد ظهر صدى ذلك كله فى نتاج الشعراء ، ورسائل الكتاب فى تلك الحقبة .

وكانت ليلة " الوقود " التى كانت تعرف باسم " السَّذَقْ " – وهى من أحب الأعياد الفارسية إلى قلوبهم ، وآثارها عندهم – قد فتنتهم نيرانها المتأججة ، وبهرهم شررها المتطاير ، فأقاموا حولها الملاهى وأكثروا من الصخب والضجيج ، وتسابقوا فى وصف الطبيعة من حولها ، وكان وصفها يقترن غالبا بالمديح والاطراء ..

فهذا ابن نباتة السعدى يمدح عضد الدولة ، ويصف نار " السَّذَق " التى أشعل عضد الدولة أوارها ، وأجج شعلتها ، وأعلى لهيبها فيقول :

لَعَمْرِى لَقَدْ أذْكَى الْهُمَامُ بِأَرْضِهِ
مُشَهَّرَةً يَنْتَابُهَا الْفَجْرُ صَالِيَا

تَنَهَّبُ النُّجُومُ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَحْسُدُ أَيَّامَ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا

هِىَ اللَّيْلَةُ الْغَرَّاءُ فى كل شَتْوَةٍ
تُغَادِرُ جِيدَ الدَّهْرِ أَتْلَعَ حَالِيَا [1]

على أن السَّلَامِىّ كان من أكثر شعراء العراق إعجابا بهذه النار واحتفالا بها ، فأكثر من وصفها ، والحديث عنها .

وكان مفتونا بمنظر دجلة ، وقد انعكس ضوء النار على صفحته فحول لونه من فضة إلى ذهب ، وذلك حيث يقول :

---

(١) المصدر السابق (٢ : ٣٦٢) .

وَلَمْ تَرَ بَحْرًا جَرَى بِالْعُقَارِ
ولا ذَهَبًا صِيغَ منه جَبَلْ

إِلى أَنْ جَرَتْ دِجْلَةٌ فِي الشَّعَاعِ
وَطَنَّبَ بالنُّورِ أَعْلَى الْقُلَلْ

سَحَابُ الدُّخَانِ وبرق الشَّرَابِ
وَرَعْدُ الملاهي ، وَغَيْثُ الجَدَلْ

وَمَا زَالَ يَعْلُو عَجَاجُ الدُّخَا
نِ حَتَّى تَكَوَّنَ منه زُحَلْ

فَكُنَّا نَرَى الْمَوجَ مِن فِضَّةٍ
فَذَهَّبَهُ النُّورُ حَتَّى اشْتَعَلْ (١)

وكثيرا ما كان منظر النيران على رؤوس الجبال ، وقمم التلال يستولى على شعوره ، ويسيطر على قلبه . . . حتى حبب إليه عذاب النار ، وحتى أقسم أن يجعل أنفس أعضائه وقودا لها اذا خبت فيقول :

مَازِلْتُ أَشْتَاقُ نَارًا أُوقِدَتْ لهما
حَتَّى ظننت عَذَابَ النَّارِ قَدْ عَذُبَا

قَدْ كُلِّلَتْ عَنْبَرًا بِالْمِسْكِ مُمْتَزِجًا
وَطُوِّقَتْ جُلَّنَارًا واكتستْ ذَهَبَا

فَالنُّورُ يَلْعَبُ فى أطرافها فَرَحًا
والخمرُ يُرْعِدُ فِي أكنافها رَهَبَا

وَطَارَ عَنْهَا شَرَارٌ لَوْ جَرَى مَعَهُ
بَرْقٌ دَنَا أَوْ تلقى كَوْكَبًا نَكَبَا

لو كان وَقْتَ نِثَارٍ خِلْتَهُ دُرَرًا
أو كان وقْتَ انتصار خِلْتَه شُهُبَا

---

(١) المصدر نفسه (٢ : ٣٨٧) .

والليلُ عُرْيانُ فيه مِنْ مَلابِسِه
نَشْوانُ قدْ شقَّ أثْوابَ الدُّجى طَرَبا
أقسمتُ بالطَّرفِ لوْ أشْرَقتْ حينَ خَبتْ
جَمَلْتُ أنْفَسَ أعْضائي لَها حَطَبَا[1]

ولا شك أن الاعجاب بالنار ، والاحتفال بها ، وتقديسها ، إنما هو بقية من عبادة النار التى كانت معروفة قديما عند المجوس .

ولقد ظل هذا المعنى مترسبا فى نفسية المجتمع الفارسى إلى ما بعد إسلامه بقرون ..

فلما استولى الفرس على مقاليد الأمور فى بغداد ، وسيطروا على الخلفاء ، وأحيوا عاداتهم وتقاليدهم الفارسية من جديد طفت هذه الظاهرة على السطح وظهرت إلى عالم الوجود مرة ثانية — ولكن ليس فى صورة عبادة وتقديس هذه المرة — فقد كان القوم مسلمين — ولكن فى صورة اعجاب واجلال وتعظيم — وظهر صدى ذلك واضحا فى أدب اليتيمة ، وما الأدب إلا صورة صادقة للحياة الاجتماعية فى عاداتها ، وتقاليدها وسائر أمورها .

***

وهناك جانب آخر فى أدب اليتيمة ، يدل دلالة واضحة على تأثر الحياة العربية بالروح الفارسية .. آنذاك .. وهو تلك الألفاظ الفارسية التى انتشرت فى قصائد الشعراء ، ورسائل الكتاب ..

والمتصفح لكتاب " اليتيمة " — خاصة فى الأبواب التى تتحدث

---

(١) المصدر السابق (٢ : ٣٨٢) .

عن الأدب فى فارس والعراق — تصادفه طائفة ضخمة من الكلمات الفارسية التى اندست بين الألفاظ العربية من غير اشارة الى أصلها الفارسى ، أو حتى التلميح بذلك .

والثعالبى بدورة لم يعمد إلى شرح هذه الكلمات الأعجمية أو توضيحها — كما كانت عادته دائما عندما كانت تطالعه كلمة غامضة ، أو لفظ غريب ، فانه كان يقوم بشرحها ، وتوضيحها كما فعل فى قصيدة أبى دُلَف — الخزرجى الساسانية حيث شرح جُلّ كلماتها ، وفسر معظم ألفاظها ، على الرغم من أنها كانت ألفاظا عربية ..

أما هنا فانه تجاهل الكلمات الفارسية ، وتركها من غير شرح ، أو توضيح ، مما يدل على شيوعها وانتشارها ومعرفة الخاصة والعامة بها ، وأنها لشهرتها لاتحتاج الى تعريف بها أو ابانة لها ..

ومثال ذلك قول ابن الحجاج الشاعر الماجن فى وصف غلام أعجمى :

غُلامٌ أعْجَمِىٌّ فيه ظَرْفٌ
وَحِذْقٌ بالتَّلَطُّفِ والتَّأَنِّى
سَقَانِى دُو وَسَا وازْدَدْتُ منها
على سُكْرِى وَصَبَّحَنِى بِهَفْتِ[1]

فالكلمات : " دو " بمعنى : اثنين ، و " سا " : بمعنى : ثلاثة ، وهفت : بمعنى : المطر ، وهى جميعا ألفاظ فارسية .

ومعظم أبيات هذه القصيدة مطعم بالكلمات الفارسية .. ولكننى

(١) المصدر السابق (٣ : ٨١) .

أتحرج من ذكرها ، أو الاستشهاد بها لأنها غاية فى الفحش والمجون .

وأحيانا كان الشاعر يعمد الى أبيات عربية فيترجمها الى الفارسية ويصوغها فى قالب شعرى كما فعل الشاعر الفارسى " المعروفى " عندما قرأ أبيات أبى الحسن البديهى(*) الآتية فى التشبيب :

وَلَمْ أَرَ لى يوم الوصل مُساعِدًا
على الوَجْدِ حَتّى أَقبل الدمعُ مُسْعِدَا
وكان دما فابْيَضّ منه اخْضِرارُه
بِنار التَّصابى حين فاض مُصَعَّدا

فترجمها الى الفارسية فى البيت الآتى :

خُونْ سِپيدْ بارَمْ بَرْدُورِخانْ زَرْدَمْ
آرى سِپيدْ باشَدْ خُونْ دِلْ مُصَعَّد (١)

* * *

وكانت لعبة الشطرنج من الألعاب المعروفة عند الفرس منذ القدم ، وكان جل ألفاظها ، ومسمياتها — وما زال — فارسيا ، ولقد أخذها العرب عنهم ، منذ قيام الدولة العباسية ، وأصبحت هذه اللعبة منتشرة فى بلاط الخلفاء والحكام ، فأقبلوا عليها يروحون بها عن أنفسهم ، ويروضون بها عقولهم ، ويتعلمون منها فنون الحرب ، وأساليب القتال .

وكان ملوك بنى بويه من أشد حكام زمانهم حبا لها وتعلقا بها ، وكان بعض الشعراء يلعبونها معهم ، ويعجبون بها ، ويصفونها فى

(*) هكذا ورد اسمه فى اليتيمة من غير قياس ، والا لقيل البدهى .
د / سرحان

(١) المصدر السابق : (٣ : ٣١٠) .

أشعارهم .. متأثرين فى ذلك بالروح الفارسية التى كان لها أثر كبير فى المجتمع العراقى ، والمجتمع الفارسى آنذاك ..

فهذا أبو القاسم الزعفرانى أحد شعراء فارس كان يحب هذه اللعبة ، وكثيرا ما كان يلعبها مع الحكام أمثال : عضد الدولة ، ويصفها فى شعره ، كقوله :

فَأَقَمْنَا صُدُورَ فُرْسَانِ حَرْبٍ
خَلْقَ رَجَّالَةٍ لَهَا لا تَرِيمُ
وإِذَا اسْتُقْدِمَتْ تَصَدَّتِ الخَيْلُ
وطابَ الطِّرادُ والتَّصْمِيمُ
فالْتَقَى العَسْكَرانِ فِى حَوْمَةِ النَّقْعِ
أُسُودٌ عَلَى أُسُودٍ تَحُومُ
كُلُّ فِيلٍ نَجَتْ مِنَ الصَّلْمِ أُذْنَاهُ
وأَوْرَى نَابَاهُ والْخُرْطُومُ
وطِمِرٍّ إِذَا عَلَتْهُ الْعَوَالِى
غَابَ فيها وعَادَ وهْوَ سَلِيمُ
فاخْتَلَطْنَا وجَالَ فِى الحَرْبِ فِرْزَا
نِى وقال : الْكَمِيُّ مَنْ لا يَخِيمُ
ثُمَّ نَادَى شَاهِى بِرُخِّيهِ كُرًّا
لَيْسَ بَعْدَ الْوُقُوفِ إِلاَّ الهُجُومُ
فأَحَاطَا بِشَاهِنَا فِى مَضِيقٍ
ضَاقَ ذَرْعًا بِمِثْلِهِ المَكْظُومُ
ثم أَزْعَجْتُهُ بِفِيلِى فَوَلَّى
مُسْتَكِينًا كَمَا يُوَلِّى اللَّئِيمُ

وَكَشَفْتُ الْمِرَاءَ عَنْ وَجْهِ رُخٍّ
فَعَرَاهُ الْحِمَامُ وَهْوَ سَلِيمُ

فَتَخَفَّتْ مِنَ الْحَيَاءِ وَغَطَّتْ
وَرْدَ خَدٍّ كَأَنَّهُ مَلْطُومُ

ثُمَّ قَالَتْ : خُذِ الْفُؤَادَ سَلِيمًا
إِنَّ حَبْسَ الْمَرْهُونِ عَارٌ وَلُومُ (١)

إنها لمعركة حربية حامية الوطيس ، دارت رحاها على رقعة الشطرنج الضيقة بين اللاعبين الماهرين ،كل يحرك جنوده ضد عدوه، ويرسم الخطط للنيل منه ، والإيقاع بقواده ، والانتصار عليه ..

وكانت هذه اللعبة بما اشتملت عليه من أسماء وألفاظ فارسية ، أثرا من آثار الفرس على المجتمع ظهر صداه واضحا فى الأدب على النحو الذى شاهدناه ، لأن الأدب كان ، ولم يزل ظلا مكثفا للحياة الاجتماعية ، وصورة صادقة لها تعبر عن أفكارها ، وترسم آمالها ، وآلامها ، وتترجم عاداتها وتقاليدها ..

ولقد كان الثعالبى مدركا لهذه الحقيقة تمام الإدراك فقسم أبواب اليتيمة حسب الأقاليم إيمانا منه بأثر .. الاقليم فى نتاج شعرائه من الأدب.

وأخيرا هناك اتجاه فى أدب اليتيمة يدل - أيضا - على تأثر هذا الأدب بالروح الفارسية ، وهو كثرة الأمثال الفارسية المعربة ، ذلك أن الفرس قد عرفوا منذ القدم بالحكمة ، وحسن الرأى وسداد التفكير ، كما برعوا فى ضرب الأمثال المستوحاة من البيئة الفارسية ..

ولما كان كثير من الأدباء العرب فى فارس والعراق يعرفون اللغة

---

(١) المرجع نفسه (٣ : ١١٣) .

الفارسية ويطلعون على آداب الفرس، وتراثهم ، تولوا ترجمة طائفة ضخمة من الأمثال الفارسية إلى اللغة العربية ، وصاغوها فى قوالب شعرية ، ليسهل حفظها و ويكثر تداولها .

ولقد كان أبو الفضل الْمَرْوَزِيُّ الشاعر العربى المعروف من أكثر شعراء اليتيمة ميلا إلى الفرس ، وحبا لآدابهم ، وتعلقا بتراثهم ، وتشبها بحضارتهم فترجم إلى العربية مجموعة ضخمة من أمثالهم .. وهى كثيرة ومتنوعة .. وبعضها مستمد من البيئة الريفية أو الصحراوية كقوله :

نَالَ الْحِمَارُ مِنَ السُّقُوطِ فِى الْوَحَلْ
ماكان يَهْوَى وَنجَا مِنَ الْعَمَلْ

وقوله :

والْمَعْزُ لَا يَسْمَنُ إِلاَّ بِالْعَلَفْ
لَا يَسْمَنُ الْمَعْزُ بِقَوْلٍ ذِى لَطَفْ

وقوله :

طَلَبُ الأَعْظُمِ فى بَيْتِ الكِلَابِ
كَطِلَابِ الْمَاءِ فى لَمْعِ السرابِ

وقوله :

إِدَّعَى الثَّعْلَبُ شَيْئاً وطَلَبْ
قِيلَ : هَلْ مِنْ شَاهِدٍ؟ قال: الذَّنَبْ

وبعضها يتعلق بأسلوب المعاملة ، وآداب السلوك كقوله :

مِنْ مُثُلِ الْفُرْسِ ذَوِى الأَبْصَارِ
الثَّوْبُ رَهْنٌ فى يَدِ القَصَّارِ

وقــوله :

كَانَ يُقَالُ : من أتـى خِوانَــا
مِن غَيْرِ أنْ يُدْعَى إلَيهِ هَانَــا

وقــوله :

مَنْ لَمْ يَكُنْ فى بَيْتِـه طَعَــامُ
فَمـاله فِـىَ مَحْفَـلَ مقَـــام

وبعضها يصور نفسية المجتمع الفارسى ، وآماله ، وطموحه ، وثقافته، وتجاربه فى الحياة كقوله :

أعْظَـمُ مَافِـى صِفَـةِ اللَيْـلِ وُجِـدْ
اللَيْـلُ حُبْلَى ليسَ يُدرى مايلدُ(١)

وقــوله :

إذَا لَمْ تطِقْ أنْ تَرتَقِي ذِرْوَةَ الْجَبَل
لِعَجْز فقِفْ فِى سَفْحِهِ هَكَذَا الْمَثلْ(٢)

كان ذلك كله أثرا من آثار الفرس على المجتمع العربى فى كل من العراق وفارس، تجلى واضحا فى هذا الأدب الذى صور عادات الفـــرس وتقاليدهم ، واحتفل بأعيادهم ومواسمهم ، ونشر لغتهم وألفاظهم على النحــو الذى أوضحنـــاه .

---

(١) هناك بيت عربى فى هذا المعنى يقول :
والليالى من الزمانِ حُبَالى * مثقلات يلدن كل عجيـــب
ولا ندرى أيهما الآخذ من الثانى . د/ سرحان .

(٢) أنظر اليتيمة (٤ : ٨٣، ٨٤) .

ولكن : هل استطاع ذلك التيار الفارسى الجارف أن يخمـــد الروح العربية فى فارس والعـــراق ؟ .

وهل اختفى حقا شعر الحماسة من الأدب العربى فى تـــلك الحقبـــة ؟؟ .

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه فى الفصل القادم ـ إن شـــاء اللـــه ـ ..

* * *

:: الفصـل الثانـى ::

" أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة "

على أن هذا التيار القوى من العادات والتقاليد الفارسية القديمة التى تحدثت عنها فى الفصل السابق ، لم يستطع أن يخمد الروح العربية ولا أن يمنع المد العربى من الانتشار والتدفق .

ذلك أن بعض العرب الذين عاشوا فى فارس والعراق آنذاك، قد آلمهم ما آل إليه أمرهم ، وعز عليهم تطاول الفرس عليهم ، فأخذوا يتطلعون إلى ماضيهم المجيد ، وينظرون عبر ذلك الماضى إلى مجد آبائهم، وأجدادهم ، أولئك الذين أثاروا الدنيا ، وأقعدوها بما حققوه من انتصارات فى دنيا الفتوحات .. المادية أو الروحية ونغص عليهم حياتهم ما شاهدوه من ضعف الخلفاء ، وخضوعهم لملوك بنى بويه الذين كانوا يتعصبون لبنى جنسهم من الفرس ، ويشجعونهم على إحياء عاداتهم وتقاليدهم ، والاحتفال بأعيادهم ، ومواسمهم ، فطغت الروح الفارسية على المجتمع كله وضعفت النعرة العربية فى نفوس العرب ، وهجر معظم شعرائهم الفخر بمجد الآباء ، وتحول الأدب العربى إلى أدب ضعف وانحلال ومدح كله نفاق ومبالغة ، وافتخر الفرس بقوميتهم ، وتحاملوا كثيرا على العرب ..

مثل هذا الواقع المؤلم الذى آل إليه أمر العرب فى هذه البلاد ، دفع بعض أدباء العرب الذين يغارون على قوميتهم إلى التعلق بعروبتهم، والتعصب لها ، ورفض هذه الحياة الناعمة الماجنة التى كان الناس يحبونها فى تلك البيئة الجديدة ، تحت السيطرة الفارسية ..

ومن هؤلاء الأدباء شاعر عربى غيور عاش فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، وآلمه ما صار إليه أمر قومه فى تلك البلاد ، فراح يعتز بعروبته وتقاليدها الأصيلة ، ويتغنى ويطاول بماضى العرب ومآثرهم ، ويسخط على الحياة الفارسية ويتبرم بالعيش فى بغداد التى يسيطر عليها الموالى من الفرس ، ويتطلع إلى مستقبل مشرق ، ومجد عريض ، وينحى باللائمة على

أبناء جلدته الذين غدوا كالنساء لا نخوة تحركهم ، ولا شهامة تثير فيهم الحماس ، وهذا الشاعر العربى الغيور على العروبة والإسلام هو : أبوالحسن محمد بن الحسين الموسوى العلوى الملقب بالشَّرِيفِ الرَّضِىّ وقد وُلِدَ ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة للهجرة .. وكان شعره صورة صادقة لنفسه الأبية التى طبعت على الشمم والأنفة ، وصقلت بالعزة والكرامة ، وغذيت بالدماء العربية الحرة التى لاتعرف الخنوع ، ولا تألف الخضوع .

ولهذا جاء شعره صورة ناطقة بالجزالة العربية ، وقوة النظم ورصانة الأسلوب ، إلى احتوائه لتجارب الحياة ، ونقد المجتمع وشكوى الزمان ، والاعتداد بالفضيلة ، والتغنى بالمكارم ، والفخار بالعنصر العربى ، والاشادة بما كان له من عزة ومجادة وبطولة وأصالة ، جاوز صوتها فلك الجوزاء ..

وقد تجلت الروح العربية عند الشريف الرضى فى ضيقه بالحياة البغدادية ، وتبرمه بالسيطرة الفارسية ، وحنينه الى الحياة العربية الحرة فى الجزيرة الفسيحة الرحبات .

كذلك تجلت فى اعتداده بالآباء ، والأجداد ، والإشادة بمآثرهم والإطراء لمحامدهم ، وطبائعهم الغرزية .

وقد ارتسمت هذه المعانى على سفح شعره ، فى التطلع إلى المعالى ، وعدم الرضا بالهزيمة فى أى ميدان ، وفى تهنئة والده بالأعياد الإسلامية كعيدى الفطر ، والأضحى ، وفى شكوى الدهر ، والتمرد على الأوضاع القائمة ..

نعم .. لقد كان الشريف الرضى ضيق الصدر بالحياة البغدادية حتى كرهها ، وتمنى النزوح عنها ، والرحيل منها ، وهجر مراسمها والبعد عن ظواهرها ، التى تؤذى العيون ..

وكثيرا ما كان يشكو قلة الأصدقاء ، وندور الأوفياء ، وينعى سوء حظه ، في هذا ، ومع ذلك ظل قلبه معلقا بالمعالى ، مشرئبا إلى المكارم منساقا في طريق المجد والعظمة وإنه ليقول مخاطبا مدينة بغداد :

تَوَقَّعِى أَنْ يُقَالَ قَدْ ظَعَنَا
ما أَنْتِ لِي مَنْزِلًا ، ولَا وَطَنَا
يادَارُ قَلَّ الصَّدِيقُ فَمَا
أُحِسُّ وُدًّا ولا أَرَى سَكَنَا
كيف يخافُ الزَّمَانَ مُنْصَلِتٌ
مُذْ خَافَ غَدْرَ الزمانِ ما أَمِنَا
لم يَلْبَسِ الثوبَ مِنْ تَوَقُّعِهِ
للأَمْرِ إِلّا وظَنُّهُ كَفَنَا (١)

ثم تهيجه ذكريات الماضى المجيد فينسى همومه ، ويتطلع إلى مشارف العلا ، وأرائك المجد ، ويفتخر بنفسه وبقومه فيقول :

لى مُهْجَةٌ لا أَرَى لها عِوَضًا
غيرَ بلوغِ العُلَا ولا ثمنَا
ما ضَرَّنَا أَنَّنَا بلاجِدَةٍ
والبَيْتُ والرُّكْنُ والمَقَامُ لَنَا
سوف تَرَى أَنْ نَيْلَ آخرِنَا
مِنَ العُلَا فَوْقَ نَيْلِ أولنَا
وأَنَّ مَا بَزَّ مِنْ مَقَادِمِنَا
يُخْلِفُهُ اللّهُ فى أَوَاخِرِنَا (٢)

(١) المرجع السابق (٣ : ١٢٤) .
(٢) المرجع نفسه (٣ : ١٢٤) .

وإذا كان الشريف يتألم مر الألم ، ويتمرد على الحياة البغدادية ويتغنى بشرف نسبه ، وكرم آبائه ، فما ذاك إلا لأنه كان يرى نفسه أهـلا لكل فضل ، ولم لا يكون ذلك وقد عاش فى عصر انقلبت فيه الأوضاع ، وتبدلت الأحوال ، وانعكست الموازين ، واهتزت القيم ، ووصل فيه إلى الملك من هم دونه نسبا وحسبا وشرفا ومجدا وكفاءة ومقدرة ؟؟

لقد وصل إلى الملك من كان حجّاما ، وإلى الامارة من كـان حطّابا ..

فلا عجب أن يسخط الشريف على وضعه وأن يضيق ذرعًا بالحياة والأحياء ، فى ظل هذه الأوضاع الذليلة التى كرهها وتمنى الخلاص منهـا فيقـول :

أَلاَ لاَ أَعُدُّ الْعَيْشَ عَيْشًا مع الأذَى
لأنَّ رَقِيقَ الذُّلِّ حَيٌّ كَمَيِّتِ

تُخَوِّفُنِي بِالْمَوْتِ والمـوتُ راحـةٌ
لِمَنْ سَلَّ عَزْمِي قَلْبَهُ مِثْلُ هِمَّتِي (١)

وهذه الهموم التى سيطرت على قلب الشريف ، وأحالت حيـاته إلى جحيم لا يطاق هى التى عجلت بمشيبه قبل الأوان وجعلته يشيب وهـو ابن عشريـن :

عَجِلْتَ يا شَيْبُ عَلَى مَفْرِقِي
وَأَيُّ عُذْرٍ لَكَ أَنْ تَعْجَلا

فَكَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى عَارِضٍ
ما اسْتَغْرَقَ القَمْرَ ولا اسْتَكْمَلا

(١) نفسه (٣ : ١٢٦) .

كنتُ أرى العشرين لِى جُنَّةً
من طارقات الشَّيْبِ إنْ أقْبَلا
فالآن سيَّانِ ابنُ أُمِّ الصِّبا
ومن تَسَدَّى العُمُرَ الأطْوَلا (١)

" لقد كان شعر الشريف فى أكثر أغراضه يمثل ظاهرة أدبية قائمة بذاتها تهدف إلى تصوير ما كان يختلج نفوس طبقة معينة من آلام وآمال وأعنى بهذه الطبقة ، أولئك العرب المغلوبين على أمرهم فى ميدان الحياة السياسية ، والاجتماعية فقد كانوا ينظرون إلى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الأعاجم من فشل وإخفاق فيجزعون ويألمون ، وكانوا يتطلعون إلى المستقبل فتداعبهم الأحلام بالظفر والنجاح فيطمعون ويأملون " (٢) .

ولذلك لا نعجب إذا ما رأينا الشريف يكثر من الفخر فى شعره والإشادة بمآثر قومه الذين كانوا يشعرون بالهوان ، تحت وطأة السلطان الفارسى فى هذه البلاد ... وكان يرى نفسه أهلا لكل فخر ، ولم لا ؟ أليس من بنى هاشم الكرام الذين تسنموا ذُرا المجد فى الجاهلية والإسلام وفى ذلك يقول :

أنا ابنُ الأناجبِ من هاشمٍ
إذا لَمْ تكُنْ نُجُبٌ مِنْ نُجُبْ
ثلاثٌ يزُودهمُ بالرِّماحِ
ويلْوى عمائِمَهُمْ بالشُّهُبْ
عِتاقُ الوجُوهِ وعتْقُ الجيادِ
فى النقْعِ يعرفهم بالقِبَبْ (٣)

---

(١) نفسه (٣ : ١٢٤) .
(٢) الأدب فى ظل بنى بويه (ص١٦٣) .
(٣) جمع قب بكسر القاف وهو العظم الناتىء بين الأليتين .

يشف الوضَــاءُ خلال الشحـو
ـبِ منها وخَلْفَ الدُّخَانِ اللّهَبْ(١)

ولأن الشريف ينتمى إلى بنى هاشم الذين ينتسب إليهم العباسيون كان يرى نفسه فى منزلةٍ لا تقل عن منزلة الخلفاء ، ويرى أنه لا يختــلف عنهم فى شىء إلا فى الخلافة ، فهم يتحلون بها على حين كان الشـــريف عاطــلا منهـا ..

وقد تجلت هذه النظرة من جانبه فى مخاطبته للخليفة القـــادر بالله حيث يقول له :

عَطْفًــا أميرَ المؤمنين فإنّنــا
فى دوحةِ العلياءِ لا نتفــرقُ
ما بيننا يومَ الفخــارِ تَفَــاوُتٌ
أبَدًا كِلانَا فى المعالى مُعْــرِقُ
إلّا الخــلافةَ ميّـزتْك فــإنّنى
أنا عاطِلٌ منها وأنْتَ مُطَــوَّقُ(٢)

وكان يرى أنه ينتمى إلى دوحة عالية الأغصان طيبة الثمار وأن غيره من أبناء عصره لا يدانيه فى ذلك ولا يقاربه .. فيقول :

لنا الدَّوْحَــةُ الْعُلْيَا التى نَزَعَتْ لها
الى المجدِ أغصانُ الجدودِ الأطايبُ
اذا كانَ فى جَوّ السماءِ عروقُها
فأين عواليها وأين الذّوائــبُ (٣)

---

(١) اليتيمـة (٣ : ١٣٠) .
(٢) نفســه (٣ : ١٢٤) .
(٣) نفســه (٣ : ١٣٥) .

وكان يرى ـ كذلك ـ أنه شِبْلٌ تَحَدَّرَ من ظهر أسود شجعان ومن كان هذا شأنه لا ينحنى لمخلوق ، ولا يذل لإنسان وذلك حيث يقول :

أكابرنا والسابقون إلى العُلا
ألا تلك آسادٌ ونحن شبولها

وإنّ أسُوداً كُنْتُ شِبْلاً لبعضها
لمحقوقةٌ ألاّ يَذِلّ قبيلها (١)

وليس ببعيد أن يكون الشريف قد حدّث نفسه بالخلافة ، أو منّى نفسه بالملك ، والوزارة ، فلقد دارت هذه الافكار برأسه وطوّفت فى فؤاده وألحت على عقله ، وتملكت عاطفته ، فكرس حياته ، من أجلها ، وجعل أيامه وقفا عليها ، فعزف عن حياة العبث وصدف عن مسارات اللهو والمجون ، وانصرف إلى حياة الجد والكفاح وركوب الأخطار ، وتحمل الأهوال ، وتجشم الصعاب ، وعبر عن ذلك فى شعره ، دون خوف ولا وجل ، وأعلن أنه على استعداد لبذل النفس ، والنفيس من أجل تحقيق غايته المنشودة ، وهدفه الأسمى .. حيث يقول :

سأبذُل دون العز ، أكرم مهجة
اذا قامت الحربُ العَوانُ على رِجْلِ

وما ذاك أنّ النفْسَ غيرُ نفيسة
ولكن رأيت الجبنَ ضَرْبا من البُخْلِ

وما المكرهون السمهريّةَ فى الطُّلى
بأشجع ممن يكرهُ المال بالبذل (٢)

---

(١) نفسه (٣ : ١٢٦) .
(٢) اليتيمة (٣ : ١٣٢) .

وكثيرا ما كانت هذه الأمنية تلح عليه ، وتطارده فى اليقظة ، والنوم فيشمر عن ساعد الجد ، ويطلب من قومه أن ينفروا معه خفافا لملاقاة العدو ويقسم أنه سيبذل النفس رخيصة فى سبيل تحقيق غايته فيقول :

حَذَفْتُ فُضُولَ العيشِ حتّى رَدَدْتُها
إلى دونِ ما يرضى به المُتَعَفِّفُ
وأمّلْتُ أنْ أجْرِى خَفِيفًا إلى العلا
إذا شئتمُ أن تلحقوا فتَخَفَّفوا
حلفت برب البُدْنِ تَدْمَى نحورُها
وبالنفر الاطوارِ لَبّوا وعَرَّفوا
لا تبذلن النفس حتى أصونَها
وغيرى فى قَيْدٍ من الذُّلِّ يَرْسُفُ

ثم يتحسر على فوات الفرص وضياعها منه فى الماضى فيقول :

فقد طالما ضَيّعْتُ فى العيش فُرصةً
وهل يَنفَعُ الملهوفَ ما يتلهفُ (١)

ثم يعيب على قومه قعودهم ، وتخاذلهم عن نصرته ، وأنهم يتطلمون إلى العلا من غير سعى ، ويؤكد أنه لن يكون مثلهم متخاذلا كسولا ، ولكنه سيمضى لتحقيق هدفه من غير فتور ، ولا ملل فيقول :

بنو هاشمٍ عينٌ ونحن سوادُها
على رَغْمِ من يَأْبَى وأنتم قذاتَها
وأعجب ما يأتى به الدهرُ أنكم
طلبتم عُلاً ما فيكُم أدَوَاتُها

(١) نفسه (٣ : ١٢٦) .

وأمّلتمُ أن تُدركُوها طوالِعا
دعُوها سَيَسْمَى للمعالى سُعاتُهَا
غرستُ غروسًا كنتُ أرجُو لِقاحَها
وآمُلُ يومًا أن تطيبَ جُنَاتُها
فان أثمرت لى غيرَ ما كنتُ آملاً
فلا ذنب لِى ان حنظلتْ نَخَلاتُها(١)

إنها لزفرة حارة ، وعاطفة جياشة وشعور ملتهب ، صورتها هذه القطعة تصويرا حيا يثير الإعجاب بالشاعر العربى الطمّاح ، الغيور على عروبته التى وجدها تُطْمَنُ فى كرامتها ، وسيادتها من أبناء فارس الذين كانوا من قبل موالى للعرب يدينون لهم بالطاعة والخضوع ..

كل هذه المعانى جملته يبدع فى تصوير ما يختلج فى قلبه من آمال ، وآلام ، ويخبر قومه فى المقطوعة الحماسية الاتية أنه بَالِغٌ غَايَتَهُ لا محالة ، اذا كان فى العمر بقية ، ومد الله فى أجله حيث يقول :

ستعلمون ما يكُونُ مِنِّى
إِنْ مُدَّ من ضَبْعِى طَوالُ سِنِّى
أأدعُ الدنيا ولم تَدَعْنِى
وسِقْتُ أيّامِى ولمْ تَسُقْنِى
أفضُلُ عَنْهَا وتضيقُ عَنِّى (٢)

ونحن نتساءل - بعد أن وصلنا إلى هذا الحد من دراسة شعر الشريف واتجاهاته ، وعرفنا نواياه ، ورغباته ، وأدركنا سر آلامه وطموحه - هل كان الشريف حقا فارسا مغوارا ؟ وهل كان قائدا حربيا ماهرا ؟.

---

(١) نفسه (٣ : ١٢٧) .
(٢) نفسه (٣ : ١٣١) .

وهل كان حقا يعد العدة للانقضاض على بنى بويه ، ومحاولة إرجاع ملك العـــرب ؟؟ .

وهل كانت لديه خطط حربية واقعية كما يقول ؟؟

وهل كانت عنده الجيوش الكافية للقيام بمثل هذه المهمة الخطيرة ؟؟

أم أنها كانت مجرد أحلام ، وأوهام ، ورغبات مكبوتة فى نفس الشاعر ، وفى عقله الباطن .. ألحت عليه ، وداعبت خياله فتحدث عنها فى شعره ، وجرت على طرف لسانه ، وشبا قلمه ؟ كما كان يفعل المتنبى الذى قال عنه الثعالبى فى " اليتيمـة " ..

" وما زال فى بُرْدِ صِبَاهُ .. إلى أنْ أَخْلَقَ بُرْدَ شبابه ، وتضاعفت عقودُ عمره ، يدور حب الولاية والرياسة فى رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وساوسه ، فى الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك فى شعره كقوله :

سَأَطْلُبُ حَقِّى بِالْقَنَا ومشـــايخ
كأنهم من طول ما الْتَثَمُوا مُـــرْدُ

ثِقَالٌ إِذَا لَاقُوا ، خِفَافٌ إِذَا دُعُوا
كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قليلٌ إِذا عُدُّوا

وطعنٍ كأن الطعنَ لا طعنَ بعدَه
وضربٍ كأنَّ النارَ من حَرِّهِ بَرْدُ

وقـــوله :

فلا تحسبن المجد زِقًّا وَقَيْنَـــةً
فما المجد الا السيفُ والفتكةُ الْبِكْرُ

وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُـرَى
لك الْهَبَوَاتُ السُّودُ والْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

وتركُكَ فى الدنيا دَوِيًّا كأنَّمـــا
تَدَاوَلَ سَمْعَ المرءِ أنْمُلُهُ الْعَشْـــرُ (١)

أغلب الظن أن الشريف كانت عنده رغبة حقيقية لتحقيق هدفــه فى الوصول إلى الملك والسلطا ن ، وإرجاع (*) هيبة العرب فى هذه البلاد — كما كانت تلك الرغبة حقيقية فى نفس المتنبى ، وكان الدائع عند الشاعرين واحـــدا ..

فالمتنبى العربى الصميم كان يرى نفسه متفوقا على أقرانه ولـدات عصره ، وكان ينظر فيما حوله من الممالك الإسلامية فيشاهد عجبا !! .

يرى الأعاجم قد سيطروا على مقاليد الأمور ، واستأثروا بالنفــوذ والسلطان دون العرب ..

ويرى كافورًا الإِخْشِيدِىّ — ذلك — العبد الخصى الذى كان حَجّامًا — يتربع على عرش مصر ..

ويرى بنى بويه الذين كان أبوهم صيادا للسمك فى بلاد الديلم قد سيطروا على فارس والعراق ..

فلا عجب أن تثور نفسه العربية الأبيّة ضد هذه الأوضـــاع المعكوسة .. تلك الثورة التى نغصت عليه حياته ، وجعلتها جحيما لا يطاق

---

(١) اليتيمة (١ : ٩٤) .
(*) المشهور : رجعه يرجعه — من باب ضرب ، أما أرجع الرباعـــى فلغة هذيل ، وهى فصيحة . د/ سرحان .

لأنه لم يكن يملك الوسائل الكافية لتحقيق غرضه ، والوصول إلى هدفــــه ، فعاش حزينا كاسف البال .. مكلوم الفؤاد يسيطر عليه الفشل والشعور بالعجــــز .

والدوافع نفسها كانت تسيطر على روح الشريف . مع البون الشاسع بيـــــن الرجلين ، فالشريف كان له من شرف النسب وعراقة الأصل ما يجعله أهلا لـــكل فخــــر ..

أما المتنبى فمع علو قدره ، وبعد همته ، وقوة شاعريته كان ابن سقــاء بالكوفة على ما يقول الرواة ..

وكان الشريف ينتمى إلى الدوحة النبوية المباركة ، ويحظى باحـــترام المسلمين ، وتقديرهم فى كل مكان ..

وكان يرى أن من سخرية الأيام أن يسبقه فى موكب الحياة من هم دونـه نسبا وحسبا وسيادة .. فتطلعت نفسه الأبية إلى تغيير واقعه الأليم ، ولو بالقوة المسلحة ، ودارت هذه الأفكار فى رأسه ، وترجمها فى شعره ولكنه ، ما كاد يبدأ فى تنفيذ هذه الخطط ، وابراز تلك الأفكار إلى حيّز الوجود حتى اصطدم بعوائق سياسية واجتماعية حالت بينه وبين ما يريد ..

فلم يكن هناك فى تلك البيئة العراقية والفارسية من يعطف على العـــرب أو يرعى حقوقهم ، أو يحفظ عهدهم فالخليفة العباسى محجور عليه ، والعنصر العربى مغلوب على أمره ..

وكان الملوك ، والوزراء ، والقادة جميعا من عناصر أعجمية .. فانطـوى الشريف على نفسه ، بعد أن عز النصير ، وقل المعين وأخذ يمضغ آلامه ، ويجـــتر أحزانه ، وتسيطر عليه الهواجس والأراجيف ، ويشعر بخيبة أمل ، وسواد مصيـــره فركبته الهموم ، وشاب رأسه من قبل المشيب ، وإنه ليقول معبرا عن ذلك :

تُجاذِبُني يَدُ الأيّامِ نَفسي
ويُوشِكُ أنْ يكون لها الغِلابُ

نهضتُ وقد قعدْنَ بي الليالي (*)
فلا خيلٌ أُعِزُّ، ولا رِكابُ

وما ذَنْبي إذا اتَّفقَتْ خُطوبٌ
مُغاضِبَةٌ وأيّامٌ غِضابُ؟

وبعضُ العُدْمِ مأثرةٌ وفخرٌ
وبعضُ المالِ مَنْقَصَةٌ وعابُ

بَناني والعِنانُ إذا نبَتْ بي
رُبا أرضٍ ورِجْلي والرِّكابُ

سواءٌ مَنْ أقلَّ التُّربَ منّا
ومن وارَى معالمَهُ التُّرابُ

وإنَّ مُزايلَ العَيْشَيْنِ اخْتصاراً
مُساوٍ للذينَ بقُوا فشابُوا

وأوّلُنا العَناءُ إذا طلَعْنا
إلى الدُّنيا وآخِرُنا الذَّهابُ

وإنَّ مَقامَ مِثْلي في الأعادي
مَقامُ البدرِ تَنْبَحُهُ الكِلابُ

رَمَوْني بالعُيُوبِ مُلفَّقاتٍ
وقد عَلِموا بأنّي لا أُعابُ

(*) هذا التركيب جاء على لغة " أكلوني البراغيث" وهي لغة بعض العرب وعليها في رأي أصحابها قول الله تعالى " وأسَرُّوا النَّجْوى الّذينَ ظَلَموا" . د/ سرحان .

وأَنِّى لا تُـدَنِّسُنِى الْمَخَازِى
وأَنِّى لا يُرَوِّعُنِى السِّبَابُ
ولمَّا لم يُلاقُوا فِىَّ عَيْبًا
كَسَوْنِى مِنْ عُيُوبِهِمُ وَعَابُوا (١)

إنها لنغمة حزينة باكية ، وزفرة حارة ثائرة ، أرسلها الشاعر من صدر سيطرت عليه الهموم ، ونفس عذبتها الآلام ، وقلب استبدت به الأحزان ، وتكالبت عليه الخطوب ، وتآمر عليه الأعداء ، وألصقوا به العيوب ، ودنسوه بالمخازى ، ولفقوا له الأكاذيب ، فأصبح غريبا فى وطنه ، وحيدا بين أهله وعشيرته ولكنه على الرغم من ذلك مازال عالى الهمة ، مرفوع الهامة ، مستوى القامة كالبدر فى كبد السماء ، تنبحه الكلاب .. ولكن هيهات الوصول إليه ، والنيل منه ، والحط من قدره والنزول بقيمته ..

إن حالة الشريف النفسية التى صورتها تلك المقطوعة من شعره لتذكرنا بحالة أبى فراس الحمدانى عندما كان أسيرا فى بلاد الروم ، حيث كان يشعر بالمرارة ، ويحس بالحسرة ، ويرسل الآهات الحارة ، والزفرات الملتهبة ، ويعزى نفسه ويواسيها ، ويرجع أسباب وقوعه فى الأسر الى سوء الحظ ، وغدر الزمان حيث يقول :

أُسِرْتُ وما صَحْبِى بِعُزْلٍ لَدَى الْوَغَى
ولا فَرَسِى مُهْرٌ ولا رَبُّهُ غُمْرُ
ولكن إذا حُمَّ الْقَضَاءُ علَى امْرِئٍ
فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ ولا بَحْرُ (٢)

---

(١) اليتيمه (٣ : ١٣١) .
(٢) اليتيمه (١ : ٦٣) .

وإنها لتذكرنا بحالة البارودى فى منفاه عقب الاحتلال الإنجليزى لمصر فى العصر الحديث ، فقد عاش مأساة حقيقية وانفعل بأحداثها ، فعبر عنها أصدق تعبير ، وكان تصويره للأحداث تصويرا قويا ، ورسما شخصيا يفصح عن شعوره ، ويوضح عواطفه الصادقة ، ويحلل نفسه بالصبر ، ويواسى احساسه بالفخر ويتمنى من خالقه انكشاف الكرب ، وزوال الهم .

عَلَيَّ طِلَابُ العِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ
وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي المَقَادِرُ

فما كُلُّ مخلولِ العَرِيكَةِ خَائِبٌ
ولا كلُّ محبوكِ التَّرِيكَةِ ظَافِرُ

ولو رُمْتُ ما رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ
لَأَصْبَحْتُ مُسْتَطْمِنَّ المالِ وَافِرُ

فقد يَسْتَجِمُّ المالُ والمجدُ غَائِبٌ
وقد لا يكونُ المالُ والمجدُ حاضِرُ

ولو أن أسبابَ السيادةِ بالغِنَى
لكاثَرَ رَبَّ الفضلِ بالمالِ تَاجِرُ

فلا غَرْوَ أن حُزْتُ المكارمَ عاريًا
فقد يَشْهَدُ السَّيْفُ الوغَى وَهْوَ حَاسِر

أنا المرءُ لا يَثْنِيهِ عن دَرْكِ العُلا
نَعِيمٌ ولا تَعْدُو عليه المَفَاقِرُ

فسوف يَبِينُ الحقُّ يَوْمًا لِنَاظِرٍ
وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الحُقُودِ السَّرَائِرُ

وما هي إلَّا غمرةٌ ثم تَنْجَلِي
غَيَابَتُهَا واللهُ من شَاءَ نَاصِرُ (1)

---

(1) ديوان البارودى (١ : ١٣٩) .

ان حالة الرجلين واحده فى الموقفين ، فالشريف يشعر بالغربة فى بلاد يحكمها الفرس ، ويتحكم فى مقدراتها العجم ، فيتبرم بالحياة والأحياء فى هذه البيئة الجديدة ويحس بخيبة الأمل بعد أن فشل فى تحقيق آماله وأحلامه ، فينطوى على نفسه يجتر آلامه ، ويلعق همومه ، ويملك أحزانه ، ويرسل النغمات الحزينة ، والزفرات الحارة ، التى تصور حالته النفسيه أصدق تصوير ، ويعزو أسباب فشله الى غدر الأيام وتآمر الخطوب ..

وأما البارودى فقد كان قائدا عظيما ، ورئيسا خطيرا وشاعرا فحلا فأصبح أسيرا فى " سرنديب " وعَزَّ لَهُ الصديق ، وندر الرفيق وقل معه المعين ، وتحطمت منه الآمال .. فأخذ ينعى حظه ، ويعزى نفسه بالتعلق بأسباب السيادة ، والفخر بالفضل والشرف ، ويسلم وجهه لله تعالى ، ويتشبث بالإيمان به ، والتوكل عليه ، لأن الايمان يبدد اليأس ، ويبعث فى النفس الأمل والعزم ، ومن لم يلجأ إلى الله ليحتمى به من مصائب الحياة فهو فيها من الخاسرين ..

ولى أَمَلٌ فى اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى
وَيُشْرِقُ وَجْهُ الظَّنِّ وَالْخَطْبُ كاشِرُ

إذا المرءُ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى اللّهِ فى الذى
يحاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ (١)

وهذا تماما ما فعله الشريف من قبل عندما يئس من تحقيق آماله وبلوغ أهدافه ، فانه ركن إلى الله ، واتجه إليه بقلبه وجوارحة .. وأخذ يواسى نفسه ، ويعزيها ، ويذكر أن بقاء الإنسان فى الدنيا محدود ، وأن اللجوء إلى الله خير علاج الجسم المكدود ، والنفس المعذبة الثائرة :

---

(١) ديوان البارودى (: ١٤١) .

إنْ أَنْشَبَ الخطبُ فلا رَوْعَةٌ
أو عظُمَ الأمرُ فصَبْرٌ جميلْ

فليهن المرء بأيامه
إنَّ مُقامَ المرءِ فيها قليلْ

إنّا إلى اللهِ وإنّا لَهُ
وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلْ (١)

وأغلب الظن أن فشل الشريف السياسى ، وشعوره بضعف العرب فى العراق وفارس هو الذى دفعه إلى الإكثار من شعر الحماسة والفخر ، والاشادة بمآثر العرب ، والتغنى بمجودهم وكان ذلك من باب رد الفعل الطبعى على سيطرة الفرس وهيمنة النظم الفارسية على المجتمع آنذاك ..

* * *

على أن الشريف الرضى لم يكن فريدا فى هذا الباب .. ولم يكن وحده هو الشاعر الذى يعبر عن الروح العربية الكامنه تحت الرماد ، وإنما كان مثله فى ذلك أخوه أبو القاسم على بن الحسين الملقب بالشريف المُرْتَضَى .. الذى كان كأخيه الرضى يشعر بالغربة فى المجتمع العراقى ويحن دائما إلى منبت الآباء والأجداد فى الجزيرة العربية موطن العرب الأمجاد ، وكان يتحرق شوقا الى هذه المواطن الغالية .. فى مثل قوله :

أُحِبُّ ثرى نَجْدٍ ونَجْدٌ بعيدةٌ
ألا حبّذا نَجْدٌ وإنْ لم تُفِدْ قُرْبا

يقولون نَجْدٌ لستَ من شَعْبِ أهلِها
وقد صدقوا لكنّ لى فيهمُ حُبّا

(١) اليتيمه (٣ : ١٣٥)

كَأَنِّيَ وقد فَارَقْتُ نَجْدًا شقاوةً
فَتًى ضَلَّ عنه قَلْبُهُ يَنْشُدُ القَلْبَا (١)

وكان ـ كأخيه وكالمتنبى من قبل ـ يعشق البدويات ، ويهيم وجدا بالنجديات ، ويفضلهن على العراقيات والفارسيات اللاتى أفسدتهن الحضارة ، وسيطرت عليهن الروح الفارسية ، ولهذا كان يرسل إلى ظباء نجد عبر الأثير غزلا عذبا رقيقا من قلب أضناه الوجد ، وعذبه الهوى ، ونفس مزقتها الغربة وقتلتها الوحدة ، فلم تعد ترى جمالا إلا فى موطن الأحبة من أرض نجد :

أَلاَ يا نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ أَرْضِ بَابِلِ
تَحَمَّلْ إِلَى أَهْلِ الخيام سَلاَمِى
وَقُلْ لحبيبٍ فيكَ بعضُ نسيمه
أما آن أَنْ تَسْتَطِيعَ رَجْعَ كَلاَمِى ؟
وَإِنِّيَ لأَهْوَى أَنْ أَكُونَ بِأَرْضِكُمْ
على أَنَّنِى مِنْهَا اسْتَفَدْتُ سَقَامِى ؟ (٢)

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الأصوات المتمردة على الروح الفارسية تمثل طبقة العرب المغلوبة على أمرها فى هذه البلاد ..

تلك الطبقة التى كانت لها من قبل السيادة المطلقة على هذه الأقاليم وكانت تنظر إلى غيرها من الموالى نظرة السيد للمسود ، حتى ولو كانوا مسلمين.

وإذا بالأيام تتبدل ، وبالأوضاع تتغير ، وإذا بهؤلاء الموالى يصبحون سادة فى هذه الأصقاع ، وإذا بهم يحيون عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، ويمارسون طقوسهم الدارسة على مرأى ومسمع من الجميع .. مما أزعج كل مسلم ، وأقلق

(١) تتمة اليتيمة (١ : ٥٢) .
(٢) المرجع السابق (١ : ٥٢) .

كل عربى غيور على دينه وعروبته كالشريف الرضى وأخيه الشريف المرتضى ..

على أن هناك من الشخصيات العربية من عاش فى الأصقاع الفارسية البعيدة وتمرد على هذا التيار الفارسى الوثنى الجارف .. ومنهم بديع الزمان الهمذانى الذى تصدى للفرس، وانبرى لهم وأخذ يدافع عن الإسلام، ويشيد بالعرب، ويذم الفرس، ويسخر من عاداتهم، وتقاليدهم، وأعيادهم .

فكتب رسالة طويلة فى معنى " السَّذَقْ " تعصب فيها للعرب وللإسلام على الفرس والمجوس تعصبا شديدا .

وقد جاء فى هذه الرسالة قوله :

" هذا هو العيد، وذلك هو الضلال البعيد، إنهم يَشُبُّونَ ناراً هى موعدهم والنار فى الدنيا عيدهم، والله إلى النار يعيدهم، ومن لم يلبس مع اليهود غيارهم، لم يعقد مع النصارى زنارهم، ولم يشب مع المجوس نارهم " .

إن عيد الوَقُودِ لعيدٌ إفك، وإن شعار النار لشعار شرك، وما أنزل الله " بالسَّذَقِ " سلطانا، ولا شَرَّف نيروزًا، ولا مِهْرَجَاناً، وإنما صب الله سيوف العرب على رؤس العجم، لما كره من أديانها، وسخط من نيرانها وأورثكم أرضهم، وديارهم، وأموالهم حين مقت أفعالهم" (١) . ثم واصل كلامه عنهم فقال :

" فلا وقدت نار المجوس، والله لا أقول ذلك إلا غيرة على نعمته، وشفقة على خطته، إنى أجد الله تعالى يمقت من بَحَر الْبَحِيرَة، وسَيَّبَ السَّائِبَة، فالنار أولى بأن يمقت شارعها، وهى معبودة، وإنما جعل الله تعالى

(١) اليتيمة : (٤ : ٢٥٠) .

النار تذكرة ومتاعا ، ولم يجعلها وُدًّا ولا سُوَاعًا ، ولم يضرب الله تعالى لها عيدا ، ولم يجعلنا لها عيدا ، الله ، والنبى ، والعيد العربى والتكبير الجهير ، وتلك الجماهير ، والملائكة بعد ذلك ظهير ، ذلك ـ لا ماشرع الشيطان لأوليائه ، نار لديهم تُشَبُّ ، ولعنة عليهم تُصَبُّ ، وخمرة متاعها قليل ، وفى الآخرة خَمَّارُها طويل (١) .

ولا شك أن هذه النفثة الحارة الصادرة من عربى مسلم غيور على عروبته ودينه إنما كانت ـ هى وغيرها ـ صدى للثورة المضادة للروح الفارسية التى سيطرت على المجتمعين العراقى والفارسى آنذاك ، وصبغتهما بصبغة فارسية خالصة .

* * *

(١) رسائل الهمذانى ص٢١٩ .

((الفصل الثالث))

:: الرقيق وآثاره فى أدب اليتيمة ::

:: الفصل الثالث ::

" الرقيـق وآثـاره في أدب اليتيمـة "

انتشرت تجارة الرقيق في هذا العصر انتشارا عظيما ، وكان يجلب إلى بغداد من ثلاثة طرق رئيسية (١) : الطريق الأوربي الغربي وطريـق آسيا الشرقي (٢) ، وطريق إفريقية (٣) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبيرة في مدن العـراق يشرف عليها تجار يعرفون بالنخاسين ، وكان في بغداد شارع يعـرف باسم دار الرقيق ، كما كان هناك باب في بغداد أطلق عليه بـاب النخاسين (٤) .

وكان بسامراء سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة وبه عـدة حجرات لبيع الرقيق (٥) .

وكان الرقيق من الذكور يقومون بالخدمة في القصور والبيـوت والحقول ، أما الخصيان منهم فكانوا يقومون بحراسة النساء ، وخدمتهن ، ومنهم من كان يقوم بحراسة القصور ، ويطلق عليهم " الفراشون " وكانـوا يتخذون من بينهم رئيسا عليهم (٦) .

---

(١) كلمة " رئيسية " أو " رئيسى " من الأخطاء الشائعة ، والصـواب: " طرق رئيسة " ، د/ سرحان .
(٢) " آسيا " خطأ شائع والصواب : " آسية " بالتاء ، د/سرحان .
(٣) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٢٨٣) .
(٤) البلدان لليعقوبي : ص١٣ .
(٥) الأغاني : (١ : ٩٥) .
(٦) رسوم دار الخلافة للصابي ، ص٩ .

وكان بعض الرقيق من الذكور يطلق عليهم " الغلمان " وكانوا غالبا ما يقومون بحراسة الخلفاء (١) .

أما الجوارى فقد كثرن فى هذا العصر كثرة هائلة ، وامتلأت بهن قصور الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، والأثرياء حتى إن قصر الخليفة المتوكل كان يحتوى على أربعة آلاف جارية (٢) ، وكان بعض الجوارى يشتغلن بالغناء ، ويعرفن بالقيان ...

وقد اشتهر بعضهن بحسن الصوت ، وبراعة التوقيع ، وجودة العزف كقنوة البصرية ، وعلوة ، وروعة ، ونهاية ، وقلم وسندسى ، وغيرهن (٣)

وكان لهؤلاء الجوارى أثر كبير فى نشر الشعور بالجمال ، وإشاعة الظرف بين الناس ، وكتابة الأشعار الرقيقة ، والجمل الظريفة على الأكمام والأردية ، ونظرا لأنهن كن مزيجا من جنسيات شتى استطعن أن ينقلن الى المجتمع كثيرا من عادات بلادهن وتقاليدها .

وقد أدى التوسع فى شراء الجوارى ، والتنافس على اقتنائهن إلى انتشار الفساد فى المجتمع حيث عرف بعضهن بالخلاعة والمجون والتهافت على اللذة .

وقد بين الجاحظ العلة فى ذلك فقال :

" كيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وانما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها ، إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من

---

(١) تاريخ بغداد (١ : ٩٥) .
(٢) ذم الهوى لابن الجوزى ص٦٥٣ ، وواضح أن المبالغة تلف هذا الكلام فى برودها . د/ سرحان .
(٣) ظهر الاسلام (١ : ١٢٨) .

لهو الحديث ، وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ، ولا صيانة مروءة .

وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله ـ إلا عن غفلة ـ ولا ترهيب من عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة ، والخلعة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ، وإنشادهم مراودة " (١) .

كما أن بعضهن قد اتخذ فى بغداد بيوتا للدعارة يأوى إليها أهل الخلاعة والمجون للتسرية والترفيه .

قال أبو حيان التوحيدى :

"وقد أحصينا ونحن جماعة فى الكرخ ستين وأربعمائة جارية من الجانبين ، وعشرين ومائة حرة ، وخمسا وتسعين من الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق ، والصنعة والحسن والظرف ، والعشرة ، .. وهذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل إليه ، لعزته وحرسه ورقبائه (٢).

ومن القيان من كن يتاجرن بالعشق ، والغناء فيوقعن فى حبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن أموالهم ، ثم يلفظنهم ، وقد وصف أحد الشعراء هذه الظاهرة فقال :

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧٢ .
(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان (٢ : ١٨٣) .

صحوتُ فأبصرتُ الغَوايةَ من رُشدِى
وأيقنتُ أنى كنتُ جُرْتُ عن القصد
فلا يَعْشَقَنْ من كان يَعْشَقُ قَيْنَةً
فما هو منها فى سُعُودٍ ولا سَعْدِ
تودّكَ ما دامتْ هدايـاك جَمّةً
وترفدكَ عِشْقًا مـا بقيت أخَا رِفْـدِ
إذا ما رأتْ فى مجلس من تَخَالُه
غَنِيًّا حَبَتْهُ بالتّحِيةِ والـوُدِّ
فذا دَأْبُهَا حتى يعود من الْهَوَى
سقيمَ فُؤادٍ لا يعيد ولا يبدى
فتقصد لا من حاجة لِقصادِهـا
ولكن لتكليفِ الهدية فى القَصْدِ
فمن بين خَلْخَالٍ يُصَاغُ وخاتم
ومن دُمْلُجٍ يُهْدَى على أثر الْعِقْدِ
فذا فِعْلُهَا حتى إذا عاد مُفْلِسًا
تَجَنّتْ وأبدتْ جانب الهجر والصّدّ
فقولا لِمَنْ يَهْوَى الْقِيان تَفهّموا
مَقَالِى فإنّى قد نصحتُ لكم جَهْدِى(١)

وعلى الرغم من ذلك علا شأن بعض الجوارى فى المجتمع ، وقمن بدور بارز فى الحياة السياسية ، والاجتماعية ، وتهافت الرجال عليهن ، تهافتا شديدا ، وفضلوهن فى بعض الأحيان على الحرائر ، نظرا لظرفهن ، وثقافتهن ، وروايتهن الأشعار ، ومعرفتهن الغناء ، وكثرة تبرجهن ، وخلاعتهن ..

---

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٢٨) .

وقد علل الجاحظ تهافت الرجال عليهن بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كثيرا من محاسنها ، وعرف عديدا من مفاتنها ما خلا حظوة الخلوة ، وما يقرب منها ، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها فى نفسه ، وميله اليها ..

أما الحرة فكان يستشير فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال أمثالهن ، ما قد يقضى حاجات الرجل ويوجه إلى موافقتهن لرغائبه فى قليل أو كثير ، ومعروف أن الرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التى تقع فى نفوس الرجال فلا تعرفها [1] .

وكما كان لهؤلاء الجوارى تأثير فى الحياة السياسية والاجتماعية كان لهن تأثير عظيم فى الأدب وضروبه ، خاصة عند أولئك اللواتى سلبن الأرواح ، وخلبن العقول وسحرن النفوس، وأسرن القلوب بجمالهن، ودلالهن وسيطرن من أسيادهن على الجيد ، واستولين على المقاليد ، وذلك بظرفهن وخفتهن ، وغنائهن ، وما أوتين من صوت جيد رخيم .

كذلك كن سببا فى كثرة المقطوعات الشعرية التى قيلت فى وصفهن ، والتغنى بجمالهن ، وكثرة الشعراء الذين تغزلوا فيهن بشعر عذب رقيق ، ونظم رطب دقيق ، يدل على شدة العشق وعظمة المنزلة ، وارتفاع الدرجة إلى حد كبير ، فهذا الوزير المهلبى يهيم وجدا بجارية حسناء اسمها " تَجَنِّى " ويكثر من وصفها فى أدبه ، والتشبيب بها فى شعره ، ويرسل من أجلها الزفرات الحارة ، والآهات الملتهبة التى تصور عشقه لها ، وتعلقه بها فيقول :

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ١٧٤) .

مَـرَّتْ فَلَمْ تَثْنِ طَرْفَهـا تِيهـا
يَحْسُدُهـا الْغُصْنُ فِى تَثَنِّيهـا
تلك تَجَنَّى التى جُنِنْتُ بِها
أعاذَنِى اللّـه من تَجَنِّيهـا (١)

وقال يصف وقتا سعيدا قضاه معها :

رُبَّ يَوْمٍ لَهِشْتُ فيه التَّصابِى
وَخَلَعْتُ العِذارَ والْعَذْلَ عَنِّى
فى مَحَلٍّ يُحِلُّهُ لَذَّةُ الْعَيْـ
ـشِ وَيُجْنِى سُرُورُهُ من تَجَنِّى (٢)

أما أبو اسحاق الصابى فقد هام بإحدى جواريه هُيامًا شديداً ، وشبب بها فى شعره تشبيبا يدل على وجده بها ومعاناته من أجلها فقال :

إلى اللهِ أشْكُو ما لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى
بِجارِيَةٍ أمْسَى بِها الْقَلْبُ يَلْهَجُ
اذا امْتَزَجَتْ أنْفَاسُنَا بِالْتِرَائِنا
تَوَهَّمْتُ أنَّ الرُّوحَ بِالرُّوحِ تُمْزَجُ
كأنى وقد قَبَّلْتُها بَعْدَ هَجْعَةٍ
وَوَجْدِى ما بَيْنَ الْجَوانِحِ يَلْعَجُ
أضَفْتُ إلى النَّفْسِ الَّتِى بَيْنَ أضْلُعِى
بِأنْفاسِها نَفْسًا إلى الصَّدْرِ تُولَجُ

---

(١) اليتيمة (٢ : ٢١٤) .
(٢) المرجع نفسه .

فإنْ قِيلَ لي اخترْ أيّما شئتَ منهما
فإنّي إلى النّفسِ الجديدةِ أحوجُ (١)

وكما هام بعض الشعراء بالجوارى البيض وتغزلوا فيهن هام بعض آخر بالجوارى السود وتعلقهن ، وأغرم بهن ، وقال فيهن شعرا كثيرا ..

ويذكر الثعالبى " أن ديوان ابن سكرة الهاشمى يربو على خمسين ألف بيت من الشعر ،منها فى قينة سوداء يقال لها : " خمرة " أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عرضة لنوادره وملحه (٢) .

وكان للسلامى ـ وهو من أعظم شعراء اليتيمة فى اقليم العراق ـ جارية سوداء ، تعلق بها قلبه ، وكانت له معها مسامرات عاطفية حارة صورها فى شعره تصويرا صريحا حيث يقول :

يارُبّ غانيةٍ بيضاءَ تُصْبحُني
منَ العتابِ كئوساً لهنَّ تَنْسَاغُ
أشتاقُ طرّتَها لَمْ صُدْغَها وَسَمى
من كلّها طررٌ سُودٌ وأصْداغُ
كأنّنا لا أتاحَ اللهُ فرقتنا
يا لُعْبةَ المِسْكِ ـ بازٌ تحته زاغُ (٣)

ومهما يكن من شىء فقد شاع فى هذا العصر حب الجوارى ، والهيام بهن ، وتفضيلهن على الحرائر ، وقل أن نجد شاعرا من شعراء

---

(١) اليتيمة (٢ : ١٣٤) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣) .
(٣) المصدر السابق (٢ : ٣٨٦) .

العراق أو فارس هلم بحرة ، أو تغزل بها باستثناء بعض الشعراء المتعصبين للعروبة كالشريف الرضي وأخيه المرتضى فإنهما كانا طرازا فريدا بين شعراء العراق في ذلك العصر .

أما معظم الشعراء في هذين الإقليمين فقد هاموا بالجواري عشقا وحبا ، وتغزلوا بهن غزلا عفيفا ،وغير عفيف ، ويكفي أن تقرأ شعر ابن سكرة الهاشمي ، أو شعر ابن حجاج ـ وهما من أبرز شعراء العراق في ذلك الوقت .. حتى إن الثعالبي قرنهما بجرير والفرزدق في العصر الأموي ـ حتى نعرف مقدار عشقهما للجواري ، واستهتارهما بهن ، ولهما في ذلك أشعار صيغت بأصرح الألفاظ ، وأقبح العبارات وكنت أود أن أستشهد ببعضها في هذا المقام .. ولكن الحياء يمنعني من ذلك لأنها غاية في الفحش والفجور .. ومن شاء فليرجع إلى هذه الأشعار في ترجمتيهما باليتيمة أو غيرها ..

وكما هام الشعراء بالجواري ، وتغزلوا فيهن ، تعلقوا كذلك بالغلمان الذين كثروا في هذا العصر كثرة فائقة .. وكانوا مملوكين كالجواري فتغزل الشعراء فيهم أيضا وكان تأثيرهم في الأدب لا يقل عن تأثير الجواري ، إن لم يتفوق عليه ، وقد ظهر بسببهم غرض جديد في الشعر العربي لم يكن معروفا من قبل ، وهو الغزل بالمذكر ..

ويذكر المؤرخون أن أبا نواس أول من جهر بذلك في صدر الدولة العباسية ، حيث كان شاذا في سلوكه ، وتصرفاته ، وكثيرا ماكان يجاهر بذلك تحديا لأذواق الجماهير واستهزاء بعلماء الاسلام ، وسخرية ممن كان يسميهم " المتزمتين " فكان يضمن شعره بعض الاشارات الداعرة ، ويعطي الناحية الجنسية اهتماما خاصا إمعانا في الكيد والايذاء ..

وقد أدى أبو نواس هذه الرسالة الشيطانية كما يبغى إبليس وجنوده [١] وسن فى الشعر العربى تلك السنة السيئة وفتح بابا لمن جاء بعده من الشعراء لم يكن معروفا من قبل ..

ولم يكن للولوع بالغلمان شأن يذكر طوال العصور التى كانت السيادة فيها للروح العربية .

أما فى القرن الرابع فقد سيطرت الروح الفارسية على إقليمى فارس والعراق سيطرة تكاد تكون تامة ، واصطبغ المجتمع الإسلامى بصبغة فارسية خالصة ، وأطلت العادات الفارسية برأسها من جديد وأصبح الناس يمارسونها بلا خوف ولا حياء ..

وفى الأخبار المأثورة أن عادة الولوع بالغلمان ، والهيام بهم عادة فارسية قديمة وفدت إلى العراق من الشرق مع جيوش العباسيين الذين جاءوا من خراسان .

فقد ذكر الجاحظ سبب حدوث هذه الظاهرة فى الخراسانيين، وهو خروج الأجناد فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم ألا تخرج النساء مع الجند خلافا لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وعند اللباس والتستر ـ وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة ، وردف كردفها ، وساق كساقها تولدت عندهم هذه الفاحشة [٢] .

وأغلب الظن أن ذلك راجع الى تأثر الفرس بدعوة " مـــزدك "

---

(١) ومن أشعاره فى هذا المعنى قوله :

وكنت فتى من جند ابليس فارتمى
بى الحال حتى صار ابليس من جندى

د/ سحبان

(٢) الحضارة الاسلامية (٢ : ١٦٠) .

الذى ظهر أيام الملك الفارسى " قُبَاذَ " وادعى النبوة ، وكانت رسالته تنحصر فى التشارك بين الناس وشيوعية الأموال والنساء ، وهو مذهـب يدعو الى المتع الجسدية والإلحاد فى العقيدة ، والاغراق فى اللذة[1] ولهذا يقول أحد الشعراء فى البرامكة وهم فرس:

إِذَا ذُكِرَ الشِّرْكُ فى مَجْـلِسٍ
أنارتْ وجوهُ بَـنِى بَرْمَـك
وان تُلِيَتْ عِنْـدَهُم آيـة
أتَـوْا بالاحَادِيثِ عَنْ مَـزْدَكِ[2]

ولذا نجد أن حب الغلمان ، والتعلق بهم قد سيطر على كثير من شعراء الموالى ، وبعض العرب ، الذين تأثروا بالفرس ، وشاركوهم فى هذا الداء الوبيل ، منذ القرن الثانى الهجرى ..

ويزعم المؤرخون أن الخليفة الأمين كان مستهترا بالغلمـان ويميل إليهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويكثر من شرائهم واقتنائهم ، فقـد روى الطبرى " أنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقولم طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، ورفض النساء الحرائر والاماء[3] .

ويذكر المسعودى " أنه لما أفضى الامر إلى الأمين قدم الخـدم وآثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أمه شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجوارى المقدودات ، الحسان الوجوه ، وعمت رؤسهن وألبستهن

---

(١) دراسات فى تاريخ الأدب العربى ص١٩٥ د/ خفاجة ، دكتـور عبدالرحمن عثمان .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٢٠٩) .
(٣) تاريخ الطبرى : (٣ : ٩٥) .

الاقبية والمناطق فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه فاختلفن بين يديه ، واستحسنهن ، واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطومات(*) وألبسوهن الاقبية ، والمناطق ، وسموهن الغلاميات " (١) .

ويروى الشابشتى عن عريب المغنية أنها قالت : " كنت لمحمد الأمين وصيفة فى عداد الوصائف ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه وربما سقيته وسنى إذ ذاك سبع عشرة سنة (٢) .

وأنا أستبعد أن يكون الأمين العربى الهاشمى الصميم ، وابن هارون الرشيد يفعل ذلك ، أو يصل إلى هذا المستوى من الانحلال الخلقى والدينى .. فقد كان أبوه ـ كما يقول الرواة ـ يحج عاما ويغزو عاما ، ويصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة (٣) .

وأغلب الظن أن الذى حدا بالمؤرخين الى الصاق التهم به ، ورميه بالموبقات هو خوفهم .. من الخليفة المأمون . الذى تولى الخلافة عقب الصراع المسلح الذى كان بينه وبين أخيه الأمين .. والذى انتهى بمصرع الأمين ، واستيلاء المأمون على ناصية الخلافة .. فلا غرابة أن يقف المؤرخون بجوار المأمون ويساندونه ويدافعون عنه ، ويمدحونه ، ويلصقون التهم بأخيه ، ويرمونه بالمخازى خوفا من الحاكم ، وطمعا فى رضاء ، وما أصدق قول الشاعر فى ذلك :

(*) المطومات : المقصوصات الشعر . د/ سرحان .
(١) مروج الذهب للمسعودى (٨ : ٢٩٩) .
(٢) الديارات : ص ١٦٥ .
(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٥ ومقدمة ابن خلدون: (١ : ١٣) .

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ
مَا يَشْتَهِي وَلِأُمِّ الْمُخْطِئِ الْهَبَلُ

وفضلا عن ذلك كان هؤلاء المؤرخون ـ ومعظمهم من أصل فارسي ـ يحقدون على الأمين لأن أمه زبيدة كانت هاشمية عربية ، ولم يوجد من خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه (1) .

كما كانوا يميلون بطبعهم إلى المأمون الذي كانت أمه فارسية من الموالي ..

وعلاوة على ذلك نعلم أن عداوة الفرس للرشيد وابنه الأمين أمر اشتهر وظهر منذ أن نكب الرشيد البرامكة وقضى عليهم .. فلا غرابة أن يحاولوا تشويه تاريخه والحط من شأن ابنه الأمين الذي كانت أمه هاشمية .

وإذا كان بعض المؤرخين قد هجا الأمين ، وألصق به التهم لأسباب سياسية وشعوبية فإن البعض الآخر قد مدحه ووصفه بالفصاحة والبلاغة والكرم .

كما أن بعض الشعراء قد دافع عنه وهجا المأمون في قوله

لَمْ تَلِدْهُ أَمَةٌ تُعْـ
ـرَفُ فِي السُّوقِ اتِّجَارَا
لَا ، وَلَا حُدَّ وَلَا خَا
نَ وَلَا فِي الْخِزْيِ جَارَا (2)

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٣ .
(2) المرجع السابق ص ١٩٣ .
(3) المصدر السابق ص ١٩٣ .

يعرض بالمأمون لأن أمه جارية ولأن الرشيد كان قد حده فى جارية وُجِدَ معها ، أو فى خمر ..

وهذا هو شأن الصراعات الحزبية والحربية بين الأطراف المتنازعة ينتصر لهذا فريق ويتعصب للآخر فريق .. كالصراع بين الأمويين والهاشميين ، وبينهم وبين الخوارج والزبيريين ، وبين الموالى والعرب وهكذا ..

فلا غرابة أن يتهم الأمين بالانحلال ، وأن يدنس بنسبة المخازى إليه .

ولا أريد ـ هنا ـ أن أنفى عن المجتمع العباسى حب الغلمان ، والتشبيب بهم فى الشعر ، فقد كان ذلك موجودا منذ عهد أبى نواس فى صدر الدولة ، ولكنى أريد أن أبرئ الخلفاء ، وهم أئمة المسلمين مما رموا به عن جهل وغفلة ، أو عن عمد وخبث (*) ، ومهما يكن من شئ فقد شاع بين الشعراء الغزل بالغلمان ، والتشبيب بهم ، منذ القرن الثانى الهجرى ، ... ولكنه فى البداية كان قاصرا على طائفة خاصة من الشعراء المجان كأبى نواس وأضرابه . وكانوا يحاربون من الخلفاء ، وعلماء الدين ، وبقيه طوائف المجتمع أشد الحرب وظل الحال كذلك طوال القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة .

(*) هذا اتجاه واضح الصحة كل الوضوح ، وقد علت الشعوبية واليهودية القديمة وتعصبوا الموالى على تجريح خلفاء المسلمين وقادتهم ، ونقل ذلك كثير من أعداء الاسلام قديما وحديثا ، ومنهم فى هذا القرن الأستاذ جورجى زيدان فى كتبه : تاريخ آداب اللغة العربية ، والتمدن الاسلامى ، وروايات تاريخ الاسلام وغيرها ، والكتب القديمة ملأى بهذه الأكاذيب ، وقد استغل المستشرقون هذه الخرافات ، وشنعوا على قادة الاسلام طويلا . د/ سرحان .

أما فى القرن الرابع — وبعد أن استولى الفرس على زمام الامور فى فارس والعراق — فقد أصبح الغزل بالغلمان والتشبيب بهم شأن الخاصة والعامة ..

ومن ذلك مايروى عن عز الدولة البويهى من أنه أسر له فى إحدى المواقع غلام فجن عليه جنونا ، وحدث له من الحزن مالم يسمع بمثله حتى زعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة ، ومازال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه ، عند الناس وسقط من عيونهم (١) .

وما ذكره أبو حيان من : أنه كان بالموصل غلام مفن قد ملأ الدنيا عيارة وشطارة ، وافتضح أصحاب النسك ، والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو (٢) .

وانجرف الأدباء فى هذا التيار الآثم ، وأكثروا من القول فى هذا الغرض ، وخاض الجميع فى هذا المستنقع المفن دون خوف ولا حرج ..

فقد روى الثعالبى فى يتيمته أشعارا كثيرة فى هذا الباب لأدباء علماء من ذوى المراكز السياسية الخطيرة فى الدولة كالوزير المهلبى (٣) والصاحب بن عباد (٤) وأبى اسحاق الصابى (٥) وغيرهم .

أما سائر شعراء اليتيمة فى العراق وفارس فيندر أن نجد شاعرا منهم لم يتغزل فى الغلمان ، بالاضافة إلى تغزله بالجوارى ،

---

(١) الكامل فى التاريخ (٨ : ٤٩٥) .
(٢) الامتاع والمؤانسة : (٢ : ١٧٤) .
(٣) اليتيمة (٢ : ٢٠٤) .
(٤) نفسه (٣ : ٢٣٧) .
(٥) نفسه (٢ : ٢٤١) .

بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك فقصر تشبيبه على الغلمان دون النساء كنصر بن أحمد الخبز أرزى ، الذى كان ميالا إلى الغلمان مكثرا من القول فيهم ، وكان أميا لا يكتب ولا يتهجى ، وكانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويتظرفون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى إمالته إليهم ، وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته [1] .

وقد روى الثعالبى له فى الغلمان شعرا كثيرا يحرجنى أن أذكره فى هذا المقام فليرجع إليه من يريد هناك [2] .

وهنا ينبغى أن أشير الى أمر هام أشار اليه بعض الباحثين [3] وهو أن الغزل بالمذكر يبدو كثيرا فى الشعر العربى خاصة فى ذلك العصر مع أننا لو تدبرنا الأمر قليلا لوجدناه بريئا من معظم تلك القصائد والمقطوعات التى تحمل سمات الغزل بالمذكر وهى ليست فى الحقيقة منه ، ذلك أن ضمائر المذكر أيسر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس ببعيد أن يكون هؤلاء الشعراء قد استخدموا ضمائر المذكر ، مع أنهم فى الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى معشوقات لا إلى معشوقين وهذه عادة قديمة فى الشعر العربى ، فقد كان الشعراء قديما يذكرون ليلى وسلمى وسعدى ولبنى وغيرهن من الأسماء الطيعة فى موازين الشعر العربى وان كانوا يقصدون أشخاصا

---

(١) اليتيمة (٢ : ٣٣٨) .

(٢) المصدر نفسه (٢ : ٣٣٩) .

(٣) الدكتور : محمدعبدالعزيز الكفراوى فى كتابه تاريخ الشعر العربى (٣ : ١٣٢) .

غيرهـــن (*) .

ولو تدبرنا أشعار الاغانى العاطفية فى العصر الحديـــث لوجدنا أكثرها يستخدم فى الغزل ضمائر المذكر بقصد التخفيف ، أو بقصد الرمز والتمويه والشعراء بطبيعة الحال يقصدون المؤنث ... لا المذكر ، لأن طبيعة العصر ، وذوق أبنائه يتنافى مع هذا الشذوذ .

وقد يقال : إن كثيرا من النماذج الشعرية التى تغزل فيهـا شعراء القرن الرابع بالمذكر فيها ما يعين على تحديد جنس المتغزل به ، كالتصريح باسمه ، أو كنيته ، أو لقبه ، فليس هناك سبيل إلى تبرئة القوم مما رموا به ..

وللاجابة على هذا التساؤل ينبغى أن أشير ـ إنصافـــا للحقيقة ـ إلى أن الشعراء فى ذلك العصر كانوا فريقين :

الاول : تأثر بالروح الفارسية فضعفت أخلاقه ، ورق دينه ، وهـــؤلاء كان غزلهم بالمذكر حقيقيا ، ومصدره العبث ، ودوافعـــه التحلل ، وهدفه اللذة والعربدة ومن هؤلاء الواسانى ، وابـن لنكك وابن حجاج وابن سكرة لأن سيرتهم الشخصية تؤكـــد ذلـــك ..

والثانى : كان يطرق هذا الباب من قبيل التقليد ، والمحاكـــاة ، ويتخذ منه وسيلة للتصرف فى فنون القول وترويض الأذهـــان على الاجادة ، وكان شعرهم فى هذا الباب ضربا من الدعابة والظرف ، ولونا من ألوان الترف الفكرى ، والتسلية .. أكثـــر منه مغامرات حقيقية مصدرها العبث والمجون .

---

(١) وفى مثل ذلك يقول البحترى :

وسميتها من خشية الناس زينبا
وكم سترت حبا عن الناس زينـــب

د / سرحان

وهؤلاء كانوا كثيرين ، ومعظمهم من الحكام ، والقضاة ، والعلماء
ولست أريد بهذا القول أن أبرئ القوم مما رموا به ، بل مما رموا أنفسهم به ، ولكنى أستدل على ذلك من واقع حياتهم الاجتماعية ، وحالاتهم الثقافية والأدبية ، فقد انتشرت فى هذا العصر المجالس الأدبية ، وتعددت الندوات العلمية ـ التى تشبه إلى حد كبير ـ الصالونات الأدبية فى عصرنا الحديث ، وكان القوم ـ خاصة ذوى المناصب السياسية والدينية فيهم ، يتسابقون فى انشاد الأشعار ووصف ما يحيط بهم من مظاهر الحضارة ، وتصوير كل مايدور فى خواطرهم بدون تكلف ولا استكراه ، وكانوا يطرقون كل باب ، ويخوضون فى كل فن .. فلا غرابة أن يشاركوا غيرهم فى هذا اللون ، وهو الغزل بالمذكر من باب الدعابة والظرف ، والترف الفكرى والمتلى من غير أن يقصدوا من وراء ذلك الى شئ .

والدليل على ذلك تنوع الأشعار التى قيلت فى المذكر فشاعر يعشق نصرانيا [1] وثان يعشق صوفيا [2] وثالث يعشق بدويا ، أو شاطرا ، أو جنديا [3] ورابع يعشق أعرج [4] أو غلاما قد التحى [5] أو أسود أو أبيض [6] وهكذا ..

وكل هذه النماذج الغريبة التى وردت فى اليتيمة تدل على أنها كانت محاولات أدبية أكثر منها مغامرات عاطفية أو جنسية ،

---

(١) اليتيمة (١ : ٣١٨) .
(٢) نفسه (١ : ٣٨٩) .
(٣) نفسه (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥) .
(٤) نفسه (٣ : ٦) .
(٥) نفسه (٣ : ٥) .
(٦) نفسه (٢ : ٢٤١) .

والا فما معنى أن يعشق شاعر صوفيا مع أن لديه من العبـــادة ما يشغله عن عبث العابثين ، وتحلل الماجنين ؟ وما معـنى أن يعشق آخر جنديا لا يتصور فيه الا الفحولة ، والخشونة ، أو يهـوى شاطرا لا يتوقع منه إلا الفتك ؟ أو بدويا لا يتسهويه الا الشيــح والعـــرار ؟ .

أنا لا أتصور حدوث هذا من شاعر اللهم إلا إذا كان ذلـك ضربا من التسلية وتزجية وقت الفراغ ، وتدريب الذهن على الاجـادة والتصرف فى فنون القول ..

على أن كثيرا من الشعراء الذين تغزلوا فى الغلمـان قـد أعلنوا صراحة أنهم لا يقصدون من وراء كلامهم عبثا ولا مجونا ، ولا ينشدون لذة ولا متاعا ، وصرحوا أنهم غيـر جادين فيما يقولون ..

ولننظر إلى هذا النص الذى قاله أحد شعراء " اليتيمــة " فى إقليم العراق وهو المُفَجَّع البصرى الذى يزعم فيه ـ كما يزعـم غيره من نقادنا المصريين أنه شعر يغوى الصبيان فى مسجد البصرة وأن منه قوله :

ألا يا جامـــعَ البَصْـرَ
ةِ لا خـــرَّبك اللـــهُ
وسَقَّـــى صَحْنَـــكَ المُزْنُ
من الغيـثِ فـــرَوَّاهُ
فَكَمْ مِنْ عَاشِـــقٍ فيـكَ
يـــرَى ما يَتَمَنَّــــاهُ
وكـــم ظَـبْيٍ مِنَ الإِنْـسِ
مَليـحٍ فيـكَ مَرْعَـــاهُ

نَصَبْنَ الْفَخَّ بِالْعِلْـ
ـمِ لَهُ فِيـكَ قَصَدْنَاهُ
بقـرآن قـرأنـاه
وتفسـير رَوَيْنَاهُ
وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ لِلشَّعْـ
ـرِ بِالشعر طَلَبْنَاهُ
فما زَالَتْ يَدُ الأَيَّا
مِ حَتَّى لاَنَ مَتْنَاهُ
وحتى ثَبَتَ السَّرْجُ
عَلَيْهِ فَرَكِبْنَاهُ

وإلى هنا يبدو الأمر حقيقة حيث يذكر الشاعر أنه يتخذ العلم وسيلة لاصطياد الصبيان فى المسجد وأنه يظل يخدعهم ويغرر بهم بما يقرؤه عليهم من قرآن ، وبما يرويه لهم من تفسير ، وما ينشده أمامهم من أشعار ، حتى تلين قناتهم ، ويقعوا فريسة سهلة للذئاب .

ولكن قبل أن نصل إلى هذا الحكم لابد أن نقرأ النص إلى آخره حتى نعرف الحقيقة ..

يقول الشاعر بعد ذلك :

أَلاَ يَا طَالِبَ الأَسْرَ
دِ كَذِبٌ ما ذَكَرْنَاهُ
فَلاَ يَغْرُرْكَ مَا قُلْنَا
فما بِالْجِدِّ قُلْنَاهُ (١)

---

(١) اليتيمة (٢ : ٣٣٦) .

فهو يعلن صراحة أنه يمزح في كلامه ، وأنه غير جاد فيمـــا يقـــول ٠٠ ,' نمـا هي محاولات أدبية لترويض الذهن على الإجـادة والقلم على الكتابة و واللسان على التصرف في فنون القول ٠٠ وامتـــاع القراء بالدعابات الطريفة ، والفكاهات اللذيذة ٠٠

* * *

وإذا ما تركنا ابن لنكك إلى غيره من القضاء والعلماء وجدناهم يسيرون على الدرب نفسه ، ٠٠

فهذا ابن خلاد القاضي ينهج نهجه في الأسلوب والطريقـة وفي نهاية الشوط يبرئ نفسه من تهمة الريبة ، والفسوق فيقول فـى غلام من الديلم :

يا مَـــنْ لِصَـبٍّ قَلِـــقٍ
بات يراعــى الْفَــــلَكَا
جَـــارَ بِهِ مُسَـــلَّطٌ
يَجُـــورُ فِيمَـــنْ مَــلَكَا
يَهْـــزأُ مِنْ عاشِقِـــهِ
يَضْحَـــكُ مِنْهُ إِنْ بَـــكَا
فقُلْـــتُ يا أحسنَ مَـــنْ
تُبْصِـــرُه عَيْنِي مَنْ لَـــكَا ؟
فَقَـــال لِـــى بِغُنَّـــةٍ
إِلَيْكَ لَا أَجْـــرَحُكَا
تَبًّـــا لِقَــاضٍ يَبْتَغِـــى
مِنَ الْمَعَاصِـــى دَرَكَـــا

وهنا يهب القاضى للدفاع عن نفسه ويبرئها من الريبة التى رماه بها الغلام ، ويعترف بأنه لم يرد سوءا ولا اثما ، ويقسم أن الغلام مخطىء فى قوله آثم فى تهمته ، وذلك حيث يقول :

فَقُلْتُ وَاللَّهِ الَّذِى
صَيَّرَنِى عَبْدًا لَكَا
مَا إِنْ أَرَدْتُ رِيبَةً
وَلَمْ أُرِدْ سُوءًا بِكَا
وَأَنْتَ فِى قَوْلِكَ ذَا
آثِمُ مِمَّنْ أَشْرَكَا (١)

أليس فى هذا كله دليل على أن هؤلاء الشعراء ـ خاصة أفاضل العلماء والقضاة منهم ، كانوا لا يعنون ما يقولون وأنهم كانوا يطرقون هذا الباب من قبيل الدعابة والظرف ومجاراة غيرهم من الشعراء ، إظهارا للتفوق والنبوغ ؟ ولنتأمل كذلك قول القاضى على ابن عبدالعزيز الجرجانى فى غلام :

مَنْ ذَا الْغَزَالُ الْفَاتِنُ الطَّرْفِ
الكَامِلُ البهجةِ والظَّرْفِ
مَا بَالُ عَيْنَيْهِ وَأَلْحَاظِهِ
دَائِبَةً تَعْمَلُ فِى حَتْفِى
وَاهًا لِذَاكَ الْوَرْدِ فِى خَدِّهِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعَ القطف (٢)

---

(١) اليتيمة (٣ : ٣٨٨) .
(٢) المصدر نفسه (٤ : ١٠)

فهو يصرح بحرمة العبث بالغلمان ، والاستهتار بهم ، وهـذا ما نتوقعه على الاقل من قاض فاضل كالجرجانى الذى عرف بالصلاح والتقوى ، واشتهر بالعدل والاستقامة والبعد عن مواطن الشبهات وانه للذى يقول :

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِيَ جَانِبًا
مِنَ الذَّمِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَشْرَبٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا (1)

ولا أريد من وراء ذلك أن أبرئ شعراء هذا العصر من تهمة العبث والمجون ، والاستهتار بالغلمان ، والتشبيب بهم .. فقد كان بعضهم يفعلون ذلك عن قصد متأثرين بالعادات الفارسية التى تولع بالشهوة ، وتنشد اللذة ، وتدعو الى متع الحياة ..

ولكنى أريد أن أؤكد ما ذهبت إليه من أن كثيرا من شعراء ذلك العصر ـ خاصة الحكام والقضاة والعلماء ـ كانوا يطرقون هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة ومجاراة غيرهم فى هذا الباب حتى لا يوصفوا بأنهم أقصر منهم ذراعا ، أو أضيق باعا فى تعاطى فنون القول والإجادة فى الكلام ... كما كانوا يفعلون ذلك من باب الظرف والدعابة ، والبحث عن الغريب المثير .

---

(1) المصدر السابق (٤ : ٢٢) .

هذا إلى أن حياة الترف والرخاء في هذا المجتمع قد انعكست على أفكار القوم وآدابهم ، فكانوا مترفين في أفكارهم ، كما كانوا مترفين في مأكلهم ، وملبسهم ومسكنهم ، وكانوا ينشدون المتعة الفكرية .. كما كانوا ينشدون المتعة الحسية ..

ومهما يكن من شيء فقد كان لكثرة الرقيق في المجتمع أثرها الواضح في ظهور هذا الغزل العفيف أو الجسدي في الغلمان والجواري ، ومن هنا ترك الشعراء لنا هذه الثروة الأدبية الضخمة التي امتلأت بها كتب التراث .. وكان ذلك كله من أثر كثرة الرقيق وانتشاره في المجتمع .

* * *

((الفصـــل الرابـــع))

:: صدى التشيع في أدب اليتيمـــة ::

((الفصل الرابع))

:: صدى التشيع فى أدب اليتيمة ::

يذهب بعض الباحثين إلى أن البذور الأولى للتشيع قد نبتت عندما لحق الرسول عليه السلام بالرفيق الأعلى (١) .

ذلك أن النية قد اتجهت إلى مبايعة على كرم الله وجهه من بعض القرشيين كالعباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن حرب ، وأن جماعة من الصحابة كانت ترى أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر ومن هؤلاء عمار ابن ياسر وأبوذر الغفارى وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله وبنو العباس وكثير غيرهم .

ويُروَى أن عَلِيًّا قد تَرَوَّى فى مبايعة أبى بكر ستة أشهر لأنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة منه (٢) .

ولكن مذهب الشيعة لم ترسخ قواعده ويكثر أتباعه ويعظم نفوذه إلا فى عهد بنى أمية عندما اغتصب معاوية الخلافة من على وبنيه وصيرها ملكا وراثيا عضوضا .

ولقد كان استشهاد الحسين بن على فى كربلاء على يد زبانية اليزيد بن معاوية نقطة تحول بارزة فى تاريخ المذهب العلوى فازداد عطف المسلمين على آل البيت واشتد تعلقهم بهم وأخذوا يناهضون بنى أمية ويعملون جاهدين على الخلاص منهم وإزالة ملكهم، شأنهم فى ذلك

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٢٦ لأحمد أمين ط بيروت الطبعة العاشرة .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٧ .

شأن الخوارج والزبيريين وكان طبعيا أن يكون لكل حزب من الأحزاب المتصارعة شعراؤه الذين يدعون له وينشرون مبادئه ، ويناهضون أعداءه ٠

وكان من أبرز شعراء الشيعة فى عصر بنى أمية الكميت بن زيد الأسدى وأيمن بن خُرَيْم الأسدى وكُثَيِّر عزة والفرزدق وغيرهم ٠

ولما دالت دولة بنى أمية وحلت محلها دولة بنى العباس لم يكن حظ الشيعة فى الدولة الجديدة بأعظم من حظهم مع بنى أمية فلقوا من الاضطهاد والذل والمطاردة والنفى على يد بنى عمومتهم الشىء الكثير ٠٠

على أن ذلك كله لم يفت فى سواعدهم ولم يضعف نفوذهم ولم يخرس ألسنتهم فكان لهم شعراؤهم المدافعون عنهم المتحمسون لدعوتهم وفى مقدمتهم دعبل بن على الخزاعى صاحب القصيدة الطويلة المشهورة ٠٠

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تـــــلاوةٍ
وَمَنْزِلُ وَحْـــــىٍ مُقْفَــرُ العَرَصَاتِ [(١)]

فلما كان القرن الرابع الهجرى وهنت الدولة العباسية ، وتصدعت جدرانها ، وانفرط عقدها وانقسمت إلى دويلات صغيرة لا تربطها ببغداد أوهى الصلات ، وأخذ حكامها يعلنون ولاءهم لمذهب التشيع دون خوف ولا وجل من خلفاء بنى العباس الذين ضعفوا فى ذلك العصر وأصبحوا لا حول لهم ولا قوة ٠

ومن الدول التى تولدت عن الدولة العباسية واشتهرت بالتشيع فى ذلك العصر ٠ الدولة البويهية فى فارس والعراق والدولة الحمدانية فى الشام والموصل والدولة الفاطمية فى مصر والمغرب وغيرهم ٠٠ والذى يعنينا

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الاثير (٦ : ٣١٥) ٠

من هذه الدول جميعا الدولة البويهية : فهى التى سيطرت على فارس والعراق واستولت على بغداد واستبد حكامها بالخلفاء ونشروا مذهب التشيع منذ اللحظة الأولى من وصولهم بغداد ..

ففى سنة ٣٣٤ هـ عقب استيلائهم على بغداد حاول معز الدولة البويهى أن يزيل الخلافة العباسية وأن يجعلها فى البيت العلوى وفكر فى مبايعة محمد بن يحى الزيدى العلوى لولا أن أشار عليه أحد خواصه بألا يفعل قائلا له : " إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا مستحلين دمك " .

فأعرض عما كان عازما عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته (١) .

ولم يلبث مذهب التشيع بعد ذلك أن تأثر بعقائد الفرس المتوارثة فأصبح شعارا لبعض الفرق الدينية المتطرفة كالقرامطة والإسماعيلية والقائلين بالتناسخ ، والذين يؤلهون عليا وغيرهم .. فكان هؤلاء جميعا يتسترون بالتشيع ، ويتخذون من حب آل البيت وسيلة لتحقيق مآربهم والوصول إلى أهدافهم ، وكانوا دائما يظفرون برعاية بنى بويه وتأييدهم

وقد ذكر ابن الأثير " أن الوزير المهلبى قد ظفر بقوم يزعمون أن روح على بن أبى طالب وروح فاطمة الزهراء قد حلت بهم وانتقلت إليهم

---

(١) ضحى الاسلام (٣ : ٣١١) ط نهضة مصر الطبعة السابعة .

فحبسهم ولكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة باطلاقهم فلم يكن للوزير بد من أن يذعن لمشيئته خوفا من أن يتهم بالميل عن التشيع (١) .

ويذكر ابن الأثير كذلك أن بنى بويه قد سمحوا للقرامطة أن يعينوا لهم نائبا فى بغداد يتحكم تحكم الوزراء (٢) .

على أن أمر بنى بويه لم يقف عند هذا الحد فى مناصرة الشيعة ونشر التشيع وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما كانوا يسبون الصحابة رضوان الله عليهم ويشعلون نار الفتنة بين الشيعة وأهل السنة ويعملون جاهدين على نشر الطقوس المذهبية المغالية ..

ففى سنة ٣٥١ كتب الشيعة ـ بايعاز من معز الدولة على جدران المساجد لعن الله معاوية ولعن من غصب فاطمة " فَدَكًا " ومن نفى أباذر ، ومن أخرج العباس من الشورى .. فلما كان الليل حكه بعض الناس فاراد معز الدولة اعادته فأشار عليه الوزير المهلبى بأن يكتب مكان ما محى .. لعن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر فى اللعن أحدا إلا معاوية ففعل (٣)

وفى سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة فى يوم العاشر من المحرم أن تغلق الأسواق والدكاكين ، وأن يظهر الناس الحزن والنياحة وأن تخرج

---

(١) الكامل فى التاريخ (٦ : ٣٩٩) .
(٢) المصدر السابق (٧ : ١٢٦)

النساء ناشرات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب وأن يلطمن وجوههن على الحسين بن على ففعل الناس ذلك وكان هذا أول يوم نيح فيه على الحسين ببغداد [1] .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة — من العام نفسه — أمر معز الدولة كذلك باظهار الزينة فى بغداد ، فأشعلت النيران ، وأظهر الفرح وفتحت الأسواق ليلا كما يفعل فى ليالى الأعياد احتفالا بعيد الغدير — يعنى غدير خم — وهو الموضع الذى يروى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال فيه عن على : " من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهودا [2]

ولقد كان لهذه الطقوس المذهبية أثرها العظيم فى نفوس الشيعة فى فارس والعراق فأخذوا يتعلقون بتراثهم القديم الحافل بالمآسى والأحزان ، ويتدارسون تاريخهم الملئ بالكوارث والآلام ، وجعلوا يجسمون المصائب التى حلت بآل البيت طوال أربعة قرون من الزمان .. فتهيأ لهم من ذلك كله آفاق فسيحة فى عالم الأحزان ، هامت بها نفوسهم واطمأنت إليها أفئدتهم ، وأصبحت لهم معينا لا ينضب من التجارب وأسباب المعاناة .. مما كان له أوضح الأثر فى فنونهم وآدابهم .

وإذا كان الأدب مرآة تنعكس عليها الحالة الاجتماعية للشعوب وترسم صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات فإن أدب الشيعة فى هذا العصر

---

(١) المصدر السابق (٧ : ٧) .
(٢) الكامل فى التاريخ (٧ : ٧) .

كان ظلا للحالة الاجتماعية والنفسية لجماعة الشيعة ، ولهذا استطاع أن يصور آلامهم وأحزانهم وأمكنه أن يعبر بصدق عما يدور في نفوسهم من أفكار وما يختلج في عقولهم من اتجاهات وآمال ..

والدارس لأدب الشيعة في هذا العصر يجد فيه بوضوح آثار اللوعة والأسى ، ويلمس في ثناياه آيات الحزن والحسرة .

ذلك أن جماهير الشيعة التي أنهكتها الأحزان وطحنتها المآسي والآلام واستبد بها اليأس والجزع كانت في حاجة ملحة إلى ترديد الأناشيد الشجية والأغاني الحزينة لتنوح بها على سيد الشهداء أمام قبره في كربلاء .

فقد استحوذ على هذه الجماهير شعور قوي بعظم الكارثة التي حلت بآل البيت حتى عاودتها الأطياف في المنام وكان من أثر ذلك كله أن كثر عدد الذين يرون النبي عليه السلام في المنام ويشاهدون فاطمة "رضي الله عنها" وهي تندب ابنها سيد الشهداء .

ولعل القصة الآتية التي رواها الثعالبي في "اليتيمة" خير شاهد على ما وصلت إليه حالة الشيعة في هذا العصر من حبهم لآل البيت وتعلقهم بهم ومشاهدة أطيافهم في المنام ..

حدث الثعالبي قال : قال لي الزاهد أخبرني ابن بشر أنه كان له جد لأمه يعرف بكولان — وكان من أهل الأدب والكتابة وحسن الشعر والخطابة قال لي " حججت سنة من السنين وجاورت بمكة حرسها الله ، فاعتللت علة تطاولت بي وضاق معها خلقي ثم . صلحت منها بعض الصلاح ففكرت في أني عملت في أهل البيت تسعا وأربعين قصيدة مدحا ، فقلت أكملها خمسين ثم ابتدأت فقلت :

بني أحمد يا بني أحمد *

ثم أرتج على فلم أقدر على زيادة ، فعظم ذلك على ، واجتهدت في أن أكمل البيت فلم أقدر فحدث لى من الغم بهذه الحالة ما زاد على غم بحلقى فنمت اهتماما بالحال ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه من الإضاقة وما أجده من العلة وأخرى من القلة .

فقال لى : تصدق يُوَسَّعْ عليك ، وَصُمْ يصح جسمك .

فقلت : يا رسول الله ، وأعظم مما شكوته إليك أننى رجل شاعر أتشيع وأخص ولدك الحسين بالمحبة ، وتداخلنى له رحمة لما جرى له من القتل ، وكنت قد عملت فى أهل بيتك تسعا وأربعين قصيدة فلما خلوت إلى نفسى بهذا الموضع حاولت أن أكملها خمسين فبدأت قصيدة قلت فيها مصراعا وأرتج على إجازته ، ونفر عنى ما كنت أعرفه ، فما أقدر على قول حرف فقال لى قولا نحا فيه إلى أنه ليس هذا إلى لقوله تعالى : " وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِى لَهُ " ثم قال : اذهب إلى صاحبك وأومأ بيده الشريفة إلى ناحية من نواحى المسجد ، وأمر رسولا أن يمضى إلى حيث أومأ ، فمضى بى الرسول على ناس فيهم على بن أبى طالب فقال له الرسول : أخوك وجه إليك بهذا الرجل فاسمع ما يقوله ..

قال : فسلمت عليه وقصصت عليه قصتى كما قصصت على النبى صلى الله عليه وسلم .. فقال لى : فما المصراع ؟ قلت :

بنى أحمد يا بنى أحمد * ....

فقال للوقت قل :

.... * بكت لكم عُمُدُ المسجد

بِيَثْرِبَ واهتزَّ قبرُ النبيّ * أبي القاسمِ السيِّدِ الأصْيَدِ
وأظلمتِ الأفقُ أفقُ البلا * د وذر على الأرض كالاثمد
ومكة مادت ببطحائهـــا * لإعظام فعلٍ بني الأعْبُدِ
ومال الحطيمُ بأركانـــه * وما بالبنيّــة من جُلْمُـد
وكان وليكم خـــاذلاً * ولو شاء كان طويل اليدِ

قال : ورددها ثلاث مرات فانتبهت وقد حفظتها (١) :

وإذا صحت هذه الرواية ـ وأظنها صحيحة ـ فإنها تدل علـى مدى ما وصل إليه حب الشيعة لأهل البيت وعطفهم عليهم وتفكيرهم فـي مآسيهم في الليل والنهار ٠

وإذا كان علماء النفس يرون أن الأحلام غالبا ما تكون انعكاسا لمـا يفكر فيه الإنسان في يقظته ، وأنها صدى لرغباته الكامنة وآلامه المكبوتة ٠٠ فهو يرى في نومه ما يهمه ويشغل باله في يقظته ٠٠٠ وإذا كان الأمـر كذلك فإن تفكير الشيعة المستمر في أهل البيت وحزنهم الدائم من أجلهـم قد خلق فيهم حالة من الشفافية العجيبة وجعل روحهم قريبة مـن روح النبي عليه الصلاة والسلام في المنام ٠

ولذلك كان البكاء والتحسر والنواح والعويل سمة بارزة من سمـات الفن الشعري لجماعة الشيعة في صدر الدولة العباسية ٠٠ فلما ضعفت هذه الدولة وتداعت أركانها في القرن الرابع وتولى الشيعة من بني بويه زمام الأمر في بغداد أخذت الاحتفالات بذكرى الحسين تتخذ طابعـا

---

(١) اليتيمة (١ : ٣٦٤) ٠

رسمها ، وكان من مظاهر هذه الاحتفالات أن يدلي الشعراء بدلائهم في هذه المناسبة الباكية ، فجاء شعرهم حزينا كئيبا ٠٠ قوامه اللوعة على أهل البيت تارة ، وهجاء بني أمية أو بني العباس تارة أخرى ، والتعريض بأهل السنة والنيل منهم مرة ثالثة ٠٠

فهذا أبو بكر محمد الخالدي أحد شعراء الموصل بالعراق يبكي وينتحب ويذكر مصرع الحسين في كربلاء ، وكيف عز عليه الحمى وتخلى عنه النصير ، ويلعن يزيد بن معاوية وأباه بل يلعن كل من خذل الحسين وتخلى عن مناصرته ، فيقول :

إذا تفكّرتُ في مُصابهمُ * أتعبَ زَنْدَ الهموم قادِحُه
بعضهم قرّبتْ مصارِعه * وبعضهم بعدت مطارحه
أظلم في كربلاء يومهم * ثم تجلى وهم ذبائحه
لا برِحَ الغيثُ كلَّ شارقةٍ * تهمي غواديه أو روائحه
على ثَرَى حلّة ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه
ذل حماه وقل ناصره * ونال أقصى مناه كاسحه
عفّرتمُ بالثرى جبين فتًى * جبريل بعد النبي ماسحه
يُطَلّ ما بينكم دم ابن رسول الله وابن السِّفاح سافِحُه
سيان عند الأنام كلهم * خاذله منكم وذابحه (1)

* * *

ومن شعراء الشيعة المعدودين بالموصل الخباز البلدي وهو أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالخباز البلدي نسبة الى قرية يقال لها "بلد" من قرى

---

(1) اليتيمة (٢ : ١٦٩) .

الجزيرة التى فيها الموصل ، وقد كان أميالايعرف القراءة ولا الكتابة ، ومع ذلك كان شاعرا حسن الشعر وكان يباهى بأميته ويتحدى بهـــا الشعراء كقوله :

بالفتَ فى شتمى وفى ذمى * وما خشيتَ الشاعر الأمـــى
جرّبتَ فى نفسك شيئا فمـــا * أحمدتَ تجريبك للسـم (١)

وقد اشتهر الخباز البلدى بالغلو فى التشيع حتى كان يمزج بـه مختلف فنونه الشعرية بما فيها الغزل والمجون .

وقد لاحظ الثعالبى ذلك عندما قال عنه " وكان يتشيع ويتمثل فـى شعره بما يدل على مذهبه كقوله ..

وحمائم نبّهتـــــنى * والليـــل داجى المشرقين
شبهتهن وقد بكيـــــن * وما ذرفن دموع عين
بنســاء آل محمـــد * لما بكينَ علـى الحسين (٢)

* * *

وهذا دليل على استبداد فكرة التشيع برأسه وملازمتها لعقله ..

وكان تشيعه يقوم على محورين :

أولهما : إعلان ولائه المطلق لعلى وأبنائه من بعده ..

وثانيهما : كراهيته الشديدة لأعدائهم من بنى أمية وبنى العباس وأهل السنة .

وكان فى كل ذلك يمزج التشيع بمختلف الأغراض الشعرية ــ بما فيهـا

---

(١) اليتيمة (٢ : ١٨٩) .
(٢) نفسه (٢ : ١٩٠) .

الغزل والمجون ، فمن شعره الذى يعلن فيه موالاته لعلى وبغضه لبنى أمية قوله فى الغزل :

تظن بأننى أهدى حبيبا * سواك على القطيعة والبعاد
جحدت إذن موالاتى عليا * وقلت بأننى مولى زياد (١)

ومن شعره فى الهجوم على أهل السنة قوله فى الغزل كذلك ..

قالوا تكهل من هويـ * ـت فقلت رسم قد دثر
عاينت من طلابه * زمراً مواصلة زمر
وكذاك أصحاب الحديـ * ـث نفاقهم عند الكبر (٢)

وكان فى مجونه وغزله بالمذكر لا ينسى أن يصبغ شعره بصبغة شيعية . فيقول :

أنا إن رمت سلواً * عنك يا قرة عينى
كنت فى الإثم كمن شا * رك فى قتل الحسين
لك صولات على قلـ * ـبى بقد كالرديني
مثل صولات على * يوم بدر وحنين (٣)

* * *

ويصوغ الشاعر المعنى نفسه تقريبا فى براعة فائقة فيقول :

أنا فى قبضة الغرام رهين * بين سيفين أرهفا وردينى

---

(١) اليتيمة (١٩١:١) .
(٢) نفسه (١٩٢:٢) .
(٣) اليتيمة (١٩٠:٢) .

فكأنَّ الهوى فــتًى علـوى * ظن أنى وليت قتــل الحسين
وكأنى "يزيدٌ" بين يديــه * فهو يختار أوجع القتلـــين[1]

* * *

ومهما يكن من شيء فقد كان الخباز البلدى من شعراء العــــراق المتشيعين بفكرة التشيع ، فجاء شعره صورة صادقة لميوله الدينية واتجاهاته الفكرية والمذهبية .

أما أسلوبه فكان سهلا سلسا تندر فيه المحسنات البديعية ، وتقـل فيه الصور البيانية التى فتن بها شعراء عصره .

ولعل ذلك راجع إلى أميته وعدم ثقافته وضيق أفقه وعجزه عن الـدرس والتحصيل ، فخلا شعره من الغموض والغرابة ، ولكنه على الرغم من ذلك ، كان بارعا فى إعلان مذهبه فى التشيع فى كل غرض من أغراض شعره حتى فى الغزل والمجـون .

أما نصر بن أحمد الشهير بالخُبْزَ أُرْزِى فقد كان يشبه الخباز البلدى فى حرفته وأميته ومذهبه الشعرى ، كما كان يشبهه فى تشيعه ، وفى مـــزج التشيع بمختلف الفنون الشعرية .. وكان بينه وبين ابن لنكك البصـرى مودة صادقة ، وعلاقة متينة ، وكان ابن لنكك ـ على علو منزلته وارتفـــاع قدره ينتاب دكانه بمربد البصرة وكان يدور بينهما مكاتبات ، وأشعـــار فى الأخويات ومساجلات أدبية رائعة فى مختلف الشؤون .. وحدث أن

---

(١) نفسه (٢ : ١٩٠) .

حضر ابن لنكك عنده وعليه ثياب بيض فاخرة فتأذى بالدخان وساء أثره على ثيابه فانصرف من عنده وكتب إليه مداعبا :

لنَصْـرٍ فى فؤادى فرطُ حُـبٍّ * يُنيفُ به على كـل الصحاب
أتيناه فبخرنا بَخُـــورًا * من السعف المدخَّـن بالتهاب
فقمت مبادرا وحسبت نصرا * يريد بذاك طردى أو ذهابى
فقال : متى أراك أبا حسـين ؟
فقلت له : إذا اتسخت ثيابى (١)

فلما قرئت عليه هذه الأبيات سُرَّ بها سرورًا عظيما وأملى على من كتب له الأبيات التالية التى تدل على ظرفه وحسن تعمله وسرعة بديهته وقـوة احتجاجه وبراعته الفائقة فى مزج التشبع بالأخويات :

مَنَحْتُ أبَا الْحُسَيْنِ صميمَ وُدّى
فداعبنى بألفـاظ عـذاب
أتى وثيابُـه كالشيـب لَوْنًا
فَعُدْتَ لـه كَرَيْعَانِ الشهـاب
وبغـض للمشيب أعدّ عنـدى
سَوادَّ لونُـه لونُ الخضـاب
فإن يكن التقـزز فيه فخـرا
فلمْ يُكْنَى الْوَصِـىُّ أبَا تُـرَاب (٢)

* * *

---

(١) اليتيمة (٢ : ٣٣٧) .
(٢) نفسه (٢ : ٣٧٤) .

أما شعراء الشيعة فى اقليم فارس فكانوا كثيرين وكان أعظمهم قدرا وأعلاهم منزلة ، وأسماهم مكانة وأشدهم عطفا على أهل البيت .. الوزير الخطير والأديب الكبير الصاحب بن عباد الذى ألف كتاب " الإمامة فى فضائل على بن أبى طالب " واهتم بنشر التشيع فى بلاد فارس أيام وزارته ..

وقد روى الثعالبى أن الصاحب عمل فى مدح أهل البيت قصيدة تبلغ سبعين بيتا معراة من الألف التى هى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور ومطلعها :

قَدْ ظَلَّ يَجْرَحُ صَدْرِى * من لَيْسَ يَعْدُوهُ فِكْرِى

فتعجب الناس منها وتداولتها الرواة [1] .

وكان الصاحب يعلن عن ميوله الشيعية واتجاهاته المذهبية فى كل مناسبة .. وكان كغيره من غلاة الشيعة — يرى أن حب على كرم الله وجهه وسيلةٌ إلى الجنة ، وطريقٌ إلى النعيم كما كان يصب جام غضبه على أهل السنة الذين كانوا يعادون الشيعة ويسفهون آراءهم ، ويعتقدون أن تفضيل عَلِىّ على سائر الصحابة .. وفيهم أبو بكر وعمر — بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن شعره الذى يوضح فيه مذهبه قوله :

حب على بن أبى طالب * هو الذى يهدى إلى الجنة
إن كان تفضيلى له بِدْعَةً * فلعنة الله على السنة [2]

* * *

---

(١) اليتيمة (٣ : ٣٧٤) .
(٢) اليتيمة (٣ : ٢٤٧) .

ولم يكن تشيعه قاصرا على حب على وأبنائه رضوان الله عليهم وإنما كان يحب كل العلويين فى عصره ، ويعطف عليهم ويسائدهم ، ويعد نفسه واحدا منهم ، ولم يكن يطيق أن يتعرض أحدهم لشدة أو مصيبة ضائقة أو تحل به نازلة أو يلم به مرض .

كتب مرة إلى أحد العلويين فى مرضه :

يا سيدا أفديه عند شكاته * بالنفس والولد الأعز وبالأب
لم لا أبيت على الفراش مسهدا * وقد اشتكى عضو من أعضاء النبى (١)

وكان العلويون بدورهم يحبونه ويجلونه وينزلونه من نفوسهم منزلة رفيعة ، ويبادلونه ودا بود واحتراما باحترام .

كما كانوا يثقون فيه ويستشيرونه فيما يعرض عليهم من أمور .

كتب إليه أحدهم يخبره بأنه رزق مولودا ويسأله أن يسميه ويكنيه فوقع فى رقعته بما يدل على مذهبه " أسعدك الله بالفارس الجديد ، والطالع السعيد فقد — والله — ملأ العين قرة ، والنفس مسرة ، والاسم على ليعلى الله ذكره والكنية أبو الحسن ليحسن الله أمره ، فانى أرجو له فضل جده وسعادة جده وقد بعثت لتعويذه دينارا من مائة مثقال ، قصدت به مقصد الفأل — رجاء أن يعيش مائة عام ، ويخلص خلاص الذهب الإبريز من نوب الأيام والسلام (٢) .

---

(١) اليتيمة (٣ : ٢٤٨) .
(٢) اليتيمة حـ ٣ ص ١٧٥ .

ولا أدل على حبه للعلويين فى عهده ، وتعلقه بهم منذ مهده ، من أنه زوج ابنته الوحيدة لأحدهم ـ وهو أبو الحسين على بن الحسين الحسنى العلوى ـ فرزق منها مولودا أسماه عبادا ، وكناه أبا الحسن ، وقد فرح الصاحب بسبطه هذا ، فرحا عظيما وأنشأ يقول عند بشارته :

أحمد الله لبُشْرَى * أقبلت عند العَشِىّ
اذ حبانى الله سبطا * هو سبط للنبى
مرحَبا ثمَّة أهلا * بغلام هاشمى
نبوى علوى * حسنى صاحبى

ثم قال :

الحمد لله حمدا دائما أبدا * إذ صار سبط رسول الله لى ولدا (١)

وأخذ الشعراء يتوافدون على داره يشاركونه الفرحة بهذا المولود العلوى الصاحبى ، وأنشدوا فى حضرته القصائد الطوال فى هذه المناسبة السعيدة .

فقال أبو محمد الخازن قصيدة على وزن بيت الصاحب ورويه مطلعها :

بُشْرَى فقد أنجزَ الإقبال ما وَعَدا
وكوكب المجد فى أفق العُلاَ صَعَدَا (٢)

وقال عبد الصمد بن بابك :

أتاك المزن يسحب بُرْدَتيه * على ميثاء حالية التراب

---

(١) نفسه (٣ : ٢١٥) .
(٢) اليتيمة (٣ : ٢١٥) .

بهدىٍ من بنى الزهراء سـارٍ * تَعَرّى عنه جلبـاب السحاب
تفرع فى النبوة ثم ألقـى * بضبعيه إلى خير الصحـاب
تلاقت لابن عباد فروع النـبوة والوزراء فى نصـاب (١)

* * *

أما أبو الحسن الجوهرى فقد غالى فى كلامه عن هذا المولـود وادعى أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا فقال :

هَلُمّ إلى الخبر المأثور مسنَـدُهُ
فى الطالقانِ فقَـرّت عين نائلـه
فذلك الكنز عبـاد وقد وضحـت
عنه الإمامة فـى أولى مخايلـه (٢)

* * *

مشيرا بذلك إلى ما روته الشيعة بفارس من أن بالطالقان كنزا من ولد فاطمة يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ولما كان الصاحب من قريـة " الطالقان " من قرى أصبهان ورزق سبطا فاطميا هو عباد تأول الشعراء له هذا الخبر (٣) .

ومهما يكن من شيء فقد كان الصاحب من كبار أدباء الشيعة فى القرن الرابع ، وكان شديد الاخلاص للعلويين شديد العطف عليهم ، وكثيرا ما كان يدفعه الأسى ـ على ما حل بأهل البيت من مصائب ـ إلى هجاء معاوية وكل من يناصره من الناصبة ومن ذلك قوله :

---

(١) نفسه (٣ : ٢١٧) .
(٢) اليتيمة (٣ : ٢١٦) .
(٣) نفسه (٣ : ٢٤٧) .

ناصبٌ قال لي : معاوية خـــــا
لك خــــير الأعمام والأخـــوال
فهو خـــالٌ للمؤمنـــين جميعـــا
قلت خالٌ لكن مـــن الخير خالـــى (١)

وكما كان يكره معاوية ويهجوه كان لابنه اليزيد أشد كرها ، وأعظم بغضا ، فكان يلعنه في كل مناسبة ..

روى الثعالبي : أن الصاحب كان إذا شرب ماء بثلج أنشد على اثره :

قعقعةُ الثَّلْجِ بماءٍ عـــذب * تستخرجُ الْحَمْـــدَ من أقصى القلب

ثم يقول : اللهم جدد اللعن على يزيد (٢)

مشيرا بذلك إلى أن سيد الشهداء قد مات ظمآنا ..

ولعل تشيع الصاحب يفسر لنا علاقته الوطيدة بالشريف الرضى أكبر زعماء العلويين في القرن الرابع ، فقد كانت بينهما مودة وتعاطف وصداقة متينة ، كان من ثمارها أن مدحه الشريف ـ على علو قدره ، وجلال منصبه ، وشرف نسبه بقصيدتين ، ورثاه بواحدة ، كما رثاه غيره من العلويين ... كأبي العباس العلوي الهمذاني الذي جزع لموت الصاحب لأنه كان أكبر نصير لهم في القرن الرابع وقال فيه :

مات الموالـــى والمحب * لأهل بيـــت أبي تـــراب
قد كان كالجبل المنيـــ * ـــع لهم فصار مع التراب (٣)

---

(١) المصدر السابق (٣ : ٢٤٧) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ١٧٧) .
(٣) نفسه (٣ : ٢٦٠) .

ومن أدباء الشيعة فى فارس كذلك أبو بكر الخوارزمى فقد كان متعصبا للعلويين ـ كالصاحب ـ صريحا فى موالاته لهم ، وتعلقه بهم ، فسلط قلمه على خصومهم من الناصبة وأهل السنة ، وأصلاهم نارا حامية .

فمن شعره فى هجاء فقيه منهم قوله :

مُجْبَرٌ صَيَّرَ ابنَهُ نَاصِبِيًّا * مُجْبَرًا مِثْلَهُ وتلك عجيبة

ليس يرضى أن يدخل النار فَرْدًا

ساعة الحشر إذ يقود حبيبه (١)

* * *

وكان لغلوه فى تشيعه يعتقد أن العلوى ينبغى أن يكون مفطورا من طينة نقية طاهرة غير التى خلق منها الناس جميعا ، كما ينبغى أن يكون مثلا أعلى فى سلوكه وتصرفاته ، وقدوة صالحة لغيره ، وكان يغيظه أن يكون العلوى كسائر الناس يخطئ ويصيب ، ويسمو وينحدر ، ولذلك هجا علويا كان دنىء النفس سيء السلوك لأن تصرفاته تعد دعاية سيئة لمذهب الشيعة فقال فيه :

شريف فعله فعل وضيع * دنيء النفس ممدوح الجدود

عَوَارٌ فى شريعتنا وفتح * علينا لِلنَّصَارَى واليهود

كأنَّ اللهَ لم يَخْلُقْهُ إلا * لِتَنْعَطِفَ القلوب على يزيد (٢)

وكان الخوارزمى يقيم فى نَيْسَابُورَ كبرى مدن خراسان ، وكانت يومئذ خاضعة للدولة السامانية وعلى الرغم من إقامته فى ظل بنى سامان

---

(١) اليتيمة (٤ : ٢١٦) .

(٢) اليتيمة (٤ : ٢١٦) .

وتمتعه بخيرات بلادهم كان يتحامل عليهم كثيرا ، ويهجوهم وهو فى عقر دارهم ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه كما يقول الثعالبى [1] .

على حين كان يميل إلى بنى بويه ويتعصب لهم ويمدحهم فى كل مناسبة مع أنه كان بعيدا عنهم لا يعيش فى بلادهم .. وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا التصرف الغريب من جانب الْخُوَارَزْمِيّ ..

ولا شك عندى أن ذلك راجع إلى تشيعه واخلاصه لعقيدته .. فقد كان تشيعه يدفعه إلى حب بنى بويه وهم بعيدون عنه .. لأنهم كانوا شيعة زيدية ، على حين كان تشيعه سببا مباشرا فى بغضه لبنى سامان وتحامله عليهم ، مع أنه كان يعيش فى بلادهم .. لأنهم كانوا سنيين ، معتدلين ، .. فكان طبيعيا أن يجد من بنى بويه عطفا ومودة لايجدهما من بنى سامان ..

كما أن غلوه فى التشيع يفسر لنا تلك الخصومة الأدبية الشهيرة التى حدثت بينه وبين بديع الزمان الهمذانى الذى كان يناهض الشيعة ، ويجاهر بعداوتهم ، وينكر عليهم غلوهم فى مذهبهم ، وتطرفهم فى عقيدتهم ، فكان بدهيا أن يحدث خصام بين الأديبين الكبيرين تكون نتيجته تلك المناظرة الشهيرة التى دفع فيها الخوارزمى الثمن غاليا وكانت حياته هى الثمن .

فلقد وجد الهمذانى خصمه الكبير يوسع الصحابة وأهل السنة شتما وسخرية وتقريعا ، وغاظه أن يتعصب الخوارزمى لبنى بويه ، ويغالى فى مدحهم مع أنه كان يعيش فى خراسان بعيدا عنهم ،وأن يطلق لسانه

---

(١) اليتيمة (٤:١٩٥) .

فى بنى سامان مع أنه يعيش فى كنفهم ، ويأكل من خيراتهم .

هذا علاوة على تكبره وغروره وترفعه عن مصادقة البديع .. فراودته الفكرة أن ينتقم من هذا الخصم العنيد .. وقد كان ـ فاستطاع ـ بأسلوبه الساخر ولفظه اللاذع ، وبما وهبه الله ـ من حدة ذكاء ، وسرعة بديهة وقوة بيان ، وقدرة على الارتجال ـ أن يجعل من الخوارزمى أضحوكة بين الناس ، وأن ينتصر عليه انتصارا أودى بحياته ، وكانت تلك الخصومة الأدبية الشهير ثمرة غير مباشرة من ثمار الصراع المذهبى بين الشيعة وأهل السنة .

ولقد كان الخوارزمى فى رسائله أشد اعلانا لتشيعه منه فى شعره ، ولكن الثعالبى ـ للأسف الشديد ـ لم يختر من رسائله الا ما كان خاليا من التشيع ، ولعله كان يفعل ذلك عن قصد حتى لا يورط نفسه فى الصراعات المذهبية التى اشتد أوارها بين الشيعة وأهل السنة فى ذلك العصر .. خاصة أن الثعالبى قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية ـ وهى سنية ـ وشطر آخر فى ظلال الدولة الغزنوية ـ وهى سنية كذلك ـ فكان طبيعيا أن يتجنب التورط فى مثل هذه المشاكل حتى لا يقع تحت طائلة العقاب من حكامه السنيين .

وفضلا عن ذلك كان الثعالبى معروفا بكثرة المجاملة للحكام والثناء عليهم فى كتبه ومؤلفاته ، وكان مشهورا بالاعتدال فى الرأى والعقيدة ، والعزوف عن التطرف والمغالاة .

ولعل هذا يفسر لنا تجاهله لكثير من أدب الشيعة فى عصره ولم يذكر لنا منه فى اليتيمة إلا القليل من النصوص التى لا تشبع نهم الباحثين ،

ولا تكاد تعطى صورة صادقة عن المد الشيعى فى ذلك العصر ، فقد كان كثير من عمالقة الفكر والأدب فى إقليمى فارس والعراق من غُلَاةِ الشيعة كالصاحب والخُوَارَزْمِى والشريف الرضى الذى كان من أبرع أدباء الشيعة تصويرا لآلامهم ورسما لمآسيهم ، وديوانه الكبير حافل بالقصائد الطوال فى التشيع وهى تمتاز بصدق العاطفة ، وحرارتها ، وتدل على الأسى والمعاناة .

ولأمر ما قال الثعالبى عنه : " ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفا فى المراثى منه [1] .

وعلى الرغم من ذلك تجاهل الثعالبى فى مختاراته لشعر الشريف كل ما يدل على تشيعه للأسباب التى أشرت إليها آنفا ..

وازاء هذا التقصير الواضح من جانب الثعالبى فى حق الأدب الشيعى عملت جاهدا على أن أرسم صورة صحيحة للتيارات الأدبية لجماعة الشيعة من خلال ما جمعته من نصوص كانت متفرقة فى اليتيمة وربما ذكرها الثعالبى عفو الخاطر ..

ولعلى أكون قد وفقت من خلال عرضى ودراستى لهذه النصوص فى أن أرسم صورة صادقة للمد الشيعى فى إقليمى العراق وفارس فى ذلك العصر ، وأن أعطى فكرة صحيحة عن الجانب الموضوعى لذلك الأدب ..

أما عن الجانب اللفظى لأدب الشيعة فقد امتاز ذلك اللون بسهولة الألفاظ ووضوح العبارات وعذوبة الأسلوب والبعد عن الغرابة والغموض ، والوعورة .

---

(١) اليتيمة (٣ : ١٢٨) .

كما خلا ذلك اللون أو كاد من المحسنات البديعية والصياغة البيانية والزخرفة اللفظية والخيال المجنح والمبالغات الممقوتة •

ولعل ذلك راجع إلى صدق الاحساس وحرارة العاطفة ، والصنعة غالبا تذوب أمام العاطفة القوية كما أن أسلوب الجدل والمناظرة الذى امتاز به أدب الشيعة جعله أشبه ما يكون بالخطابة والمناظرة ، وأبعد ما يكون عن الصنعة اللفظية والزخرفة البديعية فبدا هذا الأدب وقورا حزينا شأنه فى ذلك شأن الرثاء فى معظم الأحيان •

* * *

:: الفصـــل الخامس ::

" تأثير أهـل الذمـة فى أدب اليتيمـة "

كان أهل الذمة فى القرن الرابع يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى فى ظل الإسلام ، كما كانوا يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية كاملة ، واشتركوا جميعا فى نواحى الحياة العملية والأدبية ، ونظموا أنفسهم بحيث كان معظم الماليين فى الشام يهودا على حين كان معظم أطباء القصور فى بغداد نصارى .. واشتهر اليهود فى ذلك العصر باحترافهم حرفا خاصة كالصيرفة ودباغة الجلود والصباغة (١) .

وانتشر أهل الذمة فى مدن العراق وفارس وخاصة بغداد وتكريت والرها (٢) ، وكان فى فارس بلدتان تسمى كل منهما اليهودية احداهما بجرجان والأخرى بأصبهان (٣) كما كان فى بغداد درب يسمى درب اليهود وأصبح أثرهم عميقا فى الحياة الاجتماعية (٤) .

وكان للنصارى على وجه الخصوص أعياد كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكان الاحتفال بها — غالبا — يتم فى الأديرة التى كانت منتشرة فى ربوع العراق ، وفارس ، وسائر بلاد المسلمين .

ومن أشهر أعيادهم فى القرن الرابع عيد الميلاد ، وعيد الشعانين وعيد الفصح ، وكانت طبقات المجتمع تشترك فى الاحتفال بهذه الأعياد على اختلاف ألوانها ، وجنسياتها ، وأديانها ، كما كان حكام بنى بويه يشاركونهم فى مظاهر هذه الاحتفالات (٥) .

وكان لهذه الأعياد أثر كبير فى أدب اليتيمة تجلى على وجه

---

(١) ضحى الإسلام (١ : ٣٢٥) .
(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٢٢ .
(٣) ضحى الإسلام (: ٣٢٥) .
(٤) أنظر الفصل الخاص بالطوائف الدينية فى الباب الأول من هذا البحث .
(٥) اليتيمة : (٢ : ٣٩) .

الخصوص في وصف مظاهر الاحتفالات بالأعياد ، وما يقترن بها غالبا من عادات كرش الماء على المارة " يوم الفصح " ، ووصف مجالس الشراب والانس ، وتهنئة النصارى بأعيادهم ، ومشاركتهم فيها [1] ، كما كان بعض الشعراء يتبادلون التهنئة بأعياد النصارى على غرار ما كانوا يفعلون في أعياد الفرس .

وللصاحب بن عباد مقطوعة شعرية رقيقة بعث بها الى صديقه أبي بكر الخوارزمي يهنئه بيوم الفصح ، ويحثه فيها على اللهو والقصف كما كان يفعل النصارى ... فيقول :

أسعدك الله بيوم الفصح
وعشت ما عشت بيوم سمح
يا رأس مالي في الورى وربحي
وظفري ونصرتي ونجحي
شربا ولا تصغ لأهل النصح
فالحزم أن تشرب قبل نصحي
سكر النصارى في غداة الفصح [2]

أما عادة رش الماء يوم الفصح فقد أعجب بها الشعراء وتأثروا بها وكانوا يشاركون النصارى فيها ويكثرون من وصفها في أشعارهم . مثل قول السلامي — أحد شعراء العراق المشهورين — يصف مظاهر الاحتفال بتلك المناسبة ويمدح عضد الدولة البويهي الذي كان يدلي بدلوه في هذا العبث :

---

(١) اليتيمة (٣ : ٦١) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣٣٩) .

لولا اشتياقُ الماءِ كفّك لم يكن
قلبُ الندى وحشا السحائبِ تنزلِ

ولقد نثرت على الهوا أمثاله
ذا سجسج صافٍ وهذا سلسل

وكأنما ذهبيّ زراً فآتنا
ترمي بأسهمِ فضةٍ تتسلسل

من فوق كل ذؤابتين سحابة
أوبين كل اثنين منها جدول

فارقتُ حتى ماءَ وجهي إنه
من غير ماء الورد لا يتبدل

فاترك لنا ماءَ الشباب ولا ترق
ماءَ الصوابِ فهو فيها أجمل (١)

وهكذا كان لاختلاط أهل الذمة بالمسلمين أثر عميق في الحياة الاجتماعية والأدبية ، فكثرت المقطوعات والقصائد الشعرية التي تصور عاداتهم وتقاليدهم وتسجل أعيادهم ومواسمهم ، وتوضح العلاقات الودية التي كانت تربطهم بالمسلمين ومن جهة أخرى كان للديارات المنتشرة في العراق وفارس وسائر أقاليم دولة الإسلام أثر واضح في الأدب العربي فقد اتجهت أنظار جمهرة من الأدباء والشعراء والمؤرخين منذ صدر التأليف في الإسلام .. إلى الديارات ، فوصفوا طيب موقعها ورقة هوائها وعذوبة مائها ، وتغنوا بمحاسنها وبما وجدوه فيها من مجالس الأنس والطرب ، ومواطن النزهة واللهو ..

---

(١) المصدر السابق (٢ : ٣٩٠) .

وقد أتاحت هذه الديارات لجماعات من الأدباء والشعراء أن يلجوا بابا من الوصف ما كان لهم أن يلجوه لولاها ..

يشهد بذلك كتب الديارات العديدة التى ألفت فى هذا الفن فى عصر الثعالبى مثل كتاب " الديارات " لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وصاحب الأغانى المعروف وكتابه فى الديارات مشهور ، وقد ذكره غير واحد من المصنفين كالثعالبى (١) وابن خلكان (٢) والصفدى (٣) وحاجى خليفة (٤) .

ومثل كتاب " الديرة " للسرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ ،وكتاب " الديارات " للخالديين أبى بكر محمد وأبى عثمان سعيد شاعرى سيف الدولة وخازنى دار كتبه ..

وقد ضاعت كل هذه الكتب فيما ضاع من تراث الأقدمين ..

ومثل كتاب " الديارات " لِلشّابُشْتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتابه هذا سلم من غوائل الدهر وقد حققه كوركيس عواد وطبعه ببغداد ، وهو من أجل الكتب التى ألفت فى هذا الفن ..

وهذا القدر الضخم الذى ألف فى الديارات يدل على أثر النصارى فى الحياة الأدبية كما يدل على التعايش السلمى الذى كان سائدا بينهم وبين المسلمين ..

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٩٦ .
(٢) الوفيات جـ ١ ص ٤٧٥ .
(٣) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١١٨ .
(٤) كشف الظنون جـ ١ ص ٧٦٢ .

وكانت تلك الأديار غالبا ما تقام فى مواقع خلوية جميلة تحيط بها الرُّبا والجبال وتحفُّها الرياض والأشجار وكان ذلك يغرى عشاق الجمال الطبيعى من الشعراء وغيرهم بزيارتها للتمتع بمناظرها الخلابة ورياضها النضيرة وخمورها المعتقة ، والتغزل بغلمانها وجواريها وإشباع مطالب الجسد الحسية .. كما كانوا يمارسون فيها بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية كسماع الغناء والطرب ، وقراءة الشعر والأدب ،وإشباع النفوس بالمتعة الروحية ، والمحاورات الأدبية والمناقشات العلمية ..

ومن أشهر أديار العراق فى تلك المدة : (دير قُنَّى بالقرب من بغداد وقد وصفه الشابُشْتى بقوله .. هو دير حسن نَزِهٌ عامِرٌ .. فيه مائة قلاية لرهبانه ، وحول كل قلاية بستان ، وعليه سور عظيم يحيط به ، وفى وسطه نهر جار (١) .

وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الدير وأفاضوا فى الحديث عنه وتصوير ما كان يدور فيه من مجالس الأنس، وحفلات الغناء ومظاهر العبث والمجون ..

ولأبى بكر الخالدى فى هذا الدير قصيدة عذبة يصف فيها ليلة من ليالى الأنس قضاها فيه فيقول :

فلأشْكُرَنَّ لديرِ قُنَّى ليلةً
أشْرَقَتْ ظلمتَها ببدرٍ مشرقِ
بِتْنَا نُوَفِّى اللَّهْوَ فيها حقَّهُ
بالراحِ والوترِ الفصيحِ المنطقِ

---

(١) الديارات ص ٢٦٥ .

والجو يسحب من عليل هوائه
ثوبا يرش بطله المسترقرق
حتى رأينا الليل قوس ظهره
هرماً وأثر فيه شيب المفرق
وكأن ضوء الفجر في باقي الدجى
سيف جلاء من اللجين المحرق(1)

ويبدو أن الشاعر الخالدي كان من عشاق الجمال الفطري فكان يتردد بكثرة على الأديرة يبحث عن المتعة الحسية .. المتمثلة في مجالس الشراب والغناء والعبث بجواري الدير وراهباته ، كما ينشد المتعة الروحية المتمثلة في إنشاد الأشعار ومدارسة الأدب ، ومناقشة القضايا العلمية والفلسفية .

ومن قوله يصف وقتا سعيدا قضاه بدير مُرّان .. ويدعو للدير بالسقيا والبقاء ..

محاسنُ الدير تسبيحي ومِسْباحي
وخمرةٌ في الدجى صُبْحي ومصباحي
أقمتُ فيه إلى أن صارَ هيكلُه
بيتي ومفتاحُه للحسن مفتاحي
منادمًا في قلاليه رهابنه
راحت خلائقُهم أصفى من الراح
قدْ عدّلوا ثِقَل أديانٍ ومعرفة
فيهم بخفةِ أبدانٍ وأرواحِ

(1) اليتيمة جـ ٢ ص ١٧٤ .

ورشحوا فُـرَرَ الآدابِ فلسفةً
وحكمةً بعلوم ذات إيضـاحِ
فى طب بُقْرَاطَ لحن الموْصِلىِّ وفى
نحو المبردِ أشعـار الطرماحِ
ومنشدٍ حين يهديه المـزاج لنـا
" أَلَمْعُ برقٍ سرى أم ضوءُ مصباح "
وكم حَنَنْتُ إلى حاناته وغـدا
شوقى يكاثر أصواتـا بأقـداحِ
حتى تخمر خمـارى بمعرفـتى
وصيرت مُلحى فى السكر مُلاّحى
يا دير مُرّانَ لا تعدم ضحى ودُجَى
سِجَال غيثٍ ملث الودق سَحّاحِ
إِنْ تُفْنِ كأسُكَ أكياسى فإن بهـا
يُفَلّ جَيْشَ هُمُومِى جَيْشُ أفراحى (١)

وكان أخوه أبو عثمان الخالدى يعشق الديارات ويتردد عليهـا مثله ولا غرابة فى ذلك فقد وصفهما الثعالبى " بأنهما كانا يحييان بـروح واحدة وأن ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخـوة النسب ، وأنهما كانا يشتركان فى قرض الشعر وينفردان ، ولا يكـادان فى السفر والحضـر يفترقـان (٢) .

وعلى الرغم من هذه الموافقة فى الأخلاق والصفات والطبـاع والثقافة كان أبو عثمان هذا أبرع من أخيـه أبى محمدٍ فى شعـــر

---

(١) المصدر السابق (٢ : ١٧٠) .
(٢) نفسه (٢ : ١٦٥) .

الديارات وله فى وصفها قصائد شعرية رائعة تمتاز بجمال الإستعـــارة وحسن التشبيه ودقة التصوير ، كما تمتاز بسلاسة اللفظ وعذوبة الجـرس، والبعد عن التكلف والغموض .

وله فى دير سعيد الواقع جنوبى الموصل (١) قصيدة عذبة ... رطبة يصف فيها جمال الطبيعة ، ويتحدث عن الخمر ومجالس الشراب ويصور جانبا من مغامراته العاطفية ، ويتمنى لو أقام فى هذا الدير اقامـــة الأبد فيقول :

يا حُسْنَ دَيْرِ سعيدٍ إذْ حَلَلْتُ بِهِ
والأرضُ والروضُ فى وَشْيٍ وديبـــاجِ
فما ترى غُصُنًـا الا وزهرتُـــه
تَجْلُوهُ فى جُبَّةٍ منهــــا وَدُرَّاجِ
وللحمائمِ ألحـــانٌ تُـذَكِّـرُنَا
أحْبَابَنَـا بين إرْمَالٍ واهـــزاجِ
وللنسيمِ على الغُـدْرَانِ رفرفـة
يزورهـا فتلقـــاه بأمـــواجِ
والخمرُ تُجْلَى على خُطَّابِها فترى
عرائسَ الكَرْمِ قد زُفَّـــتْ لازواجِ
وكلنا من أكاليـــل البَهَـارِ على
رءوسنـا كأنُـو شُرْوَانَ فى التـاجِ
ونحن فى فَلَـكِ اللهو المحيط بنا
كأننا فى سمـــاءٍ ذات أبـــراجِ

---

(١) الديارات ص ٣٩ .

ولستُ أنسى مقاسى وَسْطَ هَيْكَلِه
حتى الصباح غزالاً طرفه ساجى
أهُزُّ عِطْفَيْ قضيب البان ممتنقا
منه وألْثُمُ عَيْنَيْ لعبة العاج
وقولتى والتفاتى عند مُنْصَرَفى
والشوق يزعج قلبى أى إزعاج
يادير ياليت دارى فى فنائك أو
ياليت أنك لى فى درب دراجى [1]

وكان دَيْرُ الموصل الأعلى بالعراق من أجمل الديارات فى القرن الرابع وقد وصفه الشابشتى بقوله : " هذا الدير بالموصل فى أعلاه يطل على دجلة وهو دير كبير يضرب به المثل فى رقة الهواء وحسن المستشرف ويقال إنه ليس للنصارى دير مثله فيه قلايات كثيرة وله درجة منقورة فى الجبل يفضى إلى دجلة وعليها يستقى الماء من دجلة .. وتحت الدير عين كبيرة تصب إلى دجلة ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحسون فيها [2] .

وقد أكثر الشعراء من التردد على هذا الدير ووصف مظاهر الجمال فيه ، وتصوير منامراتهم العاطفية .

ولأبى عثمان الخالِدِىّ أيضا شعر عاطفى قاله فى أحد غلمان هذا الدير ، أو فى إحدى جواريه من النصارى :

---

(١) المصدر السابق (٢ : ١٨٦) .
(٢) الديارات ص ١٧٦ .

قمرٌ بديرِ الموصلِ الأعلى
أنا عبدُه وهواهُ لي مَوْلَى
لثمَ الصليبَ فقلت من حسد
قبل الحبيب فمي بها أولى
جُدْ لي بإحداهن كي يحيا بها
قلبي فمهجته على المقلى
فاحمرَّ من خجل وكم قطفت
عيني شقائق وجنة خجلى
وتكلمت صبري عند فرقته
فعرفت كيف تحرّق الثكلى (١)

وللسريّ الرفاء شاعر الموصل الكبير شعر في الديارات يمتاز بالسهولة والعذوبة وحسن استعمال الطرق البيانية كما يمتاز بالوزن اللطيف والنغمة الموسيقية الجميلة والألفاظ اللينة الناعمة والحروف المتلائمة التي لا تجرح السمع والتي تسيل سيلانا على اللسان .

يقول في بعض ديارات الموصل :

شاقني مُشْتَمَرَفُ الدير وقد
راح صوبُ المزن فيه وبكر
أهواءٌ رقّ في أرجائه
أم هوى راق فما فيه كدر
أم خدودٌ سفرت عن وردها
أم ربيع عن جنى الورد سفر

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١٨٦ .

مجلس ينصرف الشَّرْبُ وما
طويت من بسطة تلك الحِبَرْ
وكأن الشمس فيه نَشَرَتْ
وَرِقًا ما بين أوراقِ الشجر
بين غُدْرٍ تقع الطير بها
فتراهن رياضا فى غُدُرْ
ونسيم وكُرَهُ الروضُ فبان
طار فى الصبح ارتديناه عطر
وثرى يشهد بالطيب له
عَبَقٌ خالف أطراف الأُزُر
وغيومٍ نشرت أعلامها
فلها ظل علينا منتشر (١)

وقال يصف ليلة من لياليه الماجنة بأحد الأديرة ، ويصف الشموع :

وَدَيْرٍ شُغِفْتُ بغزلانه
فكِدْتُ أقبل صلبانها
فلما دجى الليلُ فرجته
بروح تحيَّف جثمانها
بشمع أُعير قدود الرماح
وسُرْجِ ذُراها وألوانها
غصونٌ من التِّبْرِ قد أزهرت
لهيبا يزيِّن أفنانها

(١) نفسه (٢ : ١٥١) .

فياحُسْنَ أرواحها فى الدُّجَى
وقد أُكلَتْ فيه أَبْدانُهَا
سَكِرْتُ بقُطْرُبُلٍ لَيْلَةً
لهوت فغازلت غِزْلانَهَا
وأَيُّ ليالى الهوى أحسنتْ
إلَىّ فأنكرت إحسانها [1]

ومهما يكن من شىء فقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين أثر واضح فى الحياة الاجتماعية وانعكس هذا الاختلاط على أدب اليتيمة فكثرت فيها المقطوعات الشعرية التى تصف أديار النصارى أو التى تصور عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم ومواسمهم ، أو التى تعكس العلاقات الاجتماعية التى كانت قائمة بين الطرفين وكان ذلك الشعر — خاصة ما قيل منه فى الأديرة — يمتاز بعذوبة الألفاظ ورقة العبارات وجمال الجرس، وحسن الموسيقى ، ودقة الوصف وبراعة التصوير والإكثار من الصور البيانية من غير تكلف ، ولا غموض ..

ذلك أن جمال الطبيعة فى هذه الديارات قد ظهر صداه فى الأدب ، فأكسبه رونقا وبهاء ، وكساه حسنا ورُوَاء ..

ومن هنا يُعَدُّ هذا الشعر أصدق صورة للحالة الاجتماعية لأهل الذمة فى ذلك العصر — خاصة النصارى — كما يعبر بصدق عن العلاقات الاجتماعية السوية ، التى كانت قائمة بينهم ، وبين المسلمين فى القرن الرابع .

---

(١) اليتيمة (٢ : ١٥٥) .

أما أثر اليهود فى الحياة الاجتماعية والأدبية فقد كـــان محدودًا للغاية إذا قيس بأثر النصارى ، بل إن أثرهم فى أدب اليتيمة كان معدوما تقريبا ، ويندر أن نجد شاعرا عربيا فى ذلك العصر وصف بيعهم ، ومعابدهم ، أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، أو تحدث عـــن أعيادهم ، ومواسمهم ، أو ذكر شيئاً عن علاقاتهم الاجتماعية بالمسلمين .

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى طبيعة اليهود فى كل العصور فتراهم يحبون العزلة ، ويميلون إلى الإنطواء على أنفسهم ، كما أنهـــم يخافون الناس ولا يثقون فى أحد من غير بنى جنسهم ولهذا يحـــذرون الاختلاط والاندماج ويتعالون على غيرهم ويحيطون أنفسهم دائما بسيـاج من العزلة والسرية والتكتم ، ويقيمون فى حَوَارٍ ضيقة قذرة مظلمة يمارسون فيها شعائرهم الدينية بعيدا عن الناس ، ومن ثم كان أثرهم فى الحياة الاجتماعية محدودا وفى الحياة الأدبية نادرا ، وذلك عكس ما كان عليه النصـــارى .

* * *

:: الباب الرابع ::

" التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة "

الفصل الأول :

موقف الحكام من الأدب .

الفصل الثاني :

ترف الحكام وأثاره في اليتيمة .

الفصل الثالث :

مجالس الغناء والطرب وصداها في أدب اليتيمة .

الفصل الرابع :

المجون وأثره في اليتيمة .

الفصل الخامس :

مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة .

* * *

:: الفصـــل الأول ::

" موقـــف الحـــكام مــــن الأدب "

كانت بغداد فى صدر الدولة العباسية تحتل مكانة سامية ، وتشغل أول منزلة رفيعة بين المدن الإسلامية الكبرى ، كما كانت مركزا للحياتين العلمية والأدبية ، وملتقى لمختلف التيارات الفكرية والروحية .

وقد اختلطت فيها الأجناس البشرية ، وامتزجت الثقافات العالمية والتقت شتى الحضارات الإنسانية ، فغدت قبلةً لأنظار الأدباء ومقصدًا لطلاب الشهرة والظهور ، ومثابة لراغبى المجد والعظمة ولم ينافسها فى هذا المجال مدينة أو حاضرة إسلامية أخرى .. فكان لزاما على أولئك الشعراء الذين يبتغون الشهرة ، ويتطلعون إلى الغنى والثراء ، ويطمعون فى الأخذ والعطاء ، أن يشدو اليها الرحال ، ويقطعوا دونها الأدغال حيث قصور الخلفاء والوزراء ، ومساكن الكبراء والعظماء ، وحيث مجالس العلم ، وحلقات الدرس وندوات الأدب ، يمدحون الحكام تارة ، ويغشون مجالس العلم تارة أخرى حتى إذا سنحت لهم الفرص ، وتهيأت لهم الظروف مدحوا الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وتقربوا إليهم ، واختصوا بهم ، وعاشوا فى أكنافهم ، ونالوا عطاياهم ، وجوائزهم .

على أنه لم يكن من السهل على كل أديب أن يظفر بالحظوة لدى الممدوحين لأن الطريق إلى الخلفاء كان وعرا وشاقا ، وكان من الصعب على الشعراء الوصول إليهم ، إلا أولئك الذين أوتوا حظا من الموهبة ، والنبوغ أو رزقوا قدرا من الحيلة والدهاء ، أو ساعدتهم الوساطات على أن ينالوا هذا الشرف العظيم ، ومن ثم كان تشجيع الحكام للأدب والأدباء — آنذاك — محصورا فى نطاق ضيق ..

أما فى عصر الثعالبى — وهو القرن الرابع الهجرى — فقد تعددت الحواضر الإسلامية وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات كثيرة شبه مستقلة ، ولم يعد لبغداد مركز الصدارة بين الحواضر

الإسلامية — كما كانت من قبل — بل زاحمتها بالمناكب مدن أخرى ، وطغت عليها فى المواكب حواضر جديدة كحلب ، والقاهرة ، وقرطبة ، والرى وشيراز ، ونيسابور ، وبخارى ، وغيرها من العواصم الإسلامية الحديثة ، فأقبل الشعراء على هذه المراكز السياسية الجديدة ، ووجدوا من الأمراء والوزراء ، فى هذه الدويلات تشجيعا وترحيبا ، وأخذ الحمدانيون فى حلب ، والبويهيون فى فارس والعراق ، والسامانيون فى خراسان ، والفاطميون فى مصر ، والمغرب ، والأمويون فى الأندلس ، يتنافسون فى تقريب العلماء ويتسابقون فى الحدب على الأدباء ، فراجت سوق الأدب ، ونفقت بضاعته فى تلك الأفياء رواجا عجيبا كان من نتائجه أن أصبح الأدباء كالطير ينتقلون من فنن إلى فنن ، ويغردون على غصن بعد غصن ، ويصدحون فى روض بعد روض ، ويتكاثرون حيث ينتشر الحب ، ويكثر العطاء ، وبهذا غدوا كالتاجر الماهر الذى يحمل بضاعته إلى حيث تنفق وتروج ليجنى منها الربح الموفور ، والمال الكثير ..

والدارس لحياة الأدباء فى تلك الحقبة يلاحظ ذلك بوضوح ..

فالمتنبى مثلا : عاش قدرا من حياته فى بلاط سيف الدولة بحلب وقدرا آخر فى بلاط كافور بمصر ، وقدرا ثالثا فى بلاط عضد الدولة بشيراز ..

والقاضى الجرجانى كان فى صباه — كما يقول الثعالبى — خلف الخضر فى قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها حتى يعرج على حضرة الصاحب ويلقى بها عصا المسافر [1] .

---

(١) اليتيمة (٤ : ٣) .

وأبو الحسن السّلامىّ هجر بغداد إلى الموصل ثم ورد أصبهان ثم آثر حضرة عضد الدولة بشيراز (١) .

وبديع الزمان الهمذانى كان جوابة آفاق .. فلم يترك من خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجبى من ثروتها ، وجنى من ثمرتها ، واستفاد من خيرها وميرتها ، ولم يترك أميرا ولا ملكا ولا وزيرا ولا رئيسا إلا استمطر منه بنوء ، وسرى معه فى ضوء (٢) .

والثعالبى نفسه كان أخا تنقلات وأسفار ، وحليف إقبال وإدبار ، وله رحلات متعددة إلى جرجان والجرجانية وغزنة ، ويدل على ذلك قوله فى مقدمة كتابه " اليواقيت فى بعض المواقيت " : فافتتحته بنيسابور وتطرفته بجرجان وتنصفته بالجرجانية واستتممته بغزنة " .

وقد شاع فى ذلك العصر حرص العلماء والأدباء على إهداء كتبهم وثمرات عقولهم إلى ملوك ورؤساء عصرهم ... فعل ذلك الثعالبى الذى أهدى كتبه إلى الصاحب بن عباد فى أصبهان ، وإلى الأمير قابوس بن وشمكير فى طَبَرِسْتَانَ ، وإلى الأمير أبى الفضل الميكالى فى نَيْسَابُورَ ، وإلى مأمون بن مأمون أمير خُوَارَزْمْ ، وإلى السلطان نصر أخى السلطان محمود (٣) ، وفعل مثله البيرونى الذى أهدى كتابه " التفهيم فى صناعة التنجيم " إلى أمير خُوَارَزْمْ ، وأهدى كتابه " الآثار الباقية " الى الأمير قابوس ... وأهدى كتابه " الهند " إلى السلطان محمود ، وأهدى كتابه " القانون المسعودى فى الفلك " إلى السلطان مسعود ابن السلطان محمود الغزنوى (٤) .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى للمستشرق براون ص ١١٦ ط السعادة بمصر .

(٤) بديع الزمان الهمذانى للشكعة ص ٢٩ .

وأما أبو الفرج الأصفهاني فقد أهدى أجل كتبه " وهو " الأغاني " إلى سيف الدولة بحلب وإلى عبد الرحمن الناصر بقرطبه [1] .

وهكذا حظى الأدباء فى القرن الرابع بعناية الحكام الذين اهتموا بالأدب واحتفلوا بأهله احتفالا يدعو إلى الدهشة ويثير العجب ويبعث على التساؤل !! .

فما الذى حدا بهؤلاء الحكام إلى رعاية العلوم والآداب إلى هذا الحد ؟ ، وما الذى حملهم على تكريم العلماء وتقريب الأدباء والتسابق فى إجابة مطالبهم والحرص عليهم ؟ .

أتراهم كانوا يفعلون ذلك حبا فى العلم ورغبة فى الأدب ؟ أم كان الدافع إلى ذلك هو حرصهم على تزيين مجالسهم بهؤلاء الأدباء كما كانوا يزينونها بوسائل الترف وأدوات الزينة ؟ . أم كان طلب التسلية وتزجية وقت الفراغ هو الحامل على هذا كله ؟ . أم كان ذلك التسابق مجرد تنافس يحدث مثله كثيرًا بين الخصوم والأقران ؟ . كل افتراض من هذه الافتراضات قد يكون هو الغاية .. فقد ذكر غير واحد من القدامى والمحدثين أن من هؤلاء الحكام من كان عالما أديبا يهوى العلم ، ويعشق الأدب ، كابن العميد ..

ومنهم من كان أديبا يحنو على الأدباء بدافع من الحب والاعجاب كالصاحب ، والمهلبى ..

ومنهم من كان فيلسوفا يميل إلى الفلسفة ، ويقرب أهلها كابن سعدان ..

---

(١) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٤٠ .

ومنهم من كان أديبا يحب الكتب فيجمعها ، ويعنى بها كسابور ابن أردشير .

ومع إيمانى بكل الدوافع السابقة أعتقد أن السبب الحقيقى وراء ذلك التكالب على الأدباء يرجع فى الدرجة الأولى إلى المنفعة المتبادلة بين الطرفين .. فكما كان الأدباء محتاجين إلى أموال الحكام وجوائزهم كان أولئك الحكام محتاجين بالقدر نفسه — إلى قصائد الشعراء ورسائل الكتاب التى تعلى من شأنهم وترفع من قدرهم ..

ويخيل إلىّ أنه لولا المتنبى لما عرف لسيف الدولة هذه المكانة المرموقة التى تبوأها بين حكام عصره ، ولما كان له هذه السيرة البطولية التى أحالته إلى شخصية أسطورية لا نظير لها فى عالم الحقيقة ، مع أنه كان حاكما لامارة صغيرة هى حلب وما جاورها من القرى والنجوع ..

ولم تكن حاجة الحكام إلى الكتاب بأقل من حاجتهم إلى الشعراء ..

ذلك أن معظم هؤلاء الحكام كانوا فى صراع دائم مع جيرانهم فى الخارج ومع منافسيهم فى الداخل وكانوا مهددين فى كل لحظة بالإغارة عليهم من الخارج أو التمرد عليهم من الداخل .. وكانت رسائل الكتاب — فى ذلك العصر — أشد عونا للحكام من سيوف الفرسان ..

وقد سبقنى إلى هذا الرأى الثعالبى نفسه عندما نوّه قديما بالكتاب وأشار إلى خطرهم فى قوله: «إن الكتاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون فى جباية خراج أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد أو اصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة أو دعاء إلى ألفة أو نهى

عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب وعظائم الشؤون" (١) .

وقد أجمع أهل البصيرة فى الترسل على أن رسالة ابن العميد التى كتبها إلى ابن بُلكا — عند استعصائه على ركن الدولة البويهى — قد نابت عن الكتائب فى عرك أديمه ، واستصلاح شأنه ، ورده إلى طاعة صاحبه (٢) .

على أن الكتاب أنفسهم لم يكونوا يجهلون حقيقة أدوارهم فى خدمة الملوك .. بل كانوا يعرفون جيدا خطورة مراكزهم .. حتى لقد زعم أبو إسحاق الصابى فى إحدى قصائده أنه لسان السلطان وكاتبه الموفق الذى يؤازره فيما عراه من خطوب ، ويمده برأيه الواضح الذى يريه ضوء الشمس وسط ظلام الليل ، ويدعى أنه يمين السلطان التى يبطش بها وعينه التى ينظر بها ، ولسانه الذى يتحدث به ، وأنه فقير إلى كلامه الذى يرد به رأس الجموح فينثنى ويجمله سوط الحرون فيمنق حيث يقول :

وقد علم السلطانُ أَنِّى لسانُهُ
وكاتبُهُ الكافِى السديدُ المُوَفَّقُ

أُؤازرُهُ فيما عَرَا وأُسدُّه
برأى يريهِ الشمسَ والليلُ أغسقُ

يجدد بى نَهْجَ الهوى وهو دارس
ويفتح بى بابَ النُّهَى وهو مُغْلَقُ

فيمناى يمناهُ ولفظى لفظُه
وعينى له عين بها الدَّهْرَ يَرْمقُ

(١) نثر النظم وحل العقد للثعالبى ص٣ ط مصر ١٣١٧ هـ .
(٢) اليتيمة ص ٣ ص ١٧٤ .

ولى قَدرٌ تُضحى الملوك فقيرةً
اليها لدى أحداثها حين تطرقُ
أُردُّ بها رأس الْجَمُوحِ فينثنى
وأجملها سوط الحرون فيمنق
فان حاولت لطفاً فماءٌ مرقق
وان حاولت عنفاً فنار تألَّقُ (١)

وبلغ من عظم مكانة الكتاب فى ذلك العصر أن صار الاعتقاد راسخا بأن حملة الاقلام أجدى وأنفع من حملة السيوف ، وأنهم يبلغون بأقلامهم مالا يبلغه الفرسان بخيولهم .

يقول أحد شعراء اليتيمة وهو الخريرى معبرا عن ذلك :

واعلَمْ بأن العلمَ أرفعُ رتبةً
وأجل مكتسبٍ وأسنى مفخرِ
بضمّرِ الاقلامِ يبلغُ أهلُها
ماليس يُبْلَغُ بالجياد الضمر (٢)

واذا كان الأمر كذلك .. فلا غرابة أن يسند الحكام المناصب الإدارية الكبرى كالوزارة وما يشبهها إلى الكتاب والشعراء ولو لم يكن الحكام محتاجين إلى قصائدهم السائرة ، ورسائلهم المحبره ، لما رأيناهم يتسابقون إليهم إلى هذا الحد ، ولكان لهم فى غيرهم من رجال الإدارة والمتمرسين بشؤون الحكم خير عوض ، وليس من قبيل المصادفة أن يظهر أمثال : ابن العميد والصاحب والمهلبى وابن سعدان ، وسابور بن أردشير

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٧ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٨٩ .

— من وزراء فارس والعراق — فى ذلك العصر ، وما منهم إلا كاتب بليغ وشاعر مفلق ، لأنهم كانوا خير سند لبنى بويه فى الحرب والسلم على حد سواء ..

وعلى الرغم من أن بنى بويه — حكام فارس والعراق فى ذلك العصر — كانوا فرسا لا يعرفون اللغة العربية أول عهدهم ، نجد أنهم سرعان ما اندمجوا فى المجتمع العربى فى بغداد ، وتأثروا بالثقافة العربية وأثروا فيها — منذ الجيل الثانى منهم — فقربوا العلماء ، وفتحوا أبوابهم للكتاب والشعراء ، وغمروهم بالعطايا والهبات .. ولم يكد الجيل الثانى من بنى بويه يأتى حتى ظهر منهم الشعراء والأدباء والكتاب الذين رأى الثعالبى أن يفرد لهم فى اليتيمة بابا كاملا ، تحدث فيه عن أدبائهم واختار من أشعارهم قدرا كبيرا ..

ومن أبرز شعرائهم عز الدولة ، وأبو العباس خسرو بن ركن الدولة وتاج الدولة بن عضد الدولة الذى كان آدب بنى بويه وأشعرهم كما يقول الثعالبى [1] .

وكان أبوه عضد الدولة شاعرا نابغا فى عدة شؤون .. وكان على ما مكن له فى الأرض وجعل إليه من أزمة البسط والقبض وخص به من رفعة الشأن وأوتى من سعة السلطان .. يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعرا كثيرا [2] .

وكانت حضرته مقصدًا للشعراء وقبلة للأدباء الذين يحجون إليها من أطراف البلاد الإسلامية كالمتنبى والسَّلَامِىّ والْخَوَارَزْمِىّ وغيرهم فيغمرهم

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩٥ .

بالمال ويجزل لهم العطاء ، وكان مجلسه لا يخلو من المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية ، وكان يستحث الشعراء على الإجادة فى القول ويشجعهم على الارتجال للشعر ، وكان لا يحضر أمامه شىء من الطعام أو الشراب إلا أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعرا حسنا ، فبينما كان جالسا ذات يوم مع بعض الأدباء على المائدة إذ قدمت بَهَطَّةٌ(١) فنظر عضد الدولة الى أبى بكر الخوارزمى وطلب منه وصفها فارتج عليه وغلبه سكوت صحبه خجل ، فارتجل عضد الدولة وقال :

بَهَطَّةٌ تعجزُ عن وصفِهَا
يا مُدَّعِى الأوصافَ بالـزورِ
كأنَّها فى الْجَامِ مجلُوة
لآلىء فى ماء كافورِ(٢)

وكان لذلك كله أثره البعيد فى رقى الأدب وازدهاره فى بلاطه واتقاد جذوة النهضة لمختلف العلوم والفنون فى العراق وفارس على يد حكام بنى بويه .

أما وزرائهم فقد كان التنافس بينهم على أشده فى تقريب العلماء وتكريم الأدباء ، وكان كل منهم يمثل مدرسة ، بل جامعة تحوى ألوانا مختلفة من الثقافات والمعارف وضروبا متنوعة من العلوم والآداب ..

ومن أجل هؤلاء الوزراء مكانة ، وأعلاهم قدرا ، وأسماهم منزلة وأغزرهم علما وأدبا فى فارس ابن العميد الذى كان كما وصفه الثعالبى " عين المشرق ، ولسان الجبل ، وعماد ملك بنى بويه وصدر وزرائهم وأوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة والضرب فى الآداب

---

(١) الْبَهَطَّة : الأرز يطبخ باللبن والسمن .
(٢) اليتيمة (٢ : ١٩٦) .

بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية .. يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس ، يضرب به المثل فى البلاغة وينتهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعانى ونفاستها وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد — عند منصرفه عنها — : " بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد " ، وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " (١) .

وكان فى قصره يمثل المدرس النشط الذى يعنى بتهذيب طلابه وتمرينهم على قرض الشعر وكان ينتهز المناسبات ويطلب منهم أن ينظموا فيها شعرا ، فاذا حياه بعض الزائرين بأترجة — مثلا — قال لهم تعالوا نتجاذب أطراف وصفها (٢) .

واذا سُئِل بعضُ الحاضرين فى مجلسه عن قصةٍ له فقال ولم يقصد وزنا : أى جهد لقيته ... وشقاء شقيته .

قال لهم ابن العميد قولوا على هذا الوزن (٣) .

وهكذا كان ابن العميد يقارض الشعراء ويناظر الفقهاء ويكاتب الأصدقاء كما كان صاحب طريقة فريدة فى الكتابة عرفت باسمه وتأثر بها الكُتّابُ فى زمانه وبعد زمانه ، وفضلا عن ذلك كانت له مكتبة كبرى تحوى آلاف الكتب والمجلدات بالرى وكان يعهد بتدبيرها وتنظيمها الى أبى على أحمد بن محمد بن مِسْكَوَيْه الشاعر المؤرخ الفيلسوف صاحب كتاب " تجارب الأمم " .

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٧ .
(٢) نفسه ج ٣ ص ١٥٧ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٨ .

ولعل المتنبى لم يكن مبالغا فى وصفه له بقوله :

مَنْ مُبلغ الاعرابَ أنى بعدَها
جالستُ رَسْطاليسَ والاسكنـــدرَا
وسمعتُ بطليموس دارِس كتبه
متمـلكا مُتَبدِّيـــا متحضــــرا
ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنمـــا
رَدَّ الالهُ نُفوسَهم والأعصُـــرَا (١)

أما الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة فقد كـــان كما وصفه الثعالبى أيضا : " صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمـــان وينبوع العدل والاحسان ، وكانت حضرته محط رحال الأدباء والشعـراء، وموسم فضلائهم ومترع آمالهم ، وكانت أمواله مصرفة اليهم وصنائعه مقصـورة عليهم ، كما كانت همته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضــــل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه " .

" ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة وواسطة عقد الدهر فـــى السماحة جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل وقوال فصل وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الأفهام وثمار الخواطر ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يُعدّ فى السحر ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسيــر الشمس واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسـان الشعر من يُربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهـــم فـى الأخذ برقاب القوافى وملك رقاب المعانى " .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٩ .

ثم أخذ الثعالبي بعد ذلك يُعَدِّدُ شعراء الصاحب وندمائه فقال : " وجمعت حضرة الصاحب بأصفهان والزهري وجرجان أمثال أبي الحسن السّلامي وأبي بكر الْخُوَارَزْمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن علي بن عبدالعزيز الْجُرْجَانِي وأبي القاسم ابن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلوي وأبي الحسن الجوهري وابن المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمذاني وإسماعيل الشاشي وأبي العلاء الأسدي وأبي الحسن الْغُوَيْرِي وأبي دُلَفَ الخزرجي وأبي حفص الشهر زوري وأبي معمر الإسماعيلي وأبي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره أو ذهب عني اسمه " (1) .

إنهم عدد ضخم من الأدباء والشعراء الذين أحاطوا بهذا الوزير العظيم والتفوا حوله وساروا في فلكه وقبسوا من ضوئه واغترفوا من بحره وعاشوا في كنفه فغمرهم بعطفه ورعايته .

وقد كان كأستاذه ابن العميد يشجع الشعراء على القول ويدربهم على الإرتجال ويحثهم على الإجادة ويقترح عليهم الموضوعات ويطلب منهم أن ينظموا فيها الشعر ولكن في نطاق أوسع وبصورة أعم وأشمل ... بنى دارا بأصبهان فطلب منهم وصفها فتسابقوا في ذلك ، ووقع في يده فيل وهو بجرجان فأمرهم أن يقولوا فيه شعرا ، ونفق برذون أبي عيسى بن المنجم بأصبهان فطلب منهم أن يرثوه ويعزوا صاحبه على سبيل المداعبة ، فاستجابوا لرغبته مسرعين وكان من أثر ذلك ظهور مجموعات شعرية ضخمة أوردها الثعالبي كلها في اليتيمة وعرفت بالداريات والفيليات والبرذونيات (2) .

---

(1) اليتيمة ج ٣ ص ١٦٩ .
(2) انظر اليتيمة ج ٣ من ص ١٧٣ الى ص ٢١٥ .

كما أورد له الثعالبى طائفة ضخمة من رسائله الأخوية فى التهنئة والمداعبة والملاطفة وطائفة أخرى من ملحه ونوادره وتوقيعاته واختار له قدرا كبيرا من عيون شعره فى مختلف الأغراض والفنون .

وليس أدل على حب الصاحب للعلم وتكريمه للأدب من أنه كان يستخف بالوزارة وتقاليدها ويتزيا بزى أهل العلم ويخرج على الناس متطلسا متحنكا (١) .

ومهما يكن من شىء فقد كان تأثير الصاحب فى الحياة العلمية والأدبية عظيما بالغا ، وقد تجلى ذلك بوضوح فى كتاب اليتيمة حيث أورد له الثعالبى ولشعرائه طائفة ضخمة من الأخبار والأشعار تربو على خمسين ومائة صفحة من الحجم المتوسط .

أما وزراء بنى بويه بالعراق فلم يكونوا أقل حماسا من إخوانهم بفارس فى تقريب العلماء وتكريم الأدباء ولم يألوا جهدا فى تشجيع الحركة الفكرية فى بلادهم فاجتذبوا إلى قصورهم قادة الفكر والبيان وأمراء الكتابة والشعر .

ومن أبرز وزرائهم فى إقليم العراق : الوزير المهلبى .. وابن سعدان وسابور بن أردشير . أما المهلبى فقد كان — كما يقول الثعالبى — " يترسل ترسلا مليحا ويقول الشعر قولا لطيفا يضرب بحسنه المثل ولا يستحلى معه العسل يغذى الرُّوحَ ويجلب السَّرَّ (٢) .

وكان يعقد مجالسه الأدبية فى قصوره الجميلة وبساتينه الأنيقة فيؤمها كثير من قادة الفكر وأمراء البيان أمثال الصاحب والقاضى التنوخى

---

(١) الأدب فى ظل بنى بويه ص ١٣٠ .
(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٢ .

وابن قريعة وابن معروف وغيرهم .. حيث كانوا يأخذون فى فنون مختلفة من المناشدات والمجاوبات والمذكرات والمداعبات [1].

وكان الصاحب يتردد على هذه المجالس المهلبية عندما كان يزور العراق ويعجب بها .. فأكثر من وصفها فى كتابه " الروز نامجة " فقال فى أحد فصوله مخاطبا أستاذه ابن العميد : " وردت — أدام الله عز مولانا — العراق فكان أول ما اتفق لى استدعاء مولاى الأستاذ — أبى محمد — يعنى المهلبى — لى ، وجمعه بين ندمائه — من أهل الفضل — وبينى ، وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف خفيف الروح أديب متقعر فى كلامه لطيف يعرف بالقاضى ابن قريعة ، فانه جارانى فى مسائل خفتها تمنع من ذكرها واقتضاضها [2].

وكان المهلبى يحب الأدب ويكثر من الحديث حوله فى كل مناسبة ولو كان على مائدة الطعام فقد حكى ياقوت " أن المهلبى كان يكثر الحديث على طعامه وكان طيب الحديث ، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء [3].

وقد بلغ من حبه للأدب وعطفه على أهله أنه كان يحتمل من أبى الفرج الأصبهانى مالا يحتمله بشر ، فهو على ما كان من نظافته وأناقته فى مأكله كان يتكلف الصبر على مؤاكلة أبى الفرج فلا يظهر فى وجهه انكارا ولا استكراها [4].

---

(١) الأدب فى ظل بنى بويه ص ١٣٢ .
(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٤٣ .
(٤) نفسه ج ١٣ ص ١٠٢ .

وقد اهتم به الثعالبى كثيرا فى " اليتيمة " وأفرد له بابا كاملا تحدث فيه عن نسبه ومكانته وتقلب الدهر به وكرم أخلاقه وحميد صفاته ، كما تحدث عن مجالسه الأدبية والغنائية وجمع طائفة ضخمة من أشعاره فى مختلف الأغراض والفنون وهذا يدل على مكانة المهلبى وعلو كعبه فى الأدب وأثره فى نهضة العلوم والآداب والفنون بإقليم العراق فى زمانه .

وبالاضافة إلى مجالس المهلبى الأدبية والعلمية كان هناك بالعراق مجلس آخر ذو شأن كبير فى تاريخ المجالس الأدبية وهو مجلس أبى عبدالله الحسين بن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ هـ وزير صمصام الدولة البويهى الذى كان يميل إلى الفلسفة ويحب أهلها ويقرب المشتغلين بها ويشملهم بعطفه ورعايته .. وكان أبو حيان التوحيدى الأديب الكبير والفيلسوف العظيم يجالسه وينادمه ويقضى معه الأمسيات الطويلة ويناقشه فى مسائل فلسفية وأدبية بالغة الأهمية ..كحياة الانسان وطبيعة الروح ومميزات ذوى الشأن من المصريين ومواهب العرب البارزة مع موازنتها بمواهب غيرهم من الأجناس الأخرى وموازنة كتبة الحسابات بكتاب الرسائل وإظهار أيهما أكثر فائدة للحاكم وأنفع لحكمه ... إلى كشف امتياز علوم اللغة على علوم المنطق ، .. وغير ذلك مما هو مذكور فى كتابه الشهير " الإمتاع والمؤانسة " .

وكان مجلسه حافلا بأفاضل العلماء والأدباء والفلاسفة فى عصره كأبى حيان التوحيدى وأبى على عيسى بن زرعة النصرانى المتفلسف وابن عبيد الكاتب وابن الحجاج الشاعر وأبى الوفاء المهندس وابن بكر وابن مِسْكَوَيْه وأبى القاسم الاهوازى وأبى سعد بَهْرام بن أَرْدَشير وابن شاهويه

سوى الطارئين من أهل الدولة (١) .

وكان ابن سعدان كثيرا ما يباهى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الوزراء المزامنين له فى فارس والعراق أمثال ابن العميد والصاحب والمهلبى وكان يقول : " ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل " .

وكان يوازن بينهم وبين ندماء الوزراء الآخرين فيقول : " أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ؟ ، أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل من فيهم ؟ وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون" ؟ (٢) .

وأما سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى فقد كان أديبا كبيرا جمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء أمثال السلامى والحمدونى وأبى الفرج الببغاء وابن لؤلؤه وابن بابك والنامى والحاتمى والخالع وغيرهم وقد أفرد الثعالبى فى اليتيمة بابا كاملا لشعراء سابور من أهل العراق وغيرهم من الذين كانوا يمدحونه ويشيدون به فى أشعارهم (٣) .

ومن مآثر ذلك الوزير العظيم تلك المكتبة الضخمة التى أسسها سنة ٣٨٣ هـ ففى هذه السنة ابتاع سابور دارا بالكرخ بين السورين فى بغداد وعمرها وسماها دار العلم ، ووقفها ونقل إليها كتبا كثيرة (٤) .

---

(١) الصداقة والصديق لأبى حيان ص ٣٠ .
(٢) دراسات فى الحضارات الاسلامية د . أحمد شلبى ص ٩٠ .
(٣) اليتيمة ج ٣ من ص١٠٩ الى ص ١١٦ .
(٤) شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٠٤ .

ويذكر ياقوت (١) أن عدد الكتب التي بها كان أربعمائة وعشرة آلاف مجلد من أصناف العلوم .. منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة .

وكانت تلك المكتبة مركزا ثقافيا ممتازا يلتقى فيه العلماء والباحثون والدارسون للقراءة والبحث ، وطالما عقدت فيها المناظرات الأدبية والمناقشات العلمية ولقد زارها أبو العلاء المعرى عندما كان في بغداد وقال فيها :

وَغَنَّتْ لَنَا فى دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ
من الورق مطرابُ الأصائلِ ميهالُ (٢)

وهكذا كان الحكام — في إقليمي العراق وفارس — يشجعون العلماء ويقربون الأدباء ويجزلون لهم العطايا والهبات ، وكانوا يتنافسون في ذلك تنافسا عجيبا كان من نتائجه أن كثرت مراكز العلم ، وتعددت مجالس الأدب ، وازداد عدد الشعراء ازديادا عظيما ، وازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في ذلك العصر ازدهارا لم تعرف له مثيلا من قبل ، ولعل كتاب اليتيمة الذى ألف في هذا العصر والذى أرخ لشعراء وكتاب العالم الإسلامى في تلك الحقبة خير شاهد على ذلك .

* * *

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) الأدب في ظلال القوميات ص ٣٦ لأحمد الشمراوى .

((الفصل الثانـــــى))

:: ترف الحكام وأثره فـى أدب اليتيمـة ::

:: ترف الحكام وأثره فـى أدب اليتيمـة ::

بلغت الحضارة العباسية فى القرن الرابع قمة الازدهار والرقى ، وأصبحت الحياة الاجتماعية - بفضل ذلك - صعبة معقدة ، فيها كثير من التكلف والمبالغة ، فأقبل الحكام على هذه الحياة الجديدة يتفيأون ظلالها ويقطفون ، ثمارها ، ويتمرغون فى نعيمها ، تاركين معظم الرعية فى فقر مدقع ، وبؤس شديد .

وقد هجروا العادات العربية القديمة التى كانت تقوم على اليسارة والسهولة والفطرة السليمة ... إلى هذه العادات الغريبة . التى لا تمت الى الحياة العربية بصلة ، وأخذوا يتأنقون فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وسائر أمورهم وبالغوا فى ذلك حتى تعقدت حياتهم وأحوالهم .

ولعل الطريقة التى كانت متبعة - آنذاك - فى تناول الطعام تعطى صورة صادقة لحياة هؤلاء الحكام المترفين .

ففى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن الفرات يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختصهم وكان منهم أربعة نصارى ، فكانوا يقعدون على جانبيه وبين يديه ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شئ ثم يجعل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ....

وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ومعه طست زجاج يرمى فيه التفل فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم ، واستوفوا كفايتهم ، رفعت الأطباق ، وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة منشاة بدبيقى فوق مكبة خيزر ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها وحواليها مناديل الغمر فإذا وضعت رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم فى الأكل وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويفاكههم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف ، وعلى أيديهم المناديل الدبيقية وطيلات ماء الورد لمسح أيديهم ، وصبه على وجوههم (١) .

وبهذا يكون ابن الفرات قد هجر الطريقة العربية القديمة التى كانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة واستعاض عنها بهذه الطريقة الجديدة المعقدة التى تقضى بأن توضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض وهى الشائعة الآن فى أوربة كلها (٢) .

وكان الوزير المهلبى أكثر تعقيدا فى طريقة طعامه من سلفه ابن الفرات فقد بلغ به الترف والتعقيد والتكلف فى تناول الطعام أنه كان اذا أراد أكل شئ بملعقة كالأرز واللبن وقف على جانبه الأيمن غلام

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٣١ .

معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا فيأخذ ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قائم من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية (١) .

وبلغ بهم الترف أنهم كانوا يأكلون فى أوان من الذهب والفضة . وكانوا يسرفون فى الإنفاق على الطعام والشراب ويبالغون فى ذلك .. حتى إن الخليفة المكتفى كانت تقدم على مائدته عشرة ألوان من الطعام فى كل يوم سوى صنوف الحلواء (٢) .

ولم يكن الوزراء أقل إسرافا من الخلفاء فى هذه الناحية فلقد كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها فى كل غداء أفواج من الناس كما كان للوزير ابن الفرات مطبخان أحدهما للخاصة والآخر للعامة وكان يقدم إلى الاخير يوميا تسعون رأسا من الغنم وثلاثون جديا غير المئات من الدجاج وكان الخبازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار (٣)

وفى كتاب " البخلاء " للجاحظ وغيره من الكتب التى ألفت فى هذا العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل " السكباج " وهو لحم يطبخ بخل

---

(١) معجم الادباء جـ ٥ ص ١٥٣ .
(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٩١ .
(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د . شوقى ضيف ص ٧٤ ط دار المعارف بمصر .

ويضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمضيرة •• وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات •• وهى شرائح مشوية من اللحم والطباهج •• وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة •• وهى لحم وماء وسميذ ••• الى غير ذلك من أطعمة كثيرة ••

ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ومنها : اللوزينج : وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويرش بماء الورد •• ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكنان •• وهو كعك يحشى بالجوز والسكر ••

ثم الأشربة : ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بماء الورد كما كانت تقدم مع الطعام المشهيات ويسمونها النقل (١) •

ومعظم هذه الأطعمة لم تكن معروفة فى المجتمع العربى من قبل وهذا يدل على مدى ما وصل إليه القوم من الانغماس فى الحضارة المادية الحديثة •• وتأنقهم فيها •

أما فن الطبخ فقد نال عناية كبيرة من جانب المؤلفين فى هذا العصر فقد ألف الرازى مثلا كتابين فى هذا الفن أحدهما : " ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر " ، والثانى : " ترتيب أكل الفواكه " •

وألف ابراهيم الحربى كتابا بعنوان : " الهدايا والسنة فيها " •

---

(١) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى د شوقى ضيف ص ٧٥ •

كما ألف قسطا بن لوقا كتابا بعنوان : "النبيذ وشربه فى الولائم".[1]
ولكل من على بن هارون المنجم وابراهيم بن المهدى العباسى وجحظة البرمكى كتب قيمة فى فن الطبخ[2] .

وبالاضافة إلى ذلك كله تحدثوا عن النديم وصفاته ، وما يستحسن منه وما يستقبح ، فالجاحظ مثلا : يستحسن من النديم ألا يمشمش العظام ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون أو صغار الفراريج[3] .

وقد بلغوا من الأناقة فى المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألف الوشاء كتابين فى هذا الفن أحدهما "الموشى" ، والآخر : "حدود الظرف" .

وقد تحدث بالتفصيل عن قوانين الظرف وحدوده ، كما أوضح صفات الظريف ، ومن كلامه فى ذلك قوله :

اعلم أن كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحدا فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارئ فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على سر سره ، ولا يسألون عما ورى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه[4]

---

(١) ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٠٧ .
(٢) الحضارة الاسلامية لآدم متز جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٤ .

ولما كان الأدب صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات ، ومرآة تنعكس عليها أوضاعهم الاجتماعية كان أدب هؤلاء الحكام مترفا ناعما فأناقة المأكل والملبس والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق فى الأدب فلا غرابة أن يكثر أدباء هذه الطبقة من وصف الأطعمة والأشربة وغيرها .. من وسائل البذخ وأدوات النعيم .

لقد كان من أعلام الأدباء فى ذلك العصر ابن العميد والصاحب ابن عباد والوزير المهلبى وعبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى وغيرهم ، وكانوا بحكم مناصبهم السياسية ومكانتهم الأدبية يعيشون فى بذخ ونعيم ويحيون حياة هانئة مترفة ، ويتقلبون فى أعطاف العيش بين اللذة والطيش، ويتأنقون فى طعامهم وشرابهم ويحتفظون بمجالسهم وموائدهم احتفال ابن الفرات بموائده ، والمهلبى بملاعقه ، ويصورون ذلك كله فى أشعارهم ورسائلهم ..

وقد سبق أن تعرفنا الى أن عضد الدولة البويهى كان من الحكام الذين يتفرغون للأدب ويتشاغلون بالكتب ويؤثرون مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، وكان لا يحضر أمامه شئ من الطعام والشراب وأدواتهما إلا أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعرا حسنا (١).

وكان أدبه فى هذه الناحية صورة صادقة لحياته المترفة الناعمة ، فأكثر من وصف الطعام والشراب ومجالس الطرب والغناء ..

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٦ .

أما أبو الفضل بن العميد فكان يتخذ من ألوان الطعام التى تقدم إليه أو التى تهدى إليه من أصحابه وسيلة للمقارضات الشعرية والمساجلات الأدبية ..

ومن ذلك أن ابن خلاد القاضى المزامن له أهدى إليه شيئا من الأطعمة وكتب إليه فى وصفها — وابن العميد إذ ذاك ناقة من مرض كان به — فكتب إلى ابن خلاد :

قُلْ لابن خَلّادٍ المُفْضِى إلى أَمَدٍ
فى الفضل بَرَّزَ فيه أى تبريز

ماذا أَرَدْتَ إلى مَنْهُوضٍ نابِهَةٍ
مُدَفَّعٍ عن حِمى اللذات مَلْهُوز (١)

هَزَزْتَ بالوصفِ فى أحشائِهِ قَرَمًا
ما زال يَهْتَزُّ فيها غيرَ مَهْزُوز

لم يَتْرُكْ فيه فَحْوَى ما وصفت له
من الأطايبِ عُضْوًا غير محفوز (٢)

أهديت تبرمة أهدت لآكلها
كَرْبَ المطامير (٣) فى آبٍ وتموز

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

يا أيها السيدُ السامى بِدَوْحَتِهِ
تاجُ الأكاسرِ من كِسْرَى وفيروز

أتى قَرِيضُكَ يَزْهَى فى محاسنه
زهو الرُّبَا باشرت أنفاسَ نيروز

---

(١) الملهوز : المدفوع الممنوع

(٢) المحفوز : المطعون

(٣) المطامير : جمع مطمورة وهى الحفرة فى جوف الأرض

يا حُسْنَهُ لو كُفِينا حين يهجنا
خَطْبُ النبارِم فيه والشَّوارِز
أقررتُ بالعجز والألباب قد حكمتْ
به عليَّ فقدك اليوم تعجيزى
جَوْزٌ قريضى فى بحرِ القريض فكم
من قائلٍ عند قوالٍ بتجويزى (1)

• • •

وأهدى ابن خلاد مرة أخرى إلى ابن العميد كتابا فى الأطعمة عقب مرض كان قد ألم به فكتب إليه ابن العميد :

فهمتُ كتابَك فى الأطعمهْ
وما كان نَولِىَ أن أفْهَمَهْ
فكم هاجَ من قَرَمٍ ساكنٍ
وأوضح من شهوة مبهمهْ
وأَرّثَ فى كبدى غُلّةً
من الجوع نيرانُها مُبْرَمَةْ
فكيف عدتَ به نافِهاً
جَوانِحُهُ للطّوى مسلمهْ
خفوق الحشى ان تُصخْ تستمع
من الجوع فى صَدْرِهِ هَمْهَمَةْ
تتيح له شَرَهًا مُوجِعًا
وتُغرى به نَهْمَةً مُولمهْ

(1) اليتيمة ج ٣ ص ١٥٠ .

فأين الإخاءُ وما يقتضيه منك بأسبابها المبرمة
وأين تكرّمك المستفيض فينا إذا غاضت المكرمة
وهلاّ أضفت إلى ما وصفـ * ـت شيئا نهشّ لأن نطعمه
يمدُّ الصديق إليه يدا * اذا ما رآه يشجي فمه
واين شواريزك المرتضاةُ * إذا ما تفاضلت الأطعمة
وأين كواميخك المجتبا * ة دون الأطايب بالتكرمة
وهل أنت راضٍ بقولي إذا * ذكرت : دعوه فما أمّه ؟

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

هلم الصحيفة والمقلمة * وأدن المحيبرة المفعمة
لأكتب ما جاش في خاطري
فقد عظم الخوض في النبرمة
وأعجل عليّ بهذي وذي
فإني من الخوض في ملحمة
ألا حبذا ثم يا حبذا
كتابي المصنف في الأطعمة
كفانا به الله ما راعنا
بحلية سيدنا المؤلمة
أطاب الحديث له في الطعا
م فقت شهوته المبهمة
أيا ذا الندى والحجى والعلا
ومن أوجب الدين أن نعظمه

لئن كان نبر مستى أفسدت
ولم تأت صنعتها محكمة
فسوف يزورك شيرازنا
فقسم بالله أن تكرمة (١)

....

وبالاضافة إلى ذلك وصفوا الهريسة والقطايف والسكباجة وخبز الأرز والبيض المفلق ورؤوس الحملان وغير ذلك من ألوان الطعام وصنوف الحلوى ..

ومن ذلك ما كتبه الصابى إلى صديق له يستدعيه ويصف له ما عنده من رؤوس الحملان والشراب والفستق فقال :

طباخنا صانع رؤوسا
يسقط من طيبها الخلاف
مبيضة كاللجين لونا
شهية كلها نظاف
وأخذها فى الرقاق يحكى
صريع حمى له لحاف
من بين عجل إلى خروف
تزهى بتنضيدها الصحاف

---

(١) اليتيمة ج٣ ص١٥٢ ، ١٥٣ .

مُخْتَلِفَاتُ الْقُدُودِ لَكِنْ
لها بِأَسْنَانِهَا ائْتِلَافُ
وَكُلُّهَا رَاضِعٌ صَغِيرٌ
له عَلَى ضَرْعِهَا اعْتِكَافُ
قد أَسْمَنَتْهُنَّ أُمَّهَاتٌ
مِنْ طُولِ ارضَاعِهَا عِجَافُ
تُسقَى على ذاك رَوْحَ دَنٍّ
أَرَقُّ أسمائِهَا السُّلَافُ
عروسُ دَنٍّ صَفَتْ وَطَابَتْ
لَوْنًا وَطَعْمًا فما تُعَافُ
كأن إبريقها لَدَيْنَا
ناكسُ راسٍ بِهِ رُعَافُ
والنقل من فُسْتُقٍ جَنِيٍّ
رطب حديثٍ به الْقِطَافُ
لى فيه تشبيه فيلسوفٍ
والفاظُه عَذْبَةٌ خِفَافُ
وَمُسْمِعٍ مُطْرِبٍ مَلِيحٍ
يحرم عن مثله الْعَفَافُ
يَظْلِمُنِي صَاحِيًا وَلَكِنْ
فى سُكْرِهِ ما بِهِ انْتِصَافُ
فَصِرْ إِلَيْهِ غَدًا بِلَيْلٍ
أَفْدِيكَ مِنْ كُلِّ مَا يُخَافُ

كَانَت أَصْلُ السُّرُورِ عِنْدِي
وَكُلّ مَا بَعْدَهُ مُضَانٌ(1)

...

ولا شك أن الصابى قد أجاد فى وصف ما عنده من صنوف الطعام وألوان الفاكهة والشراب إجادةً تُغْرِى صاحِبَهُ على إجابة طلبه وتلبية دعوته ، وهو بهذا يصور لنا جانبا من حياته المترفة .. وإن كان جانبه التوفيق فى بعض التشبيهات التى احتوى عليها هذا النص كقوله عن رؤوس الحملان :

وأَخْذُهَا فِى الرِّقَاقِ يَحْكِى
صَرِيعَ خُنْثَى لَهُ لِحَافُ

فهو تشبيه بغيض تنفر منه الاذواق السليمة ويأباه الطبع المستقيم .. وأسوأ منه قوله عن ابريق الشراب :

كَأَنَّ إِبْرِيقَهَا لَدَيْنَا * نَاكِسُ رَأْسٍ بِهِ رُعَافُ

....

وإذا كان الصابى قد أخفق فى هذا النص من الناحية الفنية فإن معاصره السَّرِيّ الرَّفَّاءُ أحد شعراء الموصل بالعراق كان أبرع منه فى وصف الحمل المشوى ، فقد وصفه وصفا دقيقا يدل على قوة الملاحظة وبراعة التصوير فقال عنه :

---

(1) اليتيمة جـ٢ ص ٢٣٨ .

أنعتُه معصفر البردين
أبيض صافي حمرة الجنبين
خلف شهرين على الخلفين
ثم رعى بعدهما شهرين
فجسمه شبران في شبرين
يا حسنه وهو صريع الحين
بين ذراعين مفصلين
كسارق حد من اليدين
وطرف يستوقف الطرفين
كمثل مرآة من اللجين
مذهبة المقبض والوجهين
تعرفه مرهفة الحدين
بكف طاه عطر الكفين
شق حشاه عن شقيقتين
أختين في القد شبيهتين
كما قرنت بين كمأتين [1]

• • •

ولم تكن عناية القوم بمجالس الشراب أقل من عنايتهم بموائد الطعام فقد تأنقوا فى هذه المجالس أيضا ، وأسرفوا فى الاهتمام بها فكانوا يزينون أرضها بالزهر ، ويفرشونها بالورد ويعنون بآلاتها

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ١٦٣ .

وروائحها وخمرها وفواكهها .. حتى إنه كان فى بيوت الكبراء إلى جانب الطباخ رجل آخر يسمونه " الشَّرَابى " شأنه العناية بالشراب وآلاته وبالفاكهة والروائح [1] .

وكانوا يختارون لهذه المجالس أظرف الندماء وأكثرهم لطفا وأطيبهم عشرة وكان وزراء العراق وعلى رأسهم المُهَلَّبِىُّ يحبون القاضى التنوخى ويميلون اليه ، ويتعصبون له ، ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ، ويعاشرون منه من تطيب عشرته وتلين قشرته وتكرم أخلاقه وتحسن أخباره [2] .

وقد ظهر صدى هذا الجانب فى أدب اليتيمة فأكثر الأدباء ـ خاصة الصاحب وعبد العزيز بن يوسف والصابى ـ من وصف مجالس الشَّراب والطرب فى أشعارهم ورسائلهم ، وكان الصاحب من أكثر الادباء وصفا لهذه المجالس .. فقد وصف مجالسه الخاصة ومجالس صديقه المهلبى عندما كان يزوره فى بغداد .

ومن ذلك قوله يصف بعض مجالسه ويدعو أحد أصحابه الى حضوره .
" نحن يا سيدى فى مجلس قد تَفَتَّحَتْ فيه عيونُ النَّرجس ، وتَوَرَّدَتْ فيه خدودُ البنفسج وفاحت مجامرُ الأُتْرُجِّ ، وفتقت فارات النارنج ، وانطلقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار . وهبت رياح الاقداح ،

---

(1) الحضارة الاسلامية لمتز جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(2) اليتيمة جـ ٢ ص ٣٠٩ .

ونفقت سوق الأنس وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الند ، فحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد (١) .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد كان كاتبا وشاعرا ، وكانت مكانته الاجتماعية لا تقل عن مكانة الوزراء وكان مترفا في حياته كما كان مترفا في أدبه ومن قوله يصف مجلس أنس لعضد الدولة البويهي :

فيا مَجْلِسًا عِزُّ الْخِلَافَةِ مُحْدِقٌ
بأقطاره والند والنَّوْرُ والخمرُ
وقد أُرِّجَتْ أرجاؤُه وَتَعَطَّرَتْ
بساطع نَشْرٍ ما يُقَاسُ به نَشْرُ
وَفَتَّحَ فيه النَّرْجِسُ الْغَضُّ أَعْيُنًا
مَحَاجِرُهَا بيضٌ وأحداقُهَا صُفْرُ
كأنَّ الشُّمُوعَ الْمُشْعَلَاتِ خِلَالَهُ
ثَوَاكِلُ عَبْرَى ما يُنَهْنِهُهَا الزَّجْرُ
إِذَا قُطِعَتْ منها الرؤوس تضاحكت
وكان على قَطْعِ الرؤوس لها بشر (٢)

....

وقال الصابي يصف مجلسا من مجالسه الخاصة ويشبهه بميدان المعركة :

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٢٢٢ .
(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٩٩ .

أُلاقِى هُمُومِى فى جَحْفَلٍ
لها من مَقامِى فيه قرار
دَبا دِبُهُ من طِوَالِ القِيَا
نِ والنايُ بوقٌ له مُسْتَعار
ومجلسنا حومة أرهجت
لزحف الندامى اليها بدار
كأن فُكَاهاتِهِم إذْ عَلَتْ
غنائمُ للْحَرْبِ فيها شِعَار
كأن الكئوس بأيدى السُقَاةِ
سُيُوفٌ لَهَا بالدِّمَاءِ احْمِرار
كأن مَنَادِيلُ أَكْفَافِهم
حمائلها إذْ عَلَيْهِم تُدار
كأن رُجُومَ تَحَايَاهُم
سِهامٌ على الْجَيْشِ منها نِثَار
كَأنَّ المجامِرَ خيلٌ جَرَتْ
وقد ثار للند منها غُبَار
كأن السُّكَارىَ رجالُ الْوَغَى
وقد عَفَرَتْهُم هناك الْمَقَار (١)

....

وفضلا عن ذلك وصف الصابى كثيرا من أدوات الترف ووسائل النعيم ومظاهر الحضارة كمتيدة الطيب والشمعة والورد والنرجس

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ٢٣٧ .

وشمامة الكافور وطائر القبجة وطائر الخطاطيف وغير ذلك[1] .

وهناك فى أقصى الشرق من بلاد فارس عاش شاعر عباسى يدعى المأمونى — نسبة الى المأمون أمير المؤمنين — قد نبغ فى الاوصاف والتشبيهات فكان يصف كل ما تقع عليه عينه من مظاهر الحضارة ووسائل الترف ، فوصف المنارة والنار والحمام والمنشفة والشرابية والجليد والقناعة والأترج والرطب المعسل والجوز والزبيب والعناب والباقلاء والبطيخ والملح المطيب وخبز الأبازير والرقاق والجبن والزيتون والعجة والشواء السوقى والسفود والهريسة وماء الخردل والبيض المفلق واللوزينج اليابس والفالوذج المعقود والمحبرة والمقلمة والاقلام والاسطرلاب وغير ذلك من الأدوات المنزلية والشخصية[2] .

وكثرت فى هذا العصر المجالس الأدبية غير الرسمية التى كانت تقام غالبا فى قصور الوزراء أو بيوت الأدباء والأثرياء وكان الأدباء فى هذه المجالس يتركون أنفسهم على سجيتها فيطلقون القول من غير تكلف ولا تصنع ، ويكثرون من ارتجال الشعر فى وصف ما يعرض لهم من النوادر كأبيات فى انسان ساقط يلبس عمامه سرية[3] أو فى إنسان شريف الأصل وضيع النفس[4] أو إنسان تولى إقطاعية فوجدها

---

(١) نفسه جـ ٢ ص من ٢٣٨ الى ٢٤٣ .
(٢) نفسه جـ ٤ من ص ١٦٠ حتى ١٧٣ .
(٣) اليتيمة جـ ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٢٦٢ .

خرية وفى المُهَادَاةِ بالنبيذ ، وفى وصف مجلس أنس ، وفى شكر على هدية وفى هجاء بخيل أو ثقيل ، وفى وصف معنى عرض أو حادث حدث ونحو ذلك [1] .

وكتاب اليتيمة خير شاهد على ذلك فقد كثرت فيه المقطوعات الشعرية القصيرة التى أكثر الادباء من نظمها ارتجالا حتى زاحمت القصائد الطوال ، وطغت عليها .

وكان الأدباء يتناولون مادة هذه المقطوعات غالبا مما كان يدور على ألسنة الجالسين من النوادر والملح والفكاهات والألغاز والاحاجى والمعميات .

ومن ذلك ما قاله الثعالبى فى الزيت على سبيل الإلغاز للأمير أبى نصر سهل بن المرزبان .

حَاجَيْتُ شَمْسَ العلم فَرْدَ العصر
نديمَ مولانا الأمير نصر
ما حاجَةٌ لأهل كل مِصْر
فى كلِّ ما دار وكل قَصْر
يُبَاعُ فى الأَسْواقِ بعد العصر

فأجابه الامير بقوله :

يا بحرَ آدابٍ بغير جَزْر
وَحَظهُ فى العِلْمِ غيرُ نَزْرْ

---

(١) ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٣٦ .

حزرت ما قُلْتَ وكان حَـــزْرِى
أنَّ الذى عَنيـتَ دهن الـبزر
يَعْصِـرُه ذو قُـــوَّةٍ وأزر [١]

...

ولا شك أن كثرة المقطوعات الشعرية فى اليتيمة يدل على الترف الفكرى لدى الطبقات الحاكمة التى كانت تكثر من مجالس الأدب والطعام والشراب والطرب فى قصورها ومنازلها رغبة فى اللذة والمتاع وميلا إلـى كل غريب عجيب ..

ولقد كان لترف هؤلاء الحكام وتأنقهم فى مطعمهم ومشربهم وسائر أمورهم أثره الواضح فى الناحية الفنية للأدب علاوة على أثـره السابق فى الناحية الموضوعية .. فقد تأنقوا فى الأسلوب وأكثروا فيه من السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات البديعية ، كما أسرفوا فى استخدام الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وأفسدوا المعانـى بالمبالغة والإحالة والتهويل ، فالتأنق فى المعيشة والترف الحسـى فى الحياة دفع القوم إلى الترف الفكرى والتأنق فى الأسلوب ، وهـذه حقيقة مؤكدة قد قررها غير واحد من الباحثين أمثال الاستاذ / أحمد أمين [٢] والدكتور شوقى ضيف [٣] والأستاذ / خليل مردم [٤] ولعـل

---

(١) اليتيمة جـ ٤ ص ٣٦٢ .
(٢) فى كتاب ظهر الاسلام حـ ١ ص ١٣٣ .
(٣) فى كتابه : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٨٠ .
(٤) فى رسالته عن ابن العميد .

تشبيهات ابن المعتز الملكية خير شاهد على ذلك ...

والذى أعجب له أن بعض الباحثين (١) حاول جاهدا إنكار هذه الحقيقة زاعما أن هناك فرقا كبيرا بين تأنق الانسان فى معيشته ، وتأنقه فى أسلوبه . لأن التأنق فى المعيشة سهل ميسور لا مشقة فيه ولا عناء ، لأن الإنسان يعتمد فيه على الخدم والحشم والأعوان ، وعلى الأموال المكدسة فى الخزائن ، أما التأنق فى الأسلوب فيحتاج إلى كد الذهن وإجهاد الفكر وترويض النفس فى تصيد التجنيس والطباق والسجع والمجاز والبيان .

وأعتقد أن هذا احتجاج باطل لأن التأنق فى الكتابة .. — وان كان فيه كد للذهن وإرهاق للفكر كما يقول الكاتب فيه لذة لا تدانيها لذة ، ومتعة روحية لا يعرفها إلا أولئك الذين يعشقون الأدب ويمارسون الكتابة حتى إن أحدهم ليترك طعامه وشرابه وسائر المتع الحسية من أجل الاستغراق فى الكتابة والإبداع الفنى ، وهو بذلك مغتبط سعيد لا يشكو تعبا ولا رهقا ..

وإذا كان الاشتغال بالأدب فيه عناء للنفس والجسم كما يزعم الكاتب ، فما الذى حمل الأمراء والوزراء والحكام المترفين على الخوض فيه وركوب أهواله ، وتجشم أخطاره ومتاعبه ؟ .

لقد كان ابن العميد والصاحب والمهلبى وغيرهم ينتهزون الفرص

---

(١) الزهيرى فى كتابه : الادب فى ظل بنى بويه ص ٢٩٨ .

لقرض الشعر وكتابة الرسائل لانهم يجدون في ذلك متعة لنفوسهم ولذة لارواحهم ،حتى لقد بلغ بهم حب الأدب أن أحدهم كان يفرح إذا مدح بحسن الكلام وإجادة فنون القول أكثر مما يمدح بسطوة الحكم وعظم النفوذ وسعة الملك .

وتاريخ الصاحب بن عباد خير شاهد على ما أقول : فقد أثر عنه أنه كان يطرب إذا مدح بعلو الكعب في الأدب والبلاغة أكثر مما يطرب لأي شيء آخر حتى إن الوصول إلى قلبه كان سهلا عن هذا الطريق كما يقول أبو حيان [1] .

ولو كانت ممارسة الأدب والتأنق في الأسلوب تؤدي إلى المشقة والعناء لانصرف هؤلاء الوزراء عنه إلى التمرغ في وسائل المتع الحسية والجسدية مؤثرين الراحة والنعيم ..

ولكنهم أقبلوا على الأدب يرتشفون من رحيقه ، ويغرفون من بحره ، ويجدون فيه لذة لنفوسهم ، ومتعة لأرواحهم .

واذا صحت هذه الحقيقة ـ وهي أن التأنق في الأسلوب مصدره التأنق في المعيشة ـ فلا بد من الاستشهاد بأدب هؤلاء الحكام لنرى إلى أي حد قد بالغوا في السجع وأسرفوا فيه .. حتى ليندر أن نجد كاتبا منهم كان لا يلتزم به .

---

(١) معجم الادباء جـ ٢ ص ٢٧٦ .

لقد كان على رأس أدباء هذه الطبقة ابن العميد . الذى كان يعد إماما لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة ، ثم تابعه على ذلك بقية الكتاب كالصاحب والصابى والثعالبى والبديع وغيرهم .

ومما يدل على اسراف ابن العميد فى السجع واهتمامه بالمحسنات والمبالغة فى المعنى قوله فى رسالة وجهها الى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :

" كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ، لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك "(١) .

ويستمر على هذا النحو حتى آخر الرسالة مكثرا فيها من ضروب السجع والازدواج وألوان البيان والمجاز ...

أما الصاحب فقد كانت شهرته بالسجع لا تحتاج إلى دليل ... فقد كان يعشق السجع ويميل إليه ، ويتجشم الصعاب فى سبيله .

قال أبو حيان : " وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ١٤٥ .

والهزل يزيد على كلف كلّ من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيبى أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعه ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة وتَجَشُّم أمور ، وركوب أهوال .. لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها [1] .

ثم قال أبو حيان نقلا عن ابن العميد " إن الصاحب خرج من السرى متوجها إلى أصفهان ومنزله " وَرَامِين " وهى قرية كالمدينة فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشىء إلا ليكتب إلينا : كتابى هذا من النوبهار يوم السبت نصف النهار [2] .

ومهما قيل عن تحامل أبى حيان على الصاحب وعداوته له وتندره به فإن من الثابت أن الصاحب كان مُولَعًا بالسجع إلى حد العشق والهيام ، حتى لقد كان حريصا على ان يكون كلامه كله مسجوعا كقوله عن بغداد وقد سأله عنها ابن العميد " بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد " [3]

وقوله لبديع الزمان وقد قَبَّلَ الأرض بين يديه " يا بنى اقعد ، لم تسجد ، كأنك هُدْهُدٌ ؟ [4] .

---

(١) معجم الادباء جـ ٦ ص ٢٠٧ ط الحلبى بمصر .
(٢) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٢٠ .
(٣) اليتيمة جـ ٣ ص ١٣٧ .
(٤) نفسه جـ ٤ ص ١٧٤ .

وكان تأنقه فى رسائله أعظم من تأنقه فى كلامه ومن ذلك قوله فى التهنئة ببنت " أهلا بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بأخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون •
ثم قال :

فلو كان النساء كمثل هذى * لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ
ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

فادّرعْ يا سيدى اغتباطا ، واستأنف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها قوام الابدان وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة • ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون ، فهنيئا هنيئا ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقى الامد ، وكما عمر لبد (١)

ولقد قدر لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة أن تسود ، وأن تمتد لتشمل سائر الأغراض والفنون •

ومن رسائل الهمذانى فى الهجاء قوله " يا شبر ، ما هذا الكبر ، ويا فتر ما هذا الستر ، ويا قرد ما هذا البرد ، ويا يا جوج متى الخروج ، ويا فقاع بكم تباع ويا فرانى متى ترانى ، ويا لقمة الخجل نحن

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٢٢٦ •

بهابك ، ويا بيضة النغيلة من أتى بك ، ويا دبة ، ويا حبة ، ويا من
فوق المكبة ، ويا من قربه المذبة ، ويا من خلقه المسبة ، ويا دمل
ما أوجعك ، ويا قمل لنا حديث معك ، فان رأيت آذيت والسلام (١)

والاغرب من ذلك أن تسرى هذه الطريقة على لغة التأليف
فترى المؤلفين فى هذا العصر كالثعالبى وغيره قد التزموا بها فيما
يكتبون وما يصنفون حتى اننا لنجد الثعالبى فى اليتيمة كثيرا ما ينسى
مهمته الأصلية وهى ابراز الحقائق وتقرير الوقائع أثناء تراجمه للشعراء
والكتاب ويجعل كل همه تنميق الأسلوب وتصيد البديع والجرى وراء
المجاز والإكثار من المبالغة والتهويل كقوله عن السرى الرفاء :

وما أدراك من السرى ، صاحب سر الشعر الجامع بين نظم
عقود الدر ، والنفث فى عقد السحر ، ولله دره ما أعذب بحره ،
وأصفى قطره ، وأعجب أمره ، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة
الدهر ، ويعلق فى كعبة الفكر ، فكتبت منه محاسن وملحا ، وبدائع
وطرفا . كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة
الطواويس وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان وغمزات
الحدق الملاح (٢) .

وفى ظلال هذه الطبقة المترفة ـ وهى طبقة الحكام ـ ازدهر
فن من الفنون الأدبية ما كان له أن ينتعش الا فى ظلها وهو فن

---

(١) اليتيمة جـ ٤ ص ٢٥١ .
(٢) اليتيمة جـ ٢ ص ١٠٣ .

الأخويات ، فلقد كان هذا الفن وثيق الصلة بأخلاق الطبقة الراقية في المجتمع التي سيطر عليها حب المال ، واستعبدتها الألقاب الفارغة ، والجري وراء المناصب المالية ، والتكالب على السلطة ، والتعلق بالأوهام الكاذبة ، ونتيجة لذلك فقدوا الاحساس بالكرامة ، وتصاغروا أمام رؤسائهم واحتملوا في سبيل ذلك ما لا يحتمله الأحرار حتى إنك لتجد الوزير المهلبي على جلالة قدره وعظم منصبه كان يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه .. فيحتمل ذلك احتمال من لا يكترث له وينصرف إلى منزله (١) .

والأغرب من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارع خمسين ومائة مقرعة يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد عليه الضرب ولكن الوزير قبل بعد أن شفي من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة (٢) .

فلا غرابة أن تكون العلاقات الاجتماعية بين هذه الطبقة التي فقدت الإحساس بالكرامة قائمة على المجاملة والكذب والغش والنفاق .

وقد بدا ذلك واضحا في رسائلهم الأخوية شعرا ونثرا ، فقد عمدوا إلى توجيه هذه الرسائل إلى الامراء والوزراء والعمال والقضاء والاصدقاء في شتى المناسبات كالتهنئة والتعزية والعتاب والاعتذار والاهداء والاستزارة والشوق والزلفى وغير ذلك من المناسبات التي

---

(١) تجارب الامم جـ٦ ص١٤٦ .
(٢) المصدر السابق جـ٦ ص ١٩٠ .

كانوا يتصيدونها ويبحثون عنها جريا وراء المناصب والألقاب وارضاء لروءسائهم ٠

وكان كل واحد منهم حريصا على اراقة ماء وجهه عند مخاطبة رئيسه فيوجه إليه أرق المهارات ، ويخاطبه بأفخم الألقاب ، ويتضرع إليه تضرع العبد لسيده ، والخادم لمولاه ٠٠ ليرضى فيه نزعة الغرور والتسلط ،ويعوضه عن الشعور بالنقص ٠

ولعل الوزير ابن سعدان الفيلسوف المشهور كان صائبا فى تعليل تلك الظاهرة التى شاعت بين حكام عصره ومترفيهم عندما طلب منه أبو حيان أن يأذن له فى كاف المخاطبة وتاء المواجهة عند حديثه معه ، فقال له لك ذلك وأنت المأذون فيه وكذلك غيرك وما فى كاف الخطاب وتاء المواجهة ؟ إن الله تعالى على علو شأنه وبسطة ملكه وقدرته على جميع خلقه يواجه بالتاء والكاف ولو كان فى الكتابة بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدما فيه ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابه رضى الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة : يا أمير الموءمنين أعزك الله ويا عمر أصلحك الله ٠ وما عاب هذا أحد وما أنف منه حسيب ولا نسيب ولا أباه كبير ولا شريف ٠

ثم أشار الوزير إلى أخلاق أهل عصره من الحكام والكبراء وشعورهم بالنقص ومحاولتهم تعويض ذلك بالالقاب الكاذبة والغرور الخادع فقال :

وانى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ويحسبون أن فى ذلك ضعة أو نقيصه أو حطا أو زراية ، وأظن أن ذلك لعجزهم وخسولتهم واتخذ لاهم وقلتهم وضؤلتهم وما يجدونه من الغضاضة فى أنفسهم وأن هذا التكلف والتجبر يمحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص ينتفى بهذا الصلف — هيهات — لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ومن مقابح الزهو والكبرياء [1] .

فابن سعدان فى كلامه هذا يعلل تكلف هذه الطبقة للعظمة الكاذبة والكبرياء المصطنع بأنه عملية تعويض عن النقص الذى كانوا يشعرون به داخل كيانهم وأعماق نفوسهم .

وقد صور أبو حيان طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين أفراد الطبقة الحاكمة فى ذلك العصر أصدق تصوير عندما عقب على كلام ابن سعدان بالقول المأثور (ما تعاظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه [2] .

وهذا القول المأثور الذى استشهد به أبو حيان كان ينطبق تمام الانطباق على أخلاق الطبقة الحاكمة آنذاك .

لقد كان كل واحد منهم يتعاظم على من دونه ويحتقره ويعامله بقسوة وكبرياء على حين كان يتضاءل أمام من فوقه ويخضع له ويتقرب إليه فى تذلل وخنوع .

---

(١) الامتاع والمؤانسة جـ١ ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٢٢ .

والدارس لأدب الأخويات فى اليتيمة يجد فيه الدليل على ما نقول .

فلقد كان الأديب فى هذا المجتمع يهنئ إنسانا لا تربطه بـــه رابطة ود أو تعاطف ، ويعزى آخر بحادث وفاة لا يثير فى نفسه حزنـــا ولا حسرة ويستعطف وجيها فيسبغ عليه آيات الاجلال و الإكبـــار، وهو لا يضمر له غير البغض والاحتقار ، ولهذا نراهم إذا كتبوا فـــى الشوق مثلا :أغاروا على معانى العشاق فانتحلوها ، واذا كتبوا إلـــى مريض سفحوا الدموع وأظهروا اللوعة والأسى ، وإذا كتبوا إلى وجيه تذللوا وتضرعوا وهكذا .

ومن ذلك ما كتبه أبو اسحاق الصابى إلى الصاحب بن عباد فى الشوق :

" كتبت ـ أطال الله بقاء الصاحب ـ هذا الكتاب وأنا أود أن سواد عينى مداده ، وبياضها طرسه شوقا إلى لألاء غرته وقرما إلى تقبيـل أنامله وظمأ إلى ارتشاف بساطه [1] "

ان هذا كلام لا يصدر إلا من عبد لسيده ، أو من خادم لمـولاه ، وإنه ليعبر أصدق تعبير عن أخلاق هذه الطبقة التى ساد بينها النفـاق وشاع الكذب والدّهان فقامت علاقاتهم الاجتماعية على أساس التملـــق الكاذب والمبالغة الممقوتة .

وكتب الصابى إلى الصاحب أيضا رسالة شعرية فى الشوق أغـــار فيها على معانى العاشقين فقال :

(١) اليتيمة (٢ : ٢٣٢)

لمَّا وضَعْتَ صَحِيفَتي * في بَطْنِ كَفِّ رسُولِهَا
قَبَّلتُهَا لِتَمَسّهَا * يُمناك عنْدَ وصُولِهَا
وتود عيني أنها * قرنت ببعض فصولها
حتى ترى من وجهك ال * ميمون غاية سؤلها (١)

* * * *

أما عبد العزيز بن يوسف فقد كان أعظم من الصابي مُجَامَلَةً وأقدر منه على الكذب والنفاق فأكثر من الرسائل الأخوية شعرا ونثرا إلى الصاحب وغيره من رؤساء المجتمع في شتى المناسبات .

ومن ذلك قوله في رسالة إلى الصاحب : "كتابي — أدام الله عز مولانا — وحالي — فيما أعانيه من تمثل حضرته وتذكر خدمته والمواقف التي سعدت فيها برؤيته وأفدت من مشاهدته حظها ومقابلة نعم الله عليه وعلى الأدب وحزبه والكرم وأهله ، — حال امرئ هب وقد أوردته الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلهف تذكرا ، ويتلذذ تحيرا ويناجي النفس تمثلا ، ويراقب المنى تعللا .

وأحمد الله تعالى على الاحوال كلها وأسأله قرب الادالة والعقبى السارة وأقول :

أَقولُ وقَلْبي في ذراك مُخَيِّمٌ
وجِسْمي جَنيبٌ للصَّبا والجنائب

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥١ .

يُجاذِبُ نحوَ الصاحبِ الشّوقُ مِقْوَدِى
وقد جاذَبَتْنِى عنه أيدِى الشّوَاذِبِ
سَقَى اللّهُ ذاكَ العَهْدُ عَهْدًا من الْحَيَا
وتلك السَّجَايَا الْغُرّ غر السحائب (١)

• • •

على أن الصاحب نفسه لم يكن أقل من هؤلاء الكتاب مجاملة لرؤساء عصره، فقد أكثر من مراسلاته إلى ابن العميد وغيره وكان يتصاغر أمام ابن العميد بقدر ما كان يتعاظم على من دونه •

ولقد أهدى مرة الى أحد أصدقائه — ولعله ابن العميد — أترجة وكتب معها رسالة نصها :

" ما زلت يا سيدى أتكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق وتنظم نعوت مشوق وشائق حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لونى ، وقد منيت ببعدك ، وبليت بصدك ، وكأن عرفها مستعار من عرفك ، وظرفها مشتق من ظرفك •

مولاى قد جاءتك أترجة
من بعض أخلاقك مخلوقة
ألبسها صانعها حلة
من سَرَقٍ أصْفَرَ مَسْرُوقَة (٢)

• • •

(١) اليتيمة ٢ : ٢٩٢
(٢) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٢٥ • السرق : الحرير •

وحيث ان هؤلاء الكتاب كانوا يمثلون الطبقة العليا فى المجتمع كان طبيعيا أن يقلدهم سائر أدباء عصرهم وأن تسرى طريقتهم فى أدب الأخوبات إلى غيرهم، كأبى بكر الخوارزمى الذى كان — كما وصفه بديع الزمان " لا يحسن إلا هذه الطريقة السّاذَجة وهذا النوع المتداول بكل قلم ، المُتَنَاوَل بكل يد [1] ويعنى به الرسائل الأخوية ..

على أن الهمذانى نفسه لم يكن أقل من الْخُوَارَزْمِىّ إِجَادَةً لفن الأخوبات فأكثر فى رسائله من المجاملات الكاذبة ، والمبالغة الممقوتة..

ولقد كتب إلى أبى بكر الْخُوَارَزْمِى فى بداية عهده به كتابا نصه :

أَنَا لِقُرْبِ دار الأستاذ — أطال الله بقاءه —

كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه

كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه

كما التقت الصهباء والبارد العذب

ومن الابتهاج بمزارة [2]

كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

...

وكتب إلى صديق آخر ما نصه " يعز على — أيد الله الشيخ — أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى قبل

---

(١) رسائل الهمذانى ٤ : ٢٤٣

(٢) اليتيمة ٤ : ٢٤٣

وصولى ويرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمه ..

وعلى أن أسعى وليـــــ * س على ادراك النجـــاح
وقد حضرت داره وقبلت جداره وبالى حـب للحيطـان
ولكن شغف بالقطان ، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان [1] ".

ومهما يكن من شئ فقد كان لترف الطبقة الحاكمة وتأنقها فـــى طعامها وشرابها ومجالسها وسائر أمورها أثره الواضح فى أدب اليتيمة .

وقد تجلى ذلك على وجه الخصوص فيما كتبه الادباء خاصـــــة المترفين منهم كابن العميد والصاحب والصابى وعبد العزيز بن يوســـف وغيرهم فى وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام وأنواع الفاكهة وصنـــوف الحلوى ، وفى وصف مجالس الشراب والطرب والغناء .

كما ظهر ذلك أيضا بصورة جلية فى التأنق فى الأسلوب والزخرفة فى الكلام والإكثار من المحسنات البديعية والصور البيانية .

وأخيرا تجلى ذلك الأثر فى أدب الأخوانيات الذى راج رواجـــا عظيما فى هذا العصر بين أفراد هذه الطبقة فأكثر الأدباء من الرسائـــل الأخوية شعرا ونثرا مستخدمين فى ذلك ألفاظ التضرع وعبارات التوســـل والخنوع وهم فى ذلك كله خاضعون لظروف حياتهم الاجتماعية ومستجيبين لمؤثراتها ودواعيها .

(١) المصدر السابق ٤ : ٢٤٣

((الفصـل الثالـث))

:: أثر الغناء والموسيقى فى أدب اليتيمة ::

:: أثر الغناء والموسيقى في أدب اليتيمة ::

لعل مجتمعا من المجتمعات الإسلامية ، لم يحفل بالغناء والموسيقى مثل ما حفل بهما المجتمع العباسى ، ويتضح ذلك من كثرة الكتب والمؤلفات التى صنفت فيهما منذ مطالع الدولة العباسية حتى أواخر القرن الرابع ..

وقد بلغ من اهتمام العلماء بهما أن الفلاسفة كانوا يشاركون غيرهم فى التأليف فيهما مثل الكندى الذى ألف كتبا مختلفة فى الموسيقى ، وكذلك تلميذه أبو الطيب السارخى ، وقسطا بن لوقا البعلبكى ، والفارابى صاحب كتاب " الموسيقى الكبير " قد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية [1] .

أما طبقة المغنين فقد كان لها نشاط واسع فى هذا المجال ، ومن أشهر شخصياتها فى ذلك إسحاق الموصلى " بَذْل " التى كان لها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت [2] ودنانير البرمكية ، ويذكر أبو الفرج أن لها كتابا مجردا فى الأغانى [3] ولعمرو بن بانة كتاب فى الأغانى يُعَدُّ من الأصول المهمة فيها [4] .

---

(١) العصر العباسى الثانى ص٨٥ د . شوقى ضيف .
(٢) الاغانى (١٥ : ١٣٨) ط الساسى .
(٣) المصدر السابق (١٦ : ١٣١) .
(٤) نفسه (١٥ : ٢٦٩) دار الكتب .

وقد عمل فى هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية خاصة أن كثرتهم كانت من الموالى بل إن منهم من اخترع بعض الآلات الموسيقية مثل زُنَام الزامر الذى اخترع نَايًا نسب إليه فقيل : نَاىٌ زُنَامِىٌّ (١) .

ولعل انتشار الغناء وازدهاره فى هذا العصر يفسر لنا انفعال الناس إزاء هذا الفن الذى أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون المغنين كانوا ينطحون العمد من حسن ما يستمعون ، بل كانوا يرمون بأنفسهم فى الفرات — من شدة الطرب — لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم ويعلقون نعالهم فى آذانهم لا يعرفون ما يصنعون (٢) .

ويذكر أبو حيان : أن ابن فهم الصوفى كان اذا سمع غناء "نهاية" جارية ابن المغنى ضرب بنفسه الأرض وتمرغ فى التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، ولا يجسر أحد على الدنو منه لأنه كان يعض بنانه ويخمش بظفره ، ويركل برجله ويخرق ملابسه ويلطم وجهه ألف لطمة (٣) .

أما ابن غيلان البزاز فانه كان إذا سمع ترجيعات "بلور" جارية ابن اليزيدى حلق بعينيه ، وسقط مغشيا عليه وصبوا على وجهه الكافور وماء الورد وقرأوا فى أذنه آية الكرسى والمعوذتين (٤) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى ص٨٦ د شوقى ضيف .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٤ ص ١٢٤ .
(٣) الامتاع والمؤانسة جـ٢ ص١٦٦ .
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص١٦٧ .

ومما هو جدير بالذكر أن فن الغناء فى العصر العباسى قد وصل إلى ذروة الرقى والانتشار فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة .

أما فى القرن الرابع - الذى أرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية - فقد انحسرت فيه موجة الغناء .. وضعف شأنه بعض الشىء خاصة فى بلاط الخلفاء .

ولا يستطيع باحث أن يزعم أن بلاط المستكفى أو المطيع ، أو الطائع فى القرن الرابع كان فى الترف والازدهار كبلاط الرشيد أو المأمون أو المتوكل أو يقاربه .

وذلك راجع فى رأيى إلى ثلاثة أسباب رئيسة :

أولها : ضعف الخلفاء العباسيين فى هذا القرن واستئثار بنى بويه بالسلطة دونهم فضيقوا عليهم الخناق ، وعينوا لهم راتبا خاصا لا يكفى حاجتهم الضرورية وانعكس ذلك فى نظرة الشعراء إليهم فلم يعودوا يتهافتون على قصورهم كما كانوا يفعلون فى الماضى ، وانما أقبلوا على الأمراء من بنى بويه ووزرائهم فى فارس والعراق كابن العميد والصاحب والمهلبى ... ولم يكن حظ الخلفاء من الشعراء إلا التندر والسخرية مما آل إليه أمرهم ، كما فعل أبو دُلَف الخزرجى شاعر الْكُدْيَةِ فى القرن الرابع الذى تهكم بهم وأضحك الجماهير عليهم حينما جعل الخليفة المطيع من جملة المكدين والمتسولين لأنه يعيش على ما يتفضل به عليه معز الدولة البويهى من جراية فقال :

وَمِنَّا سائرُ الأنصا * رِ والأشرافِ مِنْ فِهْرِ

وَمِنا قيَمُ الدَّيـن المطيـــع الشائعُ الذِّكْـر
يُكَدِّى مِنْ مُحَرِّ السَّدْوِ * لَـةِ الخُبْزَ على قَـدْرِ (١)

....

ثانيــا : ضعف الحكومة المركزية فى بغداد فلم تعد تسيطر على حكـام الولايات الإسلامية سيطرة كاملة كما كانت تفعل من قبل فقلت الأموال فى خزائن بغداد خاصة تلك التى كانت تفد إليها من شتى بقاع الدولة العباسية الواسعة فى الماضى ، وانعكس ذلك على الوضع الإقتصادى فى بغداد وفى قصور الخلفاء على وجه الخصوص ..

ثالثا : ظهرت هناك عدة عواصم فى المملكة الإسلامية وأخذت تنافس بغداد وتقاسمها السيادة والرقى كالرى وحلب والقاهـــرة وقرطبة وغيرها ونازعت بغداد وسائل الترف والرخاء والطرب والغناء ... وعلى الرغم من ذلك كله لا أستطيع أن أزعم أن الغناء قد اختفى مـــن المجتمع العباسى فى القرن الرابع وانما كان موجودا فى كل مكان .. فى قصور الحكام وفى ديارات النصارى وفى الحدائق العامة وفى دور النخاسين وكان له صدى واسع فى أدب اليتيمة .. تجلى بوضوح فى وصف مجالـــس الطرب والغناء وفى وصف المغنين والمغنيات وفى وصف آلات الطـرب ، وأدوات الموسيقى ، وفى نمو مقطوعات الشعر الغنائى وشيوعها فى اليتيمـــة وفى تأثير الغناء فى موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء .

---

(١) اليتيمة جـ٣ ص ٣٣٦ .

أ — مظاهر الغناء فى اليتيمـــــــة

أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والغناء التى كانت تقـام غالبا فى أماكن خلوية جميلة كالرياض والبساتين أو على شواطىء الأنهـــار وحافات الغدران حتى يمتعوا حواسهم بشم الورد والريحان ورؤية الخضرة والماء ، وسماع الموسيقى والغناء ويقضوا ساعات حالمة فى جو مفعم بالبهجـة والسرور ..

ومن ذلك قول الصاحب بن عباد يصف مجلسا من مجالس الوزيـر المهلبى الغنائية التى كان يقيمها فى بستانه الجميل على شاطىء دجلة " قد حضرنا حجرة تمر فى حجرة الريحان فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء من دجلة بالدواليب وقد مدت الستارة وفيها حُسْن الْمَكْبَرِيَّةُ فغنت :

سلامٌ أيها الملكُ اليمانـــى * لقد غَلبَ الْبِعَادُ على التَدَانـى

فطرب الأستاذ أبو محمد أيده الله تعالى بغنائها واستعادها الصـــوت مرارا واتبعته أبياتا وهى :

تَطْوى المنازلَ عن حبيبِك دائمــا
وتظلُّ تبكيــه بِدَمْعٍ سَاجِــمِ
هَلَّا أَقَمْتَ ولو على جَمْـرِ الْغَضَـا
قُلِّبْتَ أوحد الحسامِ الصــارِمِ

وتبعتها جارية ابن مقلة ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها فغنت بيتين للأستاذ — يعنى المهلبى — وهما :

يا مَنْ لهُ رُتَبٌ مُمَكَّنَـــةُ القَواعدِ في الفـؤادِ
أيحلُّ أخذُ الماءِ مِـنْ * مُتلهِّبِ الأحشاءِ صادي

فغنت الجميع ثم انبسطنا في الشرب واشتغلنا في الشد و وارتفـع الأمر عن الضبط ، والأصوات عن الحفظ ، واتفقت في أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات ومجاوبات وافترقنا " (١) .

وقال في موضع آخر يصف بعض هذه المجالس :

استحضرني ـ المهلبي ـ فدخلت عليه وقد قعد للشرب فأكرهني عليه ثم قال : أتعرف أحسن صنيعا مني بك ؟ وقد نقلتك من واحرباه إلى واطرباه ، وسمعت عنده خادمة المسمى سلافا وهو يضرب بالطنبور ويجيد ويغني ويحسن وفيه يقول المهلبي وقد شربنا عنده سُلافا .

قدْ سمِعْنا وقد شَرِبْنا سُلافاً * وَجَمَعْنا بِلُطْفِهِ أوْصافـــا

وشاهدت من حُسْنِ مجلسه وخفة روح أدبه وانشاده لِلصَّنَوْبَرِيِّ وطبقته ما طاب به الوقت ، وهشت له النفس وشاكل رقة ذلك الهوى وعذوبة تلك اللُّمَى (٢)

ومما تجدر الإشارة إليه أن مجالس الغناء والطرب لم تكن تخلو من الخمر والشراب حتى إن الاثرياء كانوا يسمون بعض المغنيين بأسماء الخمر كسلاف وخندريس وشمول وراح وأبي الكأس وأبي المدام .. وما شاكل ذلك ليحصلوا على اللذة من جميع أطرافها .

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٦ .

ولعل ما يذكره الصاحب عن مجالس المهلبى الغنائية خير دليل على ذلك .. فقد وصف فى كتابه " الرُّوزْنامْجَه " بعض هذه المجالس فقال : " أنفذ الأستاذ أبو محمد - يعنى المهلبى - ليلة قد مضى الثلث منها فاستدعانى فمضيت وألفيته قد انتهى من بستانه الكبير إلى مصبها من دجلة على ميادين ريحان نضرة فاستحسن الموضع وقعد فيه يشرب مع خدمه - أبى الكأس وسُلاف وأبى المدام وشراب وخندريس وشمول وراح - وأمر فصبت نحو مائة شمعة فى أصول تلك الميادين وقعدت فغنى سلاف :

يا شَقِيقَ النَّفْسِ من حَكَمِ * نِمْتَ عَنْ ليلِى ولم أَنَمِ

فقال الاستاذ بل غن :

يا شقيقَ النفسِ من خدمى * لَمْ يَنَمْ لِيْلِى ولم أَنَمِ
غَنِّنى من شِعْرِ ذِى حَكَمِ * يا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ

ولم نزل نشرب الرّاح إلى أن باح الصبح بسره وقام كل منا يتعثر فى سكره "(١) .

ومن أجل ذلك كنا نجد الشعراء الغنائيين يلهجون بذكر الخمر ويكثرون من الحديث عنها فى مقطوعاتهم الغنائية حتى لكأن الخمر كانت من لوازم السماع على نحو ما نشاهده من قول ابن حجاج :

من شروط الصَّبُوح فى الْمِهْرَجَانِ * خِفَّةُ الشُّغْلِ مع خُلُوِّ المكانِ
وحلولِ الطعامِ قبلَ طُلوعِ الشمـس مذ أمس باردَ الألوانِ

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ٢٠٩ .

والعروسُ التى تُزفُّ إلى الأرْ * طالِ فى ثوب صِبْغِها الأرْجُوانى
رَسَمُوا طِينَ دَنِّهَا وَهُوَ رَطْبٌ * باسم كسرى كسرى أنوشــروا ن
وترى سوسنَ الكئوسِ عليهـــا * كسوة من شقائق النعمــا ن
ثم خفْقُ الطبول بين الأغانى * واصطكاكِ الأوتارِ فى الميدا ن
والسماع الذى يمل على الأسـ * ـماع ما تشتهى بـلا ترجمــان
كل صوت من اقتراحات اسحا * قَ التى زينت كتابَ " الاغانى "

....

فأنت تراه يقرن الخمر بالغناء وكأنهما شيئان لمسمى واحد وشـــاع ذلك فى أدب اليتيمة حتى ليندر الحديث عن الخمر دون الحديث عن الطرب والغناء .. فهذا عضد الدولة كان يحب الشرب وقت السحر على صوت قطرات المطر ، وأن تغنيه جوار فاتنات حيث يقول :

ليس شُرْبَ الكأسِ إلا فى الْمَطَـــرْ
وغناءٍ مِنْ جَوارٍ فـــى السَّحَـــرْ
غانياتٍ سالبـــاتٍ للنُّهـــى
ناعماتٍ فى تضاعيـــفِ الْوَتَـــر
مُبْرزاتِ الكأسَ مـــن مَطْلَعِهَـــا
ساقياتِ الراحَ من فــاقَ البشـــر
عضدُ الدولـــةِ وابنَ ركنهـــا
ملكَ الاملاكِ غـــلابَ القـــدرْ[1]

....

(١) اليتيمة (٢ : ١٩٧) .

أما ابن عمه عز الدولة فكان يشرب على قطرات المطر فى صحن دجلة من كف أغيد ممشوق القوام .. وقد شبه صوت الماء بين الغصون بصوت القيان الراقصات حول الزامر فيقول :

إشربْ على قطرِ السماءِ الْقاطِـــر
فى صحن دِجلَة واعصِ زَجْرَ الزاجـــرِ
مشمولةً أبدَى الْمـــزاجُ بكأسِهـــا
دُرًا نثيرًا بـــين نَظْمِ جَواهِـــرِ
من كَفِّ أغْيَـــدَ يَسْتَبِيكَ إِذَا مَشَـى
بِدَلاَلِ مَمْشُوقٍ ونَخْـــوةِ شَاطِـــرِ
والماءُ ما بين الغصون مُصَفِّـــقٌ
مِثْلَ الْقيانِ رَقَصْنَ حَوْلَ الزَّامِـــرِ (١)

...

وكما تجلت مظاهر الغناء فى وصف مجالس الطرب والموسيقى تجلت كذلك فى وصف المغنين والمغنيات ، وأدوات الموسيقى والطرب ، فأكثر الشعراء من وصف القيان كما أكثروا من وصف الرجال المغنين وبيان أثرهم فى النفوس ..

ومن ذلك ما كتبه أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى يصف جارية سوداء مغنية يقال لها " شغف " فيقول :

إِذا تَغَنَّتْ بِعُودِها شَغَـــف
جاءَ سُرُورٌ يَفُـــوقُ كُلَّ مُـــنَى

---

(١) نفسه (٢ : ١٩٨) .

واحدةُ الحذقِ لا نظيرَ لهـــا
كالمسكِ لونــا ومهجــةً وغنــا (١)

...

وقال عنها في موطن آخر يذكر أثر غنائها في النفوس :

تركتنا بطيبها إذ تغنت * شغف بين أنةٍ ونحيب
طبة بالغناء فهي لأسقا * م الندامى لطاقة كالطبيب (٢)
ألفتها القلوب لما رأتها * صاغها الله من سواد القلوب

وكان محمد بن زريق الكوفي يطرب لغناء قينة تسمى " دبسية " الا أنها كانت قبيحة المنظر فكان يسعده غناؤها ويشقيه منظرها فقال يصفهـا ويشكو أمره معها الى صديق له يدعى أبا سعيد :

أبا سعيدٍ أصــغ لـي * يا سيدي ونديمـي
منيتُ أمس بأمـــرٍ * من الأمـور عظيم
حصلت عند صديــقٍ * حرٍّ ظريـفٍ كريم
أسقى على شدوِ دبسيـةٍ تنفـي همومي
فكنت حين تغنـي * لدى جنـانِ النعيم
وإن نظـرت إليهـا * ففي العـذاب الأليم
وإن شربـت بصوتٍ * فالـراح بالتسنيم
وإن شربتُ بلحظ * فالمهـل بالزقوم
فكان سمعي بخيـرٍ * ومقلتي في الجحيم (٣)

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٣ .
(٢) " " " " .
(٣) اليتيمة جـ ٢ ص ٣٤٧ .

أما عبدان الأصبهانى أحد شعراء فارس فقد ابتُلى بسماع جارية قبيحة المنظر والمخبر فقال يصفها ويهجوها هجاء فاحشا قبيحا :

لنا قينةٌ تُحيى من الشُّربِ شُرْبَنَـــا
قد أمِنُوا سُكْرًا وخُـــوف خُمَــار
تُكَشِّرُ عن أنيابهـــا فى غنائهـــا
فتحكى حِمَــارًا شَمّ بَــوْل حِمَــار (١)

• • •

وكما وصف الشعراء القيان وصفوا المغنين من الرجال وذكروهـــم فى أشعارهم وبينوا تأثيرهم فى النفوس والقلوب ومن ذلك قول أبى سعيد الرستمى يصف مغنيا كان مفتونا بجمال منظره وحسن غنائه :

وجه به الجُلَّنَـــارُ مبتسمُ * يَفْتَرَ والأُقْحُوانُ متســـق
شعلة نار ملاحةً وسنـــا * يكاد منه الجليس يأتلـــق
غَنّى فجلّى الظلامُ غُرّتَـــه * عنا وغَضّتْ بشدوه الأفُـــقُ (٢)
فودّت العَيْنُ أنها أُذُنٌ * تسمع والأذن أنها حـدقُ

• • • •

وكان بالعراق مُغَنٍّ مشهور يقال له (القُرَشى) ويبدو أنه كان قبيح الصوت سيئ الغناء فأخذ الشعراء يهجونه ويسخرون منه ويتندرون به فى أشعارهم ومُلَحِهِمْ فقال عنه الوزير المُهَلَّبى :

---

(١) نفسه جـ ٣ ص ٢٧١ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٢ .

إذا غنانى القرشــى * دعوت الله بالطـرش
وإن أبصرت غرتــه * فوا لهفى على العمش (١)

وقال فيه أيضا :
إذا غنى لنا أمسـا * حشوت مسامعى صما
وإن أبصرت طلعتــه * كحلت نواظرى بعمى (٢)

وكما سخر منه المهلبى فى العراق تهكم به ابن العميد فى فارس

فقال عنه :
إذا غنانى القرشى يوما * وغنانى بروبيتـه وضربه
وددت لو ان أذنى مثل عيـنى
هناك وأن عيـنى مثل قلبـه (٣)

...

وهناك لون آخر من الوصف تجلت فيه مظاهر الغناء فى الأدب وهو وصف آلات الغناء وأدوات الموسيقى التى كانت شائعة فى ذلك العصر كالعود والطنبور وطبل العزف والبم والزير والناى وغيرها .

وفضلا عن ذلك كان بعض شعراء اليتيمة يعمدون إلى بعض الأدوات الموسيقية ويكتبون عليها أشعارا تصفها وتصور آثارها .

ومن ذلك ما كتبه أحد شعراء الرى وهو أبو الفتح الدهاوندى على عود :

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ .
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٠ .

رأيت العود مشتقا * من العود بإتقان
فهذا طيب آناف * وهذا طيب آذان (١)

وكتب على طنبور :

ود وحقا نحن أصبحت ثمراتها
أغاريد تجذبها ندامى وجلاس
تغنى عليها الطير وهى رطيبة
فلما عست غنى على عودها الناس (٢)

وكان ابن حجاج الشاعر الماجن كثيرا ما يصف أدوات الموسيقى ويكثر من ذكرها فى أشعاره وخاصة البم والزير والطنبور مثل قوله من قصيدة يهنئ فيها عز الدولة البويهى بعيد الأضحى :

قد صخب البم مع الزير * فقم قليلا غير مأمور
قم هاتها أصفى ـ إذا رقرقت
فى الكأس ـ من دمعة مهجور
من يد عذراء لها وجنة
تحار فيها أعين الحور
فاسعد بيوم العيد واجلس له
فى خلوة جلسة مسرور
وضح فيه بالدنان التى
تخر بين البم والزير
واستحضر العود وجه به
حتى تصلى بالطنابير

(١) تتمة اليتيمة ج ١ ص ١٣٩ .
(٢) « « « « .

الركعةُ الأولى سُرَيجيةٌ
وركعة التسليم ما خُوري
وهْيَ صلاةُ العيد لا يَسْتوي
تَجوُّزي فيها وتقصيري (١)

وقال في قصيدة أخرى يهنئ بعض الوزراء بالنيروز ويطلب منه السهر واللهو والسكر والسماع ويصف بعض آلات الموسيقى :

يا من حقوق النيروز تلزمُه
رَسْمُكَ يوم النيروز مَشْهور
فاسكر من الليل واصطبح سَحَرا
غَدًا تراني وأنت مخمور
واستنطِقِ الزِّير إنني رَجُلٌ
يُعجبُني ما يَقولُه الزِّير (٢)

...

وهكذا أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والغناء كما أكثروا من وصف المغنين والمغنيات . وشاع في أشعارهم كذلك وصف أدوات الموسيقى وآلات الطرب وهذا يدل على تأثرهم بموجة الغناء التي كانت طاغية في المجتمعين العراقي والفارسي آنذاك وظهر أثرها واضحا في أدب اليتيمة .

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٥٩ .
(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٦٠ .

ب — أثر الغناء فى شعر اليتيمـــــة

لقد كان للغناء فى هذا العصر أثر كبير فى نمو شعر الغناء وكثرة مقطوعاته فى كتاب اليتيمة كما كان له أثر بالغ فى موسيقى هذا الشعـــــر الخارجية ، والداخلية على حد سواء .

وقبل أن أتناول هذا الأثر بشىء من التفصيل ينبغى أن أتعـــرض للعلاقـة التى كانت تربط الشعر بالغناء منذ القدم .

والمتتبع لتاريخ الشعر العربى منذ نعومة أظفاره يجده قد نشأ نشأة غنائية ولا أدل على ذلك من أن بعض شعراء العرب فى الجاهلية كانــوا يغنون أشعارهم على بعض الآلات الموسيقية كالأعشى الذى كانوا يطلقــون عليه صناجة العرب لأنه كان يغنى شعره على توقيع آله موسيقية تسمـــى الصنج (١) واقترن الشعر بالغناء منذ الجاهلية حتى لقد كان القدمــــاء يطلقون على الشعر كلمة " غناء " وكأنهما اسمان لمسمى واحد .

وفى الأثر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك (٢) يريد من شعرك وفى العصر الأموى نجد الشاعر ذا الرمة يعبر عن الشعر بلفظ التغنى فى قوله :

أَحِبُّ المكانَ القَفْرَ من أجلِ أنَّنِى
به أَتَغَنَّى باسْمِها غَيرَ مُعْجِمِ (٣)

---

(١) الاغانى جـ ٩ ص ١٠٩ ط دار الكتب .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٤ ص ٩١ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٢٤١ .

وهذا يدل على أن الغناء والشعر كانا مرتبطين عند العرب برباط متين منذ القدم .

أما في العصر العباسي فقد ازدادت هذه العلاقة بين الشعر والغناء بسبب أوزان العروض التي أحدثها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ والتي كان لها أثر قوى في موسيقى الشعر حتى ان جماعة اخوان الصفا كانوا يقولون : إن قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين العروض(١) .

ويذكر ياقوت : أن للخليل بن أحمد صاحب العروض كتابين في الأصوات (٢) وهذا يؤكد العلاقة التي تربط الشعر بالغناء والموسيقى ، ولولا معرفة الخليل بالايقاع لما استطاع تأليف العروض .

وليس أدل على وجود هذه العلاقة بين الشعر والغناء في العصر العباسي من أن كثيرا من المغنين والمغنيات في هذا العصر كانوا يجيدون الشعر كما كانوا يحسنون الغناء . ومن هؤلاء إبراهيم بن المهدى واسحاق الموصلي وعريب التي وصفها صاحب الأغاني "بأنها مغنية محسنة، وشاعرة صالحة على علم بالنغم والأوتار والرواية والشعر (٣) .

وبلغ من قوة العلاقة بين المغنين والشعراء في ذلك العصر أن بعض المغنين الذين لا يقرضون الشعر كانوا يقطعون المسافات الطويلة والمراحل البعيدة طلبا للشعراء الذين يكتبون لهم أصواتا تصلح للغناء .

---

(١) اخوان الصفا جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) معجم الأدباء جـ ٤ ص ١٨٢ .
(٣) الاغاني جـ ١٩ ص ١٣٤ .

ومن ذلك ما ذكره الثعالبى عن الْهَنْكَرِىِّ مُغَنِّى سيف الدولة الذى رحل الى الشاعر ابن حجاج فى بغداد ليكتب له شعرا يغنى به أمام الأمير فرحب به الشاعر وكتب له مقطوعة شعرية رقيقة تصلح للغناء وهى :

أميرى يا من نَدَى كفِّه * يزيد على الْعَارِضِ الْمُمْطِرِ
أرى يومَنا يومَ كاسٍ تَدُو * رُ مِنْ يَدِ ذِى دَعَجٍ أحْوَرِ
وأبيضَ يَحْدُوكَ سُكْرُ الْغَرَام * على رَسْمِ شارِبِه الأخضرِ
بحمرة وجنته تَسْتَدِلُ * على أنه من بَنِى الأصفر
وأنكَ من دُونه قد ضَرَبْـ * ـتَ هَامَةَ ذِى لِبْدَةٍ قَسْوَرِ
وشعرُ ابن حجاج يا سيِّدِى * يُغَنِّى به عبدُكَ الْهَنْكَرِى
غناءً وشعرًا لنا يجمعا * ن ما بين زُلْزُلَ والْبُحْتُرِى [1]

• • •

وهذا يدل على قوة الرابط بين الغناء والشعر من ناحية وبين المغنين والشعراء من ناحية أخرى فى ذلك العصر .

وما زالت هذه العلاقة قائمة حتى عصرنا الحاضر ، والى عهد قريب كانت توجد فى مصر جماعات "الأدباتية" وهى جماعات تؤلف الشعر وتنشده على بعض الالات الموسيقية ولا يزال "الشاعر" معروفا فى الريف إلى وقتنا هذا وهو يلقى أشعار أبى زيد الهلالى وعنترة وغيرهما مضيفا الى انشاده الضرب على آلته الموسيقية المعروفة باسم الربابة .

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٤١ .

وليس هذا بدعا فى الشعر العربى فقد كانت هذه الظاهرة موجودة قديما عند اليونان حتى إن الشاعر اليونانى الكبير "هوميروس" كان يغنى شعره على أداة موسيقية خاصة ، ونرى ذلك عند الغربيين المحدثين فقد كانت توجد فى العصور الوسطى جماعات تؤلف الشعر وتغنيه وهى المعروفة باسم "ترباد ور" (١)

ومهما يكن من شئ فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين الشعر والغناء منذ القدم وظهرت هذه العلاقة بصورة أقوى فى العصر العباسى نظرا لوجود القيان المغنيات اللواتى كن يجدن قول الشعر بجوار الغناء ، نظرا لتأثير العروض فى موسيقى الشعر فى ذلك العصر بصورة واضحة .

واذا صحت هذه العلاقة ، وهى صحيحة من غير شك - فما الأثر الذى أحدثه الغناء العباسى فى شعر اليتيمة ؟

وهل كان ذلك الاثر قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه؟ أم تعداهما إلى الموسيقى والأوزان ؟

الحق أن أثر الغناء فى شعر اليتيمة كان عظيما ، وهذا الأثر لم يكن قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه وإنما كان واضحا أيضا فى موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء .

أما فيما يتعلق بالأمر الأول : وهو أثر الغناء فى ألفاظ الشعر ومعانيه فقد كان عميقا وواضحا ..

---

(١) أنظر الفن ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف ص ٤١ .

ولقد كان لوجود القيان فى المجتمع الفضل الأكبر فى ذلك فقد كثر عددهن فى المجتمع كثرة فائقة وتعددت جنسياتهن وقلما كن يشعرن بشىء من المهانة أو يستشعرن شيئا من وجوب التحفظ والإحتشام بل لقد كن يتفنن فى وضع الحيل التى يجذبن بها قلوب الرجال .

وفضلا عن ذلك اشتهرت بعض القيان بالظرف واللباقة وقوة الشخصية وبعد الحيلة ، وسعة الثقافة ، والجرأة فى الحديث ، والقدرة على اكتساب الرجال إلى حد تفوقن فيه على الحرائر فى هذه الأمور جميعا ...

فلا غرابة أن يجذبن قلوب الشعراء ، ويسحرن عقولهم حتى كثر تردد هؤلاء على بيوت النخاسين حيث توجد القيان ، واختلطوا بهن ، واعجبوا بسحرهن ، وكثر بينهم من وقع فى غرام جارية أو قينة قد دفعه هذا الغرام إلى نظم الأشعار الغزلية الرقيقة التى تصلح للغناء ، وكانوا يدفعون بهذه المقطوعات غالبا إلى أولئك القيان لتغنين بها على مسامع العاشقين منهم ومن سواهم وقل من تغزل فى هذا العصر بحرارة ، ولعل هذا يفسر لنا كثرة المقطوعات الغزلية الرقيقة التى امتلأت بها اليتيمة والتى تصلح للغناء ، وقد نبه الثعالبى القارىء عليها ، وكأنى به كان على معرفة بالغناء ، أو لعله كان متأثرا بكتاب الاغانى الذى ألف قبل اليتيمة بقليل .

ومهما يكن من أمر فقد كثرت هذه المقطوعات الغنائية فى اليتيمة للاسباب التى ذكرتها آنفا ، وهى تمتاز بالرقة الفائقة فى العبارة ، والجمال المفرط فى الالفاظ كما تمتاز بجودة المعنى وبراعته ..

ومن ذلك قول المحسن بن على القاضى التنوخى فى إحدى هؤلاء الجوارى :

قُلْ للمليحةِ فى الخمارِ المُذْهَب
أفسدتِ نُسْكَ أخى التّقى المترهب
نورُ الخمارِ ونورُ وجهكِ تحته
عجبا لوجهك كيف لم يتلهب
وجمعتِ بينَ المذهبين فلم يكن
للحسنِ عن ذَهَبَيْهِما من مَذْهَب
فإذا بدَتْ عينٌ لتسرقَ نظرةً
قال الشّعاعُ لها اذهبى لا تذهبى (١)

وهى غاية فى رقة الأسلوب وعذوبته وجمال المعنى وجودته ٠

وألطف منها قول أبى عبد الله الحامدى ـ وهو مما يتغنى به أيضا :

قلْ للمليحةِ فى الخمارِ المشمشى
كم ذا الدلال عدمت كل مُحَرِّش
يا من غدا قلبى كنَرْجِسِ طَرْفِهَا
فى الحب لا صاح ولا هو مُنْتَشِ
هذا الربيع بصحن خَدِّكِ قد بدا
لِمُقَبَّلٍ ومُعَضَّضٍ ومُخَمَّش
حتى أبيتَ مُعانقا لِبَهَارِهِ
ولَوَرْدِهِ المُسْتأنس المتوحش (٢)

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ٢٢٢ ٠
(٢) المصدر السابق حـ ٢ ص ٣٤٤ ٠

ثم لنقرأ هذه المقطوعة لأبى الحسن الهديهى — وهى مما يتغنى به كذلك — لنرى أثر الغناء فى رقة الشعر وعذوبة ألفاظه وحسن معانيه :

ذرينى أُواصل لذّتى قبل فوتها
وشيكا لتوديع الشباب المُفارقِ
فما العيشُ إلاّ صحّةٌ وشبيبةٌ
وكأسٌ وقربٌ من حبيبٍ مُوافقِ
ومَنْ عرف الأيام لم يغترر بها
وبادرَ باللّذاتِ قبلَ العوائقِ (١)

•••

ومهما يكن من شىء فقد كان لكثرة الرقيق فى المجتمعين العراقى والفارسى أثره المباشر فى نمو مقطوعات الشعر الغنائى وتعددها فى كتاب اليتيمة كما كان له أثره فى رقة الألفاظ وسهولة الأسلوب وجمال المعنى .

ومن الشعراء العرب من كان محافظا على الروح العربية الأصيلة فترفع عن الغزل فى القيان وقصر غزله على الحرائر من الأعرابيات أصحاب الخيام وصاغ فيهن مقطوعات غزلية رقيقة تصلح للغناء .

ومن هؤلاء الشريف المرتضى الذى كان يحن للبدويات وله فيهن شعر رقيق كقوله :

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل
تحمّلْ إلى أهل الخيام سلامى

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٣١١ .

وقل لحبيب فيك بعض نسيمه
أما آن أن تسطيع رجع كلامى
وانى لأهوى أن أكون بأرضكم
على أننى منها استفدت سقامى (١)

وهو كلام يسكر بلا شراب ويطرب بالاسماع كما يقول الثعالبى .

ومثله فى عشق الحرائر والتغنى بهن أبو محمد الخازن فقد كان يعشق حرة من بنات نجد وكانت نجد منذ القدم تستهوى الشعراء وتغريهم بالتغنى بها لما تمتاز به من ارتفاع الهضاب وطيب الهواء وعذوبة الماء فأكثر الشعراء من ذكرها والتشبيب بنسائها فقال :

حث المطى فهذه نجد * بلغ المدى وتزايد الوجد
يا حبذا نجد وساكنها * لو كان ينفع حبذا نجد
وبمنحنى الوادى لنا رشأ * قد ضل حيث الضال والرند
هند ترى بسيوف مقلتها * ما لا ترى بسيوفها الهند (١)

. . . .

ولا شك أن رقة هذه الشواهد وعذوبتها وجمال أسلوبها وروعة معانيها أكبر دليل على تأثير الغناء العباسى فى ألفاظ الشعر ومعانيه .

* * * *

ولم يكن تأثير الغناء فى موسيقى الشعر الداخلية والخارجية بأقل من تأثيره فى ألفاظه ومعانيه ...

---

(١) تتمة اليتيمة حـ ١ ص ٥٢ .
(٢) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٩٦ .

ولو ألقينا نظرة على الشعر العربى فى الجاهلية لوجدناه حافلا بالقصائد ذوات البحور الطويلة أو المتعددة التفعيلات مثل الطويل والكامل والبسيط وغيرها من البحور الطويلة لملاءمة هذه البحور لأغراض الشعر الجادة التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى ، وهى أغراض الحماسة والفخر ووصف الحروب التى كانت دائرة بين القبائل آنذاك .

وفى العصرين الإسلامى والأموى ظلت الأوزان الطويلة سائدة فى الشعر العربى كما كانت فى الجاهلية ولم يطرأ عليها أى تغيير يذكر اللهم إلا ما كان من رقى فن الرجز ، وازدهاره ..

أما فى العصر العباسى فقد خضعت الحياة الأدبية بوجه عام والشعر بوجه خاص لمؤثرات عديدة ترجع إلى تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، ولا سيما الفرس ، وتأثرهم بعادات تلك الأمم ، وتقاليدها ، وآدابها وفنونها ، وركون الناس إلى حياة الدعة والترف ، وانتشار مجالس اللهو والطرب فتلونت أوزان الشعر العربى فى ذلك العصر تلونا ملحوظا نتيجة للأسباب السابقة ، وكان من مظاهر ذلك التلون ميل الشعراء إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة الصالحة للغناء ، ارضاء لأذواق المغنين والمستمعين على حد سواء .

ذلك أن المغنين العباسيين كانوا يحرفون فن الغناء القديم ويدخلون فيه ألحانا فارسية ورومية [1] فاضطر الشعراء بدورهم أن يجددوا مع المغنين فى أوزانهم .

---

(١) الأغانى حـ ٥ ص ٢٧٩ جـ ١ . دار الكتب .

ولعل هذا يفسر لنا ميل الشعراء في ذلك العصر إلى نظم الشعر على البحور القصيرة والمجزوءة التي تصلح للغناء وتناسبه ، بل إن بعضهم كان يخرج في مقطوعاته الشعرية على قوانين العروض التقليدية التي وضعها الخليل ليرضى أذواق المغنين .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا التجدد الذي لحق أوزان الشعر العباسي بسبب الغناء لا يعنى أبدا اختفاء الأوزان الطويلة التقليدية وانقراضها لأن أية نظرة نلقيها على دواوين الشعر العباسي تدلنا على وجود تلك الأوزان وتنوعها ، وغاية ما في الأمر أنها تراجعت إلى الوراء لتحل محلها الأوزان القصيرة التي تلائم الغناء ولم تعد تحتل المكانة المرموقة التي تبوأتها في العصور السابقة ..

ومهما يكن من شيء فقد أكثر الشعراء العباسيون من الوزن على البحور القصيرة أو المجزوءة كالمتقارب والرمل والهزج والخفيف فان ألم أحدهم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيما يحدثه من مشطوراتها ومجزوءاتها أو من اختلاف في ضروبها وأعاريضها ، وكأنى بالخليل بن أحمد قد فتح باب الزحافات في العروض ليعدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها وكأن هذه الزحافات خروق في الرقعة الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التعديل في الأوزان التي يتطلبها الغناء العباسي [1] .

ومن الأوزان التي لاقت رواجا في ذلك العصر وزن المجتث حيث كثر في مقطوعات الشعر الغنائي لقصره وسهولته وملاءمته للرقص والغناء ، وكان

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٤ .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك أول من أقترح هذا الوزن كما يقول الدكتور شوقي ضيف [(١)] . اذ غنى فيه :

إنّي سَمِعْتُ بليلٍ * وَرا المُصلّى برنّه
إذا بَناتُ هشامٍ * يَنْدُبْنَ والدَهُنّه
يَنْدُبْنَ قَرْماً جليلاً * قَدْ كانَ يَعْضُدُهُنّ [(٢)]

....

وفى العصر العباسى الأول شاع هذا الوزن وكثر فى أشعار العباسيين وكان مطيع بن إياس الكنانى أول من أخذه عن الوليد بن يزيد ثم تداوله الشعراء فى عصره كبشار وأبى نواس وأبى العتاهية وأضرابهم .

وفى القرن الرابع الهجرى شاع هذا الوزن فى الشعر الغنائى وظهر أثره فى المقطوعات الغنائية التى اختارها الثعالبى فى اليتيمة كقول أبى الفتح ابن العميد فى مقطوعة غنائية على هذا الوزن :

يا مُولعاً بعذابى * أما رحمتَ شبابى
تركتَ قلبى قريحاً * نهبَ الأسى والتصابى
إن كنتَ تُنكرُ ما بى * من ذِلّتى واكتئابى
فارفعْ قليلاً قليلاً * عن العظامِ ثيابى [(٣)]

كما شاع فى اليتيمة كذلك مجزوء الرمل لخفته وسهولته وحسن نغمته وصلاحيته للغناء كقول القاضى التنوخى :

---

(١) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٣) اليتيمة حـ ٣ ص ١٦٤ .

باتَ يسقيني ويشـــربْ * ذَهبًا لِلْهَمِّ مُذْهِبْ
شادنٌ يَحمِـلُ مَـاءً * فيه نـــارٌ تتلهّـبْ
وردةٌ ضاحكـــةُ عـــن * أقحوانٍ حين يقطبْ
لو أدَرْناها على مَيْـ * ـتٍ لكانَ المَيْتُ يطْرَبْ
ليت شِعْري أسُــرُورًا * أمْ مُدامًا بتُّ أشْـرَبْ (١)

وكقول أبى بكر الخالدى فى مقطوعة أخرى على هذا الوزن :

يا شبيـه البدرِ حُسْنًـا * وضياءً ومثـــالاَ
وشبيهَ الغصـنِ لِينًـا * وقوامـا واعتـدالاَ
أنت مثلَ الورد لونًـا * ونسيمًـا ومَـلالاَ
زارنا حـتى إذا مـا * سَرّنا بالقـرب زالا (٢)

....

وكثر فى اليتيمة أيضا وزن الرجز لقصره وسرعته وملاءمته للرقـــص والغناء كقول السرى الرفاء يصف الروض والخمر والموسيقى وبعض مظاهــر الطبيعة كقوس قزح :

إن عنّ لَهْوٌ أو سَنَــحْ * فاغْدُ إلـى الرَّاحِ ورُحْ
رضيت أن أحظـى بعـــزّ الكأسِ والحظ منــحْ
وصاحبٍ يقْـدحُ لـى * نارَ السّرورِ بالقَـدَحْ
فى رَوْضةٍ قد لبسـت * من لُؤلُؤ الطـل سبَحْ
أوقظُـهُ بالعزفِ أو * يوقظُـنى إذا صَـدَحْ

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ٣١١ .
(٢) المصدر السابق حـ ٢ ص ١٧٤ .

والْجَوُّ فِـــي مُمَسَّـــكٍ * طِرازُهُ قَـــوْسُ قُـــزَحِ (١)

....

وبهما يكن من شيء فقد كان تأثير الغناء في موسيقى الشعر عظيما ، وقد تجلى ذلك بوضوح في ميل شعراء اليتيمة إلى النظم على البحور القصيرة كالمجتث ونحوه من البحور المجزوءة التي تصلح للغناء والعزوف عن البحور الطويلة التي تلائم الموضوعات الجادة ، وكان هذا كله أثرا من آثار الغناء في موسيقى الشعر وأوزانه .

وليس هذا كل ما صنعه الغناء بشعر اليتيمة فقد أثر فيه من جانب آخر وأعني به الموسيقى الداخلية ، وإذا كان للشعر العربي موسيقى خارجية ممثلة في الوزن والقافية فإن له موسيقى داخلية تقوم على أساس اختيار الكلمات وتجانسها من جهة ثم المشاكلة بين أصوات الكلمات والمعاني من جهة أخرى .

وإذا كانت معرفة الموسيقى الخارجية وقوام ضبطها تقوم على أساس علم العروض فإن الموسيقى الداخلية للشعر ليست لها ضوابط معينة ولا قواعد معروفة ، وإنما مدار ذلك على الذوق السليم والملكة الناضجة والممارسة الطويلة ، وقد برع شعراء اليتيمة في اختيار الألفاظ وتنقية الأساليب وتجانسها فجاءت سهلة سلسة ممتعة ، ولنقرأ هذا النص للخباز البلدي لنلمس فيه أثر هذه الموسيقى في الشعر الغنائي حيث يقول :

وروضةٍ بات طَلُّ الْغَيْث يَنْسُجُهَـــا
حتى إذا نَجَمَتْ أضحى يُدَبِّجُهَـــا

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ١٥٢ .

يبكي عليها بكاء الصب فارقه
إلف فيضحكها طورا ويبهجها

إذا تنفس فيها ريح نرجسها
ناغى جنى خزاماها بنفسجها

أقول فيها لساقينا وفى يده
كأس كشعلة نار إذ يؤججها

لا تمزجنها بغير الريق منك وإن
تبخل بذاك فدمعى سوف يمزجها

أقل ما بى من حبيك أن يدى
إذا دنت من فؤادى كاد ينضجها (١)

....

وقد تنبه نقادنا القدامى إلى وجود هذه الموسيقى فى الشعر ونوهوا بها وأوصوا الكتاب والشعراء بمراعاتها وإن لم يضعوا لها إسما يدل عليها . ومن هؤلاء الآمدى فى الموازنة ، فقد وصف شعر البحترى " بأنه صحيح السبك حسن الديباجة ليس فيه سفساف ولا ردئ ولا مطروح (٢) " .

ومنهم الجاحظ الذى أوصى الأدباء بتصفية أساليبهم واختيار ألفاظهم وأرشدهم إلى مواقع الكلمات واستعمالها وما يحسن منها وما يستهجن (٣) .

أما عبد القاهر الجرجانى فقد تحدث عنها فى أكثر من موضع فى كتابيه " أسرار البلاغة " و " دلائل الاعجاز " وحاول فى أسرار البلاغة أن

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٣ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ حـ ١ ص ٢٠ .

يخضع هذه الموسيقى الداخلية أو قواعد النظم إلى قواعد علم البلاغة وأصولها فسر جمال الشعر عنده يرجع إلى استعارة وقعت موقعها أو أصابت غرضها أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفصل الذى هو كالزيادة فى التحديد (١) .

أما فى " دلائل الإعجاز " فقد أرجعها إلى قواعد علم النحو فجمال الشعر مصدره التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والإضمار والإعادة والتكرار وتوخى وجها من الوجوه التى يقتضيها علم النحو (٢) .

وسواء أكانت هذه الموسيقى الداخلية خاضعة لقواعد النحو أو لعلم البلاغة أو كان أساسها الذوق والممارسة فإن شعراء اليتيمة كانوا يراعونها فى أشعارهم فرقّتْ ألفاظهم وحسن موقعها فى السمع ولصوقها بالفؤاد ، وما ذلك إلا أثر من آثار الغناء فى الشعر العباسى فأصبح على هذه الصورة التى نشاهدها فى المقطوعة الآتية للسرى الرفاء والتى قال عنها الثعالبى وما أروى أحسن ولا أشرف ولا أعذب ولا ألطف من قول السرى :

قسمتُ قلبى بين الْهَمّ والْكَمَدِ
وَمُقْلَتِى بين فَيْضِ الدَّمْعِ والسَّهَدِ

وحت فى الحسن أشكالا مُقَسَّمَةً
بين الهلال وبين الْغُصْنِ والعقدِ

أبكتنى مطرًا يَنْهَلّ ساكبُهُ
من الْجُفُونِ وبرقًا راح من برد

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٢١ .

(٢) انظر دلائل الاعجاز ص ٦٥ وما بعدها .

ووجنـــةٍ لا يُروِّى ماؤُها ظمـــئِى
بُخْلاً وقد لذعَتْ نيرانُهـا كبـــدِى

فكيف أبقِى على مـــاءِ الشـــؤون وما
أبقى الغرامُ على صَبْرِى ولا جَلدِى [1]

....

ومهما يكن من أمر فقد كان لشيوع الغناء وانتشاره فى المجتمعـــين العراقى والفارسى أثره الواضح فى أدب اليتيمة وقد تجلى ذلك الأثر فـــى عدة أمور : منها وصف مجالس الطرب والغناء ، ووصف المغنين والمغنيات ووصف أدوات الغناء وآلات الموسيقى .

وفضلا عن ذلك كان للغناء أثر آخر فى نمو مقطوعات الشعر الغنائـــى وكثرتها فى اليتيمة ، كما كان له أثره الواضح فى موسيقى الشعر الخارجية ، وموسيقاه الداخلية على حد سواء حيث عمد الشعراء إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة والمولدة التى تصلح للغناء كما حرصوا على اختيار ألفاظهم وتنقيتها من الشوائب والعيوب فجاءت ألفاظهم غاية فى رقة الأسلـــوب ، وجمال العبارة وجودة المعنى وبراعته وكان ذلك كله أثرا من آثار الغناء فى أدب اليتيمة .

---

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ١٤١ .

((الفصل الرابع))

:: المجون وأثره فى أدب اليتيمة ::

:: المجون وأثره في أدب اليتيمة ::

"إذا بحثنا عن المعنى الدقيق للمجون في اللغة استطعنا أن نحدد بالضبط المقصود بشعر المجون ، والأغراض التي كان يخوض فيها ومن الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم شعراء المجون .

وقد جاء في اللغة : مَجُنَت الأرض مجونا إذا صلبت وغلظت ومنه جاء اشتقاق كلمة ماجن لصلابة وجهه ، وقلة استحيائه .

والمجانة أيضا معناها : ألا يبالي الانسان بما صنع ولا بما يقال له وقد قيل : إن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب المقابح المزرية ، والفضائح المخزية ، ولا يمنعه عذل من يعذله ، ولا تقريع من يقرعه .

ومن هنا نعرف المجون بأنه ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة والعرف والتقاليد دون تستر أو استحياء ، وبهذا التعريف نجد أن المجون ظاهرة خطيرة في أي مجتمع إنساني خاصة إذا انعكس في شعر هذا المجتمع[1] " .

وقد عرف المجون عند العرب منذ أواخر الدولة الأموية حيث اشتهر أحد خلفاء هذه الدولة وهو الوليد بن يزيد بشرب الخمر ، وعرف بالخلاعة ، وجهر بالمجون وتغنى بذلك في شعره خارجا عما ألف بنو أمية ، وعما ألف

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص٢٠٤ ط دار المعارف بمصر .

العرب من الجد والوقار وقد أدى الوليد ثمن هذا التحلل وكان دمه هو الثمن (1) .

وعندما اختلط العرب بالفرس بعد قيام الدولة العباسية ولانت الحياة العربية بعد الخشونة بدأ المجون ينشط من عقاله ويستشرى خطره في المجتمع العباسى .. بيد أن ذلك كان في نطاق ضيق وفي بيئات محدودة .. حيث كان قاصرا على حفنة من الخلعاء والفساق أمثال : بشار وأبى نُوَاس ووالبة بن الحباب ومطيع بن إياس والحسين بن الضحاك وأضرابهم .

وكان معظم هؤلاء ينتمون إلى أصل فارسى وكانوا يمارسون المجون في تستر وخفاء حيث كان المجتمع ينبذهم والسلطان يطاردهم ورجال الدين يَشْمَتُون في هلاكهم ، ولم يكن المجون في ذلك الوقت يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

أما في القرن الرابع الذى نؤرخ له ونرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية — وبعد أن أصبحت السيادة في يد الفرس من بنى بويه فقد عظم المجون واستفحل أمره ونشطت شياطينه وتعدد رجاله وصار شيئا مألوفا في المجتمعين العراقى والفارسى لا ينكره العرف ولا تعارضه السلطة فكثرت مواطنه وتعددت أماكنه وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

ويدلنا على ذلك ما تحدث به المقدسى الرحالة المشهور عن مدينة

---

(1) خصام ونقد ص ١٥٣ د . طه حسين ط بيروت .

السوس إحدى المدن الفارسية إذ قال : ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة ثم لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم هيبة ، ولا لمذكريهم قيمة ولا حسبة ويقطعون أوقاتهم بالرقص [1] .

وفى موضع آخر يتحدث عن أهل شيراز فيقول : عدولهم لوطة وتجارهم فسقة ، وسلاطينهم ظلمة يدخلون الحمامات بلا مآزر ولا ترى على مجوسى غيارا ولا لصاحب طيلسان مقدارا ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى ويلبسه المكدون والنصارى وبه دور الزنا ظاهرة ورسوم المجوس مستعملة وفى المقابر مجتمع الفساق [2] .

ويدل على ذلك أيضا ما يذكره التوحيدى عن كثرة المغنين والمغنيات فى بغداد سنة ستين وثلاثمائة إذ قال :

" وقد أحصينا ونحن جماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعون من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه [3] .

ويدل على انتشار المجون كذلك ما يحكيه الثعالبى فى يتيمته من " أن القاضى التنوخى كان يشرب الخمر وينادم الوزير المهلبى فى جملة القضاة الذين كانوا ينادمونه ويجتمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على اطراح

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٠٧ .

(٢) نفسه ص ٤٢٩ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٣ .

الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبى فإذا تكامل الأنس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا فى أعطاف العيش بين الخفة والطيش ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءًا شرابا قطربليا ، أو عكبريا فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم وإياهم عنى السرى الرفاء بقوله :

مَجَالِسٌ ترقُصُ القُضَاةُ بِهَا
إذَا انتَشَوْا فى مَخَانِقِ البُرَمِ

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم من التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء ، وحشمة المشايخ الكبراء (١) .

وهكذا انصرف أفراد المجتمع عن حياة الجد والوقار التى كان يحياها العرب من قبل ، وأقبلوا بشغف على هذه الحياة العابثة الماجنة .. متأثرين فى ذلك بالروح الفارسية التى تنشد اللذة وتقدس الشراب ، وأخذوا يمارسون هذه اللذات علانية دون خوف أو حياء .. وكان يحلو لهم أن يسموها بأسمائها الصريحة دون كناية أو تعريض لأنهم كانوا يجمعون بين لذتين فى وقت واحد لذة السماع ولذة الممارسة .. ولعل رائدهم فى ذلك أبو نواس عندما قال قبلهم :

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ٣٠٩ .

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ
ولا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الْجَهْرُ (١)

• • •

وأقبل الشعراء بدورهم على هذه الحياة الجديدة الناعمة يرتشفون من رحيقها ويغترفون من بحرها ويعلنون سخطهم وتبرمهم بالحياة العربية الخشنة .

يقول أبو بكر الخالدي معبرا عن هذا التحول الذي طرأ على الحياة العربية في فارس والعراق :

لا تُطْنِبَن في بكاءِ النُّؤْي والطنب
ولا تُحَيِّ كثيبَ الحيِّ من كَثَبِ
ولا تَجُدْ بِغَمَامٍ للغمام ولا * تَسْمَحْ لِرَبِّ المها بالواكف السَّرِبِ
ربعٌ تَمَنَّى تَعْفَّى مِنْ جَوًى وأسًى
قلبي وكان إلى اللَّذَّاتِ مُنْقلبي
سِيَّانِ بانَ خَلِيطٌ أو أقامَ بِهِ
فإنما عامرُ الْبَيْدَاءِ كَالْخَرِبِ
أبهى وأجملُ مِنْ وَصْفِ الْجِمَالِ ومن
إِدْمَانِ ذِكْرِ هَوًى يهوى على قنب
مدُّ الْبَنانِ إلى كأسٍ على سكر
ورفعُ صوت بتطريب على طَرَبِ
حمراءُ حين جلتها الكأسُ نَقَّطَهَا
مزاجها بدنانير من الحبب

---

(١) ديوانه ص ٢٤٢ .

كانت لها أرْجُل الأعْلاج واتِرةً
بالدّوس فانْتصفتْ مِنْ أرؤُسِ العَرَبِ

يومى إليك بأطرافٍ مطرفةٍ
بها خضابان للعنّاب والعِنَبِ (١)

....

وإذا كان أبو نواس قد سبقهم إلى هذا الإتجاه حين زهد في بكاء الاطلال والغزل بالأعرابيات والانصراف عن حياة العرب وطريقتهم في بناء القصيدة واكثر من ذلك في شعره (٢) فان الدافع إلى ذلك عند أبي نواس كان جدّ مختلف عنه عند هؤلاء القوم من شعراء القرن الرابع ..

كان أبو نواس شعوبيا يتعصب للفرس ويحتقر العرب فهو حين يزهد في بكاء الديار لا يفعل ذلك رغبة في التجديد بقدر احتقاره للعرب ولطريقتهم في بناء القصيدة والمحافظة على عمود الشعر ، وهو حين يتصرف إلى تقديس الخمر والتسبيح بحمدها لا يفعل ذلك إلا حُبا لأجداده من الفرس الذين كانوا يقدسون الخمر والشراب ..

ذلك أن عادة الشراب عند الفرس قديمة جدا ترجع إلى طقوسهم الدينية الوثنية التي كانت شائعة قبل الإسلام فقد كانوا يتناولون من أجل آلهتهم عصيرا مسكرا يستخرجونه من عشب " الهُوما " الذى يكثر على سفوح الجبال في بلادهم ... وعلى الرغم من استياء نبيهم (زرادشت) من هذه الوثنية ظلت عادة تقديم شراب (الهوما) المسكر متبعة في الديانة

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ١٧١ .
(٢) انظر ديوان أبي نواس ص ٤٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

(الزرادشتية) اذ كان على الكاهن أن يشرب جزءا معلوما من هذا العصير المقدس وأن يقسم الباقى على الحاضرين من المؤمنين فى أثناء تأديـــــة الطقوس الدينية [1] .

ولعل هذا ما يفسر لنا تقديس أبى نواس للخمر ونحته إياها بالأسماء الحسنى ..

أما شعراء القرن الرابع فلم يكن الدافع عندهم احتقار العرب والزهد فى طريقتهم من قبيل التعصب لبنى جنسهم كأبى نواس .. وإنما كان الدافع ميولا حقيقية إلى العبث والمجون والميل إلى الحياة الجديدة الناعمة والبعد عن الحياة العربية الجادة فانصرفوا عن الجهاد فى سبيل الله إلى هـــذه الحياة العابثة ، وأعلنوا ذلك فى أشعارهم كقول ابن حجاج الشاعر الماجن :

الشُّرْبُ لا الحربُ عادَتى وَمعِيـــ
ستةُ رَهْطٍ جنُودُ صناديــــدُ
الدَّنُّ والرِّطْلُ والْمَشمَشَــةُ والنُّقْلُ
وطبـــلُ التكْريــــج والعـــودْ (٢)

....

ومن حق المرء أن يتساءل عن الأسباب الحقيقية التى جعلت المجـون فى هذا العصر يشكل ظاهرة خطيرة لم يسبق لها مثيل ، وجعلت أفـراد المجتمع يتكالبون عليه إلى هذا الحد المزعج ..

---

(١) الأدب فى ظل بنى بويه ص ٢٥٨ .
(٢) اليتيمة جـ ٣ ص ٥٦ .

والدارس للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر فى إقليمى فارس والعراق دراسة واعية يجد أن ذلك يعود إلى عدة أسباب مختلفة ومتشابكة :

بعضها سياسى يرجع إلى طبيعة الحكم الفارسى الذى سيطر على مقاليد الأمور فى فارس والعراق وساعد على إحياء التقاليد الفارسية الدارسة .. تلك التقاليد التى تحمل بين طياتها تجارب أمة تختلف حياتها تمام الاختلاف عن حياة العرب الجادة الوقور .

وبعضها دينى يرجع إلى ظهور مذاهب شاكة هدامة بلبلت الأفكار فى المجتمع الإسلامى وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين كما أن وجود أديرة النصارى فى بلاد المسلمين كان له أكبر الأثر فى رواج المجون حيث اشتهرت هذه الديارات بالخمور المعتقة والجوارى الحسان الأمر الذى جعلها موطن جذب لذوى الخلاعة والمجون .

وبعضها اجتماعى يعود إلى انتشار دور الرقيق فى العراق وفارس تلك الدور التى كانت تعج بالقيان والغلمان وكانت مأوى للعابثين والفاسدين من طلاب اللذة وعشاق المجون .

وهناك عامل اقتصادى لا يقل أهمية عما سبقه فقد كان للتفاوت الطبقى وسوء توزيع الدخل فى المجتمع أثره المباشر فى انتشار الأمراض الخلقية التى تعمل على تفسخ المجتمع وانحلاله ... فالفراغ القاتل يحمل الأغنياء على العبث وكثرة الأموال فى أيديهم تدفعهم إلى الإسراف فى اللذة والتكالب على الشهوات ... كما أن الفقر المدقع قد يدفع بعض

الناس إلى التضحية بالكرامة والشرف فى سبيل الحصول على القوت •

وهناك سبب نفسى خاص باقليم العراق •• حيث كان هذا الإقليم إلى وقت قريب أقوى وأغنى أقاليم الدولة الإسلامية الواسعة وكان مركزا لحكومة قوية ذات جيوش ضخمة ومواكب فخمة تجبى إليها الضرائب من شتى بقاع العالم الإسلامى آنذاك فلما انفصلت الولايات الإسلامية عن بغداد فى القرن الرابع واستقلت عن الحكومة المركزية فى العراق •• فقد هذا الإقليم ثراءه العريض وجاهه الواسع ، وشعر أهله بالمرارة وخيبة الأمل والإحباط ، وتحول الإقليم إلى مسرح للملاهى والمآسى ، وأنجب أكبر شاعرين من شعراء المجون فى الأدب العربى وهما ابن حجاج وابن سكرة الهاشمى •••••

وأخيرا هناك سبب شخصى خاص بشعراء المجون فى العراق حيث ازدحم هذا الإقليم فى ذلك العصر بعدد ضخم من الشعراء العظماء أمثال : ابن نباتة والشريف الرضى والسلامى والصابى وغيرهم وهذا ما جعل الطريق الى جوائز الممدوحين وعرة شائكة •

ذلك لأن المدح الجاد يحتاج إلى كد الذهن وارهاق النفس واعداد خاص ، وهذا ما دفع بعض الشعراء فى هذا الإقليم أن يتنحوا عن هذا الطريق الوعر وأن يحاولوا الوصول إلى قلوب الممدوحين بوسيلة أخف وأرخص من سابقتها وهى الترفيه عن الأمراء بشىء من الفكاهة والدعابة والمجون •• فما على الشاعر الا أن يضحك ممدوحه ببعض السخافات

وينال من بعد ذلك ما يشاء ـ كما يفعل الممثل الهزلى فى العصر الحديث ، حيث يضحك الجمهور ببعض التفاهات وشىء من التهريج الرخيص ويصل من خلال ذلك إلى عالم الشهرة والجاه العريض .

ولعل ابن لنكك البصرى لم يتجاوز هذه الحقيقة عندما قال:

يا طالبًا بالعلم حظًا مسعدًا
في ذا الزمان رأيت رأى مُخرنـق
أنفاقُ علمٍ فى زمانِ جهالـةٍ
ترجو ود هُرَعىّ وسُخْفُ مُطبِـق
كن ساعيًا وصافعًا ومُضارطًـا
تنلِ الرغائبَ فى الزمـانِ وتُنفـق (1)

...

كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا فى انتشار المجون فى هذا العصر فراجت تجارته ونفقت بضاعته وتعددت مواطنه وكثر أنصاره وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة، وشاعت فى المجتمع ألفاظ الفحش والمقاذر وأصبحت مقبولة عند الخاصة والعامة حتى قال قائلهم عن ابن حجاج وابن سكرة وهما من أكبر شعراء المجون فى الأدب العربى " إن زمانا جاد بابن الحجاج وابن سكرة لسخى جدا " (2) .

إنها لهيئة اجتماعية شاذة تلك التى نتجت هذا اللون من الأدب الماجن الذى نقرؤه لابن حجاج وابن سكرة وابن لنكك والجوهرى وغيرهم ..

---

(1) اليتيمة حـ ٢ ص ٣٢٣ .
(2) المصدر السابق حـ ٣ ص ٣ .

والأعجب من ذلك أن هذا اللون الخليع من الأدب قد تغلغل في الأوساط الاجتماعية وراج رواجا عظيما عند الخاصة والعامة حتى أن ذوي المناصب العليا في الدولة لم يكونوا يتحرجون من إظهار الكلام القبيح في المجالس العامة ولم يكونوا يتورعون أن يعبروا عن أقبح المعاني في أفحش الألفاظ فيما ينظمون أو يكتبون أو ينطقون ..

فقد روى عن الوزير حامد بن العباس أنه كان لا يرد لسانه عن أحد ألبتة ، وكان إذا غضب شتم وكان يقول : نحن في السواد إذا غلبنا خصومنا قلنا قد نلنا أمهاتهم[1] .

ويحكى عن الوزير سليمان بن الحسن في حوالي سنة ٣١٩ هـ أنه أظهر من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجل الوزراء عنه[2] .

وكان الصاحب بن عباد على جلالة قدره وعظم منصبه يستعمل في وصفه وهجائه أفحش الألفاظ[3] .

وكان الصابي على وقاره وحشمه اذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقذعة[4] .

وكان الوزير ابن سعدان الفيلسوف الكبير يطلب من أبي حيان أن يجعل إحدى لياليه مجونية . وبعد أن يمتعه أبو حيان بألوان من

---

(١) نشوار المحاضرة حـ ٨ ص ٤٩ .
(٢) الحضارة الاسلامية لمتز حـ ٢ ص ١٧٦ .
(٣) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٤) نفسه حـ ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

المجون الداعر شعرا ونثرا يقول له " قدم هذا الفن على غيره وما ظننت أن هذا يطرد فى مجلس واحد [1] .

والأغرب من ذلك أن يصل بهم السخف الى أن يعقدوا موازنة بين الغلمان والنساء وأيهما أحظى عند الرجال ؟ ، فقد كتب أبو الفرج بن هندو أحد أدباء فارس فى ذلك العصر رسالة هزلية طويلة فى ذلك بعنوان :" الوساطة بين الزناة واللاطة "، وحاول فيها أن يفضل الغلمان على النساء مستشهدا بأدلة نقلية وعقلية كما كان يفعل أبو نواس من قبل [2] .

والأشد غرابة من ذلك أن النساء لم يكن بمعزل عن الخوض فى المستنقع الآسن فقد روى الثعالبى أنه " كانت بهمذان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية خطبها أبو على كاتب ديار بكر فلما ألح عليها وألحف كتبت إليه بيتين غاية فى الفحش والإقذاع لفظا ومعنى وعلى الرغم مما فيهما من خلاعة ومجون أعجب بهما الصاحب بن عباد اعجابا شديدا وعلق عليهما بقوله " هذه والله فى هذين البيتين أشعر من كبشة أم عمرو والخنساء أخت صخر ومن كعوب الهذلية " وليلى الأخيلية [3] .

ومهما يكن من شىء فقد شاع هذا اللون من الأدب فى المجتمع وتقبله الناس قبولا حسنا وأقبل الشعراء عليه قصدا للتسلية والمزاح

---

(١) الامتاع والمؤانسة حـ ٢ ص ٦٠ .
(٢) تتمة اليتيمة للثعالبى حـ ١ ص ١٤٤ .
(٣) اليتيمة حـ ٣ ص ١٤٤ .

وتنفيسا عن القلق والتعاسة التى يشعر بها المجتمع المغلوب على أمره ..
حيث تشعر هذه المجتمعات بحاجتها الملحة إلى التنفيس عن شعورها
بخيبة الأمل خاصة تلك المجتمعات التى وصلت إلى درجة معينة من
الحضارة كالمجتمع العباسى آنذاك .

" وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والمرح قد ترك صداه عند
الرومان فى المصارعة ونحوها من ألوان العبث ووجد اليوم متنفسا فيما
شاع بيننا من تمثيل هزلى فإنه أثناء تلك العصور قد وجد فى الشعر
العربى أيسر أداة لتحقيق أهدافه " (١) .

لقد تلون أدب هذا العصر بلون ماجن خليع لم يشهده من
قبل ولا من بعد وربما كان كتاب "اليتيمة" لأبى منصور الثعالبى الذى هو
موضوع بحثنا - خير ما يمثل هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة لقد أكثر
الثعالبى فى يتيمته من إيراد الشواهد التى تصور هذا الجانب العابث فى
حياة الناس عموما وحياة الأدباء على وجه الخصوص واستجاز لنفسه فى هذا
الصدد أن يورد أمثلة ومختارات غاية فى الفحش والإقذاع .. فهو حين
يترجم لشعراء وكتاب هذا العصر يعنى كثيرا بأخبار لهوهم ومجونهم ويركز
كثيرا على الجانب العابث من أخلاقهم مستشهدا على ذلك من شعرهم
بالنماذج الصارخة والفاجرة .

ويخيل إلى أن أبا منصور كان يتعمد هذا الامر تعمدا إرضاء
لذوق العصر ، واستجابة لرغبات الجماهير التى كانت متعطشة إلى هذا

---

(١) الشعر العربى بين الجمود والتطور ص ١٢٢ محمد عبد العزيز
الكفراوى - .

النوع من الأدب الخليع فكانت تفضله على غيره وتؤثره على سواه ..

وليس من حق أحد أن يلوم الثعالبى على ذلك .. أو يعيبه على هذا الاتجاه فقد كان الرجل أمينا فى نقل أخبار العصر وتسجيل ظواهره الاجتماعية والأدبية بما فيها من خير وشر " ذلك أن تاريخ الأدب لا يعنيه فى الدرجة الأولى إلا أن يسجل الظواهر الأدبية ويشرحها ثم يربطها بعللها الاجتماعية والتاريخية والإقليمية ولا يعنيه بعد ذلك أن كانت هذه الظواهر خيرا أو شرا ، فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون "(1)

، ولو أن الثعالبى أغفل هذا الجانب فى حياة المجتمع لكان كتابه ناقصا مبتورا لا يمثل عصره أصدق تمثيل ..

ومن الإنصاف للثعالبى ولتاريخ الأدب العربى أن أقرر أن أدب المجون الذى أحدثت عنه والذى سجله الثعالبى فى يتيمته ينقسم إلى لونين مختلفين ومتباينين :

أحدهما : مباح مقبول والآخر فاحش بغيض .

فأما الاول فهو ذلك اللون من المجون الذى لا يؤذى المشاعر ولا يخدش الحياء وهو معروف فى الأدب العربى من قديم وقد سجل لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليتهم والترفيه عنهم .. وأحاديث أبى دلامة والحسين بن الضحاك وغيرهما مع خلفاء بنى العباس مشهورة فى هذا الباب .. وربما انتهز بعض السادة

---

(1) الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ٢٧٩ .

من الوزراء وأشباههم إحدى الفرص المواتية ليجعلوا من الشعر مادة فكاهية مسلية ، ومن ذلك ما ذكره الثعالبى فى اليتيمة عن الصاحب بن عباد من أنه أوعز ذات يوم إلى ندمائه المقيمين بحضرته أن يعزوا أبا عيسى ابن المنجم حين نفق برذون له كان الصاحب قد حمله عليه وقد لبى هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء وأخذوا يذرفون الدموع ويرسلون الزفرات من أجل هذا البرذون الهالك ويتمنى كل واحد منهم لو استطاع فداءه بالنفس والولد والغالى والنفيس من أمواله ويطلبون من أبى عيسى التجمل بالصبر والتذرع بالتأسى والعزاء (١) .

ولما كان هذا اللون من المجون يدل على الظرف والدعابة كما يدل على الترف الفكرى والحسى شاع فى أدب الكبراء من الوزراء وأمثالهم وكثر فى أشعارهم ورسائلهم .. وكان يحلو لهم أن يغلفوه فى أثواب من الكناية والتعريض ليكون ألطف فى السمع وأوقع فى القلب .

ومن ذلك ما كتبه ابن العميد .. إلى أبى الحسن بن هندو صبيحة عرسه على سبيل المزاح والمداعبة :

أنعم أبا حسن صباحا * وازدد بزوجتك ارتياحا
قد رضت طرفك خاليا * فهل استلانت له جماحا
وقد حت زندك جاهدا * فهل استبنت له انقداحا
وطرقت منغلقا فهل * سن الإله له انفتاحا

---

(١) اليتيمة حـ ٣ من ص ١٩٤ الى ص ٢٠٨ .

قد كنت أرسلت العيو * ن صباح يومك والرواحا
وبعثت مصغية تبيت لديك ترتقب النجاحا
فقدت على بجملة * لم تولني إلا افتضاحا
وشكت إلى خلا خلا * خرسا وأشحة فصاحا
منعت وساوسها المسا * مع أن تحس لكم صياحا (١)

....

قال الثعالبي معقبا على هذه الأبيات " وهذه الأبيات بديعة في فنها ولم أر أملح منها في معناها إلا قول الصاحب لأبي العلاء الاسدى في مثل تلك المناسبة :

قلبي على الجمرة يا أبا العلا
فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الختم عن كيسه
وهل كحلت الناظر الأكحلا
إنك إن قلت نعم صادقا
أبعث نثارا يملأ المنزلا
وإن تجبني بحياء بلا
أبعث إليك القطن والمغزلا (٢)

...

وأبيات الصاحب أقرب من التصريح وأظرف وأبيات ابن العميد أجزل وأخفى وأدخل في باب الكناية والتعريض .

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ١٥١ .
(٢) نفسه حـ ٣ ص ١٥٧ .

وكما اتخذ الادباء الشعر وسيلة للمداعبة والتظرف اتخذوا النثر كذلك أداة لتحقيق الغرض نفسه .

فقد كتب الصاحب رسالة نثرية إلى أحد اصدقائه يداعبه صبيحة عرسه فقال : " خبر سيدى عندى . وإن كتمه عنى ، واستأثر به دونى ، وقد عرفت خبره البارحة فى شربه وأنسه وغناء الضيف الطارق وعرسه ..

وكان ما كان مما لستُ أذكرُهُ
وجرى ما جرى مما لستُ أنشُرُهُ

وأقول :

إن مولاى امتطى الأشهب فكيف وجد ظهره ؟ وركب الطيار فكيف شاهد جريه ؟ وهل سلم على حزونة الطريق ؟ وكيف تصرف ؟ أفى سعة أم ضيق ؟ وهل أفرد بالحج أم تمتع بالعمرة ؟ وقال فى الجملة بالكرة ؟ ليتفضل بتعريفى الخبر فما ينفعه الإنكار ، ولا يغنى عنه إلا الإقرار وأرجو أن يساعدنا الشيخ أبو مرة كما ساعده مرة ، فنصلى للقبلة التى صلى إليها ونتمكن من الدرجة التى خطب عليها ، وله فضل السبق فى ذلك الميدان لكثير من الفرسان [1] .

وهكذا خاض الشعراء فى هذا اللون من المجون وأكثروا من المداعبات الظريفة والنكات البديعة بقصد الترفيه عن النفس وإشاعة جو من البهجة والسرور فى المجتمع .. حتى إن بعض الشعراء كانوا لا يتحرجون أن يمزجوا مدائحهم للحكام بهذه المداعبات وكان الحكام بدورهم يتقبلون ذلك

---

(١) اليتيمة (٣ : ٢٢٦) .

منهم بصدر رحب ونفس راضية ويكافئونهم على ذلك ويجزلون لهم العطاء .

ومن ذلك ما كتبه ابن حجاج الشاعر الماجن إلى الأمير عز الدولة البويهى يمدحه ويصفه بالجمال والحسن والتفوق فى الناحية الجنسية قال :

فديتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ * يَجْلُو القَذَى نُورُهُ عن البَصَرِ
فَدَيْتُ من وَجْهُهُ يُشَكِّكُنِي * فى أنّه مِنْ سُلَالَةِ الْبَشَرِ
إِنَّ زُلَيْخَا لو أبْصَرَتْكَ لَمَا * مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ
ولم تَقِسْ يُوسُفًا إِلَيْكَ كما * نَجْمُ السُّهَا لَا يُقَاسُ بِالْقَمَرِ
وكان يا سَيِّدِى قُبَاكَ إذا * هَرَبْتَ مِنْهَا يَنْقَدُّ من دُبُرِ
بل وَحَيَاتِي لو كُنْتَ يُوسُفَهَا * لم تَكُ من تُهْمَةِ الْعَزِيزِ بَرِى
لأنّنى عَالِمٌ بأنّكَ لو * شَمَمْتَ رَيَّا نَسِيمِهَا الْعَطِرِ
سبقتها وانزلقت تَتْبَعُهَا * ما بَيْنَ تلك البيوتِ والْحُجَرِ(1)

• • • •

ويمضى على هذا النحو فى مدح الأمير ويكثر من مداعباته والمزاح معه ويتقبل الأمير منه ذلك ويسعد به ويرضى عنه ويجزل له العطاء .

ولا شك أن هذا اللون من الأدب مستساغ ومباح لأن فيه ترفيها للنفوس وترويحا للقلوب وقد ورد فى الأثر " رَوِّحُوا القلوبَ ساعةً بعدَ ساعةٍ فإنّ القلوبَ إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ " .

أما اللون الذى يندى له الجبين ويخدش له الحياء ، وتنفر منه

---

(1) اليتيمة جـ ٣ ص ٤٠ .

الأذواق السليمة ، والطباع المستقيمة ، فهو ذلك المجون الذي يجعل السوءات والعورات محور نكاته ، ويتخذ الفاحش والمقاذر منبع دعاباته ، وهذا اللون من المجون الداعر اشتهر به شاعران من شعراء العراق في القرن الرابع لم يجارهما فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حجاج وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي فقد كان كلاهما ماجنا خليعا لا يتورع أن يصوغ أقبح المعاني في أسوأ الألفاظ ..

وكان ابن حجاج من أولاد العمال والكتاب .. وكان أول أمره يشتغل بالكتابة فكتب بين يدي أبي إسحاق الصابي في أيام حداثته ثم تأتى له من المعيشة بالشعر ما عدل به إليه وعول بعده عليه وكان أكسب له مما كان متشاغلا به ثم ضمن قرائض الصدقات بسقي الفرات وأخيرا عين في أيام عز الدولة البويهي محتسبا على مدينة بغداد (١) .

ولفساد طريقته ، وقبح مذهبه ، وفحش شعره ، وسلاطة لسانه قال الثعالبي عنه " ولولا أن جد الادب جد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن المهدي لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحَزْمِ ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل (٢) .

وعلى الرغم من هذا السخف الذي تحدث عنه الثعالبي والذي نقرؤه اليوم فيما نشاهده من نماذجه الشعرية كان ابن حجاج مقبولا لدى العامة والخاصة .. حتى ان الفضلاء والكبراء والأدباء والمحتشمين كانوا يتفكهون

(١) الادب في ظل بني بويه ص ٢٧٨ والحضارة الاسلامية لمتز حـ ١ ص ٤٨ واليتيمة حـ ٣ ص ٦٠ .
(٢) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٥ .

بثمار شعره ويستملحون بنات طبعه ، ويستخفون أرواح نظمه ويحتملون فرط رفثه وقذعه .

ولقد مدح الملوك والامراء فلم تخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ونتائج فحشه وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور الحظ من الإكرام والإنعام مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام والأعمال المجدية التى ينقلب منها إلى خير حال ، وكان طول عمره يتحكم فى وزراء الوقت ورؤساء المصر تحكم الصبى فى أهله ويعيش فى أكنافهم عيشة راضية (١)

والأغرب من ذلك أن ديوان شعره على الرغم مما فيه من فحش وفجور كان أسير فى الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال وأنه كثيرا ما بيع بخمسين دينارا إلى سبعين (٢) .

ومما يدل على رواج شعره عند ذوى المكانة فى الدولة أن الشريف الرضى نقيب الأشراف العلويين فى القرن الرابع والمعروف بالحشمة والوقار كان من أكبر المعجبين به وقد رثاه بقصيدة واختار من شعره السليم أشياء كثيرة .. وقد حمل إليه الخليفة الفاطمى صاحب مصر عن مديح مدحه به ألف دينار على سبيل الصلة (٣) .

وقد زعم الثعالبى أنه اختار من نماذجه الشعرية الملح الخالية من الفحش المفرط ، الحالية بالحسن المفرط ، وأخرج كثيرا من نوادره التى تسر النفس وتشرح الصدر وتعيد الأنس ..

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٥ .
(٢) نفسه حـ ٣ ص ٢٩ .
(٣) الحضارة الاسلامية لمتز جـ ١ ص ٤٨٢ .

وهذه الملح التى زعم الثعالبى أنها خالية من الفحش — يعلم الله — أنها فاحشة داعرة ، قبيحة الألفاظ ، منتنة المعانى ولعل هذا ما جعل ابن سكرة يقول : وقد سئل عن قيمة ديوان ابن حجاج " قيمته بوبخ " أى لكثرة ما يشتمل عليه مما يقع فيه [1] .

وابن حجاج كان فخورا بمذهبه فى السخف متمسكا به لا يحاول أن يتبرأ منه أو يعتذر عنه ولكنه كان يدافع عنه ويحاول أن يضفى عليه شيئا من المنطق مهما كان ذلك المنطق سقيما فيقول :

وشِعْرِى سُخْفُهُ لابُدَّ منـــهُ * فقد طِبْنَا وزالَ الإحْتِشَــامُ
وهل دارٌ تكون بلا كنيــفٍ * فيمكن عاقلاً فيها المُقَــامَ [2]

....

وكان لسخفه وقذارة لسانه مخشى الجانب مقضى الحاجة مقبول الشفاعة مسموع الكلمة ، ولم يزل أمره يتزايد حتى حصل الأموال وصار من أهل الجاه ، ويدل على ذلك قوله لبعض الرؤساء حين طالبه بالعدول عن هذا السخف :

سَيِّدِى شُكْرُكَ عِنْـــدِى * مِثْلُ شُكْـــرِى لإلَهِـــى
سيدى سُخْفِى الذِى قد * صارَ يَأْتِـــى بالدَّوَاهِـــى
أنت تَدْرِى أنه يَـــدْ * فَعُ عنْ مالِـــى وَجاهِـــى [3]

....

فالسخف فى شعره كان ضرورة ملحة ، وكان يلجأ إليه وقت الحاجـــة ليدافع به عن ماله وجاهه ..

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٨ .
(٢) نفسه حـ ٣ ص ٢٨ .
(٣) نفسه حـ ٣ ص ٢٧ .

وكان أحيانا يلجأ إلى هذا السخف تلبية لحاجة الجماهير التى كانت تقبل بشغف على هذا اللون المتعفن من الأدب الماجن .. شأنه فى ذلك شأن الممثل الهزلى الذى فرضت عليه ظروف اجتماعية معينة إجادة الفصول المضحكة واتقان الأدوار المرحة التى تسعد الجماهير وتدخل إلى قلوبهم الفرح والسرور وإلى نفوسهم البهجة والحبور حتى إذا فرغ من عمله وعاد إلى بيته رجع إلى طبيعته الجادة المتحفظة .

فابن حجاج لا يعدو أن يكون ممثلا هزليا بارعا من هذا النوع يمارس عمله على مسرح الحياة الاجتماعية الهازلة إرضاء لأفراد المجتمع الذين كانوا يقبلون على شعره ويشجعونه على المضى فى هذا الطريق واذا ما رجعنا إلى سيرته الشخصية وما يذكره الرواة عنه من أنه كان وقورا متزنا أدركنا صدق ما نقول :

فقد روى أبو حيان " أن أبا الفتح بن العميد سأل عن ابن حجاج وكان متشوقا إليه لما كان يقرأ من قوافيه فأحب أن يلقاه لأنه ليس الخبر كالمعاينة .. فلما حضره أبو عبد الله احتبسه ابن العميد للطعام وسمع كلامه وشاهد سمته ، واستحلى شمائله . ولما خلابه قال له : يا أبا عبد الله : لقد والله تبهت عجبا منك .. فأما عجبى بك فقد تقدم . لقد كنت أغلى ديوانك فأتمنى لقاءك وأقول : من صاحب هذا الكلام أطيش طائش وأخف خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالس من يكون فى هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب ، حتى شاهدتك الآن فتهالكت على وقارك وسكون أطرافك ، وسكون لفظك وتناسب حركاتك ، ووفور حياتك ، وناضر ماء وجهك ، وتعادل كلك وبعضك وانك

لمن عجائب خلق الله وطرف عباده ، والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك . وأن هذا الديوان لك ، مع هذا التنافى الذى بين شعرك وبينك فى جدك (1) .

فكلام ابن العميد عن الشاعر يدل على أنه كان وقورا ساكن الأطراف متناسب الحركات ، عظيم الحياء ، ولم يكن ماجنا بطبعه ولا فاحشا بفطرته حتى لقد تعجب ابن العميد بعد لقائه به من هذا التباين الواضح بين شخصية الشاعر . وما يصدر منه من شعر .

وفى رأيى أن هذا التباين الذى لاحظه ابن العميد بين الشاعر وشعره ليس له إلا تعليل واحد وهو أن الشاعر كان متأثرا بأخلاق المجتمع الذى يعيش فيه . وأنه كان يكتب ذلك الشعر السخيف الماجن استجابة لرغبات هذا المجتمع المتهالك على اللذة والفساد ولذلك راج شعره لدى الخاصة والعامة لأنه صادف منهم هوى صادقا ، ورغبة أكيدة ..

وأنا لا أزعم بهذا القول أن ابن حجاج كان من الأتقياء البررة ولا أحاول أن أقدم له صك البراءة مما قاله فى شعره - فقد كان - من غير شك - عنده استعداد شخصى للمجون ولكنى أريد أن أقول: إنه بالاضافة إلى نفسه الضعيفة كان خاضعا لتأثير المجتمع الذى كان يشجعه على السير فى هذا الطريق الشائك ، فقد اضطرته ظروف مادية قاسية ونفس منحلة ضعيفة إلى اتخاذ الشعر السخيف حرفة للارتزاق ، ووسيلة سهلة لنيل الحظوة والجاه عند ذوى السلطان .

---

(1) الامتاع والمؤانسة حـ ١ ص ١٣٨ .

ولقد عبر الشاعر عن ذلك فى شعره أصدق تعبير عند ما قال :

لو جَدَّ شِعْرِى رأيتَ فيه * كواكبَ الليلِ كيف تَسْرِى
وإنما هَزْلُهُ مُجُونٌ * يَمْشِى به فى المعاشِ أمْرِى [1]

....

فقد كان الرجل يعرف النماذج الشعرية المأثورة وكان فى استطاعته أن يجاريها وينسج على منوالها ، بل ويتفوق على أقرانه فيها ولكنه كان يتجاهلها عن عمد ويعارضها معارضة سخرية وهزل لانه وجد البضاعة الجيدة لا تروج فى هذا الزمان ولذلك آثر السخف عن رضا وارتياح ، وما أصدق قول أبى حيان وقد سئل عنه " اذا جد أقمى ، واذا هزل حكى الأفعى " [2]

وبناء على هذا التحليل نجد ابن حجاج يلون شعره بالقاذورات ويسرف فى تلك الاصباغ حينا ويقتصد أحيانا .. ولست أدرى كيف كان المجتمع يستسيغ هذا الشعر الفاحش ؟ وكيف كان يتقبل هذه النماذج القذرة ؟ .

ومن شعره فى هذا السبيل قصيدة فاحشة تفيض بالقاذورات بعث بها الشاعر إلى أحد أصدقائه وهو أبو أحمد بن ثوابة حين تناول دواء مسهلا فقد أخذ يذكر أثر الدواء السيء فى بدنه وفراشه وهى قصيدة طويلة قذرة الألفاظ ، منتنة المعانى ومطلعها :

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٢٧ .
(٢) الامتاع والموانسة جـ ١ ص ١٣٨ .

يَا أَبَا أَحْمَدَ بنفسي أَفْدِيـــــ
ـــكَ وأَهْلِي من سَائِرِ الأَسْـــوَاءِ (١)

...

وليست المناسبة وحدها هي التي أوحت إليه بهذا المزاج السخيف ولكن الدارس لشعره يجد أنه كان يعمد إلى ذلك في جميع الأوقات ومع مختلف المستويات الاجتماعية فقد روى الثعالبي : أنه اتخذ دعوة كبيرة في أيام عز الدولة ودعا إليه أقواما شتى من رجال الدولة ثم أنشد قصيدة أسوأ من سابقتها يتهدد بها الذين يتخلفون عن دعوته ومطلعها :

قُلْ لِلأَمِيرِ الْمُرْتَجَى * مَنْ جَاءَنِي فَقَدْ نَجَا (٢)

وأسوأ منها بكثير قصيدة طافحة بالقاذورات هجا بها أحد أعدائه ومطلعها :

ولقد عَهِدْتُكَ تَشْتَهِي * قُرْبِي وَتَسْتَدْعِي حُضُورِي (٣)

....

وشيوع مثل هذه القاذورات في قسم كبير من شعره ورواج ذلك الشعر في المجتمع أكبر دليل على فساد الاذواق وانحطاط الاخلاق في ذلك العصر .

ولم تكن القاذورات وحدها هي المحور الذي يدور حوله شعر ابن حجاج وإنما كان يلونه بأصباغ أخرى من الشعر الفاحش الذي شاع في جزء

---

(١) اليتيمة ح ٣ ص ٢٩ .
(٢) نفسه ح ٣ ص ٣٦ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٠ .

كبير من نتاجه ومختاراته فقد أكثر الشاعر من ذكر العورات والسوءات بألفاظ صريحة دون كناية أو تورية ، وهذا اللون كان معروفا في شعر السابقين إلا أنهم لم يسرفوا فيه اسرافه فقد أباح لنفسه في هذا الصدد أن يصوغ أشعارا في غاية الفحش والمجون واستغله في شعره استغلالا سيئا .. فمثلا : إذا سقطت امرأة من فوق السطح فماتت لم يوح اليه شيطانه في تلك المناسبة الحزينة الجادة إلا بأبيات فاحشة زعم فيها أن تلك المرأة التعيسة قد رمت بنفسها من شاهق طمعا في متعة جنسية .. وأن موتها كان بسبب الطمع الذي يودي بحياة صاحبه ويورده دائما موارد التهلكة .. وأن مثلها في ذلك مثل شاة أشعب التي شاهدت قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه من عل فاندقت عنقها [1] .

ويبلغ ذروة السخف والخلاعة حينما يعقد موازنة بين العورات الجنسية مفضلا بعضها على بعض في قصيدة طويلة مطلعها :

سَرَى مُتَعَرِّضًا طَيْفُ الْخَيَالِ * فَسَوْفَ لا مُحَالَةَ بِالْمُحَالِ [2]

والواقع أن أكثر شعر ابن حجاج مما تعف عن ذكره الألسنة ولكن على الرغم من ذلك لا سبيل إلى انكار أنه كانت له طريقة خاصة في المجون اشتهر بها وتميز بها عن سابقيه .

ولا سبيل إلى انكار أن ألفاظه ـ على الرغم من فحشه ـ كانت تتميز بالسلاسة والعذوبة والجمال خاصة في مقطوعاته التي كانت تسير على النمط

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٤١ .
(٢) اليتيمة جـ ٣ ص ٦١ .

العربى السليم .. والتى لم تكن تخلو غالبا من المجون البرئ ولنقرأ له هذه المقطوعة الرقيقة العابثة التى كتبها إلى الأمير عز الدولة البويهى وقد رأى كلابه تأكل لحوم الجداء لندرك صدق ما نقول :

رأيتُ كِلابَ مولانا وُقوفــــا
ورابضةً علـى ظَهْـر الطَّريــــق
فمن وردٍ لـــه ذَنَبٌ طويــــلٌ
يعققهُ وسهلـــوب خلوقــــى
تُغَــذَّى بالْجِدا فَــوَدِدْتُ أنِّى
وحَقُّ اللَّـــه خُرْكُوشٍ سَلُوقِــى
فيا مَوْلاىَ رَاقِفْـــنى بِكَلْـــبٍ
لأكُنَ كُــلَّ يَـوْمٍ مَــعْ رَفيقــى
أرَى الْقَصَّابَ قد أضْحَــى عَـدُوِّى
لِشُؤْمِ الْبَخْتِ والْمِلْحى صَديقــى
جَفَانِى اللحمُ وهْوَ شقيــقُ رُوحــى
فمن يعدى على ذاك الشقيـــق
كأن اللحمَ فى صــوم النَّصَـــارَى
توهمنى ابنَ عــم الْجاثليــــق (١)

...

ومن ذلك نستطيع أن ندرك لماذا كان أهل عصره يعدونه ـ علـى الرغم من فحشه ـ شاعرا كبيرا ..

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٥٠ .

وأما ابن سكرة الهاشمى فقد كان كما وصفه الثعالبى "شاعرا متسع الباع فى أنواع الإبداع فائقا فى قول الملح والظرف، أحد الفحول الأفراد جارٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد (١) .

ويقال : إن ديوان شعره يربى على خمسين ألف بيت من الشعر منها فى قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت وكانت عرضة نوادره وملحه وكان يعشقها فى شبابه ثم حصلت بينهما جفوة فقلاها وأعرض عنها ، وتحول ما بينهما إلى عداء شديد وفى نزوة من نزوات غضبه حلف بطلاق امرأته — وكانت ابنة عمه — ألا يخلى بياض يوم من سواد شعر فيها ولما شعرت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتلت من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتا فى هجائها (٢) "

وقد يعجب الباحث حين يشاهد أحد أهل البيت وقد انغمس فى تيار المجون وصار علما من أعلامه .. ولعل ذلك راجع — فى رأيى — إلى تدهور مكانة أهل البيت السياسية وشعورهم باليأس وخيبة الأمل بعد أن سيطر الموالى من الفرس على السلطة الحقيقية فى فارس والعراق فى ذلك العصر كما أن ظروف الشاعر المادية لم تكن طيبة فقد كان — كما يبدو — فقيرا بائسا مضيقا عليه فى الرزق ، ويدل على ذلك قوله :

قل للرئيس الذى أَنَامِلُـهُ * مبسوطةٌ بالنـوالِ مُنخرقَـةْ

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٣ .
(٢) نفسه ٣ : ٣

حَلَّتْ لِيَ الميتةُ الـتي حُرِمَتْ
فكيفَ تنبُو نفسي عن الصَّدَقه (١)

وقوله في موضع آخر :

جَنَى نسبي عليَّ وصدَّ رزقي
وأثكلني من الدنيا نصيبي (٢)

...

وكأن شرف نسبه كان حائلا بينه وبين التكالب على المدح شأن غيره من شعراء المجون وهذا ما سبب له الفقر والحرمان وفضلا عن ذلك كان الشاعر ـ كما يبدو ـ ضعيف الدين ، مزعزع العقيدة لديه استعداد شخصي للمجون ، ويدل على ذلك قوله :

ولستُ مُضْمِرَ نُسْكٍ * كلَّا ولا بمنيفِ
ولو أُسامُ بديني * لبعتُهُ برغيفِ (٣)

...

ومهما يكن من شيء فقد انغمس في هذا المستنقع وصار بطلا من أبطاله البارزين وله في خمرة وغيرها من القيان والغلمان شعر فاحش بذيء تعف الأقلام عن كتابته والألسنة عن روايته ، ولا ريب أن من يقرأ هذه النماذج الفاضحة وما شاكلها من أدب المجون يجد أنها تدل بوضوح على نزعة إباحية قوية كانت قد تملكت المجتمع في هذا العصر فانطلق الشعراء تحت تأثيرها في هذا الفحش الفاجر ..

---

(١) المصدر السابق حـ ٣ ص ٢١ .
(٢) نفسه حـ ٣ ص ٢٠ .
(٣) نفسه حـ ٣ ص ص ١٩ .

ويؤيد هذه النزعة الإباحية فى بلاد فارس ما أثر عن ايران القديمة من نقوش حائطية تحوى كثيرا من مناظر الحب ورسوم الرجال والنساء فى مواقف قد تصل إلى حد كبير من الإباحية على حيطان القصور وجدران الحمامات [1] .

ولعل هذا ما يؤكد ما ذهبت إليه من أن أدب المجون كان غريبا عن البيئة العربية التى تنفر بطبعها من الانحلال وتميل إلى الوقار والعفة .

ومهما يكن من أمر ابن سكرة ومهما قيل عن فحشه ومجونه فقد كان يختلف عن زميله ابن حجاج فى أمرين هامين :

أولهما : أنه لم يكن يلون شعره بالقاذورات والأوساخ — كما كان يفعل ابن حجاج .. وانما اقتصر مجونه على الادب الفاحش المكشوف .

وثانيهما : أنه لم يقف كل نشاطه الأدبى على الشعر الماجن ولم يسرف فيه كابن حجاج . وإنما كانت له أغراض أدبية أخرى غير المجون كالغزل الرقيق الخالى من الفحش وكالزهد والتضرع ..

ويبدو أن الشاعر كان يحاكى أبا نواس حينما لجأ إلى الزهد فى أواخر عمره فقد روى الثعالبى له مقطوعة فى الزهد يلوم فيها نفسه على

(١) الفنون الايرانية للدكتور زكى حسن ص٦٢ .

المجون ويطلب منها أن تثوب إلى رشدها وأن ترجع عن غيها ، وأن تتذكر الموت والبلى وأن تعد الزاد ليوم الحساب إذ يقول :

محمدُ ما أعددْتَ للموتِ والبلى
وللملكين الواقفين على القبرِ
وأنت مُصِرٌّ لا تُراجِعُ توبةً
ولا ترْعوى عمّا يُذمّ من الأمْرِ
تبيتُ على خمْرٍ تُعاقِرُ دِنّها
وتُصْبحُ مخْمورًا مريضًا من الخمْرِ
سيأتيكَ يوْمٌ لا تُحاولُ دفعَهُ
تقدّمْ له زادًا إلى البعْثِ والحشْرِ (١)

...

ولعل ابن سكرة كان مؤمنا صادق الإيمان ولكن الخمر كانت تفسد عليه دينه وتضعف إيمانه فكان إذا أفاق حسُن إيمانه ورجع إلى ربه وإذا سكر عربد وفجر ونسى دينه وربه .

ومهما يكن من شىء فقد كان ابن سكرة مثل ابن حجاج ماجنا خليعا .. وكان شعرهما الماجن يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة .. ورواج ذلك الشعر الفاحش فى الأوساط الاجتماعية أكبر دليل على فساد الأذواق وانحلال المجتمع فى ذلك العصر .

* * *

((الفصل الخامس))

:: مظاهر الفقر والحرمان وأثرها في أدب اليتيمة ::

:: مظاهر الفقر والحرمان وأثرها فى أدب اليتيمة ::

كان للتفاوت الطبقى فى المجتمع ، وسوء الأوضاع الإقتصادية فى ذلك العصر أثرهما الواضح فى انقسام المجتمعين العراقى والفارسى إلى طبقتين متباينتين : تنعم إحداهما بما لذ وطاب من طيبات الحياة وتعيش فى ترف ورخاء وهى طبقة الحكام من خلفاء وأمراء ووزراء وقواد وتعيش الأخرى فى فقر مدقع ، وبؤس شديد وهى : طبقة المحكومين الذين قسا عليهم الزمن . وطحنتهم المصائب وأنهكتهم الضرائب والحروب .

ولقد عبر ابن لنكك البصرى عن أحوال هذه الطبقة وتبرمها بالحياة أصدق تعبير عندما قال :

نَحْنُ واللّهِ فى زَمَانٍ غَشُومٍ * لَوْ رَأَيْنَاهُ فى الْمَنَامِ فَزِعْنَا
يصبحُ الناسُ فيه من سوءِ حالٍ
حق مَنْ مات منهمُ أَنْ يُهَنّا (١)

ويكفى أن أذكر أن كثيرا من أفاضل العلماء والأدباء والفلاسفة كانوا لا يجدون ما يحفظ الرمق ويقيم الأود والجأتهم الحاجة إلى سؤال الناس وإراقة ماء الوجوه من أجل القوت حتى إن أبا حيان التوحيدى الفيلسوف الكبير والأديب الواسع الإطلاع بلغ به السخط والتبرم من الحياة والأحياء أنه أحرق كتبه فى نهاية حياته فلما عذل فى ذلك قال : إننى

(١) اليتيمة جـ ٢ ص ٣٢٢ .

فقدت ولدًا نجيبًا ، وصديقًا حبيبًا ، وصاحبًا قريبًا ، وتابعًا أديبـــا ، ورئيسًا منيبا فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضــــى إذا نظروا فيها .. وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقـــــد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة الى أكل الخضر فى الصحراء والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة والى بيع الدين بالمروءة[1]

واذا كان هذا شأن الفلاسفة والادباء . فما بالنا بالسوقة ، والعامة .. الذين لا شك أن ظروفهم كانت أقسى ، وأحوالهم الماديـــة كانت أسوأ .. ولقد كانت الكوارث تعصف بهم والامراض تفتك بهـــم ويقضى على معظم الجوع، وبديع الزمان الهمذانى يصور أحوال الرعية فـــى بعض المدن ضمن رسالة استغاثة وجهها إلى أحد الكبراء فيقول :

فيهم فشت الامراض الحادة ، فخبطت عشواء ، وأفنت رجالا ثـــم جد الغلاء وفقد الطعام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعـــم أسبوعا حتى هلك جوعا ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهـــو ينتظر نحبه ليلحق صحبه ، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفـــه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ، ترعد فرائصهم من هـــذه البوائق وإن هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر المطالبات أكبر وأهم[2] "

ولا شك أن هذه الصورة الكريهة التى رسمها بديع الزمان لهـــذه

---

(١) الحضارة والاسلام لمتز جـ ١ ص ٤٤٨ .
(٢) رسائل الهمذانى ص ١٢٧ .

المدينة البائسة تدل بوضوح على الحالة الاجتماعية التعسة التى وصل إليها معظم المحكومين آنذاك ..

ولقد كان لهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .. ظاهرة الفقر والحرمان ـ صدى عميق فى أدب اليتيمة تجلى بصورة واضحة فى أدب الكُدْيَة والاستجداء أو الأدب الساسانى كما كانوا يطلقون عليه كما تجلى كذلك فى أدب الشكوى والحرمان وهو ذلك اللون الذى أكثر فيه أصحابه من شكوى الزمن وذم الدهر ووصف مظاهر الفقر والعوز والثورة والسخط والتبرم من الأوضاع القائمة والحديث عن الفشل والإخفاق ، والشعور باليأس والإحباط وما تحدثه هذه الأمور فى نفس صاحبها من جزع ونقمة ومرارة .

أما الأدب الساسانى فهو ذلك النوع من الأدب الذى يصور التشبث بأسباب الحياة والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة .

إنه ذلك اللون الذى يصور حياة طائفة من المجتمع قسا عليها الزمن وتنكرت لها السنون ففشلت فى الحصول على القوت بالوسائل المشروعة من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها من وسائل الرزق المباح فاتخذت من الكدية والتسول طريقة لكسب المال والحصول على القوت ، وفى سبيل الغنى السريع والثراء الفاحش الرخيص ، لجأوا إلى شتى الطرق وتفننوا فى الحيل ونصب الشباك للحصول على المال ، وأمعنوا فى ذلك حتى فقدوا الكثير من الصفات الإنسانية الكريمة ..

ولا أزعم أن حرفة التسول كانت وليدة القرن الرابع الهجـرى وإنما هى قديمة عند العرب وغيرهم .. قدم الفقر والغنى فقد روى أنه قيل للحطيئة : أوصى للمساكين بشئ فقال : أوصيهم بالمسألـة ما عاشوا فانها تجارة لن تبور (١) .

ولقد كان الجاحظ أول كاتب عباسى تحدث عن موضوع الكديـة إذ كتب عن أصناف المكدين وما يمتازون به ويحتالون وقدم علينا كثـيرا من أخبارهم ونوادرهم (٢) .

وفى أوائل القرن الرابع تحدث عنهم البيهقى حديثا طويـلا وتوسع فى الكلام عن أصنافهم وطبقاتهم وأعمالهم وحيلهم ونوادرهم (٣) .

ولكن الجديد فى القرن الرابع هو شيوع هذه الحرفة وانتشارهـا وتعدد أصحابها وكثرتهم . وتنوع أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب والخطباء والأشراف وغيرهم وكانوا يجوبون البلاد ويطوفون بالأقالـيم ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال وقد أطلق عليهم لفـظ الساسانيين " أو " بنى ساسان " نسبة إلى رجل يقال له : ساسان ، وقد اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال فى أصل هذا الرجل الذى تنسب اليه هذه الطائفة .

فمن قائل : إنه ساسان بن أسفنديار الذى كان من حديثـه

---

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٢٩٣ .
(٢) البخلاء ص ٤٧ وما بعدها .
(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٦٢٢

أنه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم لابنته ، فأنف ساسان من ذلك واشترى غنما وجعل يرعاها فعُيِّر بأنه راعى الغنم فقيل ساسان الراعى وساسان الكردى ونسب إليه كل من تكدّى .

وقيل كان ساسان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلا فقيرا يتردد فى الأحياء ويستعطى فضرب به المثل، وقيل : إنه كان رجلا فقيرا بصيرا فى استعطاء الناس والاحتيال فنسبوا إليه [1] .

وكل هذه الأقوال إفتراضات قد تكون صحيحة ولكنى أميل إلى رأى الإمام محمد عبده فى هذا الأمر حيث يرى — رحمه الله — أن الساسانيين أو بنى ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التى أسسها أردشير بن بابك ، فلما محقها الإسلام وبقى من أطرافها أفراد سقطوا من حساب فتيان المسلمين الأولين فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان ويعيرونهم بعنوان آبائهم بعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب صارت نسبة قذف وسب .

وكان فى اشهار هذا الإسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب وهى ألا يبقى لدولة الساسانيين ذكر فى لسان ولا أثر فى جنان ينبىء عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة ..

---

(١) ظهر الاسلام حـ ١ ص ١٤٢ .

ثم نسى ذلك بمرور الأيام ، وبقى اللفظ مستعملا فى الشحاذين وهم أدنى طبقة من الناس [١] .

وقد ورد ذكر الساسانيين فى شعر الأُحنف العكبرى وأبى دُلَف الخزرجى . وهما من شعراء اليتيمة كما ورد ذكرهم فى مقامات بديع الزمان الهمذانى .

وللحريرى مقامة سماها " المقامة الساسانية " نسبة إلى هذه الطائفة وقد أوضح فيها كثيرا من البواعث الدافعة إلى التسول فقال :

" سمعت أن المعايش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع فما أحمدت فيها معيشة ، ولا استرغدت عيشة .

أما فرص الولايات وخلس الإمارات فأضغاث الأحلام .

وأما بضائع التجارات ، فعرضة للمخاطرات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات .

وأما اتخاذ الضياع والتصدى للإزدراع فمنهكة للأعراض وقيود عائقة عن الإرتكاض وقلما خلا ربها من إذلال أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافعة فى جميع الأوقات ولم أر ما هو بارد المغنم لذيذ المطعم وافى المكسب صافى المشرب إلا

---

(١) شرح مقامات الهمذانى ص ٩٧ .

الحرفة التي وضع ساسان أساسها وأضرم في الخافقين نارها ، وأوضح لبني غبراء نيرانها إذًا كانت المنجر الذي لا يبور والمنهل الذي لا يغور وكان أهلها أعز قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم من حيف ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ولا يحفلون بمن قام وقعد ، أينما سقطوا لقطوا وحينما انخرطوا خرطوا لا يتخذون أوطانا ولا يتقون سلطانا[1] "

ولقد كان لظاهرة التسول في المجتمع وانتشارها على هذا النحو اثرها المباشر في ظهور لون من الأدب جديد ليس له نظير في غير بيئة العراق وفارس وهو الأدب الساساني .. كما هيأت الفرصة لظهور شاعرين كبيرين من شعراء اليتيمة صورا في شعرهما آلام هذه الطائفة من بني ساسان وأساليب معيشتها وفنون حيلتها وعاداتها وتقاليدها وألفاظها الخاصة بها .

وهذان الشاعران هما : الأحنف العكبري وأبو دلف الخزرجي .

والأحنف العكبري هو : ابو الحسن عقيل بن محمد العكبري وصفه الثعالبي بأنه " شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم[2] " . وكان الصاحب بن عباد معجبا به وبشعره فقال عنه " هو فرد ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر "[3] .

---

(١) ظهر الاسلام حـ ١ ص ١٤٣ .
(٢) اليتيمة حـ ٢ ص ١٠٤ .
(٣) نفسه حـ ٣ ص ١٠٤ .

وقد أكثر العكبرى من وصف بؤسه وتصوير آلامه فى مقطوعات شعرية مؤثرة كقوله :

عِشْتُ فى ذِلَّةٍ وقِلَّةِ مالِ * واغترابٍ فى مَعْشَرٍ أنْذالِ
بالأمانى أقولُ لا بالْمَعانى * فَغذائى حَلاوةُ الآمالِ
لى رِزْقٌ يقولُ بالوَقْفِ فى الرأْ * ى ورِجْلى تقولُ بالإعْتِزالِ[1]

....

وبلغ به البؤس والتعاسة أنه كان يرى " أن الحشرات الحقيرة كالعنكبوت والخنفساء أسعد منه حظا ، وأحسن حالا ، حيث إنها تتمتع ببيت تسكن فيه وأليف تطمئن إليه ، أما هو فلم يكن له مثلها إلف ولا سكن فيقول :

الْعَنْكَبُوتُ بَنَتْ بيتاً على وَهَنٍ
تَأْوِى إِلَيْهِ ومالِى مثلُهُ وطَنُ
والخنفساءُ لها مِنْ جِنْسِها سَكَنٌ
وليس لى مثلُها إِلْفٌ ولا سَكَنُ [2]

ويتحدث فى مقطوعة ثالثة عن طريقته فى كسب الرزق ووسيلته فى جلب المال وحيلته التى يستدر بها عطف الناس فيقول :

قد قَسَمَ اللهُ رِزْقِى فى الْعِبادِ فما
يَكادُ يُدْرَكُ إلاّ بالتَّفاريقِ

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ١٠٥ .
(٢) نفسه جـ ٣ ص ١٠٥ .

وَلستُ مُكتسبًا رِزْقًا بِطْلَسفَةٍ
ولا بِشِعْرٍ وَلكنْ بالْمَخارِيقِ
والناسُ قدْ عَلموا أنّي أخُو حيَلٍ
فَلستُ أنْفَقُ إلاّ في الرّساتيقِ (١)

...

وعلى الرغم من هذه الحياة التعسة التى صورها العكبرى فى مقطوعاته الشعرية الباكية ، كان معتزا بحرفته فخورا بنسبه متمسكا بصناعته وكان يرى أن بنى ساسان أهل جد ومجد وسلطان فيقول :

على أنّي بحمْدِ اللّهِ فى بيْتٍ من الْمَجْدِ
بإخواني بنى ساسا * نَ أهلِ الْجِدِّ والْحَدِّ
لهم أرضُ خُراسا * نَ فقاشانَ إلى الْهِنْدِ
إلى الروم إلى الزنج * إلى البلغار والسِّنْدِ
إذا ما أعْوزَ الطّرْقُ * على الطراق والجُنْدِ
حذارًا من أعاديهم * من الأعْراب والكُرْدِ
قطعْنا ذلكَ النّهْجَ * بلا سَيْفٍ ولا غمْدِ
ومن خاف أعاديه * بنا فى الرّوْعِ يستعدى (٢)

....

ومن يقرأ هذه الأبيات للشاعر يقع فى دهشة وحيرة إذ كيف يفتخر الشاعر بحرفته وبقومه من بنى ساسان ويزعم أنه من بيت ماجد عظيم الثراء عريض الجاه واسع النفوذ والسلطان .. مع أنه منذ قليل كان

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ١٠٥ .
(٢) نفسه جـ ٣ ص ١٠٤ .

يرثى نفسه ويندب حظه ويصور بؤسه وتعاسته .

فهل كان الشاعر حقاً جاداً فى هذا الفخر ببنى ساسان ؟ وهل كان سعيدا بانتسابه إلى هذه الطائفة ؟ أم أنه كان هازلا عابثا لا يعنى ما يقول ؟ .

يزعم بعض الباحثين [1] أن العكبرى كان هازلا ساخرا وأنه ليس من السذاجة بحيث يرى فى حرفة التسول مجدا عريضا يستحق أن يفخر به إنسان خاصة : أنه كثيرا ما تحدث عن بؤسه وشقائه وتعاسته ..

أما أنا فأخالفه فى ذلك وأرى أن الشاعر لم يكن عابثا ولا ساخرا وانما كان جادا فى فخره ببنى ساسان وفى انتسابه إليهم .. للأسباب الآتية :

أولا : أن بنى ساسان قد كثروا فى هذا العصر كثرة هائلة وتعددت أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب والخطباء والأشراف حتى إن أبا دلف الخزرجى قد جعل الخليفة العباسى المطيع لله واحدا منهم فلا غرابة أن ينتسب الشاعر إليهم ولا غرابة أن يفخر بهم وبحرفتهم بغير غضاضة ولا حرج .

ثانيا : إن أفراد هذه الطائفة كانوا يعيشون فى حرية وانطلاق وينتقلون من مكان إلى آخر بلا عوائق أو قيود .. وكانوا

---

(١) محمود غناوى الزهيرى فى كتابه الأدب فى ظل بنى بويه ص٢١٦ .

يرون أنفسهم فوق القانون فلا يتعرضون للمصادرة أو السرقة ولا تفرض عليهم ضرائب ولا تجبى منهم زكاة حتى إن الاغنياء كانوا يحتمون بهم فى وقت الخطر وينتحلون شخصياتهم إذا ما تعرضوا لكبسات اللصوص وقطاع الطرق وهذا ما عناه الأحنف فى قوله :

ومن خاف أعاديه * بنا فى الروع يستعدى

وإذا كان هذا شأنهم فلا مانع أن يفتخر الشاعر بهم .

ثالثا : أن هذه الطائفة كانت قد فقدت الكثير من آدميتها وكرامتها واستمرأت العيش السهل فى ظل الكدية واستكانوا للمذلة والهوان وكانوا ينظرون إلى غيرهم من أصحاب الحرف الأخرى الشريفة نظرة عطف وإشفاق لأنهم كانوا يرون أنفسهم أسعد حالا منهم وكانوا ينظرون إلى حرفتهم على أنها المتجر الذى لا يبور والمنهل الذى لا يغور وكان أهلها أعز قبيل وأسعد جيل ، كما يقول الحريرى فى مقامته السابقة ..

ومن أجل ذلك لم يجد الشاعر غضاضة فى أن يفتخر بهم وبحرفتهم

وإلى عهد قريب كانت جماعات الغجر " والأدباتية " يحترفون الكدية وكانوا يجوبون مدن مصر وقراها يحتالون على الناس ويخرقون لهم .. شأنهم فى ذلك شأن بنى ساسان القدامى .

وما أشك فى أنهم من بقايا تلك الطائفة ولقد شاهدتهم يتباهون

بحرفتهم ويعتزون بها ولا يرضون بها بديلا وينظرون إلى غيرهم من الفلاحين والصناع والتجار نظرة عطف ورثاء ..

فلا عجب أن يفتخر بهم الأحنف وغيره من شعراء الكدية ولا غرابة أن يصادقهم الحكام فى ذلك العصر كالصاحب بن عباد الذى كان يصادقهم وينادمهم ، ويدنيهم من مجلسه ، ويعرف لغتهم السرية ، ويحفظها حفظا عجيبا ، حتى إن الاحنف العكبرى ، وأبا دلف الخزرجى كانا من ندمائه المقربين ..

أما أبو دلف الخزرجى فقد كان من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ خاصة فى القرن الرابع ، كما أنه كان عالما وطبيبا ، وكيمائيا ، و " جيولوجيا " من الطراز الأول ، كذلك كان منادما فى الذروة ومجالسا للملوك ينادمهم وينال عندهم الخطوة والمكانة الرفيعة .

وهذا إلى أنه شاعر رفيع المنزلة بين الشعراء فى عصره ، وعلم من أعلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى أيامه ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف ، وعلو الذوق ، وجمال الفكاهة وسرعة النكتة مما حببه إلى الملوك وقرّبَه إلى الوزراء (١) .

" واسم أبى دُلَفْ مُسَعّر بن مُهَلْهِلْ ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة ، وللخزرج فى الإسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد .. أما الينبعى فهو نسبة إلى مدينة "ينبع" المشهورة فى

(١) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى و ص ١٠٢ .

الحجاز ويوصف أبو دلف أيضا بالينبعى وهو من الجزيرة العربية . عاش القرن الرابع كله أو جله يجوب البلاد ويمدح الملوك وينادم الأمراء والوزراء مطوفا فى كل مكان من بخارى إلى الصين والهند .. ومن فارس إلى أرمينية وأذربيجان وطبرستان وبلاد الأكراد يصف كل ما يشاهده ، ويدون كل ما يلاحظه فى دقة تامة وعناية بالتفاصيل كاملة مما أذهل المستشرقين فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع (١) .

أما المصدر الذى ترجم لأبى دلف ترجمة أدبية فهو كتاب اليتيمة الذى أرخ لأدباء هذا العصر فقال عنه الثعالبى : " شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الكدية خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب وفى تدويخه البلاد وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده ويكثر سواد غاشيته ويرتفق بخدمته ويرتزق فى جملته ويتزود من كتبه فى أسفاره فتجرى مجرى السّفاتج فى قضاء أوْ طاره (٢) .

وفى شعر أبى دلف ما يدل على كثرة أسفاره وتجاربه وتطوافه فى البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب كقوله :

أَلاَ إِنِّيَ حَلَبْتُ الدَّهـ * ـرَ من شَطْرٍ الى شَطْـرِ
وَجُبْتُ الأَرضَ حتّى صِرْ * تُ فى التَّطْوافِ كالْخِضْرِ
وللْغُربةِ فى الْحُرِّ * فعالُ النار فى التِّبْرِ

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(٢) اليتيمة حـ ٣ ص ٣٢١ .

فَبَعْضٌ مِنْهُ لِلْخَيْرِ * وَبَعْضٌ مِنْهُ لِلشَّرِّ (١)

....

وترجع شهرة أبى دلف الأدبية إلى تلك القصيدة الرائية الشهيرة التى عارض فيها دالية الأحنف العكبرى والتى تعرف باسم القصيدة الساسانية " .

وقد رواها الثعالبى فى اليتيمة وهى طويلة جدا فاختار الثعالبى منها ما يقرب من مائتى بيت ، بدأها الشاعر بأبيات رقيقة شرح فيها آلامه وآلام اخوانه من بنى ساسان وما يلقونه من جهد ومشقة فى أسفارهم واغترابهم ثم عقب على ذلك بأبيات فى الفخر على طريقة الأحنف فى الدالية ثم أسهب بعد ذلك فى بيان أنواع المكدين وفنون حيلهم وأساليبهم فى سبيل الحصول على المال وكيفية ابتزازه من الناس .

وقد كان هؤلاء الشحاذون يطوفون فى الآفاق ، ويجولون فى البلدان ويتنقلون فى القرى والأرياف يستجدون ويحتالون على الناس ويسلبون منهم الأموال ..

وقد كشف أبو دلف فى هذه القصيدة عن الكثير من أساليبهم وحيلهم ووسائلهم فى سلب المال ، كما ذكر الكثير من مصطلحاتهم الخاصة التى لا يفطن إليها سواهم .. وقد قام الثعالبى بشرحها شرحا وافيا شافيا وكشف الحجاب عن مغاليقها وأسرارها ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٤٢ .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ولا يقاربها في هذا السبيل أثر أدبي آخر إلا مقامات الهديع وقد أعلن أبو دلف في هذه القصيدة أنه شخصيا من زمرة الساسانيين كما حشر معه كثيرا من الشعراء والأشراف وبالغ في ذلك حتى جعل الخليفة العباسي المطيع لله من جملتهم ...

يقول أبو دلف في مقدمة هذه القصيدة :

جُفُونٌ دَمْعُهَا يَجْــرِى * لِطُولِ الصَّدِّ وَالْهَجْــرِ
وَقَلْبٌ تَرَكَ الوجـــدُ * به جَمْرًا عَلَــى جَمْــرِ
لقد ذُقْتُ الْهَــوَى طَعْمَيْـنِ مِنْ حُلْــوٍ ومن مُــرِّ
ومن كان من الأحـــرا * رِ يَسْلُــو سَلْــوَةَ الْحُــرِّ
ولا سِيمَا وفي الْغُرْبَـــةِ أَوْدَى أكثـــرُ العمـــرِ
تَمَزَّيْتُ كَغُصْـنِ الْبَـا * نِ بَيْنَ الْوَرَقِ والخضـرِ
وشاهدت أعاجيبـــا * وألوانـــا من الدهـــرِ
فطابت بالنــوى نفســى * على الإمسـاكِ والفطـــرِ (١)

....

وبعد هذه المقدمة الرقيقة يورد موضع افتخاره كما فعل الأحنف الْعُكْبَرِى في الدالية فيقول :

عَلَى أَنِّيَ مِنَ الْقَــوْمِ الْــ * ـبِهَا لِيلِ بَنِي الْغُـــرِّ
بني ساسَانَ وَالْحَامِى الْـ * حِمَى في سَالِـفِ الْعَصْـرِ

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ١٢٣ .

تَفَرَّ بْنا إِلــــى أنَّا * تناءَيْنَــا إِلَــى شَهْــرِ
فَظَلَّ الْبَــيْنُ يَرْمِينَــا * نَوَى بَطْناً إِلَــى ظهرِ
كما قَــدْ تَفْعَلُ الرِّيــحُ * بِكُتْبِ الرَّمْــلِ فى الْــبرِّ
ضحنُ الناسُ كُـــلَّ النَّا * سِ فى الْــبرِّ وفى الْبَحْــرِ
أَخَذْنَا جِزْيَةِ الْخَلْــقِ * من الصِّــين إلى مصــرِ
إلى طَنْجَةَ بــل فى كُـــلِّ أرضٍ خَيْلُنَاَ تَسْــرِى
إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْــرُ * نَزُلْ عَنْهُ إِلَــى قُطْــرِ
لنا الدُّنْيَــا بِما فِيهَــا * من الإِسْلَامِ والْكُفْــرِ
فَصْطَافُ على الثَّلْــجِ * وَنَشْتُو بَلَــد التَّمْــرِ (1)

....

ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد أصناف المكدين وبيان حيلهم ومكايدهم وطريقة ابتزازهم للمال ، ويكشف الكثير من أسرار صناعتهم ويذكر كثيرا من مصطلحاتهم السرية الخاصة التى لا يفطن إليها أحد سواهم .

وقد قام الثعالبى بشرح هذه المصطلحات وأوضح الكثير من مغاليقها وألغازها ولولا ذلك لما عرفنا عنها شيئا .

يقول أبو دلف مبينا أصناف المكدين وطريقة احتيالهم :

وَمِنَّا الْكَاغُ والْكَاغَـــة * ـةُ والشَّيْشَـــقُ فى النَّحْرِ (2)

---

(1) اليتيمة حـ ٣ ص ٣٢٤ .

(2) الكاغ والكاغة : المتجانن والمتجاننة .
الشيشق : الحدايد والتماويذ التى يعلقونها على أنفسهم .

وَمَنْ دَوْزَزَ أَوْ حَرَّزْ * أَوْ كَوَّزَ بِالدَّغَرِ (١)
وَمَنْ دَرَّعَ أَوْ قَشَّعَ أَوْ دَمَّعَ فِي الْغَرَرِ (٢)
وَمَنْ رَعَّشَ أَوْ كَبَّسَ أَوْ غَلَّسَ فِي الْفَجْرِ (٣)
وَمِنَّا كُلُّ قَنَّاءٍ * عَلَى الإِنْجِيلِ وَالذِّكْرِ (٤)
وَمِنَّا كُلُّ مُسْتَعْشٍ * مِنَ النَّمَّارَةِ الْكُدْرِ (٥)
وَمَنْ شَدَّدَ فِي الْقَوْلِ * وَمَنْ رَمَّدَ فِي الْقَصْرِ (٦)

---

(١) دَوْزَزَ : إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء .
حَرَّزَ : إذا كتب التعاويذ والأحراز .
كَوَّزَ : اذا أقام في المجلس والمكوز : هو الذى يقوم فى مجالس القصاص فيأمر القاص أصحابه باعطائه ثم اذا تفرقوا تقاسموا .

(٢) دَرَّعَ : إذا جاء الهراس وطلب قصعة من الهريسة فاذا أعطاه اياها لحسها .
قَشَّعَ : اذا مشى وعينيه الى الارض لطلب القطع .
دَمَّعَ : اذا بكى فى الاسواق عند البرد حتى يعطى .

(٣) رَعَّشَ : اذا طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزه ومن هنا تمره .
كَبَّسَ : اذا دار فان رأى رجلا حل سفجته كبسه وأخذ منه قطعة .
غَلَّسَ : اذا خرج الى الكدية بغلس .

(٤) الْقَنَّاءَ : الذى يقرأ التوراة والانجيل ويوهم أنه كان يهوديا أو نصرانيا فأسلم ..

(٥) مُسْتَعْشٍ : قوم يدورون على أبواب الدور فيما بين العشائين ويقولون ـ رحم الله ـ من عشى الغريب وينمرون بذلك حتى يأخذوا من كل دار كسرة ويرجعوا بها .

(٦) ومن شَدَّدَ : قوم يكون معهم دفاتر حديث يرونها ويشددون على الناس فى اللواط وشرب الخمر .
الْقَصْر : هو الأتون يدخله الواحد من القوم فيطرح نفسه فى الرماد . يوهم أنه آوى اليه من شدة البرد وعدم الملبوس .

وَمَنْ قَنْـــتَونَ أَوْ بَنْــــتَونَ أَوْ طَيَّنَ بِالشَّمْـــرِ (١)
وَمِنَّا مُنْعِـــدُ الطِّـــينِ * وَأَصْحَـابُ اللِّحَى الْحُمْــرِ (٢)
وَمَنْ شَـــنَّفَ بِالْمَـاءِ * وَمَنْ شَـــقَّفَ بِالْجَمْـرِ (٣)
وَمِنَّا النَّائِـــحُ الْمُبْكِي * وَمِنَّا الْمُنْشِـــدُ الْمُطْرِي (٤)
وَمَنْ ضَرَّبَ فِي حُـــبِّ * عَلِيٍّ وَأَبِـــي بَكْـــرِ (٥)

---

(١) قَنْوَنَ : المقنون : هو الذى يقول : كان أبى نصرانيا . وأمــى يهودية وأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى فى النــوم وقال : لا تغتر بدين أبويك وأتبع ملتى فأسلمت .
بَنْوَنَ : إذا انتسب الى البانوانية وهم الشطار وقال : كنت محبوسا فاحتلت بكذا حتى خرجت .
طَيَّنَ : إذا طين وجهه وساعديه بطين الحمرة وروى الأشعار على رؤوس الأشهاد فى الأسواق .

(٢) منقذ الطين : قوم يخضبون لحاهم بالحناء ويدعون أنهم شيعـــة ويحملون السبح والألواح من الطين ويزعمون أنها من قــبر الحسين بن على رضى الله عنهما فيتحفونها الشيعة .

(٣) الْمُشَقِّفُ : هو الذى يأخذ ماء النوشادر فيكتب بها الرقاع ويتركها بين يديه فإذا مر به الأبله قال له : جرب بختك وخذ رقعة من هذه ثم يعطيه إياها فيقذفها فى النار فيظهر المكتوب أسود وقد يعمل هذا الجنس بماء العفص فإذا غمس فى ماء الزاج خرج أسود ويقال للرقعة الشقيفة .

(٤) النائح المبكى : قوم ينوحون على الحسين بن على ويروون الأشعار فى فضائله ومراثيه رضى الله عنه .

(٥) وَمَنْ ضَرَّبَ فى حب الخ : قوم يحضرون الأسواق فيقف واحدٌ جانبا ويروى فضائل أبى بكر رضى الله عنه ويقف الاخر جانبا ويروى فضائل على رضى الله عنه فلايفوتهما درهم الناصبى والشيعى ثم يتقاسمان الدراهم .

وَمَنْ يَرْوِي الأَسَانِيــدَ * وَحَشْــوُ كُلِّ قِمَطْــرِ (١)
وَمَنْ يُكْحَلُ مِنْ مُسْتَعْـ * ـرِضٍ بِمُعْتَسِهِ تَجْرِى (٢)
وفى الْمَوْقِـفِ مِنَّا كُـ * ـلُّ جَبَّارٍ أخى الصَّبْرِ (٣)

* * *

وعلى هذا النحو يسهب أبو دلف فى سرد أصناف المكدين ويمعن فى تعداد حرفهم وبيان حيلهم وأساليبهم فى جمع المال وابتزازه .

وكان فى كل ذلك يستخدم لغة خاصة لا يفهمها إلا الصعاليك من بنى ساسان .. وهذه اللغة السرية كانت تعرف " بمناكاة بنى ساسان " وقد روى الثعالبى " أن الصاحب ابن عباد كان يحفظ هذه اللغة حفظا عجيبا ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها وكانا يتجاذبان أهدابهما ويجريان فيها لا يفطن له حاضرهما ولما أتحفه أبو دلف بهذه القصيدة اهتز ونشط لها وأجزل صلته عليها (٤) "

(١) ومن يروى الأسانيد الخ : قوم يروون الأحاديث على قوارع الطريق .

(٢) ومن يكحل الخ : هو الذى معه قطنة مغموسة فى الزيت يمرها على عينيه لتدمع ويأخذ فى شكاية حاله واستعراض الناس فى مسألته . وذكر قصته وأنه قطع عليه الطريق أو غصب ماله .

(٣) كل جبار : هو الذى يقف فى المقام قائما أو قاعدا ولا يبرحه حتى يأخذ ما يريد ..

(٤) اليتيمة جـ ٣ ص ٣٢٢ .

وقد توسع أبو دلف فى مفهوم الكدية والمكدين فى هذه القصيدة بحيث جعل منهم الشعراء والأشراف والخلفاء فقال :

وَمِنَّا شُعَرَاءُ الأَرْ * ضِ أَهْلُ الْبَدْوِ والْحَضْرِ
وَمِنَّا سَائِرُ الأَنْصَا * رِ والأَشْرَافِ مِنْ فِهْرِ
وَمِنَّا قَيِّمُ الدِّينِ الْـ * ـمُطِيعُ الشَّائِعُ الذِّكْرِ
يُكَدِّى مِنْ مُعِزِّ الدَّوْ * لَةِ الْخُبْزَ عَلَى قَدْرِ (١)

....

ويبدو أن أبا دُلَف كان جادا فى حشر الخليفة العباسى المطيع لله من جملة الساسانيين لا ساخرا ولا متندرا كما يقول الثعالبى : فالفقر والحرمان وسوء الأوضاع الإقتصادية قد دفعت كثيرا من الاشراف والشعراء والكتاب وحتى بعض الخلفاء إلى الاستجداء وطلب العطاء ..

فهذا الخليفة القاهر شوهد بعد أن خُلِعَ وَسُمِلَ وهو واقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس لولا أن رآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم (٢) .

وهذا ابن حجاج الشاعر الماجن الذى كان محتسبا على مدينة بغداد فى القرن الرابع يملأ شعره بألفاظ المكدين ومعانيهم كقوله :

يَا سَادَتِى قَوْلُ مَيْتٍ * فِى مِثْلِ صُورَةِ حَىِّ
لَمْ يَبْقَ فِى الْخُرْجِ شَىْءٌ * أَتَأْذَنُونَ بِشَىِّ (٣)

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٢٣٦ .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٤٩ .
(٣) اليتيمة جـ ٣ ص ٤٩ .

وهذا ابن سكرة الهاشمي لم يمنعه شرف أصله وكرم نسبه من أن يقول :

قل للرئيس الـــذى أنامِلُـــهُ
مَبْسُوطَةٌ بالنـــوال مُنْخَرِقَـــةْ
حَلَّتْ لـــى المَيتةُ الـــتى حُرِمَـــتْ
فكيف تنبـــو نفسى عن الصَّدَقَـــةْ (١)

...

ومهما يكن من أمر فان هذه النماذج المتعددة من الأدب الساسانى تُعَدُّ صورة صادقة للحياة الاجتماعية والإقتصادية القاسية التى كانت طائفـــة ضخمة من طوائف المجتمع تحياها نتيجة للظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقـــى

وإن القصيدة الساسانية لَتُعَدُّ بحق وثيقة تاريخية واجتماعية علـــى درجة كبيرة من الأهمية لدراسة حياة الشحاذين والمتسولين ومعرفة حيلهـــم وتقاليدهم بصورة خاصة كما أنها تُعَدُّ من أفضل المصادر التى تلقى الأضواء علـى أحوال العصر الاجتماعية ولا يعادلها فى هذا الشأن أثر أدبى آخر .

* * *

---

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٢١ .

وقبل أن أفرغ من دراسة الأدب الساسانى الذى رواه الثعالبى وترجم لأدبائه وسجل نماذجه فى اليتيمة ينبغى أن أبرز الصلة القائمة بين هذا الأدب وبين مقامات البديع .

ولا أريد هنا أن أتعرض لدراسة المقامات دراسة تاريخية اجتماعية أدبية شاملة فذلك أمر خارج عن نطاق البحث لسببين :

الأول : أن بديع الزمان ألف معظم مقاماته بنيسابور فى خراسان .. وخراسان ليست داخلة فى نطاق البحث .

ثانيا : لأن مصدر البحث هو كتاب "اليتيمة" والثعالبى فى اليتيمة لم يتكلم عن المقامات وانما أشار اليها اشارة عابرة أثناء ترجمته للبديع عندما قال : وأملى ـ البديع ـ أربعمائة مقامة فى الكدية وغيرها (١) .

ومن هنا كانت الصلة بين اللونين : فالشعر الساسانى قائم على الكُدْيَة والمقامات معظمها يقوم على الكدية كذلك وما أشك فى أن البديع قد تأثر بشخصية أبى دلف الخزرجى وقصيدته الساسانية الطويلة فى الكدية .

والدارس لشخصية أبى دلف الخزرجى كما صورها الثعالبى فى اليتيمة وشخصية أبى الفتح الاسكندرى كما صورها البديع فى المقامات يلاحظ أن

---

(١) اليتيمة حـ ٤ ص ٢٤١ .

الشخصيتين كانتا متطابقتين تمام التطابق ، فكلاهما كان شاعرا عالما فقيها ذا عقل راجح وبيان خلاب ، وكلاهما كان جوالة طاف بالبلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وكلاهما كان ذا حيلة ودهاء عظيم ..

ولا أتجاوز الصواب اذا جزمت — كما جزم بعض الاساتذة — بأن أبا الفتح الإسكندري بطل المقامات هو نفسه أبو دلف الخزرجي صاحب القصيدة الساسانية السابقة ، وليس ببعيد أن يكون الهمذاني قد جعل من شخصية أبي دلف الخزرجي — وهو من أهل عصره وأستاذه — بطلا لمقاماته وكنى عنه بأبي الفتح من باب التمويه والتعمية وقد كشف الثعالبي — نفسه — عن هذه الحقيقة من غير قصد عندما قال أثناء ترجمته لأبي دلف " وأنشدني بديع الزمان لأبي دلف ونسبه في بعض المقامات إلى أبي الفتح الإسكندري :

وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ ... فلا يَغُرَّنَّكَ الْغُرُورُ

زَوِّقْ وَمَخْرِقْ وَكُلْ وأطبق ... واسْرِقْ وَطَلِّقْ لِمَنْ يَزُورُ

لا تَلْتَزِمْ حَالَةً ولكِنْ ... دُرْ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ (١)

...

---

(١) اليتيمة جـ ٣ ص ٣٢٣ .

فهذا النص يدل على أن الهمذانى كان راوية لشعر أبى دُلَف ينشده فى المحافل والمنتديات ويرويه للمؤلفين والأدباء .. وورود هذا الشعر نفسه فى بعض المقامات على لسان أبى الفتح الإسكندرى يدل على أن شخصية أبى دلف الخزرجى وشخصية أبى الفتح الاسكندرى بطل المقامات كانتا مترابطتين فى ذهن البديع ترابطا عجيبا ، والذى جزم بذلك من قبلى هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عندما قال[1] :
" ورأيى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة وهى أبو دلف الخزرجى وحده " .

وليس هذا كل ما لاحظته من صلة أو تأثر بين الأدب الساسانى وبين مقامات البديع فإن من يقرأ المقامة الرصافية للبديع يشعر أنه نشر فيها قصيدة أبى دلف الساسانية ..

وفضلا عن ذلك فقد سمى البديع إحدى مقاماته باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة التى تحدث عنها أبو دلف فى قصيدته مما يدعم الصلة القائمة بين العملين .

وهذا مما يؤكد القول بأن شخصية أبى دلف وما جاء فى قصيدته الساسانية عن أصناف المكدين وبيان حيلهم ووسائلهم ومصطلحاتهم كانا من العوامل المباشرة التى ألهمت البديع فن المقامات .

وبعد أن فرغت من دراسة الأدب الساسانى : وهو الشق

---

(١) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى ص ١٠٠ للدكتور خفاجة .

الأول من أدب الفقر والحرمان سأتحدث عن الشق الثانى من هـــذا الأدب وهو : أدب الشكوى من الزمن والثورة على الأوضاع وتصويـــر المصائب والنكبات ووصف مظاهر الفقر والفاقة . وقد كثرت نماذج هذا اللون من الأدب فى اليتيمة نتيجة لما أصاب الناس فى هذا العصر من ضروب المحن والنكبات فطبعت حياتهم بطابع الحزن والكآبة وتولد فى نفوسهم الحقد والمرارة .

ويكفى أن أستشهد بنص واحد لأبى حيان التوحيدى شيـــخ الفلاسفة فى هذا العصر لنعرف إلى أى حد وصلت حالة معظم الرعية فى هذا الزمان .

يقول أبو حيان فى رسالة وجهها إلى ابى الوفاء المهندس يصـــور فيها بؤسه وفاقته ويطلب فيها معونته :

" خلصنى أيها الرجل من التكفف أنقذنى من لبس الفقر أطلقـــنى من قيد الضر ، اشترنى بالاحسان ، اكفنى مئونة الغداء والعشـــاء .. إلى متى الكُسَيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع ؟ .

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بح الحلق ، وتغير الخلق ، الله الله فى أمرى ، أجبرنى فاننى مكسور ، اسقنى فاننى صد أغثنى فاننى ملهوف[1] .

هذه الحياة الكئيبة التى سيطرت على الناس فى هذه الحقبة قـــد

---

(١) الإمتاع والمؤانسة حـ ٣ ص ٢٢٦ .

نتجت شعرا غنائيا حزينا لعله أروع ما قيل من الشعر في هذا العصر لأنه يمتاز بالصدق والأصالة والتعبير عما يختلج في النفس من مرارة وما يضطرب في القلب من حزن وكآبة ..

إنه شعر إنساني عالمي خالد طالما بقى على وجه الأرض ظلم واستغلال وفقر وحرمان .

ذلك لأن المعاني التي تناولها هذا الشعر معان مشتركة في كل زمان ومكان ، لأنها تعبر عن مشاعر الطبقة المغلوبة أصدق تعبير ..

لقد أكثر شعراء هذه الحقبة من وصف البؤس والحرمان وتصوير مظاهر الفقر والفاقة ، وعبروا عن آلامهم وأحزانهم في صدق واخلاص ..

ولكنهم في ثورتهم ونقمتهم وسخطتهم تجاهلوا السبب المباشر في تعاستهم وهو ظلم الحكام .. الذين استأثروا بطيبات الدنيا دونهم ، وتركوهم فريسة سهلة للفقر والجهل والمرض ، فصبوا جام غضبهم على الزمن والدهر والدنيا وحركة الكواكب والأفلاك لأنهم كانوا أعجز من أن يواجهوا الحكام بحقيقة آلامهم وبؤسهم .

ولعل الشاعر محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصرى كان من أكثر شعراء اليتيمة نقمة على الزمن وسخطا على الدهر لاغداقه على الحمقى والجهال وتحامله على أمثاله من العقلاء العلماء الأفاضل .. وقد قال عنه الثعالبي :ـ

" كانت حرفة الأدب تمسه وتجشمه ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ونفسه ترفعه ودهره يضعه (١) .

وقد روى له شعرا كثيرا يفيض حزنا ومرارة ، ويقطر لوعة وأسى .. ومن ذلك قوله يندب حظه ويُحَمِّلُ الدهرَ مسئولية تعاسته :

إِنْ أَصْبَحَتْ هِمَمِى فى ٱلأُفْـقِ عاليـةً
فإِنَّ حَظِّـى بِبَطْنِ ٱلأَرْضِ مُلْتَصِـقُ
كم يفعل الدهـرُ بى مالا أُسَرُّ بــه
وكم يُسِيءُ زمـان جائـرٌ حَنِـقُ
كم نفخة لـى على الايام من ضَجَـر
تكادُ من حَرِّها الأَيامُ تَحْـتَرِقُ (٢)

وقوله فى موضع آخر :

جارَ الزمانُ علينـا فى تَصَرُّفِـه
وأى دهرٍ علـى الأحرارِ لم يَجُرِ
عِنْدِى من الدَّهْـرِ ما لَوْ أَنَّ أَيْسَـرَهُ
يُلْقَـى عَلَى ٱلْفَلَكِ الدَّوَّارِ لَـمْ يَـدُرِ (٣)

....

ولقد كان ابن لنكك يرى عن قصد أو عن جهل أن الزمن هو السبب المباشر فى تعاسته ونحسه فصب عليه جام غضبه وسلط عليه سهام حقده وهجاه هجاء مرا كقوله :

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) نفسه حـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٣) نفسه حـ ٢ ص ٣٢٢ .

نَحْنُ واللهِ فى زمانٍ غشـومٍ
لو رأيناه فى المنامِ فزعنا
يُصْبِحُ النّاسُ فيه من سوءِ حالٍ
حق من مات منهم أن يُهنا (١)

• • •

وفى مقطوعة أخرى يسخر من الزمن ويتهمه بالجنون ويصفه بالجهل والطيش والعبث فيقول :

يا زماناً ألبسَ الأحرارَ ذلاً ومهانة * لستَ عندي بزمانٍ إنما أنتَ زمانة
كيف ترجو منك خيراً والعلا فيك مهانة * أجنونٌ ما نراهُ منك يبدو أم مجانة (٢)

• • • •

وكما هجا زمانه ، وحنق عليه ، صب لعنته على الناس جميعا ولم يسلم من لسانه الوجهاء والشعراء والعامة لأنهم مسئولون جميعا عن بؤسه وتعاسته وعدم احترامه وتقديم غيره عليه .

ومن ذلك قوله يهجو وجوه بلدته ورؤساءها ويصفهم بالجهل والحمق ويصمهم باللؤم والضعة ..

لُعِنْتُمْ جميعاً مِنْ وُجوهِ لِبلدةٍ
تكنفكم جهلٌ ولؤمٌ فأفرطا

---

(١) اليتيمة حـ ٢ ص ٣٢٢ .
(٢) نفسه حـ ٢ ص ٣٢١ .

أراكم تعيشون اللئام وإنني
أراكم بطرق اللؤم أهدى من القطا [(١)]

ثم يشنع عليهم ويرميهم بأقبح الصفات في قوله :

مضى الأحرار وانقرضوا وبادوا
وخلفني الزمان على علوج
وقالوا قد لزمت البيت جدا
فقلت لفقد فائدة الخروج
لمن ألقى إذا أبصرت فيهم
قرودا راكبين على السروج
زمان عز فيه الجود حتى
تعالى الجود في أعلى البروج [(٢)]

....

أما الشعراء فقد كان يرى نفسه أفضل منهم وأحق منهم بالرزق الوافر والحياة الكريمة .. فثار عليهم وهجاهم هجاء مرا خاصة أولئك الذين أوتوا حظا من الغنى والنعيم وبعد الصيت كالمتنبي وأبي رياش وأبي اللهذام وغيرهم .

وقد روى له الثعالبي شعرا كثيرا في هجاء هؤلاء وغيرهم من شعراء عصره ..

كقوله عن المتنبي :

---

(١) اليتيمة جـ ١ ص ٣٢٤ .
(٢) نفسه جـ ٢ ص ٣٢٣ .

قُولَا لِأَهْلِ زَمَانٍ لا خَلَاقَ لَهُم
ضَلُّوا عَنِ الرُّشْدِ مِنْ جَهْلٍ بِهِمْ وَعَمُوا

أَعْطَيْتُمُ الْمُتَنَبِّى فَوْقَ مُنْيَتِهِ
فَزَوَّجُوهُ بِرَغْمٍ أُمَّهَاتِكُمُ

لَكِنْ بَغْدَادَ جَادَ الْغَيْثُ سَاكِنَهَا
نِعَالُهُمْ فِى قَفَا السَّقَّاءِ تَزْدَحِمُ (١)

...

أما هجاؤه لأبى رياش وأبى اللهذام والرملى وغيرهم فهو هجاء فاحش قبيح يعف القلم عن كتابته واللسان عن روايته ..

ولم يسلم من لسانه أحد حتى العامة والسوقة فقال فيهم :

لا تَخْدَعَنْكَ اللُّحَى ولا الصُّوَرُ
تِسْعَةُ أَعْشَارِ مَنْ تَرَى بَقَرُ

تَرَاهُمُ كَالسَّحَابِ مُنْتَشِرًا
وَلَيْسَ فِيهِمْ لِطَالِبٍ مَطَرُ

فِى شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمُ مَثَلٌ
لَهُ رُوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ (٢)

...

ولا شك أن شعور ابن لنكك بالظلم واحساسه بالمرارة وسوء الحظ الذى لازمه .. مع وفور عقله وسعة علمه كانت السبب المباشر فى نقمته وثورته على الزمان وتبرمه بأهله فصب جام حقده عليهم جميعا .

---

(١) نفسه ج ١ ص ١٠٠ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٣ .

أما ابنه ابراهيم — وكان شاعرا مثله — فقد ورث عنه الفشل والإخفاق والتعاسة والشعور بالحقد والمرارة .. نصب نقمته على أهل عصره كأبيه ..

واذا كان ابن لنكك قد زعم أن تسعة أعشار الناس بقر .. فإن ابنه ابراهيم قد وصل بتلك النسبة إلى نتيجتها الطبيعية وهي درجة الكمال فزعم أنهم جميعا بقر .. ودعا إلى الانتفاع بهم في حرث الأرض واستخراج ما في بطونها من كنوز مدفونة فقال :

لا تَصلحُ الأرضُ ولا تَستوِى * إلَّا بِكُمْ يا بَقَرَ العالَمِ
مَنْ قالَ لِلْحَرثِ خُلِقْتُمْ فَلَمْ * يَكْذِبْ عليكُم . لا ولَمْ يأثَمِ
ما أنتُمُ عارٌ علَى آدَمَ * لِأنكُمْ غيرُ بنِي آدَمَ(1)

* * *

وإذا كان ابن لنكك وابنه قد سخطا على الأوضاع الفاسدة في إقليم العراق فان لهما نظيرين آخرين في إقليم فارس فهناك في أقصى الشرق من بلاد فارس عرف محمد بن عبد العزيز الطوسي بالبؤس والتعاسة والشعور بالظلم والحرمان والاحساس بالفشل والمرارة .

وقد روى الثعالبي له قصيدة طويلة تربى على أربعمائة بيت في وصف حاله وعدم استقراره وثورته على الأوضاع وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات يقول في مطلعها :

---

(1) اليتيمة جـ ٢ ص ٣٢٣ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي بَخْتُ * ولا ثياب يضمها تختُ
سِيَّان بَيْتِي لِمَنْ تأمّلهُ * والمَهْمَهُ الصَّحْصَانُ والمَرْتُ
أَمِنْتُ في بَيْتِي اللُّصُوصَ فما * لِلِّصِّ فيه فَوْقُ ولا تَحْتُ
فمنزلي مُطْبَقٌ بلا حَرَسٍ * صفر من الصفر حيثما درتُ
إبريقي الكوز إن غسلتُ يدي * والطين سُعْدَى وداري الطَّسْتُ

• • • •

وبعد أن صور بؤسه في هذه المقدمة أخذ يتحدث عن سوء طالعه ويذكر تنقله في المذاهب والحرف والبلدان دون جدوى فيقول :

سلكتُ في مذهب التصوف تنمي
سًا فكم للذيول قصّرتُ
سوّيتُ سجادةً بيومٍ وأحفيـ
ـتُ سبالًا قد كنتُ طولتُ
وفي مقام الخليل قُمْتُ كما
قامَ لأني به تبرّكتُ
وقُلتُ إنيَ أحرمتُ من بلدي
وفي حرامي إنْ كُنْتُ أحرمتُ
ثم كنت المعطوف حتى بتدبيـ
ـري بين الرؤوس ألفتُ
حتى إذا رمتُ عرسي على
بغل عكست المُنى وطلّقتُ

وفى منقى مـــن التراب فكم
دَرَّيتُه مـــرةً وغُرْ بِلْــــتُ
يا ليتَ شِعْرِى لمّا بَدا يُقَسِّم الأرْ
زاقَ فى أىِّ مَطْبَـقٍ كُنْـتُ
والحمدُ لِلّــهِ قاسمُ الرزقِ فى الخَلْ
ـقِ كما اخْتارَ لا كَمَــا اخْترْتُ[1]

• • •

ولا شك أن هذه القصيدة كانت تحفة أدبية قيمة ووثيقة اجتماعيــة طريفة والأبيات التى رواها الثعالبى منها تؤكد ذلك فلا عجب أن يقــول عن صاحبها إنه كان أحد شياطين الإنس ..

وإذا كان هذا الشاعر قد حمد الله مقسم الأرزاق على الرغم من بؤسه وتعاسته وسوء حظه فإن لدته أبا الحسن محمدا الافريقى — المقيم باقليم فارس أيضا — قد سخط على الأوضاع وتبرم بالخلـــق والخالق والعياذ بالله تعالى وقال قصيدة طويلة تدل على ضعــف إيمانه ورقة دينه ، وتكشف عن وساوسه وشكوكه .

وهو يعلن فيها أنه سوف لا يصلى لله أبدا ما دام فقيرا لا يملك فترا من الأرض .. فإن وسع الله عليه فى الرزق وأصبح غنيا فلا بــأس أن يصلى ويتوب وكأن الفقر وسوء الحال كانا سببا فى فساد عقيدتـــه

(١) اليتيمة حـ ٣ ص ٣٩٠ .

وسوء أدبه وهى قصيدة كلها ثورة وتمرد • ولولا •• دلالتها الاجتماعية لما ذكرتها فى هذا المقام ••

يقول فيها — وأستغفر الله من كتابتها :

تَلُومُ على تَرْكِ الصَّلاةِ حَلِيلَتِي
فقلتُ اغْرُبِى عن نَاظِرِى أنْتِ طَالِقُ

فواللهِ لا صَلَّيْتُ للهِ مُفْلِسًا
يُصَلِّى لهُ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَفَائِقُ

وتاشُ ومكتاشُ وكنباشُ بعده
ونصرُ بن مَلْك والشيوخُ البطارقُ

وصاحبُ جيشِ المشرقين الذى لهُ
سَرَادِيبُ مال حَشْوُهَا مُتَضَايِقُ

ولا عَجَبٌ إِنْ كَانَ نُوحٌ مُصَلِّيًا
لأَنَّ له قَسْرًا تَدِينُ الْمَشَارِقُ

لِمَاذَا أُصَلِّى ؟ أَيْنَ بَاعِى وَمَنْزِلِى
وأيْنَ خُيُولِى والْحُلَى والْمَنَاطِقُ

وأين عَبِيدِى كالبدورِ وجوهُهُمْ
وأين جوارِىَّ الحسانُ العواتِقُ

أصلى ولا فِتْرٌ من الأرضِ يَحْتَوِى
عَلَيْهِ يَمِينِى إِنَّنِى لَمُنَافِقُ

تَرَكْتُ صَلاتِى لِلَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ
فَمَنْ عَابَ فِعْلِى فَهْوَ أَحْمَقُ مَائِقُ

بَلَى إِنْ عَلَى اللهِ وَسَمْحٌ لَمْ أَزَلْ
أُصَلِّي لَهُ مَا لَاحَ فِي الْجَوِّ بَارِقُ
فَإِنَّ صَلَاةَ السَّيِّءِ الْحَالِ كُلَّهَا
مَخَارِقُ لَيْسَتْ تَحْتَهُنَّ حَقَائِقُ (١)

....

ومهما يكن من أمر فقد كان للظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقى ، وفقدان العدالة الاجتماعية وسوء توزيع الدخل أثرها المباشر فى ظهور أدب الحرمان الذى يصور جانبا هاما من جوانب الحياة الاجتماعية فى اقليمى فارس والعراق فى هذا العصر ..

(تم بحمد الله)

* * *

---

(١) اليتيمة جـ ٤ ص ١٤٦ .

:: الخاتمـــــة ::

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانـــا الله ، أحمده – تعالى – على ما أولانى من جميل آلائه ، وأشكره على ما واتانى من جزيل نعمائه ، وأصلى وأسلم على أكرم خلقه ، وخاتم رسله ، وأمينه على وحيه ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه ، إلى يوم الدين " وبعـــد .

فهذه دراسة للحالة الاجتماعية فى العراق وفارس فى القـــرن الرابع الهجرى وأثرها فى أدب اليتيمة للثعالبى " أتقدم بها إلى كليـــة اللغة العربية العريقة ، سائلا المولى – جل وعلا – أن تحظى بالقبـــول لدى أعضاء اللجنة الموقرة .

ولقد كان من أسباب اختيارى لهذا الموضوع ، أن دراسة الحالـة الاجتماعية لأية بيئة أو مجتمع تعكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة أو ذلك المجتمع .. ولهذا عمدت إلى دراسة الحالة الاجتماعية فى القرن الرابع لأن هذه الحقبة من أزهى عصور الدولة العباسية ، وأكثرها حضـارة غير أننى اقتصرت على إقليمى العراق وفارس لأنهما كانا يمثلان قلـــب الدولة العباسية فى ذلك العصر .

ولقد قمت من خلال تلك الدراسة بتسجيل الوقائع ، والظواهـــر الاجتماعية تسجيلا شاملا .. حتى أتمكن من اعطاء صورة واضحة عن طبيعة هذين الإقليمين فى القرن الرابع ..

ولما كان الأدب فى جملته يُعَدُّ ظِلاً لأحوال المجتمع فى أية بيئة أو عصر تعرفت إلى أثر الحياة الاجتماعية فى هذين الإقليمين على أدب " اليتيمة " لأنها تمثل أدب القرن الرابع الهجرى كما أثبت ذلك فى دراستى لهـا ..

ولقد سرت فى تلك الدراسة على خطة منهجية واضحة حيث قسمت الموضوع إلى أربعة أبواب رئيسة ، يشتمل كل باب منها على خمسة فصول فتمت فصول هذا البحث عشرين فصلا ..

وقد تحدثت فى الباب الأول عن " المجتمعين العراقى والفارسى فى القرن الرابع " وقسمت حديثى فيه إلى خمسة فصول ..

الفصل الأول : أفردته للعناصر البشرية التى يتألف منها المجتمع العراقى الفارسى ـ آنذاك ـ تلك العناصر التى تكونت من امتزاج العرب والفرس والترك والرقيق ، فتحدثت عن الصراع بين هذه العناصر من أجل النفوذ والسلطة والسيطرة على الخلفاء ، وذكرت جانبا من الحروب والصراعات التى قامت بينها ، والتى كانت سببا مباشرا فى ارهاق الدولة ، واستنزاف مواردها الاقتصادية ، ثم بينت أثر هذه العناصر فى الحياة الاجتماعية وتوصلت من وراء ذلك الى نتيجة هامة : هى " أن العرب كانوا مغلوبين على أمرهم فى هذه البلاد ، ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ، ووقفوا موقفا معاديا للفساد ، والزندقة ، والإلحاد ، والشعوبية التى كانت تشكل خطرا كبيرا على العرب والمسلمين .

أما الفرس فقد كان لهم تأثير فعال في الحياة الاجتماعية تجلى في بناء القصور ، والمساجد وزخرفتها بفاخر الأثاث والرياش ، كما تجلى في إحياء مجالس الطرب والغناء ، وفي تنوع أدوات الطعام والشراب وفي تلوين ملابس الرجال والنساء وفي إحياء بعض العادات الفارسية الدارسة ، وكان للترك تأثير سيء في الحياة الاجتماعية حيث كثرت في عهدهم الفوضى ، والاضطرابات ، ومصادرة الأموال ، والعبث بمصالح الرعية ..

أما الرقيق فكان أثره لا يقل سوءا عن أثر الترك ، فقد أدى التوسع في اقتناء الجوارى إلى انتشار الفساد في المجتمع ، وضعف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض الجوارى بالخلاعة والمجون ، والانحراف عن تعاليم الإسلام ، ومبادئه القويمة ..

وبسبب اقتناء الغلمان ، وانتشارهم ظهر لون جديد في الأدب العربي لم يكن معروفا من قبل وهو الغزل بالمذكر

* * *

وأفردت الفصل الثاني للحديث عن " الطبقات الاجتماعية " وذكرت أن المجتمع في ذلك الحين كان ينقسم إلى طبقتين جد متباينتين :

إحداهما تحيا في ترف وبذخ ، ولهو ولعب ، وهي طبقة الحكام من خلفاء ، وأمراء ، ووزراء ..

على حين تعيش الأخرى فى فقر مدقع ، وبؤس شديد ، وهى طبقة المحكومين من تجار ، وصناع ، وزراع ، وبعض العلماء والأدباء

ولقد كان لهذا التفاوت الطبقى أسوأ الاثر فى الحياة الاجتماعية فقد عَمَّ الجهل والمرض ، وانتشر الفقر والبؤس ، وشاعت الفوضى واللصوصية وراج السحر والدجل والشعوذة بين أفراد الطبقات الدنيا فى المجتمع أما الاغنياء فقد شاع بينهم الانحلال والفساد ، وكثر الفسق والمجون بسبب الترف الفاحش والفراغ القاتل ، والقلق المميت ..

وبالاضافة الى هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لترف الحكام بعض الآثار الحضارية النافعة مثل : الاكثار من بناء المساجد والقصور ، والتفنن فى صناعة الخز والديباج ، والبراعة فى عمل الزرابى والسجاد ، والنقش على الذهب والفضة وذلك كله يُعَدُّ مظهرا من مظاهر التقدم والرقى فى ذلك العصر .

* * *

وفى الفصل الثالث تحدثت عن الطوائف الدينية فى فارس والعراق وهى : الشيعة ، وأهل السنة ، وأهل الذمة ، والصابئة .

فتكلمت بالتفصيل عن الشيعة ، وأهل السنة وصورت جانبا من الصراع المذهبى بينهما فى القرن الرابع وبينت أثره فى الحياتين الاجتماعية والإقتصادية .

ثم تحدثت عن أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وذكرت أنهم كانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، كما كانت تربطهم بالمسلمين أوثق الروابط الاجتماعية في القرن الرابع.

وكان لديارات النصارى المنتشرة في فارس والعراق أسوأ الأثر في حياة المجتمع حيث كانت مقصدا لأهل البطالة ، وموطنا لذوي الخلاعة ومأوى لأرباب الفسق والمجون بما كان يوجد فيها من خمور معتقة وجوار حسان ، وغلمان مخنثين ..

أما الصابئة فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية ، وإلى سرية تعاليمهم من ناحية أخرى..

* * *

وفي الفصل الرابع تحدثت عن " الأعياد والمواسم والمواكب " فتكلمت بإسهاب عن أعياد المسلمين ومواكبهم ، وأعياد الفرس ومواسمهم وأعياد أهل الذمة ودياراتهم ، وبينت أثر ذلك كله في الحياة الاجتماعية وانتهيت إلى نتائج هامة أجملها فيما يلي :

أولا : كان لهذه الاحتفالات المتجددة على مدار السنة آثار اقتصادية ضارة حيث كانت تنفق فيها أموال طائلة يتحمل عبئها الطبقات الكادحة مما أدى إلى انتشار الهوس والتخلف في المجتمع ..

ثانيا : وإلى جانب ذلك كان لهذه الاعياد والمواسم بعض الآثـــار الحضارية النافعة ٠

ذلك أن التقاء المسلمين فى شتى المناسبات كان له أثر واضح فى تعارفهم واتحادهم ، كما كان للصدقات ـ التى كان الاغنياء ينفقونها على فقراء المسلمين طوال شهر رمضان المبارك وكثرة لحوم الأضاحى التى كانوا يوزعونها على المساكين فى عيد الاضحى ـ أكبر الأثر فـــى اسعاد هذه الطبقات الكادحة وتخفيف حدة الفقر لديهم وفضلا عن ذلك كان لإشراف الحكومة المركزية فى بغداد على موكب الحاج أثره فـــى تعظيم حرمات الله ، واحلال الأمن فى ربوع البلاد والمحافظة علـــى هيبة المسلمين ورفع شأنهم بين الأمم ٠

* * *

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الغناء والموسيقى ، وذكرت أطوارهما التاريخية عند العرب منذ الجاهلية وحتى العصر العباســـى ثم تحدثت عن الغناء فى العصر العباسى وشرحت أسباب رقيه وازدهاره وبينت أثر ذلك فى الحياة الاجتماعية ، وتوصلت من وراء ذلك إلى أن انتشار الغناء بين المجتمع العباسى كان له أسوأ الأثر على الاخلاق العامـــة حيث كانت الجوارى المغنيات يظهرن أمام الرجال ، ويغنين غالبا بشعر ماجن خليع مما أشاع الفسوق والانحلال فى المجتمع كما كان لهذه الموجة

من الغناء آثار سيئة على الخلفاء أنفسهم حيث كانوا ينصرفون إلى عالـم اللهو والطرب ، ويتركون أمور الرعية لغيرهم فضاعت مكانتهم، وتضعضـع نفوذهم وخضعوا لسيطرة الموالى من الترك والفرس ..

وإلى جانب ذلك كان للغناء والموسيقى أثر لا ينكر فى ألفاظ الشعر ومعانيه ، وأوزانه وموسيقاه ..

* * *

أما الباب الثانى فقد خصصته للحديث عن " أبى منصـــور الثعالبى وكتابه اليتيمة " وقسمته إلى خمسة فصول على نحو ما فعلت فى الباب الأول ..

وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن " نشأة الثعالبى وأخلاقه ومكانته بين أدباء عصره " وذكرت أنه ولد فى مدينة نَيْسَابُورَ سنة خمســون وثلاثمائة بعد الهجرة باتفاق المؤرخين .. وتكلمت عن أسرته ، وصناعتها ومكانتها الاجتماعية ، ورجحت بالأدلة أنها كانت أسرة فارسية معربة ، ثم تحدثت عن حياة الثعالبى الأولى وتنقله فى الحرف والأعمال ، واقبالـه على طلب العلم والدراسة كما تحدثت عن صفاته وأخلاقه ، وأمانته العلميـة ومكانته الأدبية ثم سردت آراء المؤرخين فى تاريخ وفاته ورجحت أنهـــا كانت سنة تسع وعشرين وأربعمائة بعد الهجرة وذلك عكس ما ذهب اليـه كثير من المؤرخين من أن وفاته كانت سنة ثلاثين وأربعمائة هجرية .

* * *

وفى الفصل الثانى تحدثت عن " ثقافته ومؤلفاته " فتكلمت عن مصادر إلهامه ، وأساتذته ، وبينت أثر ذلك فى تكوينه العلمى ، وتنوع ثقافته .

ثم تعرضت لآثاره ومؤلفاته ، واستطعت أن أجمع أسماءها من بطون الكتب ، وأمهات المراجع ، وهى كثيرة ومتنوعة تربو على المائة وقد أشرت إلى أن معظم هذه النفائس قد ضاع مع الزمن وأصبح أثرا بعد عين والذى سلم منها يشهد للرجل بالتفوق ، والنبوغ وقد بينت أن بعض كتبه التى نشرت مستقلة ، هى فى حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة ، كما ذكرت أن بعض كتبه قد ذكرت مكررة بأسماء مختلفة لمسمى واحد ، وأوضحت أن بعض المؤرخين قد نسبوا لأبى منصور كتبا ليست له ، وبعضهم قد نسب بعض كتبه إلى غيره ، وقد بينت ذلك كله بالتفصيل والدراسة المدعومة بالبراهين .

* * *

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " اليتيمة " وذكرت السبب فى هذه التسمية ، ورجحت أن يكون الثعالبى قصد من وراء ذلك إلى أن كتابه كالدرة اليتيمة التى تميزت بكثير من الخصائص والصفات فهو فريد فى بابه لا نظير له فى كتب الأدب والتراجم ..

وقمت بعد ذلك بالتعريف بها ، وبيان نوعها ، وأثبت بالأدلة أنها كتاب : أدب ، ونقد ، وتراجم ، وتاريخ ، وحضارة .. وبينت

الغرض من تأليفها وهو : حرص الثعالبى على تدوين محاسن أهل عصره فى ديوان يخلد آثارهم ويحفظها من الضياع ..

ثم تكلمت عن منهجه فيها ، وخصائصه ، وبينت أنه منهج مستقيم فى جملته حيث قسم الشعراء على أساس الأقاليم بل على أساس المدن إيمانا منه بأثر البيئة فى النتاج الأدبى ، وبذلك كان أول من طبق نظرية الاقليمية فى الادب تطبيقا عمليا ، وان كان الصواب قد جانبه فى بعض الأحيان حينما وضع شعراء الشام ومصر ، والمغرب ، والاندلس فى باب واحد مع اختلاف البيئات ، وتباعد الأقاليم .

* * *

وقد تحدثت فى الفصل الرابع عن أمرين يتعلقان "باليتيمة" :

أحدهما : مدى تمثيل اليتيمة لأدب القرن الرابع الهجرى .

وثانيهما : تأثرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها هى فى اللاحقة .

وذكرت فيما يتعلق بالامر الأول أن أبا منصور استطاع أن يترجم فى يتيمته لخمسة وثلاثين وأربعمائة شاعر وكاتب من أنحاء العالم الإسلامى — آنذاك — وأن يخلد تاريخهم ، ويحفظ آثارهم من الضياع كما أشرت إلى أن دواوين الشعراء التى وصلت إلينا من ذلك العصر محدودة جدا ! ومعظم الشعراء الذين خلدهم الثعالبى فى يتيمته لم تصلنا دواوينهم ولولا اليتيمة لما عرفنا شيئا عنهم ، ولما سمعنا حتى عن أسمائهم ، وبناء على ذلك خرجت بنتيجة اطمأن إليها قلبى واستراح لها فؤادى وهى :

أن اليتيمة تمثل أدب القرن الرابع الهجرى وأنها تعد صورة صادقة للحياة الأدبية والاجتماعية فى ذلك العصر .

* * *

أما فيما يتعلق بالأمر الثانى من هذا الفصل فقد ذكرت أن الثعالبى ليس مبتكرا لهذه الطريقة فى التأليف . وهى التى تعنى بأدباء عصر من العصور ، وتدوين آثارهم ، فقد سبقه إلى ذلك بعض المؤلفين فى هذا الفن أمثال : محمد بن سلام الجُمَحِىّ فى كتابه " طبقات الشعراء " وابن قتيبة فى كتابه " الشعر والشعراء " وهارون بن على المنجم فى كتابه " البارع فى أخبار الشعراء ، وعبد الله بن المعتز فى كتابه " طبقات الشعراء المحدثين " .

أما الكتب التى ألفت بعد اليتيمة وتأثرت بها وحذت حذوها فأهمها ما يلى :

١ — دمية القصر ، وعصرة أهل العصر " لأبى الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ .

٢ — " وشاح الدمية " لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

٣ — " زينة الدهر ، فى لطائف شعراء العصر " لأبى المعالى سعد ابن على الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ

٤ _ " خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر " للعماد الكاتب الاصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ .

وما زالت هذه السلسلة تتوالى على مر العصور ، وتعاقب السنين حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة .. أما القرن الرابع عشر الذى فيه فلم يؤلف فيه كتاب على غرار السلسلة السابقة وغاية ما ألف فيه : مجاميع اقتصرت على شعراء قطر واحد قلما تتعداه إلى قطر سواه .

* * *

وأما الفصل الخامس فقد خصصته ، لآراء النقاد فى اليتيمة ، وذكرت أن النقاد القدامى منذ عصر الثعالبى وحتى مطلع القرن الرابع عشر بعد الهجرة _ الذى نحن فيه _ قد أجمعوا على أن كتاب اليتيمة أكبر كتب الثعالبى حجما ، وأجلها قدرا ، وأعظمها نفعا وأشادوا بها إشادة بالغة فهى التى أتاحت لصاحبها هذه الشهرة الواسعة ، وجعلت حديثه سمر الأدباء على مر العصور .

أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب اليتيمة بالدراسة والتحليل فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين . فأظهروا آراءهم فيها بكل وضوح .. وسأتعرض هنا لسرد آرائهم بايجاز ثم أقوم بمناقشتها والرد عليها :

ومن أشهرهم الدكتور : زكى مبارك فى كتابه " النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى .. فقد أثنى على الثعالبى فى اليتيمة ثناء عطرا ..

ولكنه أخذ عليه فيها : الإسراف فى إطراء من يتحدث عنهم من الشعراء والكتاب ، وإغفاله لتواريخ الوفيات ..

وقد قمت بمناقشة هذا الرأى والرد عليه فذكرت أن سبب اطرائه للأدباء يرجع إلى شخصية الثعالبى وطبيعة تكوينه فقد كان الرجل شديد التواضع ، عظيم الحياء . كثير المجاملة وعلى الرغم من ذلك كان حريصا على إيضاح خصائص من يترجم لهم من الأدباء ـ مع اطرائه لهم ـ وأما اغفاله للوفيات أحيانا ـ فقد كان الرجل يركز على المختارات الأدبية الجيدة قبل أن يركز على تفاصيل حياة المترجم لهم وكان ينظر إلى اليتيمة على أنها كتاب أدب لا كتاب تاريخ ..

أما الدكتور : طه حسين فى تقديمه لكتاب " الذخيرة " لابن بسام فقد عقد موازنة بين ابن بسام والثعالبى .. واعترف بفضل الثعالبى على ابن بسام فى المنهج والطريقة والأسلوب .. ولكنه بعد ذلك تحامل على الثعالبى وفضل عليه ابن بسام لانه ـ أى ابن بسام ـ كان أفقه من الثعالبى بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم وما ينتج فيه من أدب فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين فى الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر .

ونسى الدكتور طه : أن الثعالبى كان أسبق من ابن بسام فى هذا الأمر .. والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء العراق لقرب أهل الشام من خطط العرب وسلامة ألسنهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط .. فهو قد فطن إلى

ما كان من اختلاط أهل العراق بالعجم وأثر ذلك فى نتاجهم الأدبى
وما كان ابن بسام إلا مقلدا له فى تلك الناحية ..

ويعيب الأستاذ : أحمد أمين على الثعالبى " فى ظهر الإسلام "
احتفاله بالبديع اللفظى أكثر من عنايته بالتحليل النفسى .

وليت شعرى كيف يطالب الاستاذ أحمد أمين الثعالبى فى القرن
الرابع الهجرى أن يتبع منهج التحليل النفسى فى دراسته للشخصيات
الأدبية مع أن هذا المنهج الفلسفى لم يعرف إلا فى العصر الحديث .

ويرى الأستاذ : الصاوى فى تقديمه لليتيمة أن الثعالبى فى
مختاراته الشعرية قد أفرط كثيرا فى الفحش والمجون .

وأنا وان كنت أعتقد أن الثعالبى قد أفرط حقيقة فى هذا الأمر
كما يقول الاستاذ : الصاوى أرى أنه كان ناقلا أمينا لتراث عصره ،
ومسجلا صادقا لظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل المجون كما فعل غيره من
كتاب عصره لكان كتابه ناقصا مبتورا لا يمثل عصره أصدق تمثيل ..

أما شيخنا المرحوم الشيخ محى الدين عبد الحميد فى تقديمه
لليتيمة أيضا فيعيب على الثعالبى : العصبية لشعراء الشام وتفضيلهم على
سائر شعراء الأقاليم ، والعصبية للشعراء من الملوك والحكام ، والثناء
عليهم أوفر الثناء ..

وأنا • أعتقد أن الثعالبى كان محقا فى تفضيله شعراء الشام على غيرهم لأنهم حافظوا على طريقة العرب القدامى فى قرض الشعر من الجزالة فى الأسلوب والفخامة فى التركيب والبعد عن الفحش والمجون والإشادة بالبطولة فى الحروب والمحافظة على الوزن والقافية ..

وأما عصبيته للشعراء من الحكام فأنا مع أستاذنا الشيخ محى الدين فى أن هذا عيب كبير لأن الثعالبى قد أفرط فى مجاملتهم ومدحهم والثناء عليهم أوفر الثناء •

والكتاب بعد ذلك كله يعد أفضل مصدر لدراسة الحالة الاجتماعية والأدبية فى القرن الرابع الهجرى • ولا يقاربه فى هذه الناحية أثر أدبى آخر ..

* * *

وفى الباب الثالث تحدثت عن " آثار الاجناس البشرية • والطوائف الدينية فى أدب اليتيمة .. وقسمته إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى البابين الأول والثانى ..

وقد أفردت الفصل الاول منه للحديث عن " الروح الفارسية وأثرها فى أدب اليتيمة .. فتكلمت عن الفرس من بنى بويه • واستيلائهم على فارس والعراق فى القرن الرابع • وصورت جانبا من استبدادهم وطغيانهم • وسيطرتهم على الخلفاء • وتطاولهم على العرب وتفشيهم عاداتهم وتقاليدهم

وشرهم الطقوس الفارسية الدارسة ، وصبغهم المجتمع بصبغة فارسية خالصة ..

ثم بينت أثر ذلك كله فى أدب تلك الحقبة وتوصلت إلى أن الدارس لكتاب " اليتيمة " الذى ألف فى ذلك العصر يلمس فيه أثر الروح الفارسية بكل الوضوح .

يلمسه فى هذا الملق المبالغ فيه فى شعر المديح والرثاء ويجده فى هذا الغلو الفاحش فى تمجيد الملوك وتقديس الحكام وفى الاكثار من شعر التهانى بالأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان ويحس به فى هذه الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التى انتشرت فى شعر اليتيمة .

ويشعر به أخيرا فى هذه الأمثال الفارسية المعربة التى تعبر عن أفكار الفرس ، وتصور نفسياتهم وأخلاقهم أصدق تصوير .

* * *

وتحدثت فى الفصل الثانى عن " أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة " وذكرت أن بعض العرب الذين عاشوا فى العراق وفارس آنذاك قد تمردوا على الفرس ، وتبرموا بعاداتهم ، وتقاليدهم ، وتمسكوا بعروبتهم وتعصبوا لبنى جنسهم ، ورفضوا فى اصرار هذه الحياة الناعمة الماجنة فى ظل السيطرة الفارسية ..

ومن هؤلاء الثائرين شاعر عربى غيور هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى الملقب بالشريف الرضى الذى عاش فى بغداد فى القرن

الرابع الهجرى وآلمه ما صار اليه أمر العرب فى تلك البلاد على أيدى الفرس ، فراح يعتز بعروبته ، ويتغنى بمآثر آبائه وأجداده ، ويشهد بما كان لهم من عزة ومجادة ..

وقد تجلت الروح العربية عند الشريف فى ضيقه بالحياة البغدادية وتبرمه بالسيطرة الفارسية ، وارتسمت على سفح شعره فى التهنئة لوالده بالاعياد الإسلامية ، وفى شكوى الدهر ، والتمرد على الأوضاع القائمة ..

وكان شعره فى أكثر أغراضه يعبر عما يجيش فى صدور العرب من آلام وأحزان ، وما يختلج فى نفوسهم من آمال وأحلام ..

ولم يكن الشريف الرضى — وحده — هو الشاعر الذى يعبر عن الروح العربية فى هذه البلاد .. وإنما كان مثله فى ذلك أخوه أبو القاسم على بن الحسين الملقب بالشريف المُرْتَضَى الذى كان كأخيه الرَضِىّ يشعر بالغربة فى المجتمع العراقى ، ويحن دائما إلى منبت الآباء والاجداد فى الجزيرة ، ويتحرق شوقا إلى مواطنهم الغالية وكان كأخيه الرضى يعشق البدويات ويشبب بهن فى شعره ، ويفضلهن على العراقيات والفارسيات اللاتى أفسدتهن الحضارة وسيطرت عليهن الروح الفارسية .. وعبر عن ذلك كله فى شعره أصدق تعبير .

وإذا ما تركنا اقليم العراق وذهبنا الى فارس وجدنا هناك فى أقصى الشرق .. أديبا عربيا مسلما تصدى بقلمه للدفاع عن العروبة والسخرية من عادات الفرس وتقاليدهم ذلكم الأديب هو بديع الزمان

الهمذانى .. الذى كتب رسالة طويلة فى معنى "السَّذَقْ" نقلهـــا الثعالبى فى اليتيمة وقد جاء فيها :

" إن عهد الوقود لعيد إفك ، وإن شعار النار لشعار شرك ، وما أنزل الله "بالسذق" سلطانا ، ولا شرف نَيْرُوزًا ولا مِهْرَجَانًا وإنما صب الله سيوف العرب على رؤوس العجم لما كره من أديانها ، وسخط من نيرانها ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت أفعالهم (١) "

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الأصوات الحرة الثائرة . صدى للثورة العربية المضادة للروح الفارسية التى سيطرت علـــى المجتمعين العراقى والفارسى آنذاك وكادت تصبغه بصبغة فارسيـــة خالصة ..

* * *

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن "الرقيق وآثاره فـى أدب اليتيمة" فتكلمت بالتفصيل عن الرقيق وتجارته وأنواعه ، وأعماله، وتهافت الناس على شرائه ، وأثره فى الحياة الإجتماعية والسياسية .

ثم بينت أثره فى أدب اليتيمة ، وذكرت أن ذلك الأثر قد تجلى فى كثرة المقطوعات الشعرية التى قيلت فى وصف الجوارى ، والتغنى بجمالهن والتغزل فيهن غزلا عفيفا وغير عفيف ..

---

(١) اليتيمة (٢٤ ، ٢٥)

ثم تعرضت لظاهرة الغزل بالمذكر . فتحدثت عن أصل هذا الداء ، وبينت أسبابه .. وموقف الشعراء منه منذ عصر أبى نواس ، وحتى القرن الرابع وتوصلت إلى أمر هام وهو أن الغزل بالمذكر يبدو كثيرا فى اليتيمة مع أن معظم المقطوعات الشعرية التى تحمل سمات الغزل بالمذكر من حيث الشكل هى فى حقيقة الأمر ليست منه ، ذلك أن ضمائر المذكر أيسر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس ببعيد أن يكون هؤلاء الشعراء قد استخدموا ضمائر المذكر مع أنهم فى الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى معشوقات لا إلى معشوقين ، وتلك عادة قديمة فى الشعر العربى فقد كان الشعراء قديما يذكرون ليلى وسُلْمَى وسُعْدى وزينب وغيرهن من الأسماء الطيعة فى موازين الشعر العربى ، وإن كانوا يقصدون أشخاصا غيرهن .

وقديما قال البحترى :

وَسَمَّيْتُهَا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبَا
وكَمْ سَتَرَتْ حُبًّا عَنِ النَّاسِ زَيْنَبُ

ثم قمت بتقسيم الشعراء فى ذلك العصر إلى صنفين : صنف كان ماجنا خليعا ، وهؤلاء كانوا يتغزلون بالمذكر غزلا حقيقيا مقصودا مصدره العبث ودافعه الانحلال والشذوذ ، ومن هؤلاء الواسانى ، وابن لنكك وابن حجاج ، وابن سكرة ، وغيرهم من ذوى السيرة المعفنة ..

وصنف آخر كان يطرق هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة ويتخذ منه وسيلة للتصرف فى فنون القول وترويض الذهن على الإجادة ، وكان شعرهم فى هذا الباب ضربا من الدعابة والتسلية ، ولونا من ألوان

الترف الفكرى والعقلى .. أكثر منه مغامرات حقيقية مصدرها العبث والمجون وهؤلاء كانوا كثيرين وكان معظمهم من الحكام والعلماء والقضاة وضربت الأمثلة على ذلك كله من أدب " اليتيمة " شعرا ونثرا ..

* * *

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن " أثر التشيع فى أدب اليتيمة " فتحدثت عن جماعة الشيعة فى ذلك العصر ، وعلاقتهم بالحكام من بنى بويه وصورت جانبا من الصراع المذهبى بينهم وبين أهل السنة ثم تكلمت بالتفصيل عن أدبائهم فى فارس والعراق أمثال : الصاحب والخوارزمى وأبى بكر الخالدى ، والخباز البلدى وغيرهم وضربت الأمثلة على تشيعهم من أدب اليتيمة ، وانتهيت من تلك الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولا : أن الثعالبى قد تجاهل كثيرا من الأدب الشيعى فى عصره ولم يسجله فى يتيمته حتى ينأى بنفسه عن الصراع المذهبى الذى اشتد أواره فى ذلك العصر بين الشيعة وأهل السنة . خاصة أنه قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية وهى سنية ، وشطرا آخر فى ظلال الدولة الغزنوية وهى سنية كذلك/ فكان طبعيا أن يتجنب التورط فى مثل هذه المسائل حتى لا يقع تحت طائلة العقاب من حكامه السنيين .

ثانيا : كان البكاء والتحسر على ما أصاب أهل البيت من محن ومصائب على يد بنى أمية وبنى العباس سمة بارزة من سمات الأدب الشيعى من الناحية الموضوعية .

ثالثا : امتاز الأدب الشيعي بسهولة الألفاظ ، ووضوح العبارات وسلامة الحجة ، والبعد عن التكلف والغموض ، كما خلا ـ أو كاد ـ من المحسنات البديعية ، والصور البيانية ، والخيال المجنح .

وذلك راجع إلى صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، والدفاع عن الحق بالأدلة والبراهين المنطقية .

* * *

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن "أهل الذمة وأثرهم في أدب " اليتيمة " فتكلمت عن اليهود والنصارى في فارس والعراق ، ومكانتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالمسلمين ، وبيان أثرهم في أدب اليتيمة ، وانتهيت إلى النتيجة الآتية :

لقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين في ذلك العصر أثر واضح في أدب اليتيمة فكثرت فيها المقطوعات الشعرية ، التي تصور عاداتهم وتقاليدهم ، أو تصف دياراتهم ومعابدهم ، أو تعكس العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين ، ولقد ضربت الأمثلة على ذلك من أدب اليتيمة .

أما أثر اليهود في الحياة الاجتماعية والادبية فقد كان محدودا إذا قيس بأثر النصارى ، ويندر أن نجد شاعرا عربيا وصف بيعهم ومعابدهم أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، وأغلب الظن أن ذلك راجع

إلى عزلة اليهود وانطوائهم ، وسرية تعاليمهم ، وخوفهم من النـــاس والتعالى عليهم ، وذلك عكس ما كان عليه النصارى ..

* * *

أما الباب الرابع والاخير فقد تحدثت فيه عن " التفاوت الطبقى فى المجتمع وأثره فى أدب اليتيمة ..

وقمت بتقسيمه إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى الأبـواب الثلاثة السابقة ..

وقد أفردت الفصل الأول منه " لطبقة الحكام وأثرها فى الأدب " فتكلمت باسهاب عن مراكز الأدب فى فارس والعراق ـ آنذاك ـ وجهـود الحكام فى خدمة الأدب ،وتشجيع الأدباء ، وتوصلت من وراء ذلك إلى النتائج الآتية :

أولا : لم تعد بغداد فى ذلك العصر هى العاصمة الوحيدة الـتى تهفو إليها قلوب الأدباء كما كانت عليه طوال القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة ، بل زاحمتها وطغت عليها عواصم أخرى كالرى ، وشيراز ، ونيسابور .

ثانيا : لقد تنافس الحكام فى هذه الحواضر تنافسا عجيبا فى تشجيع الأدباء والحدب عليهم ، ولم يكن مرجع ذلك فى رأيـــى

هو حب العلم للعلم ، أو اكرام الادباء للادب ذاته ، وانما كان مرجعه ـ بالاضافة إلى ذلك ـ هو : حاجة هؤلاء الحكام إلى الأدباء في السلم والحرب وطمعهم في القصائد الشاردات التى تعلى قدرهم ، وترفع شأنهم ، وإلى الرسائل البليغة التى تنوب عن الكتائب فى عرك أديم العاصى واستصلاح أمره وهذا هو السر فى اسناد المناصب الإدارية الكبرى فى فارس والعراق إلى كبار الكتاب ، وفحول الشعراء ، أمثال : ابن العميد والصاحب والمهلبى ، والصابى ، وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم .

ثالثا : لقد فتح أمراء بنى بويه ووزراؤهم فى فارس والعراق قصورهم للأدباء ، وحولوها إلى مراكز للثقافة والمعرفة فأقبل الأدباء عليهم من كل صوب ، وأخذوا يتنافسون فى الإجادة والابداع ، فازدهرت الحركة الأدبية من أجل ذلك ازدهارا لم تعرفه هذه البلاد من قبل ولا من بعد ، وكثر عدد الشعراء والكتاب كثرة بالغة ، يشهد بذلك كتاب "اليتيمة" الذى ألف فى ذلك العصر والذى أرخ لمعظم أدباء تلك الحقبة .

* * *

وأفردت الفصل الثانى للحديث عن "ترف الحكام وأثره فى أدب اليتيمة" فتحدثت بإسهاب عن هذا الترف ، وبينت صوره ومظاهره ، وشرحت أسبابه ونتائجه ، واستشهدت على ذلك بأمثلة تاريخية وأدبية ثم تكلمت عن أثر الترف فى أدب اليتيمة من حيث الشكل والمضمون ودعمت ذلك بنصوص شعرية ونثرية لأدباء اليتيمة المترفين .. وتوصلت من وراء ذلك إلى نتيجة هامة وهى :

أن ترف الحكام فى فارس والعراق ، وتأنقهم فى طعامهم وشرابهم وسائر أمورهم . قد انعكس أثره فى آدابهم ، وظهر بصورة واضحة فى وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام والشراب ، وأنواع الفاكهة والحلوى وما تقع عليه أعينهم من مظاهر الحضارة .. كما كان لذلك الترف فى المعيشة أثره الواضح فى التأنق فى الأسلوب والزخرفة اللفظية ، والإكثار من الصور البيانية ، والجنوح إلى المبالغة .

وأخيرا كان للتكلف فى أساليب المعيشة بين الطبقة المترفة أثره الواضح فى رواج أدب الأخوانيات ، والجرى وراء المظاهر الكاذبة خاضعين فى ذلك لظروف حياتهم الاجتماعية ، ومستجيبين لمؤثراتها ودواعيها

* * *

وفى الفصل الثالث تحدثت عن الغناء وأثره فى أدب اليتيمة " ، فشرحت أسباب رقيه ، وعوامل ازدهاره فى فارس ، والعراق وبينت بأسهاب آثاره فى أدب اليتيمة ، واستشهدت على ذلك بكثير من الأمثلة الشعرية والنثرية ، وتوصلت من وراء تلك الدراسة إلى نتيجة هامة . وهى : أن انتشار الغناء وازدهاره فى ذلك العصر كان له أثر واضح فى أدب اليتيمة تجلى فى وصف مجالس الغناء والطرب وتصوير أدوات الموسيقى وآلاتها ، والحديث عن المغنين والمغنيات ، كما تجلى فى نمو مقطوعات الشعر الغنائى ، وتعددها فى اليتيمة وفضلا عن ذلك كان له أثره الواضح فى ألفاظ الشعر ومعانيه وموسيقاه الداخلية والخارجية ، حيث حرص الشعراء

على اختيار ألفاظهم وتنقيتها من الشوائب ، فجاءت غاية فى رقة الأسلوب ، وجمال العبارة وجودة المعنى ، وحسن الجرس ، وروعة النغم ..

كما عزفوا عن البحور الطويلة التى تصلح للموضوعات الجادة ، وعمدوا إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة والمولدة التى تصلح للغناء إرضاء لأذواق المغنين والمستمعين على حد سواء .

* * *

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن " المجون وأثره فى أدب اليتيمة " فتكلمت عن ظاهرة المجون ، وذكرت أطوارها فى المجتمع العربى وبينت أسبابها ودوافعها ، وعوامل انتشارها فى القرن الرابع وأوضحت آثارها الاجتماعية والخلقية .

ثم تحدثت عن أثر المجون فى أدب اليتيمة ، واستشهدت على ذلك بالعديد من الأمثلة الشعرية والنثرية .. وقمت بتقسيم المجون الى نوعين :

أحدهما : مباح لا يؤذى المشاعر ، ولا يخدش الحياء وهو كثير فى أدب المترفين من الأدباء كابن العميد ، والصاحب ، والمهلبى .. وهؤلاء كانوا لا يقصدون من ورائه الا الدعابة والتسلية ، وتزجية وقت الفراغ .

وأما الآخر : فهو فاحش بذىء يندى له الجبين ، وتقشعر منه الأبدان وهو ذلك الذى يقوم على وصف العورات والسوءات

والمفاحش والمقاذر .. وهذا اللون من المجون اشتهر به شاعران من شعراء العراق فى القرن الرابع لم يدانيهما فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حجاج ، وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمى وقد خرجت من تلك الدراسة بالنتائج الآتية :

أولا : أن التفاوت الطبقى فى المجتمع وسوء توزيع الدخل بين الطبقات كان من أهم العوامل التى أدت إلى انتشار المجون واستفحال أمره فى المجتمع لان الفراغ القاتل يدفع الأغنياء إلى العبث وكثرة الأموال فى أيديهم تجوهم نحو الفساد ، كما أن الفقر المدقع قد ينزل بأصحابه إلى درجة التضحية بالكرامة فى سبيل القوت .

ثانيا : لا ينبغى أن نعيب الثعالبى على تسجيل تلك النماذج الفاحشة من الشعر والنثر فى كتابه لأنه كان ناقلا أمينا لأحداث عصره ومسجلا صادقا لظواهره الإجتماعية .. فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون ..

ثالثا : أن ابن حجاج وابن سكرة حينما جرفهما تيار المجون إنما كانا خاضعين لظروف خارجية ، وعوامل اجتماعية واقتصادية بالاضافة إلى استعدادهما الشخصى للخوض فى ذلك المستنقع الآسن .. بدليل انتشار شعرهما لدى الخاصة والعامة . ورواج ذلك الشعر الداعر فى الأوساط الاجتماعية المختلفة أكبر دليل على فساد الأذواق وانحطاط الأخلاق وانحلال المجتمع فى ذلك العصر .

وأما الفصل الخامس والأخير فقد تحدثت فيه عن مظاهر الفقر والحرمان وأثرهما في أدب اليتيمة " فتكلمت عن ظاهرة الفقر في المجتمع وبينت أسبابها ودوافعها وتحدثت عن مظاهرها وانتشارها ،واستشهدت على ذلك بنصوص تاريخية وأدبية وذكرت أن هذه الظاهرة كان لهـا صدى في أدب اليتيمة تجلى في ظهور لونين من الأدب يمثلانها أصدق تمثيـل :

أحدهما : أدب الكدية والاستجداء أو "الادب الساساني " .

والثاني : أدب البؤس والحرمان والثورة على الأوضاع القائمة .

وسلطت الضوء على هذين اللونين وضربت عليها العديد من الأمثلة الشعرية والنثرية . وتوصلت من وراء ذلك إلى النتائج الآتية :

أولا : أن ظهور هذين اللونين من الأدب في فارس والعراق كان صدى مباشرا للتفاوت الطبقي ، والظلم الاجتماعي ، وسوء توزيع الدخل وفقدان العدالة الاجتماعية بين أفـراد المجتمع .

ثانيا : ان الأدب الساساني الذي ورد ذكره في اليتيمة في الأحنف العكبري ، وأبي دلف الخزرجي وابن حجاج ، وابن سكرة كان ملهما للبديع في عمل مقاماته الشهيرة .

ثالثا : ان قصيدة أبي دلف الخزرجي الرائية المعروفة بالقصيدة الساسانية تعد وثيقة تاريخية ، واجتماعية على درجة كبيرة من

الأهمية ، لدراسة حياة الشحاذين ، والمتسولين ، ومعرفة حيلهم ، وأساليبهم وبيان طرائقهم ، ووسائلهم ، في كسب الرزق ، كما أنها تُعَدُّ من أفضل المصادر التى كانت تلقى الضوء على أحوال العصر الاجتماعية ، ولا يقاربها في هذا الشأن أثر أدبى آخر ..

رابعا : بعد أن درست شخصية أبى دلف الخزرجى كما صورها الثعالبى في يتيمته ، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى كما رسمها الهمذانى فى مقاماته ، وجدت أن الشخصيتين متطابقتين تطابقا تاما ، وتوصلت إلى أن شخصية أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع ليست شخصية خيالية كما قرر ذلك معظم الباحثين ، وإنما هى شخصية حقيقية ، كان لها دور بارز في الحياة الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع ، وهى شخصية أبى دلف الخزرجى صديق الهمذانى ، وأستاذه ، واستشهدت على ذلك بالشواهد التى تؤكد هذا الرأى وتدعمه ..

وقد وجدت بعد هذا الكشف أن الاستاذ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى قد وصل إلى هذه الحقيقة .. لكننى لم أطلع على ما كتب الا بعد ما رأيت .

"وبعد " فلقد كان للجهد الجبار الذى بذله فضيلة الاستاذ الدكتور : عبد السلام سرحان المشرف على هذه الرسالة ، أكبر الاثر في اخراجها على هذه الصورة ..

فلقد عكف فضيلته على مراجعتها مثنى وثلاث ورباع .. وما زال يخلصها من العيوب ، وينقيها من الشوائب ، ويقوسها من الهنات حتى غدت للعين قرة ، وللنفس مسرة ، فجزاء الله عنى وعن طلابه خير الجزاء ..

ولا يفوتنى كذلك فى هذا المقام أن أتقدم بعظيم شكرى وامتنانى للاستاذين الفاضلين أعضاء اللجنة الموقرة :

١ ـ الاستاذ الدكتور :

٢ ـ والاستاذ الدكتور :

على قبولهما الاشتراك فى مناقشة هذه الرسالة ، وعلى ما انفقا من جهد فى قراءتها ، والحكم عليها ..

أسأل الله تعالى أن ينفعنى بأفكارهما السليمة ، وآرائهما السديدة وتوجيهاتهما الصائبة ..

" وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب "

الباحث

رمضان سنة ١٣٩٩هـ ـ أغسطس سنة ١٩٧٩م

" المصادر والمراجع "

أولا : المراجع العربية القديمة :

١ ـ ابن الاثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ "
" الكامل فى التاريخ " عشرة أجزاء (١٣٤٨هـ) .

٢ ـ ابن الأثير : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله محمد بن محمد الشيبانى
" المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " ط : النهضة بالفجالة ـ مصر سنة ١٩٥٧ .

٣ ـ ابن الانبارى : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ .
"نزهة الالبا ، فى طبقات الادبا " ط دار المعارف بمصر .

٤ ـ ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ
(الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ ـ ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون ابن الطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٥٥ هـ
" شرى الرقيق ، وتقليب العبيد " رسالة حققها عبد السلام هارون ونشرها ضمن مجموعة رسائل باسم " نوادر المخطوطات
ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م .

٦ ـ ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ
" النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة " ط : دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م .

٧ ـ ابن الجراح : محمد بن داود بن الجراح المتوفى سنة ٢٩٦ هـ
" الورقة فى أخبار الشعراء " ط : دار المعارف بمصر تحقيق : عبد الوهاب عزام .

٨ ـ ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧هـ
أ ـ " تلبيس ابليس " أو " نقد العلم والعلماء " ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة .
ب ـ " ذم الهوى " تحقيق مصطفى عبد الواحد ط : السعادة بمصر سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٣م .
جـ ـ " المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " ط : دار المعارف العثمانية .

٩ ـ ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى المتوفى سنة ٣٦٧هـ .
" صورة الأرض " ط بيروت .

١٠ ـ ابن خرداذية : أبى القاسم عبد الله بن عبد الله المتوفى سنة ٣٠٥هـ
" المسالك والممالك " ط . ليدن سنة ١٣٠٩ هـ .

١١ـ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨١ هـ ٠
"وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان" ط السعادة بمصر سنة ١٩٤١ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

١٢ـ ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠٩ هـ
"الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الاسلامية"
ط : المعارف بمصر سنة ١٩٢٣م وط : الموسوعات بباب الشعرية بمصر سنة ١٣٠٧ هـ ٠

١٣ـ ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى المتوفى سنة ٣٢٧هـ ٠
"العقد الفريد" ط : القاهرة سنة ١٩٤٠م ٠

١٤ـ ابن العبرى : غريغوريوس الملطى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ
"تاريخ مختصر الدول" ط بيروت ١٩٥٨م

١٥ـ ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ٠
"شذرات الذهب ، فى أخبار من ذهب" ٠

١٦ـ ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ
"الشعر والشعراء" ط ليدن سنة ١٩٠٢م

١٧ـ ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ ٠
"البداية والنهاية فى التاريخ" مطبعة كردستان مصر ٠

١٨ ـ ابن المعتز : عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد
المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ٠
"طبقات الشعراء" ط دار المعارف بمصر تحقيق : عبد
الستار أحمد فراج ٠

١٩ ـ ابن النديم : محمد بن اسحاق
" الفهرست " ط الاستقامة بمصر ٠

٢٠ ـ ابن الهبارية : نظام الدين أبو يعلى محمد بن أحمد العباسي
الهاشمي المتوفى سنة ٥٠٤ هـ ٠
" الصادح والباغم " تحقيق : عزت العطار ـ القاهرة
سنة ١٩٣٦م ٠

٢١ ـ أبو الفدا : اسماعيل بن على بن محمد المتوفى سنة ٧٣٢ هـ
" المختصر فى أخبار البشر " ط بيروت ٠

٢٢ ـ أبو نواس : الحسن بن هانى بن عبد الاول بن الصباح الحكمى
المتوفى سنة ١٩٨ هـ ٠
" ديوان أبى نواس "

٢٣ ـ أبو يوسف : القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب أبى حنيفة
" الخراج " ط بولاق بمصر سنة ١٣٠٢

٢٤ ـ الباخرزى : أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧هـ
" دمية القصر وعصرة أهل العصر " تحقيق سامى مكى
العانى ٠

٢٥ ـ البحترى : الوليد بن عبادة الطائى المتوفى سنة ٢٤٨ هـ
" ديوان البحترى " ط بيروت سنة ١٩٦٦ م .

٢٦ ـ البغدادى : عبد القادر بن عمر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣هـ
" خزانة الأدب ، ولب لباب العرب " ط . بولاق .

٢٧ ـ البلاذرى : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ
" فتوح البلدان " نشره رضوان محمد رضوان " ط المطبعة المصرية بالازهر بمصر سنة ١٣٥٠ .

٢٨ ـ البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٤٠ هـ
" الآثار الباقية عن القرون الخالية " تحقيق ادوارد سخاوية سنة ١٩٢٣م .

٢٩ ـ البيهقى : ابراهيم بن محمد المتوفى سنة ٣٢٠هـ .
" المحاسن والمساوئ " ط بيروت سنة ١٣٨٠ هـ

٣٠ ـ التنوخى : أبو على المحسن بن على القاضى التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤هـ
أ ـ " الفرج بعد الشدة " ط . دار الطباعة المحمدية ، القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ .
ب ـ "نشوار المحاضرة ، وأخبار المذاكرة" ط المعهد بدمشق .

٣١ ـ التوحيدى : أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ .
" الامتاع والمؤانسة " تحقيق: أحمد أمين ، وأحمد الزين ط : دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٣٢ ـ الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

أ ـ "التمثيل والمحاضرة" تحقيق عبد الفتاح الحلو ط. ط. الحلبى بمصر ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م .

ب ـ "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط. دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥م .

جـ ـ "فقه اللغة وسر العربية" ط الحلبى بمصر ١٣٧٥هـ ١٩٣٨م .

د ـ "الاقتباس" ط بغداد .

هـ ـ لطائف المعارف" تحقيق ابراهيم الابيارى ، وحسن كامل الصيرفى ط. دار احياء الكتاب العربى ـ القاهرة .

و ـ "من غاب عنه المطرب" ط بيروت ١٣٠٩ هـ

ز ـ "نثر النظم وحل العقد" المطبعة الادبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ

ح ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر" مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٤م .

ط ـ "يتيمة اليتيمة" أو "تتمة اليتيمة" ط طهران سنة ١٣٥٣ هـ نشر عباس اقبال .

٣٣ ـ الجاحظ : عمرو بن بحر بن محجوب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

أ ـ "البخلاء" تحقيق طه الحاجرى ط دار المعارف . القاهرة ـ ١٩٦٣م .

ب ـ " البيان والتبيين " تحقيق عبد السلام هارون ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٠م

جـ ـ " ثلاث رسائل للجاحظ " نشر يوشع فنكل ـ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٢ هـ

د ـ " الحيوان " تحقيق عبد السلام هارون ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠م ٠

هـ ـ " رسائل الجاحظ " ط ٠ التقدم ـ القاهرة سنة ١٢٣٤ هـ ٠

و ـ " التاج في أخلاق الملوك " تحقيق أحمد زكى باشا ٠ المطبعة الاميرية القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ

٣٤ ـ الجرجانى : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ٠

أ ـ " أسرار البلاغة " الطبعة الثالثة ٠

ب ـ " دلائل الاعجاز " مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ

٣٥ ـ الجرجانى : على بن عبد العزيز القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ٠

" الوساطة بين المتنبى وخصومه " ط الحلبى بمصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥١م

٣٦ ـ الجمحى : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ

" طبقات الشعراء " ط ليدن سنة ١٩١٣م ٠

٣٧ ـ حاجى خليفة (كاتب جلبى)

" كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون " ط السعادة بمصر

٣٨ ـ الحصرى : أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم الحصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ •

(زهر الآداب ، وثمر الالباب) تحقيق على محمد البخارى

ط الحلبى بمصر سنة ١٩٥٣ م •

٣٩ ـ الخطيب البغدادى : أبو بكر أحمد بن على المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

" تاريخ بغداد " ط • السعادة بمصر •

٤٠ ـ الذهبى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

" العبر فى خبر من غبر " ط الكويت ١٩٦٠م •

٤١ ـ الزوزنى : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزنى •

" شرح المعلقات السبع " مطبعة صبيح بمصر سنة ١٩٦٠م

٤٢ ـ السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى

" طبقات الشافعية الكبرى " ط الحسينية بمصر •

٤٣ ـ السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ " كتاب الانساب " ط ليدن ١٩١٢م •

٤٤ ـ السيوطى : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبى بكر المتوفى سنة ٩١١ هـ •

" تاريخ الخلفاء " تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد

ط السعادة بمصر •

٤٥ ـ الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ

" كتاب الديارات " تحقيق كوركيس عواد ط بغـــداد
سنة ١٩٦٦م .

٤٦ ـ الصابى : أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابـــى
المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .
أ ـ " تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء " جمعة ميخائيـــل
عواد ط بغداد سنة ١٣٦٧ هـ .
ب ـ " رسوم دار الخلافة " تحقيق ميخائيل عواد ط
بغداد سنة ١٣٦٧ هـ .
جـ ـ " الوزراء " تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط.
احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٨م .

٤٧ ـ الاصبهانى : عماد الدين محمد بن الكاتب الاصبهانى المتوفى سنة
٥٩٧ هـ .
" خريدة القصر ، وجريدة العصر " تحقيق عمر الدسوقى

٤٨ ـ الاصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين الاموى المتوفى سنة ٣٥٦هـ
" الأغانى " ط : دار الكتب وط . الساسى بمصر .

٤٩ ـ الصولى : أبو بكر محمد بن يحى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ .
" الأوراق " ط . الحلبى سنة ١٩٥٨م

٥٠ ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ هـ
" تاريخ الامم والملوك " ط الاستقامة بمصر .

٥١ ـ العباسى : عبد الرحيم بن أحمد العباسى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ
"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . ط السعادة بمصر

٥٢ ـ الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ٠
" احياء علوم الدين " ط الحلبي بمصر ٠

٥٣ ـ القلقشندي : أبو العباس أحمد القلقشندي ٠
" صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ط السعادة بمصر سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م ٠

٥٤ ـ الكازروني : ظهر الدين أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٦٩٧هـ
" مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية "
تحقيق : كوركيس عواد ، وميخائيل عواد ط الارشاد ٠ بغداد سنة ١٩٦٢م ٠

٥٥ ـ الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ
" فوات الوفيات " تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٠ السعادة بمصر سنة ١٩٥١ م ٠

٥٦ ـ كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ٠
" أدب النديم " ط بولاق بمصر ٠

٥٧ ـ المسعودي : أبو الحسن علي بن أبي الحسن بن علي المتوفى سنة ٣٤٦هـ
" مروج الذهب ، ومعادن الجوهر في التاريخ " المطبعة البهية ـ القاهرة سنة ١٩٣٨ م ٠

٥٨ ـ مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٥١ هـ ٠
" تجارب الامم " ط ليدن سنة ١٨٧٤م ٠

٥٩ — المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ .
" أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم " ط ليدن سنة ١٩٠٦م

٦٠ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ
" نهاية الارب فى فنون الأدب " ط دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٩٤٩ .

٦١ — الهمذانى : أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨هـ .
" مقامات الهمذانى " تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط المعاهد بمصر سنة ١٩٢٣م .

٦٢ — الوشاء : أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى المتوفى سنة ٣٢٥هـ
" الموشى " ١٩٦٥م .

٦٣ — اليافعى : أبو عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ .
" مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان " ط بيروت — الطبعة الأولى .

٦٤ — ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
" معجم البلدان " ط السعادة بمصر .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

١ - ابراهيم أبو الخشب (دكتور) .

"تاريخ الادب العربى فى العصر العباسى الثانى - ط دار الفكر العربى بمصر .

٢ - أحمد أحمد بدوى (دكتور)

أ - "القاضى الجرجانى" نوابغ الفكر العربى . ط دار المعارف بمصر .

ب - "عبد القاهر الجرجانى" - أعلام العرب - ط . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

٣ - أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى " الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ط دار المعارف بمصر .

٤ - أحمد أمين (دكتور)

أ - "فجر الاسلام" ط بيروت سنة ١٩٦٩م

ب - "ضحى الاسلام ط - مكتبة النهضة بمصر .

حـ - "ظهر الاسلام - ط بيروت .

٥ - أحمد الشعراوى "الادب العربى فى ظلال القوميات" ط - الازهر سنة ١٩٥٣م .

٦ - أحمد شلبى (دكتور)

"كيف تكتب بحثا أو رسالة" ط النهضة بمصر سنة ١٩٧٦

٧ - البارودى : محمود سامى البارودى .

"ديوان البارودى" مطبعة الجريدة بمصر .

٨ ـ بدوى طبانة (دكتور)
• " الصاحب بن عباد الوزير العالم " (أعلام العرب)

٩ ـ جورجى زيدان
أ ـ تاريخ آداب اللغة العربية " ط ـ الهلال بمصر سنة ١٩١٢م
ب ـ " تاريخ التمدن الاسلامى " الهلال بمصر سنة ١٩٣١م •

١٠ ـ حسن ابراهيم حسن (دكتور)
" تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى

١١ ـ الرافعى : مصطفى صادق الرافعى •
أ ـ " تاريخ آداب العرب " ط ـ الاستقامة ـ القاهرة
ب ـ حضارة العرب فى العصور الاسلامية الزاهرة ط ـ لبنان

١٢ ـ زكى مبارك " دكتور "
أ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى " ط دار الكتب المصرية •
ب ـ " جناية أحمد أمين على الادب العربى " ط ـ بيروت

١٣ ـ سيد قطب
" النقد الادبى أصوله ومناهجه ط الثانية سنة ١٩٥٤م

١٤ ـ سيد نوفل (دكتور)
" شعر الطبيعة فى الادب العربى " ط مصر سنة ١٩٤٥م

١٥ ـ شوقي ضيف (دكتور)

أ ـ "تاريخ الادب العربي ـ العصر العباسي الثاني " ط دار المعارف بمصر .

ب ـ " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " ط ـ دار المعارف بمصر .

جـ ـ " الفن ومذاهبه في النثر العربي " ط دار المعارف بمصر .

د ـ " المقامة " ط دار المعارف بمصر الطبعة الثانية

١٦ ـ شفيق جبري

" أبو الفرج الاصبهاني " نوابغ الفكر العربي ط ـ دار المعارف بمصر .

١٧ ـ طه حسين (دكتور)

أ ـ " حديث الاربعاء " ط ـ دار المعارف بمصر .

ب ـ " خصام ونقد " ط ـ بيروت .

١٨ ـ عبد السلام أبو النجا سرحان (دكتور)

"رشفات من رحيق الادب " الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م

١٩ ـ عبد الفتاح محمد الحلو "

" أبو منصور الثعالبي وآثاره الادبية " (رسالة ماجستير)

٢٠ ـ علي محمد موسى

" ثقافة الثعالبي وأثرها في نقده للمتنبي " (رسالة ماجستير) .

٢١ ـ محمد جمال سرور
" تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق "

٢٢ ـ محمد زغلول سلام (دكتور)
أ ـ " ابن قتيبة " ـ نوابغ الفكر العربى ط · دار المعارف بمصر ·
ب ـ "تاريخ النقد العربى " ط دار المعارف بمصر ·

٢٣ ـ محمد سرحان " دكتور "
" نسمات من عبير الادب " ط · دار الطباعة المحمدية بالازهر بالقاهرة ط الثانية ·

٢٤ ـ محمد عبد الجواد الاصمعى ·
" أبو الفرج الاصبهانى وكتابه الاغانى ط ـ دار المعارف بمصر ·

٢٥ ـ محمد عبد العزيز الكفراوى (دكتور)
أ ـ " تاريخ الشعر العربى جـ ٢ ، ٣ " مطبعة النهضة بمصر ·
ب ـ " الشعر العربى بين الجمود والتطور " مطبعة النهضة بمصر ·

٢٦ ـ محمد عبد المنعم خفاجه (دكتور)
أ ـ الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى ط ـ الازهر بمصر ·
ب ـ " دراسات فى تاريخ الادب العربى " بالاشتراك مع الدكتور عبد الرحمن عثمان ·

٢٧ - محمد كامل حسن (دكتور)
" فى أدب مصر الفاطمية " ط دار الفكر العربى بمصر

٢٨ - محمد مصطفى هداره (دكتور)
"اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى "
ط - دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

٢٩ - محمود غناوى الزهيرى
" الأدب فى ظل بنى بويه " ط الامانة بمصر .

٣٠ - مصطفى محمد الشكعة (دكتور)
أ - " فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين " ط - مكتبة الانجلو بمصر .
ب - " بديع الزمان الهمذانى " ط - مصر .

.....

ثالثا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١ ـ آدم متز " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى "
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، ط ـ لجنة
التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٧ .

٢ ـ براون : ادوارد جرانفيل براون
" تاريخ الادب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ،
ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربى ط ـ السعادة بمصر سنة
١٩٥٤ .

٣ ـ بنيامين : بنيامين بن يونه التطيلى الاندلسى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ
" رحلة بنيامين " ترجمها عن الاصل العبرى وعلق حواشيها
وكتب ملحقاتها عزرا حدار ـ الطبعة الشرقية ببغداد
سنة ١٣٦٤ هجريا .

٤ ـ زيغريد هونكه : " شمس العرب تسطع على الغرب " ط بيروت ،
ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى .

* * *

:: فهرس الموضوعات ::

الموضـــوع	الصفحـة

الموضــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع | الصفحـــة

الباب الرابـــع

" التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة"

* * *